

سيرة النبي^ص

محمد

تأليف: كارين أرمسترونج

ترجمة

د. محمد عناني

د. فاطمة نصر

١٩٩٨

هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب:

• MUHAMMAD
A BIOGRAPHY OF THE PROPHET

تأليف:

• KAREN ARMSTRONG

الصادر في سنة ١٩٩٢ عن:

HARPER COLLINS
PUBLISHERS,
10, East 53rd Street, New York, NY,
10022

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للناشر ©

شكر

يتقدم المترجمان بالشكر إلى المراجع الاستاذ عمر الشاوي وإلى فنى الكمبيوتر
الاستاذ عصام عيوى.

الفهرس

الصفحة

٥	محمد .. هذا الإنسان (مقدمة المترجمين)
١٥	مقدمة المؤلفه
٣١	الفصل الأول: العدو محمد
٧١	الفصل الثاني: محمد رجل الله
٨٥	الفصل الثالث: الجاهلية
١١٣	الفصل الرابع: الوحي
١٤١	الفصل الخامس: النذير
١٦٧	الفصل السادس: افتراق الطرق
٢٠١	الفصل السابع: الهجرة: قبة جديدة
٢٤٧	الفصل الثامن: الحرب المقدسة
٣١٣	الفصل التاسع: السلم المقدس
٣٧١	الفصل العاشر: وفاة الرسول
٣٩٤	هوامش الكتاب ومراجعته

obeikandi.com

محمد.. هذا الإنسان

«سيرة النبي محمد» كتاب من تأليف كاتبة غربية، موجه في الأساس إلى المتلقى الغربي من خلال الخطاب الذي يمكن أن يستوعبه ويستجيب له ذلك المتلقى المحتمل بموروثات وتصورات معادية للإسلام ولشخصية الرسول. وكارين آرمسترونج Karen Armstrong مؤلفة الكتاب كاتبة بريطانية، مجالها البحث في تاريخ الأديان. قضت آرمسترونج شقاً من حياتها راهبة، ويبدو أنها وجدت حياة الأديرة غير موائمة لتجديد رؤيتها الدينية الخاصة، فمن خلال كتاباتها المتعددة يتضح أنها تؤمن بأن الديانات التوحيدية الثلاث تحمل رسالة الحب والعدالة والسعادة للإنسان هنا على الأرض. ورغم ذلك اتخذت أكثر الصراعات والعداوات والحروب الدموية - الذين منطلقاً لها. وإزاء هذا كرست الكاتبة جهدها للدراسة المستنيرة والبحث الدهوب، والأسفار والاستماع للرأى والرأى المخالف، فى محاولة منها للوصول إلى جذور الظاهرة.

لم يقتصر سعى الكاتبة على محاولة التاصيل والفهم. فقد كرست جهودها فى سبيل «النضال» عن طريق الكلمة لمقاومة الشر السائد. ويمثل الجزء الأكبر من الشر السائد الآن ممارسات الغرب المستنير المهيمن ضد الشعوب والأفراد وما ينجم عن ذلك من معاناة وفُرقة وانكسار، وسيادة الأحقاد والكراهية والعنف. ومن كتاباتها، يتضح أيضاً، أنها تحققت من أن تلك الاحتاد دافعها المفاهيم المغلوطة والأساطير المختلفة، كما أنها أيضاً وراء ما يتبناه الغرب من مواقف إزاء «الأخر»، وفى حالتنا، فهذا «الأخر» هو الإسلام. تعتمد آرمسترونج تصحيح المفاهيم ودحض الأساطير بهدف نشر ما تعتقد أنه رسالة الأديان السماوية أى القبول والمحبة والوفاق.

وغالبا ما تتخذ أرمسترونج من حدث أو قضية - أى من واقع معاش يعكس معالجة الغرب المسيحي له رؤية مغلوطة وتحيزات أصلت لها الأساطير المتوارثة عن القرون الوسطى - منطلقا لكتابتها. وبما أن الغرب هو القوة المهيمنة اليوم، فالنتيجة هي زيادة المعاناة الإنسانية وتعميق الفجوة والقطيعة بين الإسلام والغرب. فاتخذت من ردود فعل المسلمين إزاء كتاب سلمان رشدي «آيات شيطانية»، ومن ترحيب الغرب المبالغ فيه بالكتاب وازدراجه لمشاعر المسلمين، منطلقا لكتابتها عن محمد. وبالمثل، كان الواقع المأساوى فى القدس (وفى فلسطين المحتلة بأكملها) هو منطلقها لكتابة دراستها الفذة بعنوان «القدس: مدينة واحدة وعقائد ثلاث».

الكتاب وأهميته:

كتاب «سيرة النبي محمد» هو دراسة قامت بها الكاتبة ونشرتها إبان موجة الكراهية والعداء للمسلمين والإسلام التى انفجرت فى الغرب بعد نشر «آيات شيطانية». أما حافظنا على ترجمة هذا الكتاب فليس هو الزهو بذلك الصوت الغربى المسيحي الذى حاول إنصاف محمد وقدم شهادة موضوعية عنه وعن الإسلام. فمحمد، والإسلام عقيدة ورؤية لن يضارا أو ينصفا بعداوة أو صداقة أحد. كما أن الكتاب لا يقدم معلومات جديدة عن حياة محمد، فالكتابة تعتمد بشكل أساسى على المعلومات التى تستقيها من ترجمات وسير النبي الأولى، كما أن الكتاب موجه بصفة رئيسية إلى القارئ الغربى وليس إلى القارئ العربى المسلم. فلماذا إذن حرصنا على ترجمته واختياره ليكون الكتاب الأول فى سلسلة كتب «سطور»؟

من وجهة نظرنا، فإن هذا الكتاب مثال لأسلوب الخطاب والتخاطب وسبل الإقناع، وذلك لأن الكاتبة تضع فى بؤرة شعورها نفسية ووجدان وأسلوب تفكير المتلقى وإحساسه بذاته، كما أن رؤية الكاتبة تبرهن على أن الكاتب لكى يقنع فعليه أولا أن يقتنع، والإنسان لن يقتنع، ولن تواتيه فرصة الرؤية الموضوعية إلا إذا خلص نفسه من المسلمات والتحيزات والأفكار المسبقة وجرّد نفسه من رواسب التنشئة، وعوائق اللاوعى الفردى والجماعى، كى

يصل لما يمكن أن يصل إليه من رؤية موضوعية. فالقارئ الغربي في غاليته مسيحى الحضارة والموروثات، عقلانى التوجه، أما تلك الموروثات العقائدية فقد أثرت في توجهاته الواعية واللاواعية، فإن كان بعض فقهاء الإسلام قد قسم العالم إلى «دار الإسلام» و «دار الحرب» فالغربيون في عمومهم - وبناء على ما توارثوه من أساطير - يتسمون العالم إلى دار حضارة وتقدم، أى الغرب، ودار جهالة وتخلف، ويأتى على رأسها العالم الإسلامى. غير أنهم، فى نفس الوقت، يستمدون إحاسهم بهويتهم من منطلق عقلانية فكرهم وإنسانية توجهاتهم. والكاتبة بعرضها لحياة محمد تين للغربيين أن كراهيتهم وعداءهم لمحمد وللإسلام والمسلمين ومرادفتهم لهم بالعنف والهمجية والتخلف والشهوانية يناقض ما يدعيه الغرب من عقلانية، ومن تاسم فكرى وعقائدى، وهى بوضعها يدها على هذا التناقض تهدم دفاعات القارئ الغربى، وتصيب زهوه بهويته العقلانية فى مقتل.

أما أسلوب كارين آرسترونج فى خطابها فهو أسلوب هادئ النبرة، دافئ، موضوعى وموثق، فتعرض فى الفصل الأول من هذا الكتاب، والمعنون «محمد العدو» لأسباب عداوة الغرب للإسلام مثلا فى شخص نبيه محمد، وتجليات تلك العداوة وأصولها والتهم التى كملت جزافا لمحمد وللإسلام، ثم تحولت إلى أساطير أصبحت لها مصداقية الحقائق التاريخية، وتُرجع الكاتبة تلك العداوة لأسبابها الحقيقية وهى الجهل والخوف. ثم تحدد تلك الاتهامات التى تلخص فى أن الإسلام دين جهالة، وأن محمداً مُدع مارق على المسيحية واليهودية، وأنه أيضا كان يسعى للكسب السياسى وتحقيق القوة وإرضاء شهواته، هذا بالإضافة إلى تصوير الإسلام على أنه دين وشريعة حرب، وأن الحرب هى الطريق الذى يسلكه للانتشار والانتصار. والكاتبة فى عرضها لقائمة الاتهامات تلك - التى يتخذها الغرب دوافع للكراهية والازدراء - تين تناقضاتها وجزافيتها، وتوضح أن دعائمها التى قامت عليها هى الجهالة والخوف.

ثم تعرض كارن آرمسترونج لحياة محمد كما أوردتها كتب السيرة. وفي نبذة عن تلك الكتب تبين الكاتبة أن محمدا والإسلام، هما الرسول الوحيد، والديانة الوحيدة اللذان تم التأريخ لهما في زمن مبكر، ثم تعرض وتحلل أساليب المؤرخين ومنهجهم في تقصي الحقائق وتبين كيف أنهم كانوا يتقلون بين الأقطار بحثا عن مصادر الروايات الشفهية، وأنهم بعد ذلك كانوا يقومون بتصفية تلك الروايات، ثم عرض ما يستوثقون من مصداقيته حتى ولو عنى ذلك عرضهم لما لا يتفق مع رؤيتهم الشخصية، وبعد ذلك يتركون للقارئ حرية اختيار الأصلح والأكثر مصداقية.

وفي سردها لحياة محمد، تبين أن الإله الذي دعا محمد إلى عبادته هو الإله الذي عبده إبراهيم ودعا إليه موسى وعيسى، أى أن الله ليس اسما لكيان اخترعه محمد، لكن معنى اللفظ هو الإله الواحد. وبعد ذلك تعدد الكاتبة، معتمدة على الموروثات وكتب السيرة، صفات محمد الشخصية التي عرفت عنه قبل البعثة، وما كان عليه من صدق وأمانة ودماثة خلق وتعاطف مع المهتمين من اليتامى والفقراء والعبيد والنساء، وأيضا ما كان عليه من روحانية وورع. وتمضى كارين آرمسترونج في محاولة منها لشرح ماهية الوحي وكيفية تلقي محمد له، مبيّنة أن محمداً لم يَسعَ إلى التجربة. وأنها قد أذهلته وأربكته في بادئ الأمر. ولكي تقرب مفهوم الوحي من ذهن القارئ الغربي تعقد المقارنة بين ما تلقاه محمد وما تلقاه الأنبياء السابقون، وخاصة موسى. وفي محاولة أخرى منها لتقريب المفهوم من ذهن قارئها، تتحدث عن الإلهام الشعري والوحي الفكري لتبين أن هناك ما لا يمكن شرحه عقليا مما يأتي به البشر. ثم توضح أن الوحي بالنسبة لمحمد كان تجسيدا «لكلمة الله» على لسان بشري وبلغة إنسانية، مثلما كان حمل مريم العذرى تلقيا لنفس الكلمة في صورة بشرية: إذا فمحمد واللغة من جهة، ومريم من جهة أخرى، هي الأشكال البشرية التي تجسدت فيها كلمة الله. وكان محمد ومريم في وضع الملقى البشرى لما هو مقدس. ثم تسرد الكاتبة أثر القرآن في إسلام الكثيرين عن كانت قلوبهم غُلُفاً من أهل مكة، وخاصة عمر بن

الخطاب، ثم تذهب لتشرح خاصية القرآن الروحانية والجمالية الفريدة والمتفردة، والتي مازالت تمارس نفس الأثر على جموع المسلمين، والتي لا يمكن للقارئ الغربي أن يلمسها من خلال الترجمات ومن خلال القراءات المتحيزة سلفاً، لأن القارئ الغربي تعود على الخطاب الحسى العقلانى.

وتعالج الكتابة أيضاً ما تعرض له محمد، وهو الإنسان البسيط، المرهف الحس، المهيض الجناح، هو والأقلية المستضعفة ممن آمنوا برسالته - من ارداء واضهاد، وأيضاً شجاعة مجابتهم عبثة مكة الذين ناصبوه العدا ببدافع الخوف والجهالة، ولا يخفى على القارئ فى هذا الصدد المقارنة الضمنية - والتي تطرح نفسها - بين دوافع الغرب وأسلوب معاداته للإسلام فى الماضى والحاضر، وبين موقف أهل مكة فى ذلك الزمن الحقيق.

ومن خلال سرد آرمسترونج لوقائع حياة الرسول فى المدينة ومحاولته إقامة مجتمع عدل وكفاية تبين أنه فى جوهره تحقيق للمشيئة الإلهية، وأيضاً من خلال عرضها لغزواته ومعاركه الحربية، تقدم الكتابة مفهوماً جديداً للجهاد يختلف عن مفهوم الدعاية الغربية المسمومة المحمومة. فخلافاً للمسيح، الذى قضى حياته مُبشراً مسالماً بالرسالة السماوية، خاض محمدٌ معارك إيجابية واعتارك مع الواقع ليردع الظلم ويدفع العدوان. أى أنه، وبلغة اليوم، قدم المثال على الفعل الإيجابى *affirmative action*، ذلك الأسلوب الذى يتبناه الغربيون اليوم لتحقيق العدالة ومقاومة المظالم والتحيزات. فحروب الإسلام كانت دفاعية، ورداً للعدوان، بالإضافة إلى كونها وسيلة لفرض «السلام الإسلامى *pax Islamica*» الذى أمكن فى ظله وقف حمامات الدم وإقامة مجتمع عادل أساسه القيم الرفيعة، إذا فالجهاد هو النضال المستمر ضد الذات وضد الآخر من أجل تحقيق الإرادة الإلهية والعمل على إسعاد البشرية. إذاً فالإسلام لم يتصر ولم يتشر عن طريق السيف ولم تكن الحرب وسيلة أو هدفاً له قط. وعلى عكس ذلك، فهو دين الاستمرارية مع الماضى، وعقيدة سلم وتسامح.

أيضاً، لم يكن محمد قط ذلك الفرد الشهواني الذي يصوره الغرب، وتبلور الكاتبة هذه الحقيقة في خطابها من خلال عرض لحياة محمد مع زوجته، فتبين أن علاقته بهن كانت علاقة محبة حميمة دافئة اليفة، وكان أيضاً يعدل بينهما قدر استطاعته البشرية، كما كان يستشيرهن في الأمور العامة والخاصة ويأخذ بما صلح من المشورة. ثم إن الكاتبة، وعن طريق أسلوب عرضها الدرامي لبعض المواقف الحياتية مع عائشة، تؤكد ذلك البعد الإنساني، وتقدم صورة تتوهج ألفة ومحبة. وبالإضافة إلى ذلك، تُقرر آرمسترونج أيضاً أن الحقوق التي حصلت عليها المرأة في الإسلام، والكيان الكريم الذي اكتسبته هما ثورة بجميع المقاييس. كما أن تشريع تعدد الزوجات جاء حداً للممارسات الشهوانية ولانتهاك المرأة الجسدي والاجتماعي وليس العكس. كما أنه أيضاً كان يخدم ظروفًا اجتماعية قائمة.

وفي فصلها الأخير، تعرض الكاتبة لوفاة محمد، كما أن الفصل لا يتوقف عند واقعة الوفاة. فتقدم مشهد مرض محمد ووفاته في حجر زوجته عائشة، مشهداً مفعماً بالأحاسيس التي تمس شغاف القلوب، غير أن ما تنقله لنا يؤكد على أن محمداً عاش ومات إنساناً مثل كل البشر، فقد ولد ضعيفاً يتيماً وغادر الحياة وهو يعاني من المرض يتلمس الحب والدفء الإنساني للذين منحتهما عائشة، لم يمّت محمد في ساحة القتال، أو في مقعد الملك والأبهة، وغادر الحياة يهدوء كما أتاها.

ذلك التأكيد، من قبل الكاتبة، على محمد الإنسان العادي، لا يستهدف فقط اختراق تحيزات القارئ الغربي واجتلاب مشاعر المودة والتعاطف، لكن أيضاً يبلور عبقرية محمد المتفردة ويكرم الإنسان في شخص محمد. إن إنجازات محمد في خلال السنوات الثلاث والعشرين الأخيرة من حياته، والتي تُبرهن الكاتبة على أنها ترقى لمرتبة الإعجاز البشري، لتأكيد على قيمة الإنسان وما يمكنه إنجازه إن هو أخلص لرسالته وآمن بها واتبع طريق الحق.

غير أن الكاتبة تُخصص الجزء الأكبر من فصلها الأخير لتبين أن المسلمين الأوائل، باتباعهم سبيل محمد، تمكنوا من الرقي والرفعة وأقاموا كياناً شامعاً

ساده التسامح والعدل والتعايش بين الأديان، مما حقق التقدم وخير البشرية. وتضيف أن عداوة أوروبا المسيحية بدأ حينما شعر الغربيون بتهديد لكيانهم وهويتهم. وبناء على ذلك، وعلى أسس من الجهل التام بالقرآن وبمحمد وبالإسلام بثوا سموم الكراهية واختلقوا الأساطير وخابضوا الحروب الوحشية المدمرة ضد المسلمين والإسلام، أى أنهم «نصروا» - إذا صح التعبير - تلك المخاوف والجهالات والأطماع والبسوها لباس الدين. وفيما بعد - وبعد سيادة العقلانية ونهضة الغرب - استمرت تلك الأساطير تحكم وجدانهم وتشكل توجهاتهم ومواقفهم، ودارت الدائرة، ووجد المسلمون أنفسهم فى مأزق دينى وحضارى لم يحاول تفهمه الغرب الذى يتخذ من العقلانية والتسامح والدعوة إلى الحرية والعدالة أساً حضارية لوجوده. وإزاء الازدراء والكراهية والظلم من جانب الغرب للمسلمين كره المسلمون الغرب، بل «أسلموا» تلك الكراهية. ومن خلال هذا المنطلق تحاول الكاتبة شرحاً لما يسمى بالأصولية الإسلامية.

وبعد ذلك تبين آرمسترونج كيف تجاوز شخص محمد - بالنسبة للمسلمين اليوم - الشخصية التاريخية له. أى أنه أصبح كل ما هو غالٍ وكرام ومقدس بالنسبة للمسلمين. أى أن أى امتهان لشخص الرسول هو امتهان لعقيدة المسلمين وتاريخهم وقيمهم وأسلوب حياتهم ووجودهم. وهذا يفسر الغضب والثورة اللذين قوبل بهما كتاب سلمان رشدى وتأييد الغرب وتبنيته وتكريمه للكتاب وكتابه.

تختتم الكاتبة رسالتها بقولها إن محمداً لم يُمت، فهو يعيش فى وجدان كل مسلم وفى أسلوب تفكيره وممارساته الحياتية اليومية، أى أن شخص محمد بالنسبة للمسلمين هو الهوية: الماضى والحاضر والمستقبل. ثم تنتهى بقولها إن محمداً أتى بالإسلام، والإسلام دين سلام ووفاق، وإنه لن يخفى أو يذوى أبداً، وإن بقاءه فى عتفوانه وقوته هو خير للبشرية، لأنه يدعو - كما دعا محمد - إلى إرساء قواعد الحب والعدل والسلام الإنسانى.

ترجمة الكتاب:

أما عن الترجمة فلا تقتصر على نقل الأفكار التي يكتبها كاتب من الكتاب بل تتجاوز ذلك، شاء المترجم أم أبى، إلى نقل أسلوب التفكير الذي يتجسد في الصياغة اللغوية. ومهما تكن براعة المترجم وخبرته، ومهما يبلغ حرصه على تفادي «عجاجة» الأسلوب، فإن طريقة التفكير المتجسدة في أسلوب الصياغة تسرب رغم أنه إلى النص المترجم. فطريقة التفكير بالإنجليزية ذات سمات من المحال تلافيها مثل أسلوب المقارنة (أفضل التفضيل) والتحرز في التعبير (كاستخدام «فيما يبدو» بكثرة) وندرة المحسنات التي اعتادها قارئ العربية ويتوقعها من كل كاتب عربي أصيل، إلى آخر ذلك مما يعرض له دارسو علم الترجمة أو فنون الترجمة. والمترجم لا يستطيع أن يتحاشى كل ذلك مهما حاول، ولذلك فهو - إلى حد ما - يترجم الأفكار وأسلوب التفكير معاً.

فإذا كان الكتاب الذي يتصدى المترجم لترجمته حافلاً بالعبارات المقتبسة من التراث العربي القديم، والتي تنتمي إلى ما يسمى باللغة التراثية، فقد تخرج ترجمته جامعة بين أسلوبين، الأول أسلوب الكاتب الأجنبي (وهو يترجمه إلى العربية المعاصرة) والثاني هو أسلوب المقتطفات الذي يشي باللغة التراثية، فهو مستقى من كتب السير والمغازي والتاريخ التي بعد العهد بها، وإزاء ذلك كان على المترجم أن يلتزم الحرص في الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، حفاظاً على سلامة الفكرة ووضوح المعنى.

وغنى عن البيان أن المقتطفات قد اقتبست كما هي حرفياً ودون تغيير، وأن الدقة روعيت في التحقق من صحتها، ومن نسبتها إلى قائلها، مع ذكر المصادر الأصلية، نشداناً للصدق التاريخي وتحريماً للأمانة. ولكن هذا الكتاب، على كل ما به من مقتطفات عربية، كتاب أجنبي، يمثل أفكاراً أجنبية ومنهجاً أجنبياً موجهاً إلى قارئ أجنبي. والكاتبة تؤكد ذلك في كل مكان حين تستخدم ضمير التكلم «نحن» وحين تتحدث عن ثقافتها الغربية التي نشأت في كنفها ونشأ قارئها المقصود في كنفها.

والمأمول أن يذكر القارئ ذلك وهو ينتقل من أسلوب إلى أسلوب
فكرة إلى فكرة، فالسياق يمثل إطاراً فكرياً أجنبياً، ويقدم وجهة نظر
عما درج عليه، وما أحرانا أن نعرف ما يقوله الآخرون، وكيف
أيضاً. ومهما يكن جهد المترجم في تجنب العجمة فلا بد أن تستجيب
لمحات من أسلوب الكاتب الأجنبي الأصلي.
والله من وراء القصد،،،

المترجمان

obeikandi.com

مقدمة المؤلفة

أصبح الدين من جديد قوة يُعمل لها حسابٌ ونحن نقرب من نهاية القرن العشرين، إذ شهيد صحوة واسعة الانتشار، ولم تكن لتدور بخلد الكثيرين في الخمسينيات والستينيات عندما كان العلمانيون يفترضون أن الدين خرافة بدائية تجاوزها الإنسان العقلاني المتحضر وتخطأها، بل إن البعض كان يتبأ بترات واثقة، بأن الدين فى الترع الأخير، وكان الكثيرون يعتبرون أن الدين لا يزيد، على أحسن الفروض، عن كونه نشاطاً فردياً لم يعد قادراً على التأثير فى الأحداث العالمية، ونحن ندرك الآن أن تلك النبوءة كانت كاذبة. فى البلدان التى كانت تنتمى إلى الاتحاد السوفيتى، والتى عاشت عقوداً طويلة فى ظل سيامة الإلحاد الرسمية، عاد الرجال والنساء إلى المطالبة بحقهم فى ممارسة شعائرهم الدينية. أما فى الغرب فقد رأينا أن من لم يكونوا يدون اهتماماً كبيراً بالعقيدة المذهبية التقليدية ومؤسسات الكنيسة، أصبحوا يظهرن وعياً جديداً بالحياة الروحية وحياة النفس الباطنة، ومن أشد المظاهر إثارة اليوم ما نشهده من تفجر نزعات التدين الجذرية التى تطلق عليها عادة صفة «الأصولية» فى معظم الأديان الرئيسية. وتعتبر تلك النزعة صورة من صور الإيمان الذى اكتسب طابعاً سياسياً حاداً، ويرى البعض أنها تمثل خطراً داهماً على السلم العالمى والسلم المدنى. ولا تملك الحكومات أن تتجاهلها وإلا تعرضت لأخطارها. وهكذا، وعلى نحو ما شهدناه كثيراً فى الماضى، أعقبت عصر التشكك والاسترابة فترة من الحماس الدينى الملتهب. والواقع أن الدين حاجة إنسانية ذات جذور عميقة لا يمكن التغاضى عنها أو إقصاؤها إلى الهوامش والحواشى، مهما تكن العقلانية ومهما يكن مستوى التقدم الذى وصل إليه مجتمعنا، وقد يُرحب البعض بعصر الإيمان الجديد الذى نشهده،

وقد يأسف له البعض الآخر، ولكنه من المحال أن يزعم أحد أن الدين لا علاقة له بالمشاغل الرئيسية في هذا القرن. فالغريزة الدينية ذات قوة عارمة ويمكن تسخيرها للخير وللشر، ومن ثم فيجب علينا أن نفهمها ونفحص مظاهرها فحصاً دقيقاً، لا في مجتمعنا فحسب؛ بل في الثقافات الأخرى أيضاً.

لقد تقلص حجم العالم إلى حد مذهل، فكشف لنا عن مدى ترابطنا المحتوم ولم نعد قادرين على اعتبار أنفسنا منفصلين عن غيرنا في المناطق النائية من الكرة الأرضية أو قادرين على أن نترك أبناءها لمصيرهم، بل نحن نحمل المسؤولية عن بعضنا البعض ونواجه أخطاراً مشتركة. كما أصبحنا قادرين على احترام الحضارات الأخرى وتقديرها، وهو ما لم يكن يخطر على بال أحد قبل هذا العصر. فبدأ الناس لأول مرة في شتى أرجاء العالم يستمدون الإلهام من أكثر من دين واحد، بل إن الكثيرين قد اعتقوا ديناً يتمي لثقافة أخرى. وهكذا نجد البوذية تنعم بازدهار كبير في الغرب، حيث كانت للمسيحية في يوم من الأيام اليد الطولى. وحتى في البلدان التي ظل الناس متمسكين بدين آبائهم فيها، وجدناهم يتأثرون أحياناً بتقاليد غيرهم. فكان السير سارفيالي روزاكريشنان (١٨٨٨ - ١٩٧٥) وهو الفيلسوف الهندوسى والسياسى العظيم، قد تلقى تعليمه في الكلية المسيحية في مدراس. وأثر تأثيراً قوياً في الفكر الدينى للناس في الشرق والغرب جميعاً. كما أن الفيلسوف اليهودى مارتن بوبر (١٨٧٨-١٩٦٥) قد كتب رسالته للدكتوراه عن اثنين من متصوفة المسيحية في العصور الوسطى، وهما نيكولاس القوصائى ومايستر إيكهارت، ولقد انكب المسيحيون على قراءة أعماله بحماس، وكان له تأثيره العميق في أفكارهم وحياتهم الروحية. والواقع أن اليهود لا يهتمون بأعمال بوبر اهتمام المسيحيين بها، ولكنهم لا شك يقرءون رجل اللاهوت البروتستانتى بول تيليش (١٨٨٦-١٩٦٥)، وصاحب الفكر الحديث هارفى كوكس. لقد بدأت حواجز المسافات الجغرافية تنهار، وكذلك حواجز العداوة والخوف، وهى التى كانت تفصل الأديان بعضها عن بعض، وتضع كلا منها فى غرفة محكمة الإغلاق.

وإذا كانت نسبة كبيرة من التعصب القديم لاتزال قائمة، فلإن ما ذكرناه يعتبر تطوراً يحمل الأمل فى طياته، فمن المظاهر التى تدعو للتفاؤل أن نرى علماء اليهودية والمسيحية يحاولون التوصل إلى تفاهم جديد، بعد قرون من عداة المسيحين للسامية. لقد بدأ الناس يدركون وحدة التجربة الدينية على أعمق مستوى بين أبناء البشر، ويتبينون أن التقاليد التى كنا «نحن» نؤدريها ذات يوم تستطيع أن تخاطب أحوالنا الراهنة وأن تبتث الحيوية من جديد فى حياتنا الروحية. وقد تترتب على ذلك آثار عميقة، فربما هجرنا إلى الأبد أسلوب النظر القديم إلى ديننا وثقافتنا أو أديان الآخرين وثقافتهم. ولقد شبه بعضهم التأثير المرجح لذلك بالثورة التى أحدثها العلم فى نظرة الرجال والنساء إلى الدنيا على امتداد العالم بأسره. ولاشك أن الكثيرين سوف يجدون فى هذا التطور تهديداً خطيراً، وسوف يقيمون المتاريس الجديدة التى تمنح «الأخر» من الوصول إليهم، ولكن البعض قد بدءوا يلمحون بالفعل آفاقاً أرحب، ويكتشفون أنهم يستطيعون للمثل الدينية العليا التى كان أسلافهم يولونها السخرية والازدراء.

لكنه يبدو، مع ذلك، أن أحد الأديان الكبرى لا يزال خارج دائرة النوايا الطيبة المذكورة، وأنه ما يزال يحتفظ بصورته السلبية فى الغرب على الأقل، فالذين شرعوا فى استلهم أديان مثل دين «الزُن» أو «الناوية» يندر أن ينظروا نفس النظرة المتعاطفة إلى الإسلام، مع أنه الدين الثالث لإبراهيم الخليل، وأقرب فى روحه إلى تراثنا اليهودى المسيحى، فلدينا فى الغرب تاريخ طويل من العداة للإسلام، ويبدو أنه راسخ الجذور مثل عداتنا للسامية، وهو العداة الذى شهد صحوة تدعو للقلق فى أوربا على مدى السنوات الأخيرة. ورغم ذلك كله، فلقد بدأ الكثيرون يشعرون، على الأقل، بالخوف من هذا التعصب القديم منذ وقوع المحرقة النازية. ولكن الكراهية القديمة للإسلام تُواصل ازدهارها على جاتى المحيط الأطلسى، ولم يعد يمنع الناس أى وازع عن مهاجمة ذلك الدين، حتى ولو كانوا لا يعرفون عنه إلا أقل القليل.

ولهذا العداة أسبابه المفهومة، لأنه لم يحدث - قبل ظهور الاتحاد السوفيتى فى القرن الحالى - أن واجه الغرب تحدياً مستمراً من دولة أو من

منهج فكري يوازى التحدى الذى واجهه من الإسلام. فعندما نشأت الإمبراطورية الإسلامية فى القرن السابع للميلاد، كانت أوروبا ماتزال منطقة متخلفة. وقد امتدت الفتوحات الإسلامية بسرعة إلى معظم بقاع العالم المسيحى فى الشرق الأوسط، وكذلك إلى الكنيسة المسيحية العظيمة فى شمال إفريقيا وهى التى كانت لها أهميتها الحيوية لكنيسة روما. وكان فى هذا النجاح الرائع خطر داهم يتهدد أبناد الغرب، إذ تساءلوا إذا ما كان الله قد تخلى عن المسيحيين وأبدى رضاه عن الكفار؟ بل إنه حتى حين خرجت أوروبا من ديانجير العصور المظلمة، وأنشأت حضارتها العظيمة، ظل الخوف القديم من استمرار توسع الإمبراطورية الإسلامية قائماً. كانت أوروبا عاجزة عن التأثير فى تلك الثقافة القوية والدينامية، وكان الفشل هو مآل المشروع الصليبي فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر، بل إن الأتراك العثمانيين لم يلبثوا أن جاءوا بالإسلام إلى عتبة دار أوروبا نفسها. وكان من الحال على المسيحيين الغربيين، بسبب هذا الخوف، أن يلتزموا العقلانية أو الموضوعية إزاء العقيدة الإسلامية. وفى الوقت الذى كانوا ينسجون فيه خيالاتهم المخيفة عن اليهود، كانوا يرسمون صورة شائنة للإسلام تعكس بواعث قلقهم الدفينة. كان علماء الغرب يهاجمون الإسلام باعتباره عقيدة تمجيد فى الدين ويصفون محمداً بأنه المدعى الأكبر، ويتهمونونه بأنه أنشأ ديناً يقوم على العنف، ويمتشق السيف لفتح العالم. وأصبح اسم محمد (الذى حُرِّف إلى ماهوميت) بمثابة البُعبُع الذى يخيف الناس فى أوروبا، وكانت الأمهات تتعلمن اللفظة فى تخويف أطفالهن العاصين. وكانت مسرحيات الإيماء تُصوره فى صورة عدو الحضارة الغربية الذى حارب قديسنا الشجاع سانت جورج.

وأصبحت هذه الصورة الزائفة للإسلام تمثل إحدى الأفكار الراسخة فى أوروبا، بل لاتزال تؤثر فى آرائنا ونظرتنا إلى العالم الإسلامى. وقد زاد من تعقيد المشكلة أن المسلمين بدءوا - ولأول مرة فى التاريخ الإسلامى - فى إضمار وتنمية كراهية مشبوبة للغرب. وكان ذلك يرجع، إلى حد ما، إلى

سلوك الأوربيين والأمريكيين في العالم الإسلامي. ولكنه من الخطأ أن نظن أن الإسلام دين يتسم بالعنف أو بالتعصب في جوهره، على نحو ما يقول به البعض أحياناً، بل إن الإسلام دين عالمي ولا يتصف بأى سمات عدوانية شرقية أو معادية للغرب. والواقع أنه عندما التقى المسلمون لأول مرة بالغرب الاستعماري إبان القرن الثامن عشر، بُهر الكثيرون منهم بحضارته الحديثة وحاولوا محاكاتها. ولكن الحماس المبدئي قد زال في السنوات الأخيرة وحل محله استياء مرير. وينبغي أن نتذكر أيضاً أن «الأصولية» قد ظهرت في معظم الأديان، ويبدو أنها استجابة على نطاق العالم بأسره للون الخاص من الحياة في أواخر القرن العشرين، فقد خرج الهندوسيون الأصوليون إلى الشوارع للدفاع عن نظام الطبقات أو الطوائف الاجتماعية ومعارضة مسلمي الهند، كما بدأ اليهود الأصوليون في إقامة مستوطنات غير قانونية في الضفة الغربية وقطاع غزة، وأقسموا أن يطرودا جميع العرب من الأراضي المقدسة، ونجح حزب الأغلبية الأخلاقية الذي يتزعمه جيرى فالويل، واليمين المسيحي الجديد، الذي كان يعتبر أن الاتحاد السوفيتي هو الإمبراطورية الشريرة، في اكتساب قوة تدعو للدهشة في الولايات المتحدة إبان الثمانينات. ومن الخطأ إذن أن نفترض أن المتطرفين الإسلاميين يمثلون عقيدتهم تمثيلاً صادقاً، ويتساوى في الخطأ اعتبارُ المرحوم آية الله الخميني تقيدياً للإسلام، ورفضُ التقاليد اليهودية الحافلة والمعقدة بسبب السيامات غير الأخلاقية التي كان يمارسها الحاخام مائير كاهاني. وإذا كانت «الأصولية» تبدو منتشرة في العالم الإسلامي، بوجه خاص، فالسبب هو الانفجار السكاني. وإذا شئنا الاقتصار على مثال واحد له مغزاه، ذكرنا أن عدد سكان إيران لم يكن يزيد على تسعة ملايين قبل الحرب العالمية الثانية، وقد وصل عددهم اليوم إلى ٥٧ مليوناً، ويبلغ متوسط أعمارهم ١٧ سنة، إن صورة الإسلام الأصولية والحلول التي تتضمنها هذه الصورة التي تتسم بالتطرف ولا ترى درجات بين اللونين الأبيض والأسود، صورة تمليها عقيدة الشباب.

ولا يعرف معظم أبناء الغرب عن الإسلام التقليدي ما يكفي لتقييم هذا الاتجاه الجديد ووضعه في منظوره الصحيح. فعندما يحتجز الشيعة الرهائن في لبنان باسم «الإسلام»، فمن الطبيعي أن يشعر الناس في أوروبا وأمريكا بالظهور من الدين نفسه دون أن يدركوا أن هذا السلوك مخالف لنصوص وتشريعات مهمة في القرآن عن أخذ الأسرى ومعاملتهم، ولكن أجهزة الإعلام والصحافة الشعبية لا تقوم، في كل الأحوال، للأسف، بتوفير المعلومات التي نحتاجها. بل إن هذه الأجهزة قامت بتغطية إعلامية واسعة لأقوال المسلمين الذين تعالت أصواتهم تأييداً للفتوى التي أصدرها آية الله الخميني بإهدار دم سلمان رشدي، وكانت تلك التغطية أكبر كثيراً من تغطية آراء الأغلبية الذين عارضوا الفتوى. والواقع أن السلطات الدينية في المملكة العربية السعودية وشيوخ الجامع الأزهر في القاهرة - وهو الذي يتمتع بمكانة مرموقة - عارضوا تلك الفتوى قائلين إنها غير قانونية وغير إسلامية، فالشريعة الإسلامية لا تسمح بالحكم بالإعدام على أحد دون محاكمة، ولا تمتد سلطتها القضائية إلى خارج العالم الإسلامي. وفي مارس ١٩٨٩ عقد المؤتمر الإسلامي الذي أعلنت فيه أربع وأربعون دولة عن رفضها بالإجماع لفتوى الخميني (من مجموع الدول الإسلامية الأعضاء البالغ خمناً وأربعين دولة) ولكن أبناء ذلك الرفض لم تحظ إلا بإشارة عابرة في الصحافة البريطانية بحيث ظل الناس أسرى الانطباع الخاطيء بأن العالم الإسلامي كله يدعو بأعلى صوته إلى إراقة دم رشدي. وأحياناً ما تلجأ الصحافة إلى إثارة نوازع التعصب التقليدي، على نحو ما اتضح بصورة خاصة إبان أزمة النفط التي أثارته منظمة البلدان المصدرة للنفط عالم ١٩٧٣، فكانت الصور المستخدمة في رسوم الكاريكاتير والإعلانات والمقالات الشعبية ذات جذور تضرب في أعماق المخاوف الغربية القديمة من وجود مؤامرة إسلامية للاستيلاء على العالم.

ويرى الكثيرون أن حال المجتمع الإسلامي الآن يبرر نظرتنا النمطية إليه، فحياة الأفراد تبدو رخيصة، والحكومات تمجنح أحياناً إلى الفساد أو الاستبداد،

والنساء يتعرضن للقهر، وليس من النادر أن يرجع الناس أسباب هذه الحال إلى «الإسلام»، ولكن العلماء يحذروننا من المبالغة في تأكيد الدور الذي يقوم به أى دين فى حياة مجتمع من المجتمعات، ويقول مارشال ج. س. هودجسون، المؤرخ الإسلامى البارز، إن الظواهر التى يُدينها الغرب فى العالم الإسلامى هى من الخصائص التى تُميز معظم المجتمعات فى مرحلة ما قبل التحديث، ولم تكن الحياة فى أوروبا تختلف كثيراً عن ذلك منذ ثلاثمائة سنة.

ولكننا نلاحظ أحياناً وجود رغبة مؤكدة، فيما يبدو، للقول بأن العقيدة الدينية نفسها هى السبب فى كل خلل فى العالم الإسلامى، وهكذا فكثيراً ما يدين «أنصار المرأة» الدين الإسلامى باعتباره مسئولاً عن عادة ختان الإناث رغم الحقيقة القائلة بأنها فى الواقع عادة إفريقية، ورغم عدم ذكرها فى القرآن على الإطلاق، بل عدم النص عليها فى ثلاثة من المذاهب الفقهية الرئيسية الأربعة، بل إن المذهب الرابع قد اقتبسها من شمال إفريقيا حيث كانت تمثل حقيقة اجتماعية واقعة. وهكذا فمن المحال علينا إصدار تعميمات عن الإسلام، مثلما يستحيل التعميم بالنسبة للمسيحية، فكل منهما يتضمن أفكاراً ومثلاً علياً بالغة التنوع.

وأحد الأمثلة الواضحة على التمييز هو الافتراض الشائع بأن الممارسات الإسلامية المتبعة فى المملكة العربية السعودية هى أصدق شكل من أشكال الدين الأصلى، فهى تبدو ذات طابع قديم، ولذلك يُفترض أنها تشبه الممارسات المتبعة فى أول مجتمع إسلامى. ولما كان الغرب قد ظل رديحاً طويلاً من الزمن ينظر إلى النظام فى المملكة العربية السعودية نظرة بُغض ومقت، فقد أصبح يميل إلى بغض الإسلام ومقتة أيضاً. ولكن المذهب الزهائى مذهب طائفة إسلامية واحدة، إذ نشأ فى القرن الثامن عشر وكان يشبه المذهب التطهرى (البيوريتانى) فى المسيحية الذى ازدهر إبان القرن السابع عشر فى إنجلترا، وفى هولندا، وفى ولاية ماساتشوستس الأمريكية. وكان المتطهرون والزهائيون يزعمون أنهم يريدون العودة إلى الدين الأصلى، ولكن

كلا من المذهبين كان يمثل تطوراً جديداً كل الجدة، ويمثل استجابة للأوضاع الفريدة التي سادت في زمن كل منهما، وكان للمذهب الوهابي والمذهب التطهري تأثير مهم في العالمين الإسلامي والمسيحي على الترتيب، لكنه من الخطأ أن نعتبر أياً منهما مذهباً معيارياً لآي من الدينين. فكل حركة من حركات الإصلاح في أي دين تحاول العودة إلى الروح الأصلية للمؤسس، ولكنه من المحال بحث الأوضاع السابقة كاملة غير منقوصة.

وأنا لا أقول إن الإسلام لا تشونه أي شائبة على الإطلاق، فجميع الأديان مؤسسات إنسانية، وهي كثيراً ما ترتكب أخطاء خطيرة، وكان تعييرها عن عقائدها يتم أحياناً بالقصور بل يدفع إلى النفور. ولكنها أيضاً خلاقة، إذ مكنت ولا زالت تمكن الملايين من الرجال والنساء من الإيمان بالمعنى الأقصى للحياة، والقيمة القصوى لها، على كل ما يتعرض له الجسد بطبيعته من المعاناة. ولذلك فإن من يضع «الإسلام» في فئة غير مقدسة خاصة به أو من يفترض أن تأثيره كان سلبياً تماماً، أو حتى تغلب عليه السلبية، يتعد عن الدقة والإنصاف جميعاً، بل إنه يعتبر خائناً للتسامح وروح التراحم اللذين نفترض أن المجتمع الغربي يتحلى بهما. والواقع أن الإسلام يتميز بكثير من المثل العليا والرؤى التي ألهمت اليهودية والمسيحية، ومن ثم فقد ساعد الناس على غرس وتنمية القيم التي يشترك فيها مع ثقافتنا الخاصة. والتقاليد اليهودية المسيحية لا تحتكر عقيدة التوحيد ولا الحرص على العدالة والتأديب والتراحم واحترام الإنسانية..

والحقيقة أن التفسير الإسلامي لعقيدة التوحيد يتميز بعبقرية خاصة، وعلينا أن نتعلم منه أموراً مهمة، ولقد تزايد وعيي بهذه الحقيقة وبصورة مطردة، منذ أن بدأت أتعرف على الإسلام، والحق أنني كنت أكاد أجهل ذلك الدين تماماً حتى سنوات قليلة خلت، وكان أول ما نبهني إلى أن التقاليد الإسلامية يمكن أن تخاطبني فنلتقي متى أذنا صاغية - رحلة قمت بها إلى مدينة سمرقند في أثناء عطلة من العطلات، إذ رأيت أن العمارة الإسلامية تنطق بروحانية حافلة بأصداء الكاثوليكية التي كنت أدين بها يوماً ما. وفي عام ١٩٨٤ كُلفت

بإعداد برنامج تليفزيونى عن الصوفية، أى مذهب التصوف الإسلامى، وبهرتى بصفة خاصة تقدير الصوفيين للأديان الأخرى، وكانت تلك من الصفات التى لم أعر عليها قطعا فى المسيحية! وكان ذلك بمثابة الطعن فى كل ما كنت أعرفه ظنًا عن الإسلام وأسلم به دون مناقشة، ووجدتني متعشة لمعرفة المزيد، وأخيراً حدث أن اهتديت إلى سيرة محمد، وإلى القرآن، الكتاب المنزّل الذى أتى به إلى العرب، أثناء دراستي للحروب الصليبية والصراع الدائر فى الشرق الأوسط. ولم أعد الآن من المؤمنين بالمسيحية أو الممارسين لشعائرها، بل لا أتمنى رسمياً لأى دين آخر، ولكنني عكفت على مراجعة أفكارى عن الإسلام، وفى الوقت نفسه وجدّتى أعيد النظر فى معنى التجربة الدينية نفسها، فرأيت أن الأنبياء والرسل فى جميع الأديان الكبرى يميزون بأن رؤاهم للحقيقة المتعالية القصوى تشابه فيما بينها تشابهاً كبيراً، ومهما يكن التفسير الذى نختاره لهذه التجربة الإنسانية، فهى حقيقة لا يمكن إنكارها، وقد ينكر البوذيون أن هذه الرؤية تتجاوز الطبيعة إلى عالم الخوارق، قائلين إنها حالة ذهنية طبيعية لدى الإنسان، ولكن أديان التوحيد تُطلق على هذه الحقيقة المتعالية اسم «الله». وأعتقد أن محمداً مرّ بهذه التجربة وساهم مساهمة متميزة وقيّمة فى التجربة الروحية للإنسانية. فإذا كنا نبنى أن ننصف جيراننا المسلمين، فيجب أن نقلب هذه الحقيقة الأسامية حق قلرها، وهذا هو السبب الذى دعانى إلى كتابة هذا الكتاب.

ومن الغريب أن لا يجد القارئ العادى فى متناول يده إلا عدداً محدوداً من الكتب التى تروى السيرة النبوية، وأنا أقر بدينى الكبير إلى المجلدين اللذين كتبهما و. مونتجومرى واط، وهما: «محمد فى مكة» و «محمد فى المدينة»، ولكنهما موجهان إلى الطالب، وكل منهما يفترض وجود معرفة أساسية بحياة محمد، وهى التى لا يحيط بها الجميع. أما كتاب مارتن لنجز بعنوان: «محمد: سيرة حياته استناداً إلى أقدم المصادر» فهو يتضمن ثروة من المعلومات الباهرة، التى استقاها من كتاب السيرة فى الفترة من القرن الثامن (الميلادى) حتى العاشر، ولو أن لنجز يوجه خطابه إلى المقتنعين أصلاً

بكلامه، أما خارج دائرتهم فسوف يطرح القارئ أسئلة كثيرة، أساسية أو حتى خلافية، ولا يتعرض لها لنجز في كتابه. وربما كانت أكثر كتب السيرة النبوية المتاحة للقراء حالياً جاذبية كتاب ماكسيم رودانسون بعنوان «محمد». ومزية رودانسون أنه ذو أسلوب يُخفى مدى تبحره في العلم، ولقد تعلمت كثيرا من كتابه، ولكنه يكتب من وجهة نظر المشكك والعلمانى. ولما كان يركّز في كتابه على الجوانب السياسية والحربية في حياة النبي، فإنه لا يُعينا حقاً على تفهم الرؤية الروحية للنبي محمد.

أما المنهج الذى اتبعته فهو يختلف بعض الشيء، وكانت نقطة انطلاقى هى أننا نعرف عن محمد أكثر مما نعرف عن مؤسس أى دين من الأديان الرئيسية الأخرى، وأن دراسة حياته يمكن أن تهينا إدراكاً عميقاً ومُهَمّاً لطبيعة التجربة الدينية. فجميع الأديان تمثل حواراً بين حقيقة مطلقة تستصعب على التعبير، وبين الأحداث الدنيوية، وفترة نبوة محمد تتيح لنا أن نفحص هذا الحوار فحواً أوثق مما يتيسر للباحثين فى العادة. فسوف نرى أن التجربة الدينية التى خاضها محمد تشابه تشابهاً كبيراً مع تجارب أنبياء بنى إسرائيل، ومع تجربة القديسة تيريزا الأفيلية، والسيدة جوليان من بلدة نورويتش. ولقد استندت كذلك إلى أحداث شتى فى حياة النبي لإيضاح ما تؤكد عليه التقاليد الإسلامية تأكيداً شديداً، وجميع الأديان الكبرى تتناول عدداً كبيراً من الموضوعات نفسها ولكن كلا منها يتميز ببصيرة نافذة خاصة به، وهكذا فسوف يكون علينا أن ننظر فى الأسباب التى تدعو المسلمين إلى اعتبار السياسة واجباً دينياً. لقد نجح محمد نجاحاً سياسياً غير عادى، ويميل المسيحيون إلى التشكك فى الطابع الربانى لهذا الانتصار الدنيوى؛ ولكننا نتساءل بدورنا: ألا يوجد طريق آخر يوصلنا إلى الله سوى طريق الإخفاق الذى سلكه المسيح؟

وأنا أنظر إلى النبي أيضاً من وجهة نظر الشخص الذى لديه بعض التصورات المحددة سلفاً عن الإسلام، وهكذا فعندما نرى محمداً وهو يشن الحرب على مكة، فيجب أن نسأل إذا ما كان النبي حقاً قد أسس ديناً يعتمد

على السيف؟ كيف يمكن لرجل من رجال الله أن يكون على استعداد للقتال والقتل؟ وعندما ننظر في علاقة محمد بزوجاته وبناته، فيجب علينا أن نسأل إذا ما كان حقاً متعصباً للرجال، وإذا ما كان قد أسس ديناً ينص على كراهية المرأة.

لقد بينت لنا حرب الخليج في عام ١٩٩١، أننا نرتبط - شئنا أم أبينا - بروابط عميقة بالعالم الإسلامي. وبالرغم من الأحلاف المؤقتة، فالواضح أن الناس في العالم الإسلامي قد فقدوا الثقة في الغرب. ومن المحال في أي وقت أن نعزو انقطاع حبل التواصل إلى خطأ من طرف واحد، فإذا كان الغرب يريد استعادة التعاطف والاحترام اللذين كان يتمتع بهما في الشرق الأوسط، فعليه أن يفحص دوره في الشرق الأوسط، وينظر في الصعوبات التي تواجهه إزاء الإسلام. وهذا هو ما حدثني في الفصل الأول من هذا الكتاب إلى رصد تاريخ كراهية الغرب لثبى الإسلام. ولكن الصورة ليست كاملة السواد، إذ تمكن بعض الأوربيين منذ الأيام الأولى من النظر إلى الإسلام نظرة متوازنة إلى حد ما، ولكنهم كانوا دائماً يمثلون أقلية، كما أنهم لم يسلّموا من العيوب، ومع ذلك فقد حاولت تلك الحفنة من الناس تصحيح أخطاء معاصريهم وتجاوز الآراء السائدة، ولا شك أن تلك التقاليد التي تتمسك بالمزيد من التسامح والتعاطف والشجاعة هي التي يجب علينا أن نعي لتشجيعها.

بلاد العرب في مطلع القرن السابع



- دومة الجندل
- فدك
- خيبر
- المدينة (يثرب)
- قباء
- بئر مورش
- قطيف
- بئر سفيان
- أخليبية
- نخلة
- الطائف

سوريا

القدس
موتة
جرمة
الدمشق

فلسطين

إبلا

تبوك

مكة

الحجاز

البحرين

عمر

الحشة

بالميل



--- الحدود التقريبية للإمبراطورية البيزنطية

الإمبراطورية البيزنطية

obeikandi.com

الفصل الأول

العدو محمد

كان ولا يزال من العير على أبناء الغرب أن يفهموا العنف الذي اتسم به رد فعل المسلمين للصورة الخيالية التي رسمها سلمان رشدي للنبي محمد في رواية آيات شيطانية، وكان من الصعب عليهم أن يصدقوا أن رواية من الروايات يمكن أن تشير درجة من الكراهية تصل إلى حد إهدار الدم، وبدا لهم أن رد الفعل الإسلامى دليل على تعصب إسلامى لا يرجى منه بُرء، كما أقض مضاجع أبناء بريطانيا إدراك ما تعتقه الجاليات الإسلامية فى البلدان التى يقيمون بها من قيم مختلفة، وهى قيم فيما يبدو غريبة عنهم، وأنها على استعداد للدفاع عنها حتى الموت. ولكن هذه القضية المؤسفة كانت تحمل فى طياتها بعض ما يذكرنا بصفحات من ماضى الغرب، وهى صفحات تبعث على القلق، تُرى هل استطاع أبناء بريطانيا، وهم يشهدون المسلمين المقيمين فى مدينة برادفورد أثناء إحراقهم الرواية المذكورة، أن يقيموا علاقة من لونٍ ما بين ذلك الحدث وبين حوادث إحراق الكتب فى أوروبا المسيحية على مر القرون؟ إذ حدث فى عام ١٢٤٢ على سبيل المثال أن قام الملك لويس التاسع، ملك فرنسا، الذى كان يشغل منصب قديس رسمى فى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بإدانة التلمود اليهودى باعتباره هجوماً خبيثاً على شخص السيد المسيح، ومن ثم أصدر أمراً بحظر الكتاب، وأضمرت النار فى النسخ المصادرة أمام الملك. ولم يكن لويس التاسع على استعداد لمناقشة خلافاته مع الجاليات اليهودية فى فرنسا بالوسائل السلمية والعقلانية وقال ذات يوم إن الأسلوب الوحيد للنقاش مع أحد اليهود هو أن تقتله «بطعنة نافذة فى بطنه إلى أقصى ما يصل إليه السيف»^(١). وكان لويس التاسع هو الذى بدأ الحملة

الاولى من محاكم التفتيش، والتي كانت تهدف إلى معاقبة المارقين من أبناء المسيحية، ولم يكف بإحراق كتبهم، بل أحرق المئات من الرجال والنساء. كما كان يبغض المسلمين كذلك، وكان على رأس حملتين من الحملات الصليبية ضد العالم الإسلامي. كان الغرب المسيحي، لا الإسلام، هو الذى لا يطبق التعايش فى زمن لويس التاسع، مع الآخرين، وقد يكون لنا، أن نقول إن التاريخ المرير للعلاقات بين المسلمين والغرب قد بدأ بالهجوم على النبي محمد فى إسبانيا المسلمة.

فى عام ٨٥٠ خرج راهب يدعى بيرفكتوس إلى السوق فى قرطبة، وكانت عاصمة دولة الأندلس المسلمة، حيث لقيه بعض العرب الذين سألوه ان يفاضل بين النبي عيسى والنبي محمد. وأدرك بيرفكتوس على القور أن بالسؤال شرًا نُصب له، لأن قانون الإمبراطورية الإسلامية كان يقضى بإعدام من يسبّ النبي محمدًا، ومن ثم التزم الحذر فى إجابته أول الامر ولكن زمامه أفلت فجأة فانطلق يصب وابلاً من الشتائم فزعم أن نبي الإسلام دجال ومولع بالجنس بل وأنه المسيح الدجال نفسه، وسرعان ما ألقى به فى السجن.

وكانت تلك حادثة شاذة فى قرطبة، إذ كانت العلاقات طيبة فى العادة بين المسلمين والمسيحيين، وكان المسلمون يسمحون للمسيحيين، مثلما يسمحون لليهود، بالحرية الدينية الكاملة فى أرجاء الإمبراطورية الإسلامية، وكان معظم أهل إسبانيا يعتزون بانتماهم إلى تلك الثقافة الرقيقة، فقد كانت تسبق سائر أوروبا سبًا يقاس بالسنين الضوئية، وكان كثيراً ما يطلق عليهم المستعربون: المسيحيون مولعون بقراءة الأشعار والقصص العربية، وهم يدرسون فقهاء الإسلام وفلاسفته، لا ليدحضوا ما يقولون بل لتصحيح لغتهم العربية وتنميق أسلوبهم، وهل لدينا اليوم من غير رجال الدين من يقرأ التفاسير اللاتينية للكتاب المقدس أو من يدرس الأناجيل أو كتابات

الأنبياء والرسل؟ وا أسفاه! إن جميع شباب المسيحيين من ذرى المواهب يعكفون على قراءة الكتب العربية ودراستها بحماس^(٢).

كان بول الفارو، وهو الإسباني العلماني الذي كتب هذا الهجوم على المستعربين في تلك الفترة أو نحوها، يعتبر الراهب بيرفكتوس بطلاً ثقافياً ودينيًا. إذ إن تهجمه على النبي محمد كان قد أثار حركة أقلية ذات طابع غريب في قرطبة، فكان الرجال والنساء يمثلون أمام القاضي (الذي يقضى بأحكام الإسلام) ويثبتون إخلاصهم للمسيحية بشن هجوم مقذع وانتحاري على النبي.

وعندما وصل بيرفكتوس إلى السجن، كان يرتعد فرقا ورعبًا، ولكن القاضي قرر ألا يصدر حكمًا بإعدامه، إذ رأى أنه كان ضحية استفزاز ظالم من المسلمين، ولم يلبث بيرفكتوس، في غضون أيام معدودة، حتى أفلت زمامه من جديد فطلق يسب نبي الإسلام سبابًا بذيئًا لم يُطلق القاضي إزاءه إلا تطبيق القانون بكل صرامة. وتُفخذ حكم الإعدام في الراهب، فإذا بجماعة من المسيحيين، الذين كانوا - فيما يبدو - من رعانف المجتمع، يمزقون أوصاله ويضفون هالة من القداسة على رفات «شهيدهم». وبعد أيام مثلَ راهب آخر يدعى إسحق أمام القاضي وأخذ يسب محمداً ودين محمد بحرارة جعلت القاضي يظنه مخموراً أو مختلّ العقل فصفعه على وجهه ليعيده إلى صوابه، ولكن إسحق استمر في السباب، فلم يجد القاضي بُدًا من وضع حد لمثل ذلك الانتهاك الصارخ للقانون.

لم تكن قرطبة في القرن التاسع تُشبه مدينة برادفورد عام ١٩٨٨، إذ كان المسلمون يتمتعون بالقوة والثقة بالنفس، وكانوا، من ثمّ، أبعد ما يكون عن الرغبة في قتل أولئك المتعصبين المسيحيين: كانوا يرون، أولاً، أن المتعصبين لا يتمتعون، فيما يبدو، بكامل قواهم العقلية، وكانوا يدركون ثانياً أن أبغض ما يبغضونه هو تقديم شهداء يحاطون بالتقديس. ولم يكن المسلمون ينفرون

من الاستماع إلى ما تقوله الأديان الأخرى، فلقد ولد الإسلام في كنف التعددية الدينية بالشرق الأوسط، حيث تعايش شتى العقائد على مرّ القرون، وكانت الإمبراطورية البيزنطية المسيحية الشرقية تسمح كذلك بحرية الأقليات الدينية في ممارسة شعائرها وإدارة شئونها الدينية الخاصة. ولم يكن القانون في الإمبراطورية الإسلامية يحرم جهود الدعوة المسيحية، بشرط ألا يتعرض المسيحيون في غضون ذلك للهجوم على النبي محمد، الذي يحبه المسلمون حُباً جمّاً. بل إن بعض مناطق الإمبراطورية كانت تسم بوجود تقاليد راسخة من التشكك والتفكير الحر، وكانت تواجه بالتسامح ما دامت في حدود الذوق السليم، وما دامت لم تمنح إلى التجريح، وكان القاضي والامير في قرطبة يكرهان الحكم بالإعدام على بيرفكتوس وإسحق، ولكنهما لم يكونا قادرين على السماح بانتهاك القانون على هذا النحو. لكنه لم تمض أيام قلائل على إعدام إسحق حتى وصل ستة رهبان من الدير نفسه، وقاموا بالتهجم على النبي محمد بصورة مقذعة. وبلغ عدد الشهداء الذين لاقوا حتفهم في ذلك الصيف، بهذا الأسلوب، نحو خمسين. وقد اشترك أسقف قرطبة مع المستعربين في إدانتهم، إذ اتزعج الجميع أشدّ الاتزعاج من تيار تقديس الشهداء الذي جنح فجمع، ولكن الشهداء وجدوا من يدافع عن قضيتهم وهما قسيس يدعى يولوجيو، ويول ألفارو، إذ قال كلاهما إن الشهداء هم من «جنود الله» الذين كانوا يقاتلون ببسالة دفاعاً عن عقيدتهم، وإنهم شنوا هجوماً معنوياً معقداً على الإسلام، عجزت السلطات الإسلامية عن رده، لأنه كان، فيما يبدو، سيئاً أنها على خطأ.

كان الشهداء يتمون لشتى المستويات الاجتماعية، فكانوا من الرجال والنساء، ومن الرهبان والقسس، ومن غير رجال الدين، ومن البسطاء ومن كبار العلماء. وكان يبدو أن الكثيرين منهم يسعون لتحقيق هوية غربية متميزة واضحة. ويبدو أن بعضهم كان يتسمى إلى أسرات مختلطة، حيث أحد

الأبوين مسلم والآخر مسيحي، وكان البعض الآخر يُنصح بأن يستوعب الثقافة الإسلامية استيعاباً كاملاً - إذ أطلقت عليهم أسماء عربية^(٣) أو عِينُوا في وظائف معينة بالحكومة - ومن ثم اختلطت عليهم السبل وأصيبوا بالحيرة. ولا شك أن فقدان الجذور الثقافية قد يحدث قلقاً عميقاً، بل إنه، حتى في أيامنا هذه، قد يؤدي إلى نشوء نزعة تدين تسمك بروح التحدى والعدوان، وهي النزعة التي تتوصل بها النفس لفك الحصار المضروب حولها. وقد يكون علينا أن نذكر شهداء قرطبة عندما نبحر في فهم نزعة العداة والغضب في بعض الجاليات الإسلامية في الغرب، وفي المناطق الأخرى التي تشكل فيها الثقافة الغربية تهديداً للقيم التقليدية. كانت حركة الشهداء التي قادها الفارو ويولوجيو تعارض المستعربين المسيحيين بنفس المرارة التي تعارض بها المسلمين، إذ اتهمتهم بأنهم خونة لثقافتهم.

وقام يولوجيو بزيارة إلى بامبلونا في البلدة المسيحية المجاورة، وعاد يحمل كتباً غربية: نصوصاً باللاتينية كتبها آباء الكنيسة ومؤلفات رومانية كلاسيكية من تأليف فيرجيل وجوفينال. كان يطمح في مقاومة استعراب مواطنيه الإسبان، وإبداع نهضة لاتينية تتوقد حينئذٍ وشوقاً إلى الماضي الروماني لبلده، فذلك من سبل إحباط تأثير الثقافة الإسلامية السائدة، ولكن الحركة خبت وتدهورت عندما أصدر القاضى حكمه بإعدام يولوجيو. وقد طلب القاضى إليه أن يتجو بأن يعلن اسمياً قبوله الإسلام - إذ لن يتحقق أحد من سلوكه الدينى بعد ذلك - وألا يتسلم «تلك التصرفات المؤسفة الانتحارية المهلكة» مثل غيره من «المغفلين والبلهاء»^(٤) ولكن ردَّ يولوجيو اقتصر على أن طلب منه شحذ السيف.

لم تكن هذه الحادثة الغربية من الحوادث التي تميزت بها الحياة في إسبانيا المسلمة، إذ ظل أبناء أديان التوحيد التاريخية الثلاثة، يعيشون في سلام. ووثام نسيين على مدى الأعوام الستةمئة التالية، فكان اليهود - الذين كانوا

يتعرضون للملاحقة والقتل في سائر أنحاء أوروبا - يتمتعون بنهضة ثقافية حافلة خاصة بهم. ولكن قصة شهداء قرطبة تكشف عن موقف سرعان ما تفشى في الغرب، ففى ذلك الوقت كان الإسلام قوة عالمية كبرى، وكانت أوروبا التى اكسحتها القبائل الهمجية، قد أصبحت بِرُكَّةٍ ثقافية آمنة. وعلى مر الأيام بدا أن العالم كله قد أصبح إسلامياً مثلما يبدو لنا اليوم وقد اكتسى الطابع الغربى، وظل الإسلام يمثل تحدياً لا يتوقف للغرب حتى القرن الثامن عشر، أما الآن فيبدو أن حرباً باردةً ضد الإسلام توشك أن تحمل محل الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفيتى.

كان يولوجيو والفارو يعتقدان أن سطوع نجم الإسلام يشير بقدم المسيح الدجال، وهو الدجال العظيم الذى ورد وصفه فى العهد القديم، والذى ينذر حكمه بحلول الأيام الأخيرة للبشرية. وقد أوضح مؤلف الرسالة الثانية إلى أهل تسالونيكى أن المسيح لن يعود إلى الأرض حتى تقع «الرَّة الكبرى» إذ يأتى «أنيم» ويقيم ملكه فى هيكل أورشليم ليُضَلَّ كثيراً من المسيحين «بآيات وعجائب كاذبة»^(٥). وقد ورد فى سفر «رؤيا يوحنا اللاهوتى» أيضاً ذكر وحش عظيم، «سِمَتُهُ عجيبة» وهى العدد ٦٦٦، يخرج من الهاوية ويتوج نفسه على عرش جبل المعبد، ويحكم العالم^(٦). وكان يبدو أن الإسلام يتفق اتفاقاً تاماً مع هذه الرؤى القديمة، إذ فتح المسلمون بيت القلمس فى عالم ٦٣٨، وبنوا مسجدين عظيمين على جبل المعبد، وبدا أنهم حقاً يحكمون العالم، وقيل أيضاً إن محمداً قد أتى بعد المسيح، حيث انتفت الحاجة إلى تنزيل جديد، ولكنه نَصَّبَ نفسه نبياً وارتدَّ كثير من المسيحين واعتقوا الدين الجديد. وكانت بحوزة يولوجيو والفارو سيرة مختصرة لحياة محمد تقول إنه توفى فى عام ٦٦٦ من التاريخ الإسبانى، وبذلك تسبق الحساب التقليدى بشمانية وثلاثين عاماً. وكانت تلك السيرة النبوية التى كتبت فى أواخر القرن الثامن من وجهة نظر غربية، قد قام بإعدادها أحد الأديرة، ويدعى «دير لير»

بالقرب من بامبلونا في براغيل العالم المسيحي الذي كان يرتعد فرقا أمام العملاق الإسلامي الجبار. كان نجاح الإسلام يشير سؤالاً يتجاوز التهديد السياسي الذي يمثله، وهو سؤال لاهوتي ينبعث على القلق: كيف سمح الله لهذه العقيدة «الكاذبة» بالظهور والانتشار؟ ترى هل تخلى الله عن مناصرة شعبه وأهله؟

كانت صحاحات التهجم التي أطلقها شهداء قرطبة ضد نبي الإسلام تستند إلى تلك السيرة القائمة على «الرؤيا». وصور الوهم للأذهان التي سيطر عليها الرعب أن محمداً دجال كاذب، نصب نفسه نبياً ليخدع العالم، وصور لها الوهم أنه فاسق يتمرئ الفسق البذيء ويدفع أتباعه إلى محاكاته، وصور لها الوهم أنه كان يُجبر الناس على اعتناق عقيدته بعد السيف. وانتهت هذه الأوهام إلى القول بأن الإسلام ليس ديناً مستقلاً متزلاً، بل بدعة، أو صورة مشوهة من صور المسيحية، وأنه دين عنف يؤمن بالسيف ويمجد الحرب والقتل. وقد سمع البعض أبناء شهداء قرطبة في مناطق أخرى من أوروبا، بعد أن انطفأت شعلة الحركة، ولكن هذه الأنباء لم تُحدث صدى يذكر. ولكن الأساطير المسيحية عادت بعد نحو ٢٥٠ سنة، وأوروبا توشك على العودة إلى الساحة الدولية، وهي الأساطير التي أعادت رسم هذه الصورة الوهمية لنبي الإسلام بدقة غريبة. ولا شك أن بعض الباحثين المتعمقين قد حاولوا وضع تصور موضوعي صادق لنبي الإسلام وللدين الذي أتى به، ولكن الصورة الخيالية للنبي الذي حُرّف اسمه إلى «ماهاوند» استمرت قائمة على المستوى الشعبي. ومن ثم أصبح العدو الأكبر للهوية الغربية الناشئة، وأصبح يرمز لكل ما «تتمنى» أن ننقيه عن ذواتنا. وما تزال آثار الوهم القديم قائمة حتى يومنا هذا. إذ ما يزال من الشائع عند أبناء الغرب أن يسلموا دون نقاش بأن محمداً ليس سوى رجل «استغل» الدين في تحقيق الفتوحات وسيادة العالم، وأن الإسلام دين عنف يعتمد على السيف، وذلك على الرغم من وجود

دراسات علمية وموضوعية كثيرة عن الإسلام ونبي الإسلام تثبت خطئ هذه الأسطورة المرتبطة «بماهاوند».

كان القرن الحادى عشر يطوى صفحته عندما شرعت أوروبا فى النهوض من جديد بزعامة البابا، والإستيلاء على بعض أراضى المسلمين. ففى عام ١٠٦١ كان النورمانديون قد بدءوا الهجوم على المسلمين فى جنوى إيطاليا وضقلية، وتمكنوا من فتح المنطقة عام ١٠٩١، كما شرع المسيحيون فى شمالى إسبانيا فى شن حروبهم ضد مسلمى الأندلس، ففتحوا طليطلة عام ١٠٨٥، وفى عام ١٠٩٥ قام البابا أوربان الثانى باستدعاء فرسان أوروبا لتحرير قبر المسيح فى أورشليم فى حملة كتب لها أن تعرف باسم الحملة الصليبية الأولى. وبعد سنوات من الشدائد والأهوال تمكن الصليبيون فى عام ١٠٩٩ من فتح أورشليم وإنشاء أول مستعمرات غربية فى الشرق الأدنى. وقد اتخذ هذا النجاح الغربى الجديد صورة الحرب التى لا هوة فيها ضد الإسلام، وإن لم يكن أحد فى أوروبا، فى البداية، يَكُنُّ كراهية خاصة للدين الإسلامى أو لنبي الإسلام، إذ كان ما يشغل الناس هو تحقيق أحلامهم الخاصة بالمجد وتوسيع رقعة أوروبا البابوية. وتفصح ملحمة أنشودة رولان التى أُلِّفت فى زمن الحملة الصليبية الأولى عن جهل فاضح بالطبيعة الاساسية للعقيدة الإسلامية، إذ تُصَوِّرُ المسلمين من أعداء شارلمان ورولان فى صور عابدى الأصنام، وهم يركعون أمام ثلاثة آلهة هى «أبولو» و «تيرفاجان» ومحمد، وإن كانوا، على ذلك، جنودًا شجعانًا، يسعد المقاتل بمناذتهم. وعندما تلاقى جيوش الحملة الصليبية الأولى فى آسيا الصغرى للمرة الأولى مع الأتراك، أحست بالاحترام البالغ لهم والإعجاب بشجاعتهم:

من ذا الذى يستطيع، مهما تكن خبرته وعلمه، أن يجرؤ على الكتابة عن مهارة الأتراك ورسالتهم وشجاعتهم؟ كانوا يظنون أنهم سيقدفون الرعب فى قلوب الفرنجة مثلما ألقوا الرعب فى قلوب

العرب وأبناء الصحراء وأبناء أرمينيا وسوريا واليونان، بالخشية من سهامهم! ومع ذلك فالله شاهد على أن رجالهم لم يتفوقوا أبداً على رجالنا. وهم يقولون إنهم من سلالة الفرنجية نفسها، وإنهم مفطورون على الفروسية. وهذا صحيح ولا يمكن أن ينكره أحد، فإذا كانوا قد ثبتوا على العقيدة المسيحية وأبدوا استعدادهم لقبول الإيمان بالله واحد يحلُّ في ثلاثة أشخاص... فلن نجد أقوى ولا أشجع ولا أمهر من هؤلاء الجنود. ومع ذلك فقد من الله على رجالنا فقهرهم (٧).

لقد أحس الفرنجية بالوشائج التي تربطهم بجنود المسلمين في موقعة دوريليوم عام ١٠٩٧، ولكن الصليبيين فتحوا أورشليم بعد ذلك بستين وبدا عندها أنهم لا يستطيعون اعتبار المسلمين بشراً مثلهم، إذ قاموا بارتكاب مذبحه بين سكان المدينة عامدين، وهي المذبحه التي صدّمت مشاعر الجميع حتى من معاصريهم. وأصبحوا بعد ذلك يعتبرون المسلمين وياً لا بد من تطهير الأماكن المقدسة منه، وكانت الصفة الرسمية التي أطلقت عليهم في مصطلح الحملات الصليبية هي «القدارة».

كان اهتمام أوروبا بالنبي محمد يكاد يكون معدوماً قبل عام ١١٠٠، ولكن الجميع، أصبحوا يعرفونه في عام ١١٢٠، ففي نفس الوقت الذي كانت فيه أساطير شارلمان والملك آرثر وروبين هود قد بدأت تشيع في الغرب، أصبحت «أسطورة ماهاوند» عدو الممالك المسيحية وقربنها، راسخة في مخيلة أبناء الغرب. وقد أوضح الباحث ر. و. ساذرن في دراسة بعنوان «صور الإسلام في الغرب إبان العصور الوسطى» ذلك قائلاً:

لا شك أنهم عندما وضعوا هذه الأساطير والأوهام، كانوا يرون أنها تمثل الصورة الحقيقية، إلى حد ما، للواقع الذي تصفه، ولكنها اتخذت بعد كتابتها طابعاً أدبياً وهبها حياتها الخاصة. ولم تتغير كثيراً صورة محمد وأتباعه من أبناء الصحراء، على مستوى الشعر الشعبي،

من جيل إلى جيل، وكان هؤلاء يشبهون الشخصيات الخيالية المحبوبة،
التي يتوقع القارئ أن تتسم بخصائص معينة، ومن ثم حقق المؤلفون
غاية القراء فطلقوا يصفون تلك الخصائص على امتداد مئات
السنين (٨).

وربما أدى الطابع «الخيالي» لشخصية «ماهاوند» في الغرب، إلى زيادة
الصعوبة التي يواجهها الناس اليوم إذا حاولوا النظر إليه باعتباره شخصية
تاريخية جديرة بالدراسة الجادة التي يولونها لنابليون أو للإسكندر الأكبر.
والصورة الخيالية لشخصية «ماهاوند» في رواية آيات شيطانية تتفق على أعمق
مستوى مع هذه الأوهام الغربية الراسخة.

فلقد لجأت الأساطير، في محاولة لتفسير سر نجاح محمد، إلى الزعم بأنه
كان ساحراً دبر «معجزات» زائفة، حتى يخدع العرب السذج، ويدمر الكنيسة
في إفريقيا والشرق الأوسط. وتحدث إحدى الحكايات عن ثور أبيض نشر
الذعر بين السكان ثم ظهر آخر الأمر، وكان القرآن وهو الكتاب الذي أتى به
محمد إلى العرب، يتراقص في الهواء بين قرنيه باعتبار ذلك من المعجزات.
وقيل أيضاً إن محمداً قام بتدريب حمامة على التقاط جبات البازلاء من
أذنيه، حتى يبدو للرائي كأن روح القدس تنزل عليه وتهمس له بالوحي، أما
تجاربه الدينية الحقيقية فقد فرها هؤلاء بأنه كان يعاني من مرض الصرع،
وكان معنى ذلك في تلك الأيام أنه رجل تسكنه الجنان، كما أقاضوا في
الحديث عن حياته الجنسية فاتهموه بأقذع ضروب الشذوذ، وقالوا عنه إنه
أغرى الناس بالانضمام إلى دينه بتشجيع على إرضاء غرائزهم الدنيا. وقالوا
إن مزاعم النبي محمد كانت جميعها كاذبة، وإنه كان دجالاً عامداً تمكن من
خداع معظم أبناء شعبه، وأما بعض أتباعه الذين تكشف لهم حقيقة أفكاره
السخيفة فالتزموا الصمت بسبب أطماعهم الدنيئة. والواقع أن المسيحيين
الغريين لم يجدوا سبيلاً إلى تفسير الرؤية الدينية الرائعة والمقنعة التي أتى بها

محمد، وإلى تفسير سر نجاحها، إلا بإنكار الوحي ومن ثم نفي وجود مصدر مستقل لها، مما يعنى أن الإسلام كان فى نظرهم فرقة خارجة على المسيحية، وهى بهذا تمثل بدعة البدع، وغاية المروق. وزُعم فيما زعم أن رجلاً يدعى سيرجيوس كان راهباً ثم أصبح مارقا ومن ثم أرغم على الفرار من بلدان المسيحية، وكان ذلك ما ينبغى له أن يفعل، ومن ثم ذهب إلى بلاد العرب وقابل محمداً ولقنه أصول الصورة المشوهة للمسيحية التى أتى بها. وكان الغربيون يقولون إن دين محمد (المحمدية) ما كان ليظهر على الدين كله إلا بحد السيف، وإن المسلمين لم يكن مسموحاً لهم بمناقشة الدين مناقشة حرة فى الإمبراطورية الإسلامية، وإن محمداً قد انتهى نهاية تعتبر جزاء وفاقاً، إذ هجم عليه قطيع من الخنازير أثناء إحدى نوبات اتصاله بالجن فمزقوه إرباً.

وبعض تفاصيل هذا الوهم تعكس بواعث قلق المسيحيين على هويتهم التى كانت قد بدأت تظهر، فالوصمة التى ألحقوها بالإسلام باعتباره «دين السيف» نشأت فى إبان الحملات الصليبية، وهى فترة لا بد أن المسيحيين فيها أحسوا بقلق دفين إزاء الصورة العدوانية التى اتخذتها عقيدتهم، وهى صورة لا علاقة لها برسالة الدعوة إلى السلم التى جاء بها المسيح. وفى الوقت الذى كانت الكنيسة تفرض على رجال الدين الامتناع عن الزواج، على رغبتهم فيه وحرصهم عليه، كانت الرواية المدهشة الغربية عن الحياة الجنسية للنبي محمد تنم على ألوان الكبت التى يكابدها المسيحيون أكثر مما تتعلق بأية حقائق عن حياة النبي الشخصية. ولا شك أن الصورة التى رسموها للإسلام كانت تتضمن حداً ظاهراً، إذ كانوا يصورونه فى صورة دين المتعة واليسير. أما المهمة الأخيرة فهى مردودة عليهم، إذ إن الغرب لا الإسلام هو الذى حظر حرية مناقشة المسائل الدينية. ففى زمن الحملات الصليبية كانت «الوحدة الفكرية» غاية تحرق أوروبا شوقاً إلى تحقيقها، حتى بدت من قبيل «النزعة المسيطرة»، وكانت أوروبا تعاقب من يخرج عليها بحماس فريد فى تاريخ

الدين . وكانت مطاردة رجال محاكم التفتيش «للساحرات» أو من بهنّ مسّ من الشيطان وحركة اضطهاد البروتستانت والكاثوليك بعضهم البعض ، تقومان على آراء لاهوتية عميقة ومعقدة ، وكانت اليهودية والإسلام يعتبران في هذا الإطار من العقائد الفردية الثانوية ، فلم تكن اليهودية تشارك المسيحية نظرتها إلى «البدعة» ، ولم يكن الإسلام يشاركها تلك النظرة هو الآخر ، فنظرة المسيحية للبدعة ترفع من قيمة الآراء البشرية في القدامة إلى حد غير مقبول ، بل إنها تصل إلى صورة تقترب من عبادة الأوثان ، والواقع أن عصر الحملات الصليبية الذي شهد ترسيخ الصورة الخيالية لماهاوند ، كان عصر توتر بالغ ، بلغ فيه المروق من الدين أشده في أوروبا ، وما الخوف المرضي من الإسلام إلا التعبير الساطع عن تلك الظاهرة .

وبدا يتضح أن المسيحيين الغربيين لن يستطيعوا تقبل وجود جاليات دينية مختلفة أو عقائد متباينة في إطار النظم التي أقاموها ، أو يحرروا في ذلك من النجاح ما أحرزه المسلمون أو البيزنطيون . ولما كانت اليهودية هي الدين الأجنبي الوحيد القائم آنذاك على الأرض الأوربية ، فقد استهل رجال الحملة الصليبية الأولى رحلتهم إلى الشرق الأوسط بمذابح للجاليات اليهودية المقيمة في وادي نهر الراين ، وكانت تلك أولى المذابح الجماعية في أوروبا . وكُتب للعداء للسامية أن يصبح مرضاً أوربياً عضالاً أثناء الحملات الصليبية . وبينما كان المسيحيون يلفقون أساطيرهم عن «ماهاوند» وأبناء الصحراء ، كانت أوهامهم المرعبة عن اليهود تنسج روايات مماثلة ، فقالوا إن اليهود يقتلون الأطفال الصغار ويمزجون الدم بخبز عيد الفصح العبراني ، وإتهم يندسون القربان المقدس ، وإتهم يدبرون مؤامرة دولية واسعة النطاق للإطاحة بالمسيحية . ولم توضع في العالم الإسلامي أمثال هذه الأساطير المعادية لليهودية ، التي تم على وجود اضطرابات وأمراض في نفوس الغربيين ، أما بعد فتوحاتهم في إسبانيا وجنوب إيطاليا وصقلية ، فقد أصبح العشرات من

الآلاف من المسلمين يعيشون داخل حدود الممالك المسيحية، وبدأ للمؤسسة الحاكمة أن الأسلوب الوحيد الكفيل بإنجاح التعامل مع هؤلاء الأجانب يتمثل في فرض سيادة فصل عنصري رسمية، تقضى بمنع المسيحيين من إقامة أية صلات مع جيرانهم من المسلمين واليهود. وصدرت تشريعات كنية خاصة تربط المسلمين باليهود باعتبارهم العدو المشترك في المجلسين البابويين اللذين عقدا عامي ١١٧٩ و١٢١٥، إذ قضت تلك التشريعات بفرض عقوبات تتمثل في الطرد من الكنيسة، وما يترتب على ذلك من مصادرة الممتلكات، على كل مسيحي يقبل الخدمة في منازل المسلمين أو اليهود، أو رعاية أطفالهم أو الاتجار معهم أو حتى مشاركتهم طعامهم. وفي عام ١٢٢٧ أضاف البابا غريغوريوس التاسع المراسيم التالية: يجب على المسلمين واليهود أن يرتدوا ملابس مميزة لهم، ويجب ألا يظهروا في الشوارع أثناء الأعياد المسيحية أو أن يتولوا مناصب حكومية في البلدان المسيحية، كما منع المؤذن من إيذاء أسماع الميحيين بدعوة المسلمين إلى إقامة الصلاة بالأسلوب المعهود.

وأعلن البابا كليمنت الخامس (١٣٠٥ - ١٣١٤) أن وجود مسلم على الأرض المسيحية يعتبر إهانة لله، وكان المسيحيون قد شرعوا قبل ذلك في التصدي لتلك الظاهرة التي اعتبروها مخزية، فقام ملك فرنسا شارل آنشو عام ١٣٠١ بإيادة من بقى من المسلمين الصقليين ومن أبناء جنوب إيطاليا في «محمية» لوسيرا، وكان وصفها بأنها «وكر الوباء... متوهجة التلوث... مصدر الطاعون العضال والجراثيم القذرة في أبوليا»^(٩). وفي عام ١٩٤٢ سقطت آخر قلعة إسلامية في أوربا، عندما قام فرديناند وإيزابيلا بفتح غرناطة، إذ دقت أجراس الكنائس في شتى أرجاء أوربا ابتهاجاً بالنصر المسيحي على الكفار. ولم تمض سنوات معدودة حتى كان مسلمو إسبانيا يواجهون الاختيار بين الترحيل أو التحول إلى اعتناق المسيحية، ولم تلبث محاكم التفتيش أن قامت باضطهادهم هم وذريتهم على مدى ٣٠٠ سنة أخرى. وهكذا حلت روح شهداء قرطبة محل التسامح القديم، وبدأ أن

المسيحيين في إسبانيا قد تملكهم الخوف من المسلمين المتخفين، الذين يعيشون بين ظهرانيهم، باعتبارهم العدو السرى للمجتمع.^(٥)

وكثيراً ما كان الموقف الغربى القاسد تجاه الإسلام يتجلى في ردود أفعال تنبئ عن انقصاص نفسى، إذ كان الإمبراطور «الرومانى المقسم» فريديك الثانى محبباً للإسلام، وكان يجد من الانتماء النفسى الحقيقى فى العالم الإسلامى أكثر مما يجده فى أوروبا المسيحية، ولكنه كان، على ذلك، لا يكف عن قتل المسلمين وترحيلهم من بلده صقلية. والغريب أنه فى الوقت الذى انقض فى المسيحيون على المسلمين يذبحونهم فى الشرق الأئى، كان آخرون يجلسون لتلقى العلم عند أقدام علماء المسلمين فى إسبانيا. وكان العلماء من المسيحيين واليهود والمستعربين يتعاونون فى مشروع ترجمة جيار لنقل معارف العالم الإسلامى إلى الغرب واستعادة الحكمة الكلاسيكية القديمة التى فقدتها أوروبا فى العصور المظلمة. كان الفيلسوفان المسلمان ابن سينا وابن رشد يحظيان بالتبجيل باعتبارهما من نجوم الفكر الساطعة، ولو أن الجمهور كان يواجه صعوبة متزايدة فى تقبل كونهما من المسلمين. وقد وجدت المشكلة أبلغ تعبير عنها فى ملحمة الكوميديا الإلهية لدانتى، التى تصورهما فى البرزخ (أى فى الاعراف) مع فضلاء الوثنيين الذين أرسوا أسس الثقافة الفكرية وأعانوا الغرب على اكتسابها، مثل إقليدس وبطليموس، وسقراط، وأفلاطون، وأرسطو. ولكن دانتى يصور محمداً فى الفلك الثامن للجحيم، مع أرياب الفتنة التى أحدثت الانشقاق الدينى، ويصوره فى عذاب مهين^(٥):

(٥) تورد المولفة هنا آياتاً قبيحة لا يليق نشرها بالعربية عن رسول الإسلام، وقد سبق للاستاذ حن عثمان أن أشار إليها فى ترجمته قائلاً: «ولقد حذفت من الانشودة (رقم ٢٨) آياتاً وجفتها غير جديرة بالترجمة، وردت عن النبى محمد عليه أفضل الصلاة والسلام. وقد أخطأ فى ذلك دانتى خطأ جسيماً نأثر فيه بما كان سائناً فى عصره، فى المولفات أو بين العامة، بحيث لم يستطع أهل الغرب وقتئذ تقدير رسالة الإسلام الحققة وفهم حكمته الإلهية» (ص ٣٦٥ من الترجمة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩).

ولا يعتقد المترجمان أن حذف الآيات يتفص من الهدف الذى تسعى المولفة إلى إيلواه، فهى آيات قبيحة لا تليق بشاعر كبير، وإن كان التراث العربى فى الهجاء حافلاً بأمثالها.

أى إن دانتى لم يكن يستطيع أن يسمح حتى ذلك الوقت بأن تكون للنبي محمد رؤيته الدينية المستقلة. فهو يصفه بأنه منشق لا أكثر، خرج عن العقيدة الأصلية. والصور البذيئة التى يرسمها دانتى تفصح عن مدى الاشمئزاز الذى كان الإسلام يبعث عليه فى صدور المسيحيين ولكنها تبين أيضاً مدى الانقسام فى النفس الغربية، إذ ترى فى الإسلام صورة لكل ما لا تستطيع هضمه فى ذاتها، وكان المزيج من الخوف والكراهية الذى يعتبر مناقضاً بل وإنكاراً تاماً لرسالة المحبة التى أتى بها المسيح، يمثل كذلك جُرحاً عميقاً فى وحدة المسيحية الغربية وسلامتها.

ومع ذلك فقد حاول البعض الآخر التوصل إلى رؤية تتسم بالمزيد من الموضوعية. ومن الطريف، فى الوقت الذى كانت المخيلة المسيحية تصهر اليهود والمسلمين فى بوتقة واحدة باعتبارهما العدو المشترك للحضارة، أن تكون صورة من أوائل الصور الإيجابية لمحمد فى الغرب صورة رسمها له بيتر ألفونسى، وهو يهودى إسبانى اعتنق المسيحية عام ١١٠٦ ثم قضى بقية حياته فى إنجلترا، طيباً للملك هنرى الأول، كان على عدائه للإسلام يصوره فى صورة الدين الذى يقبله ويرضاه من لم يسبق له الالتزام بالعقيدة «الحقة». وفى عام ١١٢٠ أو نحو ذلك التاريخ الذى بلغ فيه العداء للإسلام ذروته، كتب وليم مامزبرى دراسة يفرق فيها بين الإسلام والوثنية، فكان أول أوربى يفعل ذلك، إذ جاء فيها «إن أبناء الشرق والأتراك يعبدون الله، الخالق، ويجلون محمداً لا باعتباره رباً بل باعتباره نبياً لهم»^(١١). وكانت تلك نظرة نافذة ما يزال الكثيرون من أبناء الغرب يرفضون قبولها، وما يزال بيننا بعض من يدهش دهشة حقيقية حين يسمع أن المسلمين يعبدون الإله الذى يعبده اليهود والمسيحيون نفسه: فهم يعتقدون أن «الله» إله يختلف اختلافاً كاملاً، كأنما هو جويستر فى مجمع الآلهة الروماتى، ويميل البعض الآخر إلى افتراض أن «المحمديين» يجلون نبيهم تبجيلاً من نفس اللون الذى يكنه المسيحيون للمسيح.

وتجلى صعوبة فصل الحقيقة عن الوهم فى قصة تاريخ شارلمان التى تب إلى توربين، وكتبت فى وقت ما قبل عام ١١٥٠، وهى تصور الشرقيين أو أبناء الصحراء «الوثنيين»، إذ يعبدون محمداً مع «أبوللو» و«تيرفاجانت»، على نحو ما كان متبعاً فى قصص المغامرات وأناشيد البطولات الفرنسية. ومع ذلك، قفى خضم هذه الصور تدور مناظرة عقلانية بين رولان وعملاق مسلم يدعى فيراكتوس يتجلى فيها الوعى بأن المسلمين يعبدون الله الواحد الصمد. وفى نحو ذلك الوقت أيضاً كتب المؤرخ أوتو فرايزنج بحثاً ينكر فيه أن المسلمين يعبدون الأصنام.

من المعروف أن جميع أبناء الشرق يعبدون الله وحده، ويعترفون بشريعة العهد القديم، وشعيرة الطهارة. بل إنهم لا يهاجمون المسيح ولا الرسل. ولا يقصصهم عن الخلاص إلا شىء واحد، ألا وهو إنكارهم أن المسيح عيسى هو الله أو ابن الله، وتبجيلهم الغاوى محمداً باعتباره نبياً عظيماً للرب الأعلى. (١٢).

وهكذا، فما إن حل منتصف القرن الثانى عشر، حتى بدأ انتشار نظرة أدق للإسلام، وإن كان ازدياد الموضوعية لم يبلغ القوة الكفيلة بتبديد الأساطير المعادية للإسلام، بل استمرت الحقائق والأوهام فى امتزاجها وتوافقها، بحيث ظلت الأحقاد القديمة تظل برأسها فى بعض الأحيان، حتى أثناء المحاولات الصادقة التى بذلها البعض لتوخى العدل والإنصاف، إذ ظلت صورة محمد صورة دجال منشق، مهما يكن من أمر المؤرخ أوتو الذى وضع تصوراً أقرب إلى العقل لدين النبى محمد.

وكانت أهم محاولات وضع تصور موضوعى للإسلام فى القرن الثانى عشر هى المحاولة التى قام بها «بيتر المجلل» الذى كان يشغل منصب رئيس دير «كلونى» وعرف بمشاعره الإنسانية الرقيقة. إذ قام فى عام ١١٤١ بجولة فى أديرة القديس بنيدكت فى إسبانيا المسيحية، وتكليف فريق من العلماء

المسيحيين والمسلمين، برئاسة رجل إنجليزي يدعى روبرت كيتون، بترجمة بعض النصوص الإسلامية، ومن ثم اكتمل ذلك المشروع في عام ١١٤٣. وكان من ثماره أول ترجمة لاتينية للقرآن، ومجموعة من الأساطير الإسلامية، وتاريخ إسلامي للعالم، وشرح للتعاليم الإسلامية، ورسالة حوارية عنوانها «دفاع الكندي». وكان ذلك إنجازاً رائعاً، إذ أتاح لأبناء الغرب أول فرصة لدراسة الإسلام دراسة جادة. ولكن نتائجها كانت محدودة، إذ كان المسيحيون في تلك الآونة قد بدءوا يتعرضون لهزائم عسكرية كبرى في الدول الصليبية في الشرق الأدنى، وارتفعت موجة جديدة من مشاعر العداة للإسلام، يعمل على تنظيمها الأسقف برنارد، رئيس دير كليرفوكس، مما جعل الوقت غير مناسب للمشروع في دراسة موضوعية للقرآن. وكان الأسقف يتردد على كتب دراسة خاصة يتوجه فيها بالخطاب إلى العالم الإسلامي بنبرات رقيقة يعمرها الحب، فكتب يقول: «إنني أتوجه إليكم بالكلمة، لا بالسيف كما يتوجه غيري من الرجال، في معظم الأحوال: وها أنا أتوسل بالعقل لا بالقوة، وبالحب لا بالكراهية... إنني أحبكم، ويدفعني حبي إلى الكتابة إليكم، وكتابتى تدعوكم إلى الخلاص» (١٣). ولكن عنوان هذه الدراسة كان «ملخص البدعة الكاملة التي أمت بها طائفة الشرقيين الشيطانية». ومن ثم لم يكن من المحتمل أن يجد الكثير من المسلمين الصادقين أي لون من التعاطف في مثل هذا المنهج؛ حتى لو تمكنوا من قراءة النص اللاتيني الذي كتبه رئيس دير كلوني. بل إن هذا الأسقف الطيب الذي أظهر معارضته لتعصب أبناء زمانه في مناسبات أخرى، يدل في كتاباته على الانقسام الذي كان العقل الأوربي يعاني منه في نظره للإسلام. وعندما قام الملك لويس السابع، ملك فرنسا، بقيادة الحملة الصليبية الثانية إلى الشرق الأوسط عام ١١٤٧، كتب الأسقف يتر إليه يقول إنه يتعنى أن يقتل عدداً كبيراً من المسلمين، عدداً يوازي من قتلهم موسى (هكذا) ويوشع (يشوع) من الأموريين والكنعانيين. (١٤)

وفى أوائل القرن الثالث عشر، حاول مسيحي آخر يتصف بالقداسة أن يخاطب العالم الإسلامي فى سياق حملة عسكرية صليبية، إذ حدث أثناء القتال فى الحملة الصليبية الخامسة التى باءت بالفشل (١٢١٨ - ١٢١٩) أن جاء «القديس» فرانسيس أسبى إلى المعسكر المسيحى فى دلتا نهر النيل، ثم عبر خطوط الأعداء وطلب السماح له بمقابلة السلطان الكامل. وقيل إنه قضى ثلاثة أيام مع السلطان، يشرح رسالة الإنجيل، ويحث السلطان على التحول إلى المسيحية، وقد حرص فرانسيس على عدم المساس بذكرى النبى محمد، مما شجع المسلمين على الاستماع إليه، ويبدو أنهم أعجبوا بذلك الأشعث الأغبى. وعندما آن له أن يرحل قال السلطان الكامل: «ادع الله لى، وابتهل إليه أن يهدىنى إلى ما يحبه ويرضاه من شرع وإيمان». ومن ثم أعاد فرانسيس إلى المعسكر المسيحى «معزواً مكرماً سالماً آمناً» (١٥).

وكان فرانسيس قد أرسل - قبل رحيله إلى الشرق - فريقاً من صغار القس للدعوة بين المسلمين فى إسبانيا وإفريقيا، ولكن المنهج الذى اتبعوه فى مخاطبة العالم الإسلامى كان يختلف فى روحه اختلافاً شاسعاً. فعندما وصلوا إلى إشبيلية لجئوا إلى أساليب شهداء قرطبة، فحاولوا أولاً اقتحام المسجد أثناء صلاة الجمعة، وعندما قام المصلون بتفريقهم، اتجهوا إلى قصر الأمير، وشرعوا يهبون النبى محمداً بصوت عالٍ خارج القصر. وهكذا كانت هذه البعثة التبشيرية، وهى أول بعثة كبرى إلى أبناء الشرق، لا تسم بأى تعاطف أو حب، لأن أتباع فرانسيس (الفرنسيسكان) لم يكونوا يرمون إلى «هداية» المسلمين إلى المسيحية، بل كانوا يحاولون استغلال الموقف للظفر بإكليل الشهادة. ولما علت أصواتهم وازدادت جلبتهم اضطرت السلطات إلى حبسهم، إذ تسببت الحادثة فى حرج شديد لهم، كما حاولت السلطات تجنب ذبوع أمرهم فدأبت على نقلهم من سجن إلى سجن. ورفضت الحكم عليهم بالإعدام، ولكن المسيحيين المستعربين فى إشبيلية كانوا يخشون أن يتسبب

هؤلاء المتعصبون فى تعريف موقفهم للخطر، وطلبوا من السلطات التخلص منهم. وانتهى الأمر بترحيل الفرنسيكان إلى مدينة «سبته» فى المغرب، ولكنهم ما إن وصلوها حتى اتجهوا إلى المسجد أثناء صلاة الجمعة، وشرعوا من جديد فى سبّ النبى محمد. ولم تجرد السلطات بدأ، آخر الأمر، من إعدامهم. وعندما وصلت الأنباء إلى «القديس» فرانسيس، قيل إنه صاح فى ابتهاج «أعلم الآن أننى ظفرت بخمسة قسّ صغار يخلصون لى» (١٦).

ويبدو أن تلك التزعة قد غلبت على بعثات التبشير الفرنسيكاتية التالية، ففى عام ١٢٢٧ أعدم فريق آخر من القسّ فى سبته، وكانوا قد أرسلوا خطابات إلى بلدتهم يقولون فيها إن هدف البعثة هو «الموت والهلاك للكفار» (١٧)، واتجه فريق آخر إلى الأراضى المقدسة، ولكن أساليبهم لم يرض عنها جيمس فيترى، أسقف عكا، فكتب يقول:

إن المسلمين لا يترددون فى الإصغاء للقسّ الصغار عندما يتحدثون عن إيمان المسيح وتعاليم الأناجيل. ولكنهم عندما يتعرضون فى حديثهم إلى إنكار ما جاء به محمد، إذ يصورونه فى خطبهم الدينية فى صورة الكاذب الخائن، فإن المسلمين يضربونهم دون احترام لبعثتهم، ولولا لطف الله الذى يحفظهم بما يشبه المعجزة، لكان مصيرهم القتل أو الطرد من مدن المسلمين» (١٨).

وهكذا كان الحال إبان العصور الوسطى. فحتى عندما كان البعض يحاول الترام الإنصاف والموضوعية، أو الدعوة لرسالة المسيحية بين المسلمين، كان العداء يتفجر، وكان أحياناً ما يتخذ طابع العنف الشديد. ففى نهاية القرن الثالث عشر، قام العلامة الدومينيكى «ريكوللو دا مونتى كروتشى» بجولة فى البلدان الإسلامية، وأعرب عن انبهاره بمستوى التقوى والورع الذى صادفه، فكتب يقول: «إن على المسيحيين أن يخجلوا من ورع المسلمين». ولكنه عندما عاد إلى وطنه ليكتب عن «إقامة الحجّة على المسلمين والقرآن» لم يزد

على تكرار الأساطير القديمة. كانت الصورة الغربية للإسلام قد بدأت تتخذ من القوة ما يكفل دحض آثار أى احتكاك مع المسلمین الحقيقيين، مهما تكن الآثار إيجابية، إذ وجد الغرب روحه فى أيام الحروب الصليبية، ويستطيع الباحث أن يرجع معظم ما نتميز به عن غيرنا من المشاعر القياضة وضروب الحماس إلى تلك الفترة، وهذا هو ما ألمح إليه «أومبرتو إيكو» فى مقال عنوانه: «أحلام القرون الوسطى»، إذ يقول:

الواقع أن الأمريكين والأوربيين قد ورثوا التركة الغربية. فمعظم مشاكل العالم الغربى قد ظهرت فى القرون الوسطى، لأن للمجتمع القروسطى هو الذى ابتدع اللغات الحديثة، والمدن التجارية، والاقتصاد الرأسمالى (إلى جانب البنوك والشيكات، وأسعار الفائدة على الودائع). ونحن نشهد فى القرون الوسطى نشأة الجيوش الحديثة، والمفهوم الحديث للدولة القومية، وكذلك فكرة الاتحاد الإلهى (تحت راية إمبراطور ألماني يختاره مجلس نيابى يقوم بمهمة المؤتمر الانتخابى)، والصراع بين الأغنياء والفقراء، ومفهوم البدعة أو الانحراف الأيديولوجى، بل حتى فكرتنا المعاصرة عن الحب باعتباره سعادة مدمرة تجلب الشقاء. ويمكننى أن أضيف إلى القائمة الصراع بين الكنيسة والدولة، والتقايات العمالية، (وإن كانت فى صورة الشركات) والتحولات التكنولوجية لعمل العمال. (١٩)

وكان يمكنه أن يضيف أيضا مشكلة الإسلام. فانهاء القرون الوسطى لم يؤذن بانتهاء الأساطير القروسطية القديمة. فعلى كثرة المحاولات التى بذلت لوضع منظور يتميز بالمزيد من الموضوعية والإيجابية، وعلى تنامى الاتفاق فى آراء العلماء على أن الإسلام وبنى الإسلام لا يمثلان الظواهر المخيفة التى توهمها الناس، ظل التعصب القديم قائماً.

وقد استمرت صورة الإسلام الموهومة التى روجها شهداء قرطبة إبان فترة الحملات الصليبية، وإن لم تكن تمثل موضوعاً من الموضوعات الرئيسية، إذ

حدث فى عام ١١٩١، أثناء رحلة الملك ريتشارد قلب الأسد إلى الأرض المقدسة، فى إطار الحملة الصليبية الثالثة، أن التقى بأحد المتصوفة الإيطاليين المشهورين فى مدينة ميسينا، فى جزيرة صقلية، وهو يواقيم فيورى، الذى أخبره أنه سوف يتصر حتماً على صلاح الدين الأيوبي. وإذا كان يواقيم قد أخطأ فى ذلك، فإنه أبدى بعض الملاحظات الطريفة، والجديرة بالذكر، إذ قال إن نهاية العالم وشيكة، وإن نشأة الإسلام تمثل إحدى الوسائل الرئيسية التى يستعين بها المسيح الدجال، أما المسيح الدجال نفسه فهو حتى يرزق فى روما، وقد كتب له أن يشغل كرسى البابوية فى روما. والواقع أن زيادة انتقاد الأوربيين لمجتمعهم ووعيمهم بنقائصه جعلتهم يربطون بين الإسلام وبين العدو الذين يعيش بين ظهرانيهم. وهكذا كان المصلحون كذلك يوازنون بين البابوية التى تفتقر إلى الإخلاص (عدوهم اللدود) وبين الإسلام، فنجد أن المصلح الإنجليزي ابن القرن الرابع عشر، جون ويكليف، يرمى الإسلام فى كتاباته الأخيرة بالنقائص الكبرى التى كان يراها فى الكنيسة الغربية المعاصرة له وهى الكبرياء، والجشع والعنف، وشهوة السلطة والامتلاك. فكتب يقول «إننا نحن المحمديين الغربيين» وكان يعنى بذلك الكنيسة الغربية بصفة عامة، «على قلة عدتنا بين أبناء الكنيسة كلهم، نتصور أن العالم بأسره سوف يبنى نظمه على أساس أحكامنا ويرتعد فرقاً من أوامرنا» (٢٠).

ومضى يقول إنه لو لم تعد الكنيسة إلى الروح الحقيقية للأناجيل، وللزهد الذى يدعو الدين إليه، فإن هذه الروح «الإسلامية» سوف تستفحل فى الغرب مثلما استفحلت فى الشرق. وكانت أقواله تدل على تحول دقيق فى الفكرة التى اعتادها من سبقه وهى اعتبار الإسلام ونبي الإسلام نقبضاً لكل شىء «نتمنى» أن نكونه أو نخشى أن نصير إليه.

لم يكن أمام ويكليف إلا الاستناد إلى معلومات غير موثوق بها إلى حد بعيد، ولكنه قرأ ترجمة القرآن وظن أنه عشر على نقاط مهمة تسمح بالموازنة

بين محمد وكنيسة روما. وكانت حجته تقول إن محمداً كان يشبه الكنيسة في عدم المبالاة بالكتاب المقدس، فكان يأخذ منه ما يناسب دعواه وي طرح سائرته، وإن محمداً كان يشبه أصحاب الطوائف الدينية في ابتداع تجديدات تنقل كواهل المؤمنين بأعباء جديدة، وأهم من ذلك كله، أن محمداً يحذو حذو الكنيسة في حظر المناقشة الحرة للدين. والواقع أن ويكلييف قرر بعض الآيات القرآنية تفسيراً يشي بالتعصب القروسطي القديم، ولكن هذه الفقرات لا تحظر المناقشة الدينية في ذاتها، بل هي تقول إن بعض ضروب الجدل الديني قد أدت إلى الانشقاق في أديان التوحيد القديمة، ونشوء الشيع والطوائف المتناحرة. فبعض الأفكار المتعلقة بالذات الإلهية من المحال أن تتعدى الحدس والتخمين، فلا يمكن لأحد، على سبيل المثال، أن يشيت صحة مبدأ التجسد، وهو الذي يقول محمد إنه من المبادئ التي أضافها بعض المسيحيين فيما يبدو إلى الرسالة الأصلية للنبي عيسى. ومع ذلك فإن ويكلييف عقد مقارنة بين هذا التعصب الإسلامي المزعوم وبين موقف الكنيسة إزاء بعض المبادئ التي تكتنفها المشاكل مثل مبدأ القران المقدس، إذ تأمر المسيحيين بالإيمان الأعمى بالأشياء التي لا يستطيعون فهمها.

ولم يقلع لوثر وغيره من المصلحين البروتستانت عن هذه العادة، ففي أواخر أيامه، وجد أنه يواجه الغزوات المخيفة التي كان الأتراك العثمانيون يشنونها على أوروبا، ومن ثم تملكه كابوس شهداء قرطبة، وأصبح يعتقد أن الإسلام قد يكسح الممالك المسيحية اكساحاً كاملاً، وفي عام ١٥٤٢ نشر ترجمته الخاصة للدراسة التي كتبها ريكولدو دامونتي كروتشي بعنوان إقامة الحججة (المشار إليها آنفاً) وقال في التصدير إنه كان قرأها قبل ذلك بسنوات ووجد من المحال عليه أن يقبل أن الناس يمكن أن يؤمنوا بمثل تلك الأكاذيب الواضحة الجليلة، وأنه كان يريد قراءة القرآن ولكنه لم يعثر على ترجمة لاتينية له - وذلك، كما يبين ر. و. ساذرن، دليل ساطع على التخلف الشديد للدراسات الإسلامية في القرن السادس عشر - وقال إنه استطاع أن يحصل

أخيراً على نسخة منه وعندها أدرك أن ريكولدو لم يكن كاذباً بل كان محقاً فيما قاله. وتساءل عما إذا كان محمد والمسلمون يمثلون المسيح الدجال، ثم أجاب على التساؤل قائلاً إن «الإسلام» دين ساذج لا يقدر على أن يهوى بالبشرية إلى ذلك المصير الرهيب، أما العدو الحقيقي فهو البابا والكنيسة الكاثوليكية، ومادامت أوروبا تتمسك بهذا العدو الداخلى فسوف تعرض نفسها لخطر الهزيمة على أيدي «المحمديين». وقد طرح زوينجلى وبعض المصلحين الآخرين أفكاراً عاثلة، إذ كانوا يعتبرون روما «رأس» المسيح الدجال و«المحمدية» جسده. ويدل هذا التطور في تفكير البروتستانت على أن الكثيرين قد أضفوا على الإسلام صورة من داخل أوروبا بحيث أصبح رمزاً للشرا المطلق في حياتهم الشعورية. وقد كتب تورمان داتيل دراسة عميقة عنوانها العرب وأوروبا في العصور الوسطى يقول فيها إن الإسلام لم يعد حقيقة تاريخية خارجية يمكن للناقد أن يفحصها مثل سواها من الحقائق، بل إن المصلحين قد «دسوا» فكرة الإسلام باعتبارها حالة داخلية، يمكن إصاقتها بأعداء العقيلة الخالصة (مهما يكن تعريف الكاتب لها). وعلى هذا النحو كانوا يقومون في الواقع بتحويل الإسلام إلى كيان داخلى باعتباره «العدو» (دون تمييز) وهو العدو الذى ظل يكمن زمناً طويلاً في المخيلة الأوربية»^(٢١).

ويضرب داتيل أمثلة من الكاثوليك والبروتستانت، ويعقد مقارنات بين معارضتهم المسيحيين و«الإسلام» دون أن يدرك في الواقع ما تنطوى عليه تلك المقارنات. فكان المبشر الكاثوليكى، ابن القرن السابع عشر، م. ليفير يرى أن المسلمين بمثابة «بروتستانت محمديين» يعتقدون أن الإيمان يبرر فعال الإنسان، إذ «يرجون غفران كل خطاياهم بشرط إيمانهم بمحمد»، ولكن كاتب أدب الرحلات البروتستانتى ابن القرن الثامن عشر، ل. راوولف كان يعتبر المسلمين «كاثوليك محمديين» إذ إنهم «يقومون بالأعمال التى اخترعوها، وتفانوا في الإخلاص لها، مثل الزكاة والصلاة والصوم وافتداء الأسرى وما إلى ذلك، ابتغاء مرضاة الله»^(٢٢). ولم يكن المسيحيون في

العصور الوسطى قادرين على النظر إلى الإسلام إلا باعتباره صورة ناقصة من صور المسيحية، كما اختلقوا الأساطير التي تبين أن محمداً تلقى تعليمه على أيدي أحد أصحاب البدع. وامتد أبناء الغرب، فيما بعد، على ضوء الانقسامات الداخلية الجديدة في العالم المسيحي، ينظرون إلى محمد ودينه من منظور مسيحي في جوهره، وكانوا، فيما يبدو، لا يكترون للحقيقة التاريخية الموضوعية، ولم يخطر على بالهم، فيما يبدو، أن للمسلمين بواعث حماس متقلة لا يمكن تحديدها في إطار الممارسة المسيحية.

ولكن عصر النهضة شهد محاولات جديدة من جانب بعض أبناء الغرب للتوصل إلى تفهم يتسم بالمزيد من الموضوعية للعالم الإسلامي، وكانوا في ذلك يتبعون التقاليد والطموحات التي أرساها «بيتر المجل» وهي التي أبقى بعض علماء القرن الخامس عشر على شعلتها موقدة، مثل جون سيجوفيا ونيكولاس كوسا. ففي عام ١٤٥٣، بُعيد الفتح التركي لإمبراطورية بيزنطة المسيحية، الذي أتى بالإسلام إلى عتبة باب أوروبا، ألح جون سيجوفيا إلى ضرورة العثور على أسلوب جديد لمواجهة الخطر الإسلامي، قائلاً إنه من المحال أن يلقى الهزيمة في ميدان القتال أو عن طريق أنشطة التبشير التقليدية. ومن ثم بدأ يعمل على وضع ترجمة جديدة للقرآن، بالتعاون مع أحد فقهاء المسلمين من سلمانكا، كما اقترح عقد مؤتمر دولي، يجسرى فيه تبادل الآراء العلمية بين المسلمين والمسيحيين. ولكن المتيه وافته عام ١٤٥٨ قبل أن يؤتى أي من هذين المشروعين أكمله، ومن ثم تولى صديقه نيكولاس كوسا العمل على إنجاح هذا المنهج الجديد. ففي عام ١٤٦٠ كتب كتاباً عنوانه «متخل القرآن» لم يتبع فيه السبل الجدلية المألوفة بل حاول فيه إجراء دراسة أدبية وتاريخية ولغوية منهجية للنص الذي كان جون سيجوفيا يعتبره نصاً جوهرياً ومن ثم وضعت أسس الدراسات العربية في عصر النهضة، وكان المنهج الموسوعي الذي لا يقف عند حدود دولة أوربية دافعاً لبعض العلماء إلى وضع تقييم يتسم بالمزيد من الواقعية للعالم الإسلامي، وإلى نبذ الاتجاهات الصليبية

الفجة. ومع ذلك لم تختلف الحال كثيراً عما كانت عليه في العصور الوسطى، فزيادة إدراك الحقائق لم تستطع طمس صور الكراهية القديمة التي كانت تسيطر سيطرة قوية على المخيلة الغربية.

وقد برز ذلك بوضوح وجلاء في عام ١٦٩٧، الذي شهد أولى بوادر التنوير، بنشر عملين كان لهما تأثيرهما الكبير. أما الأول فكان اسمه المكتبة الشرقية، وكان المؤلف «بارتلمى ديريللو» قد اجتهد حتى جعله أهم وأصدق مرجع للدراسات الإسلامية والشرقية في إنجلترا وأوربا حتى مطلع القرن التاسع عشر. وقد وُصف بأنه دائرة المعارف الإسلامية الأولى، وكان «ديريللو» قد استعان بمصادر عربية وتركية وفارسية، وبذل جهداً صادقاً لإزالة الغشاوة التي أعمت أبصار أصحاب النهج المسيحي القديم، فقدم، على سبيل المثال، صوراً مختلفة لأساطير خلق الكون الشائعة في الشرق، وكان من المحتوم أن يتسم هذا النهج بالإيجابية، وكان دليلاً على وجود روح أقرب إلى الصحة قليلاً. ومع ذلك، ففي الباب الذي يتحدث فيه عن «محمد» نجد مايبعث على الأسى، إذ يردد الأقوال المألوفة مثل:

هذا هو الدجال الشهير محمد، صاحب ومؤلف بدعة اكتسبت اسم الدين، ونحياها «المذهب المحمدي». انظر باب الإسلام.
وقد نسب مفسرو القرآن وغيرهم من فقهاء الشريعة الإسلامية أو المحمدية إلى هذا النبي الكاذب جميع الفضائل التي ينسبها الآريون، أو البولسيون [أتباع القديس يولس] أو للتشبهون بهم، وغيرهم من دعاة البدع، إلى يسوع المسيح، وإن كانوا ينزعون عنه صفة القداسة... (٢٣)

وإدراك «ديريللو» للاسم الصحيح للدين لم يمنعه من مواصلة الإشارة إليه باسم «المحمدية»، وذلك لأنه الاسم الذي نطقه «نحن» عليه، وعلى نفس المتوال، استمر العالم المسيحي في النظر إلى النبي نظرة شائنة باعتباره صورة «لنا» وإن كانت أدنى وأحط شأنًا.

وفي نفس العام نشر مستشرق إنجليزي يدعى «همفري بريدو» كتاباً مهماً عنوانه «محمد: طبيعة الدجل الحقيقية»، ويكفي العنوان وحده لإيضاح مدى استغراقه في التعصب القروسطي القديم - والواقع أنه يستشهد بأقوال ريكولدو دامونتي كروتشي باعتبارها مصدره الأساسي - وذلك رغم زعمه أنه قد توصل إلى نظرة إلى الدين تتميز بالمزيد من العقلانية والتنوير عما كان يمكن تحقيقه في كنف ظلام العصور الوسطى وخزعبلاتها. وهكذا فإن بريدو، باعتباره من أنصار العقل، يقول إن الإسلام لا يقتصر على كونه محاكاة للمسيحية فحسب، بل هو نموذج واضح لمستوى البلاهة الذي يمكن أن ينحط إليه أي دين، وليست المسيحية باستثناء من ذلك، ما لم تكن للدين أسس راسخة على صخرة العقل الصلبة. إننا نفترض أن عصر العقل قد حرّر الأذهان من التعصب الديني المعوق الذي اتسمت به فترة الحملات الصليبية، ولكن بريدو يكرر جميع الأفكار غير العقلانية التي تسلطت على الأذهان في الماضي، إذ كتب يقول عن محمد:

كان الشطر الأول من حياته يتسم بالإباحية الشديدة والآثام البالغة، إذ كان يجد متعة كبيرة في السلب والنهب وإهراق الدم، وفقاً لما جرت عليه عادات العرب الذين كان يميل معظمهم إلى سلوك هذا السبيل، فكانوا على الدوام تقريباً في تناحر، إذ تتقاتل القبائل ليغنم بعضها من الآخر كل ما يستطيع أن يغممه...

كانت التزعتان السلطان تملكان لَبَّهما الطموح والشهوة، وكان السبيل الذي سلكه لبناء الإمبراطورية دليلاً ساطعاً على التزعة الأولى، وكانت زوجاته الكثيرات دليلاً قاطعاً على التزعة الثانية. والواقع أن التزعتين تسيطران على إطار دينه برمته، فلا يكاد فصل من فصول القرآن يخلو من ذكر قانون من قوانين الحرب وإراقة الدماء تحقيقاً للتزعة الأولى، أو ينص على حرية معايشة النساء في هذه الدنيا، أو الوعد بالاستمتاع بهن في الدار الآخرة، تحقيقاً للتزعة الأخرى. (٢٤)

ولكن القرن الثامن عشر شهد بعض الجهود الرامية إلى وضع تفهم أكثر دقة للإسلام. ففي عام ١٧٠٨ أصدر سايمون أوكللي المجلد الأول من كتابه تاريخ المسلمين الذي أغضب كثيراً من القراء لأنه لم يُصوّر الإسلام على أنه دين السيِّف (أى أن يُسقط عليه مشاعر القراء تجاه أنفسهم) ولكنه حاول أن ينظر إلى الجهاد فى القرن السابع من وجهة نظر المسلمين. وفى عام ١٧٣٤ نشر جورج سيل ترجمة رائعة للقرآن ما تزال تعتبر دقيقة رغم افتقار أسلوبها إلى البريق. وفى عام ١٧٥١ نشر فراتسو فولتير كتاباً بعنوان «أخلاق الأمم وروحها» دافع فيه عن محمد باعتباره مفكراً سياسياً عميق الفكر، ومؤسس دين عقلانى حكيم، ومشيئاً إلى أن الدولة الإسلامية كانت تتمتع دائماً بالتسامح الذى يزيد عما تتسم به التقاليد المسيحية. وكان المستشرق الهولندى يوهان يعقوب زايسكى (ت ١٧٧٤) دارساً لا يُجَارَى للغة العربية، استطاع أن يستشف المسحة الربانية فى حياة محمد ونزول الإسلام (ولكن بعض زملائه اضطهدوه بسبب هذه الجهود).

ونمت إيمان القرن الثامن عشر أسطورة أخرى تُصوّر محمداً على أنه رجل حكيم من رجال التشريع العقلانى فى إطار حركة التنوير الأوربية. وقد نشر الكونت هنرى دى بولانييه كتابه حياة محمد (فى باريس عام ١٧٣٠ ولندن عام ١٧٣١) الذى يُصوّر النبى فى صورة البشر بعصر العقل. وكان بولانييه يتفق مع القروسطيين فى أن محمداً قد ابتدع دينه حتى يسود العالم، ولو أنه قلب التقاليد كلها رأساً على عقب. وقال إن الإسلام يختلف عن المسيحية فى أنه تراث «طبيعى» أى غير متزل، وإن ذلك مصدر روعته. ويضيف أن محمداً كان بطلاً عسكرياً مثل بوليوس قيصر والإسكندر الأكبر، وذلك بطبيعة الحال وهم من الأوهام، لم يكن محمد، قطعاً، ممن اهتموا بالعقل وحده إلى وجود الله، ومع ذلك فكان الكتاب يمثل محاولة للنظر إلى النبى فى ضوء إيجابى. وفى نهاية القرن، أثنى إدوارد جيبون فى الفصل الخمسين من كتابه «تدهور الإمبراطورية الرومانية ومقوِّطها» على عقيدة التوحيد

السامية في الإسلام، وبين أن الجهود الإسلامية جديرة بمكانة مرموقة في تاريخ الحضارة العالمية.

ولكن التعصب القديم كان راسخاً إلى الحد الذي جعل الكثير من الكتاب يعجزون عن مقاومة التعريض، دون مبرر، بالنبي من حين لآخر، مما يدل على أن الصورة التقليدية لم تَمُتْ. وهكذا نجد سايمون أوكلى يصف محمداً بأنه «رجل بارع الدهاء واسع الحيلة، إذ كان يتظاهر فحسب بالصفات الحميدة المنسوبة إليه، أما دوافعه النفسية فهي الطموح والشهوة»^(٢٥). ويقول جورج سيل في مقدمة ترجمته للقرآن: «إن أحد الأدلة المقنعة على أن العقيدة المحمدية لم تكن قطعاً سوى ابتكار بشري هو أنها تدين بنشوتها وتطورها إلى السيف وحده تقريباً»^(٢٦). ويتهى فولتير في آخر مقاله عن أخلاق الأمم المذكور آنفاً، والذي يصف فيه الإسلام وصفاً إيجابياً، إلى القول بأن محمداً كان «يعتبر رجلاً عظيماً، ولم يختلف على ذلك من كانوا يعرفون أنه دجال، كما كان سائر الناس يجعلونه باعتباره نبياً»^(٢٧).

وفي عام ١٧٤١ كتب فولتير مسرحية عنوانها محمد أو التعصب، وفيها يستعين بالكراهية الشائعة لمحمد في جعله نموذجاً لجميع الدجالين الذين أحالوا شعوبهم إلى عبيد للدين متوسلين بالتحايل والأكاذيب. وعندما وجد أن بعض الأساطير القديمة لم تكن فاحشة إلى الحد الذي يرضيه، عمد إلى ابتداع أساطير جديدة أفعمت قلبه فرحاً. بل إن جيون لم يشغل نفسه طويلاً بشخصية محمد، فزعم أنه قد دفع العرب على اتباعه من خلال إغرائهم بالغنائم والجنس. أما عن اعتقاد المسلمين بأن القرآن قد أملاه الوحي المنزل على النبي، فقد اصطنع جيون نبذة تعالٍ وترقّع قائلاً إن الإنسان المتحضر حقاً يرى ذلك من قبيل المحال:

إن تلك الحجة تخاطب، بكل قوة، العربي المخلص الذي يقبل عقله منطلق الإيمان والنشوة الدينية، والذي تلتذُّ أذنه بموسيقى الأصوات، والذي يعجز

جهله عن عقد المقارنات بين ثمار قرائح العبقرية البشرية، فتناغم الأسلوب وجزالته لا يستطيعان التأثير، بعد الترجمة، في الكافر الأوربي، الذي سوف يضيق ذرعاً بمتابعة المعزوفة التي لا تنتهي، والتي تسم بالنشاز، والحافلة بالاساطير والمفاهيم المجردة والتبرات الخطائية، والتي نادراً ما تثير إحساساً أو توحى بفكرة، والتي أحياناً ما تزحف في التراب، وأحياناً ما تضيع في ثنايا السحاب» (٢٨). وينم ذلك على أن الغرب قد اكتسب الشقة في ذاته، إذ لم يعد الأوربيون يجفلون فرقاً من الخطر الإسلامي، بل أصبحوا ينظرون إلى الدين الإسلامي نظرة المترفع الذي يجد فيه بعض التسلية والترفيه، وأصبحوا يفترضون أننا إذا «نحن» لم نفهم القرآن، فلا بد أنه ليس على شيء. وهكذا فعل توماس كارلايل عام ١٨٤١ في محاضراته عن النبي محمد والتي كان عنوانها «البطل باعتباره نبياً» إذ أعلن رفضه وازدراءه للقرآن. ومع ذلك فقد كانت تلك المحاضرة دفاعاً مشجوباً عن محمد وإنكاراً للوهم القروسطي القديم. لقد كان كارلايل، ولأول مرة تقريباً في أوروبا، يحاول أن يرى محمداً باعتباره صاحب دين حقيقي، حتى في غضون استهائته بالقرآن واعتباره أكثر كتاب يعث على الملل في العالم، إذ يقول إنه «خليط غير مترابط، يرهق القارئ، غليظ النسيج ركيك التركيب، غاصى بالتركار، وبالإسهاب والمعاظلات التي لا تنتهي، وباختصاره، فهو بالغ الغلظة والركاكة والغباء الذي لا يطاق» (٢٩).

وقد وقعت حادثة في آخر القرن الثامن عشر، كان لها مغزاه، إذ بينت السبيل الذي بدأت الثقة الأوربية الجديدة تسير فيه. ففي عام ١٧٩٨ أبحر نابليون قاصداً مصر، بصحبة العشرات من المشرقين العاملين في معهد الدراسات المصرية الذي كان قد أنشأه. وكان قد يبت العزم على الانتفاع بالتقدم العلمي الذي أحرزوه، وقدرتهم على تفهم الشرق، في إخضاع العالم الإسلامي وتحدي السيطرة البريطانية على الهند. وما إن رست السفن حتى

أرسل نابليون هؤلاء العلماء في مهمة محددة، مما نطلق عليه اليوم "بعثة العلماء لتقصي الحقائق"، وأصدر الأوامر الصارمة إلى جنوده بالآلا يعصوا أوامر العلماء. والواضح أن هؤلاء العلماء قد درسوا الموضوع دراسة مستفيضة. وكان نابليون قد استهل خطابه إلى جماهير المصريين في الإسكندرية قائلاً «إننا نحن المسلمون حقاً» على ما في هذا القول من سخيرة مريرة، ثم استدعى ستين شيخاً من شيوخ الأزهر، وهو المسجد العظيم في القاهرة، فجاءوه تحفهم أسمى مراسم التكريم العسكرية، ومن ثم انطلق في الحديث فامتدح النبي بعبارات توخى فيها الحرص الشديد، وناقش معهم كتاب محمد الذي وضعه قولتير، ويبدو أنه نجح في حوارهِ مع كبار العلماء. والواقع أن الناس لم تصدق زعم نابليون، أنه مسلم، ولكن فهمه وتعاطفه للإسلام خفف من حدة عداء السكان فكان تخفيفاً كبيراً. ولم تسمخض حملة نابليون عن أي شيء، إذ كان مآلها الهزيمة على أيدي الجيوش البريطانية والتركية، ومن ثم لبحر غائلاً إلى أوروبا.

أما القرن التاسع عشر، فقد اتسم بالروح الاستعمارية التي أوجت للأوربيين بعقيدة سقيمة هي تفوقهم على الأجناس الأخرى وشعورهم بأن من واجبه إنتقاذ العالم الهمجي في إفريقيا وآسيا، والقيام في هذا الطريق بحمل رسالة الحضارة إليهم. وقد أدى ذلك حتماً إلى التأثير في النظرة الغربية إلى الإسلام، خصوصاً بسبب أطماع الفرنسيين والبريطانيين في الإمبراطورية العثمانية المضمحلة. وهكذا نجد في كتابات أحد أنصار المسيحية في فرنسا وهو «فرانسوا رينه دي شاتوبريلن»، على سبيل المثال، إحياءاً للمثل الصليبي الأعلى، مع تطويعه لمواءمة الأحوال الجديدة، بعد أن بهرته حملة نابليون، ورأى فيه سمات الحُجاج الصليبيين. فكتب يقول إن الصليبيين حاولوا نشر المسيحية في الشرق، وهي أقرب الأديان إلى «إذكاء روح الحرية»، ولكنهم اصطدموا في جهودهم الصليبية بالإسلام، وهو «عقيدة

معادية للحضارة، وهي تشجع بانتظام على انتشار الجهل والاستبداد والرق»^(٣٠). وهكذا أصبح الإسلام من جديد، إبان التهور الذي أعقب الثورة الفرنسية، نقيضاً لما «نحن» عليه. وكان بعض نقاد الإسلام، أيام الفكر الطيقي الذي ساد العصور الوسطى، يهاجمون محمداً لأنه منح الطبقات الدنيا سلطات أكثر مما ينبغي - مثل العبيد والنساء. وقد انعكس بعد الثورة الفرنسية هذا الوضع، لا بسبب زيادة معرفة الناس بالإسلام، بل لأنه أصبح ملائماً لما نحتاج «نحن» إليه، ولأنه أصبح «الأخر» الذي يمكن أن نحكم على إنجازاتنا بالقياس إليه.

وفي عامي ١٨١٠ و ١٨١١ نشر شاتوبريان كتاباً لاقى نجاحاً ساحقاً عنوانه الرحلة من باريس إلى اورشليم ومن اورشليم إلى باريس أطلق فيه العنان لخياله الصليبي في وصف الأحوال في فلسطين، فكتب يقول إن مظهر العرب «يوحى بأنهم جنود بلا قائد، ومواطنون بلا مشرعين، وأسرة بلا أب»، وهم نموذج «للإنسان التحضر الذي سقط من جديد في هوة الهمجية والوحشية»^(٣١) ومن ثم فإن حالهم يستدعي سيطرة الغرب، لأنه من المحال أن يتولوا بأنفسهم إدارة شئونهم. أما القرآن فيقول إنه لا يتضمن «مبدأ واحداً من مبادئ الحضارة، ولا فرضاً يسمو بأخلاق الإنسان»، فالإسلام يختلف عن المسيحية في أنه «لا يحضّر على كراهية الطغيان أو على حب الحرية»^(٣٢).

وحاول إرنست رينان، عالم اللغة الفرنسي الذائع الصيت، أن يقدم تفسيراً علمياً لهذه الأساطير العنصرية والإمبريالية الجديدة، فقال إن العبرية والعربية من اللغات المنحطة، وهما تمثلان انحرافاً عن التقاليد الآرية، ومن ثم أصبحت عيوبهما تستعصى على العلاج. وقال إنه لا ينبغي دراسة هاتين اللغتين الساميتين إلا باعتبارهما نموذجاً للتطور الذي توقف عند مرحلة معينة، وإنهما تفتقران إلى الطبيعة المتقدمة والمتطورة للنظم اللغوية لدينا «نحن»، ولذلك فإن كلا من اليهود والعرب يمثلون «مجموعة متدنية من عناصر الطبيعة البشرية». ويضيف قائلاً:

«يشهد المرء دلائل في كل شيء على أن العنصر السامي، فيما يبدو لنا، عنصر ناقص بسبب بساطته. وإذا كان لي أن أضرب لذلك مثلاً، قلت إن مقارنته بالأسرة الهندية الأوربية تشبه مقارنة رسم بالقلم الرصاص بلوحة زيتية، فهو يفتقر إلى التنوع والثراء والحفول بالحياة، وهي شروط الكمال. إن الأمم السامية تشبه الأفراد الذين لا يتمتعون إلا بأدنى قسط من الخصوبة، فإذا انتهت طفولتهم السعيدة، لم يصلوا إلا إلى أقل حد من الفحولة، فلقد شهدت هذه الأمم عصر ازدهارها الكامل في مطلع حياتها، ولكنها لم تستطع مطلقاً أن تبلغ النضج الحقيقي» (٣٣).

وهكذا يصهر الكاتب اليهود والعرب في بوتقة واحدة، ليُخرج صورة موحدة تُعلى من شأن شمائلتنا «نحن» وتؤكد تفوقها. ولقد كان لهذه التزعة العنصرية الجديدة عواقبها الوخيمة، بطبيعة الحال، على اليهود في أوروبا. إذ استقى هتلر ما يلزمه من أعماط الكراهية المسيحية القديمة في حملته العلمانية الصليبية على اليهود، فلم يكن يطبق وجود عنصر أجنبي على التربة الأوربية الآرية النقية.

لم يكن قد بقي أحد من المسلمين في أوروبا، ولكن البريطانيين والفرنسيين شرعوا إبان القرن التاسع عشر في غزو أراضي المسلمين. ففي عام ١٨٣٠ قام الفرنسيون باحتلال الجزائر، وقام البريطانيون عام ١٨٣٩ باحتلال عدن، وتقاسموا استعمار تونس (١٨٨١) ومصر (١٨٨٢) والسودان (١٨٩٨) وليبيا والمغرب (١٩١٢). ورغم ما تعهدوا به من منح البلدان العربية استقلالها بعد هزيمة الإمبراطورية التركية، قام البريطانيون والفرنسيون عام ١٩٢٠ بتقسيم الشرق الأوسط إلى مناطق تحت الانتداب أو تحت الحماية لكل من الجانبين.

والعالم الإسلامي اليوم يقرون الإمبريالية الغربية وجهود التبشير المسيحية بالحمولات الصليبية. وهو لا يخطئ في ذلك. فعندما وصل الجنرال ألنبي إلى القدس في عام ١٩١٧ أعلن أن الحملات الصليبية قد اكتملت، وعندما

وصل الفرنسيون إلى دمشق، انجبه قائدهم إلى ضريح صلاح الدين في المسجد الكبير وصاح قائلاً «لقد عدنا يا صلاح الدين!» وكانت جهود التبشير المسيحية توازر المستعمرين، وتحاول تقويض الثقافة الإسلامية التقليدية في البلدان المفتوحة، كما حظيت الطوائف المسيحية المحلية، مثل المارونيين في لبنان، بدور كبير لا يتناسب مع حجمها في إدارة البلد الخاضع للحماية. وقد يحتج المستعمرون بأنهم كانوا يأتون بالتقدم والتطوير، ولكن جهودهم كانت تستند إلى العنف والاحتقار. وقد استغرق فرض السلام في الجزائر مثلاً سنوات عديدة، وكان المستعمرون ينقضون بوحشية على كل من يحاول المقاومة، ويشنون الغارات الانتقامية لهذا الغرض. ويصور لنا المؤرخ الفرنسي المعاصر م. بودريكور إحدى هذه الغارات قائلاً:

وحتى جنودنا الذين عادوا من الغارة كانوا يشعرون بالحجل... إذ أحرقوا نحو ١٨٠٠٠ شجرة، وقتلوا النساء والأطفال والشيوخ. وكانت النساء أمواً الجميع حظاً إذ كُنَّ يتزينن بالاقراط والخلاخيل والأساور الفضية فأثرن الطمع فيها، ولم تكن لها مفاتيح مثل مفاتيح الأساور الفرنسية بل كانت توضع حول المعاصم والكواحل في الطفولة، فإذا كبرت الفتاة وغطت أعضاؤها لم تتمكن من نزعها، ولم يتطع جنودنا أن يحصلوا عليها إلا بقطع أطراف النساء وتركهن في قيد الحياة وقد تشوهت أجسامهن (٣٤).

وقد أظهر المستعمرون ازدراءهم الراسخ للإسلام، فانتقد اللورد كرومر في مصر محاولة الشيخ محمد عبده، المفكر المتحرر، (ت ١٩٠٥) لإعادة صياغة بعض الأفكار الإسلامية التقليدية. وأعلن أن الإسلام عاجز عن إصلاح نفسه، وأن العرب عاجزون عن بث حياة جديدة في مجتمعهم. وقد نشر ذلك في كتابه الأساسى الذى يقع فى مجلدين وعنوانه مصر الحديثة بقوله إن «الشرقى» يتسم بتزعة طفولية لا رجاء فى تفسيرها، ويعتبر النقيض الكامل لما «نحن» عليه:

قال لى السير ألفريد ليال ذات يوم: «الدقة بغیضة للعقل الشرقى. وعلى كل إنجليزى هندی أن يذكر تلك الحقيقة دائماً» والواقع أن الانتقار إلى الدقة، وهو الذى يتفام بسهولة فيتخذ صورة الكذب، هو الخصیصة الرئیسة للعقل الشرقى.

إن الأوربى يعتمد اعتماداً كبيراً على عقله وهو يذكر الحقائق بأسلوب لا لبس ولا غموض فيه، فهو منطقی بالفطرة حتى ولو لم یدرس المنطق، وهو بطبعته ینزع إلى الشك ویطلب الدلیل قبل أن یقبل صدق مقولة ما، وذكاه المدرب یشبه الآلة فى عمله. أما العقل الشرقى فهو یفتقر مثل شوارعه الجمیلة إلى الاتساق والتنظیم. وأما قواعد الاستدلال التى یرتكز إليها فهى غیر محكمة إلى أبعد حد. ومع أن العرب القدماء قد أحكموا إلى حد بید علم الجدل والقیاس، فإن أحفادهم یفتقرون لغتقاراً بالغاً إلى ملكة المنطق. وكثیراً ما یعجزون عن التوصل إلى أوضح النتائج استناداً إلى أى مقدمات بسیطة یقرّون بأنها صحیحة» (٣٥).

وهكذا، ومع أن علماء الغرب لم یتوقفوا عن محاولة رسم صورة تتم بالمزید من الموضوعیة عن العالم العربى والعالم الإسلامى، فإن التفوق الاستعمارى جعل الكثیرین یرون أن «الإسلام» غیر جدير بأن یؤتوه اهتماماً جاداً.

ولاشك أن هذا الموقف الغربى الجارح للمشاعر قد نجح فى إغضاب العالم الإسلامى. ومشاعر العنله للغرب قد تبدو اليوم شائعة بین المسلمین ولكن ذلك من التطورات الجديدة كل الجدة. وإذا كان الغرب قد استند إلى الأوهام فى اعتباره أن محمداً هو العدو. فإن معظم المسلمین كانوا لا یعرفون شیئاً عن الغرب إلا منذ نیف ومائتى عام. كان للحملات الصلیبیه دور أساسى فى تاریخ أوربا وأثرت تأثيراً لا ینكر فى تكوين الهوية الغربیه على نحو ما سبق لى أن أوضحته فى كتاب آخر (٣٦). ولكن الحملات الصلیبیه، على تأثيرها

الواضح والعميق في حياة المسلمين في الشرق الأدنى، لم تؤثر إلا تأثيراً طفيفاً في سائر العالم الإسلامي، إذ لم تكن تعتبر إلا أحداثاً بعيدة على حدود البلدان الإسلامية الأخرى، ولم يتأثر قلب الإمبراطورية الإسلامية في العراق وإيران على الإطلاق بذلك العدو الغربي القروسطي. ومن ثم لم ينظر المسلمون هناك إلى الغرب باعتباره العدو. وعندما كان المسلمون يتحدثون عن العالم المسيحي، لم يكونوا يقصدون الغرب بل كانوا يقصدون بيزنطة، فأوروبا الغربية كانت تبدو لهم آنذاك برية همجية وثنية، ولاشك أنها كانت متخلفة بأشواط طويلة عن سائر العالم المتحضر.

ولكن أوروبا نهضت وانطلقت لتلحق بالركب، دون أن يدرك العالم الإسلامي - الذي كانت همومه الخاصة تشغله - ما حدث. وكانت حملة نابليون على مصر الحدث الذي فتح عيون الكثيرين من ذوى البصر في الشرق الأدنى، وما أكثر ما يهرهم سلوك الجنود الفرنسيين الذي ينم على البساطة والشقة معاً في الجيش الذي تكوّن بعد الثورة. ودائماً ما كان المسلمون يستجيبون للأفكار التي تأتي بها الثقافات الأخرى، وسرعان ما استجاب الكثيرون للأفكار الغربية الآسامية الخاصة بالتحول إلى العالم الحديث. وفي مطلع القرن العشرين كان جميع المفكرين الكبار في العالم الإسلامي تقريباً قد أصبحوا من دعاة التحرر والأخذ بالنظم الغربية. وربما كان هؤلاء المتحررون يكرهون الإمبريالية الغربية، ولكنهم كانوا يتصورون أن المتحررين في أوروبا سوف يقفون في صفهم ويعارضون أمثال اللورد كرومر. كانوا معجبين بأسلوب الحياة الغربية، إذ بدا لهم أنه يقوم على كثير من المثل العليا التي تمثل صلب التقاليد الإسلامية. ومع ذلك فلقد فقدنا في السنوات الخمسين الأخيرة تلك النوايا الطيبة. وكان من أحد أسباب غضب العالم الإسلامي أنه اكتشف تدريجياً مدى العناء والازدراء لنبي الإسلام، وللدين الإسلامي، وهي من المشاعر التي تضرب بجذورها في الثقافة الغربية، والتي يرى المسلمون أنها

ماتزال تؤثر في سياسة الغرب إزاء البلدان الإسلامية حتى في الفترة التي أعقبت الاستعمار.

وتقول الكاتبة السورية رنا قباني في كتابها رسالة إلى العالم المسيحي:
 أليس الضمير الغربي ضميراً انتقائياً؟ إن الغرب يتعاطف مع
 المجاهدين الأفغان، الذين يساندتهم جهاز الاستخبارات الأمريكية،
 شأنهم في ذلك شأن جماعات الكونترا في نيكاراغوا، ولكنه لا يشعر
 بأى تعاطف مع المناضلين المسلمين الذين لا يحاربون من أجل معارك
 الحرب الباردة، بل لهم شواغلهم السياسية الخاصة. وفي الوقت الذي
 أكتب فيه هذا الكلام يموت الفلسطينيون كل يوم في الأراضي المحتلة -
 وقد بلغ عدد القتلى في آخر إحصاء ٦٠٠ قتيل تقريباً. وجرح ما يربو
 على ٣٠٠٠٠ إلى جانب الذين رجع بهم في المعتقلات دون محاكمة
 ووصل عددهم إلى ٢٠٠٠٠ شخص... ومع ذلك فما زالت عيون
 الغرب ترى أن إسرائيل بلد ديمقراطي، وحصن أمامي من حصون
 الحضارة الغربية. ماذا عسانا أن نظن بأمثال هذه المعايير المزدوجة؟ (٢٧)

قد يكون الغرب مسئولاً إلى حد ما عن نشوء الصيغة الأصولية الجديدة
 للإسلام، وهي التي تقترب من زاوية معينة - وهي زاوية كريمة - من أوهاما
 القديمة، إذ نجد الكثيرين في العالم الإسلامي اليوم يرفضون الغرب باعتباره
 كافراً وظالماً ومنحلاً. ويحاول بعض علماء الغرب مثل ماكسيم رودانسون،
 وروى متحدة، ونيكي كيدى، وجيل كيبييل، إدراك معنى هذه النزعة
 الإسلامية الجديدة. ولكن محاولاتهم، كالعادة، للتوصل إلى تفهم أكثر
 موضوعية وتعاطفاً للأزمة الراهنة في العالم الإسلامي لا يابها إلا الأقلية.
 وهناك أصوات أخرى ذات طابع عدواني فهي لا تريد الفهم بل تريد إذكاء
 تقاليد الكراهية القديمة.

ولكن الصيغة الأصولية الجديدة للإسلام لم تنشأ نتيجة لكراهية الغرب
 فحسب، بل ولا تعتبر حركة متسقة بأي معنى من المعاني، فما يشغل

الأصوليين في المقام الأول هو تنظيم أوضاعهم الداخلية والقضاء على التمزق الثقافي الذي تعرض له الكثيرون في الآونة الأخيرة. والحق أنه من المتعذر إصدار أحكام عامة عن نشأة الصورة المتطرفة لهذا الدين، فهي لا تقتصر على الاختلاف من بلد إلى بلد، بل تختلف كذلك من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى قرية. إذ يشعر الأشخاص أنهم قد انفصلوا عن جذورهم، بعد أن تغلغت الثقافة الغربية في نسيج حياتهم. بل إن أثار منازلهم نفسه قد تعرض لتغيير كبير حتى أصبح من الشواهد المقلقة على السيطرة، وعلى الخسارة الثقافية. واللجوء إلى الدين عند الكثيرين معناه محاولة العودة إلى الجذور واستعادة هوية تعرض لخطر داهم. وكل منطقة تشهد نمطاً مختلفاً تمام الاختلاف من أنماط الإسلام، وهو نمط يميز طابعها الخاص ويتأثر تأثيراً عميقاً بالتقاليد والظروف المحلية، وهي التي لا ترتبط بصورة خاصة بالدين. ويقول مايكل جيلستينان في كتاب أصبح من أمهات الكتب وعنوانه التعرف على الإسلام والدين والمجتمع في الشرق الأوسط: إن الاختلافات فيما بين المناطق الشاسعة إلى الحد الذي لا يجدي معه استخدام مصطلح «الإسلام» أو «الأصولية» في تعريف المحاولة الراهنة للإفصاح عما يمر به أبناء الشرق الأوسط في فترة ما بعد الاستعمار. ولاشك أن الظاهرة أشد تعقيداً بمراحل مما توحي به أجهزة الإعلام. ومن المحتمل أن الكثيرين من المسلمين في تلك المنطقة يخامرهم نفس الشعور بالخوف وفقدان الهوية الذي تعرض له شهداء قرطبة الذين كانوا يحسون أن قوة أجنبية كانت تنخر ثقافتهم وقيمهم التقليدية.

لقد دأبنا على وضع أنماط وقوالب جديدة للتعبير عن كراهيتنا «للإسلام» التي يبدو أنها أصبحت راسخة في وجداننا، ففي السبعينيات تملكنا صور أثرية النفط، وفي الثمانينيات كانت الصورة صورة «آية الله» المتعصب، أما منذ مسألة سلمان رشدي فقد أصبحت صورة «الإسلام» هي صورة الدين

الذى يهدر دم الإبداع وحرية الفنان. ولكن الواقع لا تمثله أى صورة من هذه الصور، بل يتضمن عناصر أخرى لا حصر لها. ولكن ذلك لا يمنع الناس من إصدار الأحكام العامة التى تفتقر إلى الدقة. وتشهد رنا قباني ببعض الأقوال العدائية التى وردت على لسان فائ ويلدون، وكونور كروز أوبريان. ففى كتاب بعنوان «الأيثار المقدسة»، وهو الذى أصدرته فائ ويلدون لإبداء وجهة نظرها فى مسألة سلمان رشدى، كتبت تقول:

يعمل القرآن على قمع التفكير، وهو ليس قصيدة يمكن أن يُنى عليها المجتمع بناء سالماً أو عاقلاً، بل إنه يضع الأسلحة والقوة فى أيدى شرطة مصادرة الفكر، وما أيسر أن تدفع أفراد هذه الشرطة على الانطلاق، وهم يقذفون الرعب فى القلوب... وأرى أنه نص محدود، بل ويفرض الحدود والقيود من حيث تفهم التعريف الذى أضعه لله (٣٨).

وينحصر تعليقى على هذه الأقوال فى أنها لا تتفق مع خبرتى فى دراسة القرآن وتاريخ الإسلام، ولو أن كلامى هذا سيجلب لى تهمة النفاق من وجهة نظر كونور كروز أوبريان، الذى يحىى التصاليد التى نعتبر أى احترام للإسلام بمثابة خيانة ثقافية. إذ كتب يقول إن المجتمع الإسلامى

يبدو باعثاً على النفور العميق... هو يبدو منقراً لأنه منقر... فإذا قال أحد أبناء الغرب إنه معجب بالمجتمع الإسلامى مع مواصلة التمسك بالقيم الغربية فهو إما مناقق أو جهول، أو ربما كان يجمع بين بعض عناصر النفاق والجهل معاً.

ويختتم أوبريان كلامه قائلاً «إن المجتمع العربى مريض، ولقد ظل فى مرضه ردهاً طويلاً من الزمن. ففى القرن الماضى كتب المفكر العربى [مهكنا] جمال الدين الأفغانى يقول (إن كل مسلم مريض، وعلاجه الوحيد فى القرآن). ولكن المرض يتفاقم، للأسف، كلما ازدادت جرعة الدواء» (٣٩).

ولكن هذا الاتجاه الصليبي لا يسير فيه جميع النقاد، بل إن كثيراً من العلماء في هذا القرن قد حاولوا توسيع تفهم الغرب للإسلام، مثل لويس ماسينيون، و هـ. أ. ر. جيب، وهنرى كوربان، وأن ماري شيميل، ومارشال ح. س. هودجسون، و ويلفريد كانتويل سميث. إذ حذوا حذو بيتر الميجل وجون سيجوفيا، ولجئوا إلى البحث العلمى لدحض تعصب زمانهن. ولقد نجح الدين، على امتداد قرون طويلة، فى إذكاء التفاهم الجاد بين أفراد مجتمع من المجتمعات. وقد يفضل الناس أحيانا فى التعبير عن مثلهم الدينية العليا بالصورة التى ييغونها، ولكنهم قد ساعدوا على إقامة أفكار العدالة والخير والاحترام والتعاطف مع الآخرين، بحيث أصبحت تمثل المعيار الذى نستطيع أن نقيس به ضروب سلوكنا. وتثبت الدراسة الجادة للإسلام أن المثل القرآنية العليا قد ساهمت مساهمة كبرى، على امتداد ١٤٠٠ سنة، فى انتعاش الحياة الروحية للمسلمين. بل إن بعض العلماء، مثل الباحث الكندى المبرز «ويلفريد كانتويل سميث»، يقول «إن الشريعة المسلمة من المجتمع الإسلامى لا تزدهر إلا إذا كان الإسلام قوياً وحيوياً، ونقياً وخلاقاً وسليماً»^(٤٠) ويرجع جانب من المشكلة الغربية إلى أن الغرب ظل، على امتداد قرون طويلة، ينظر إلى محمد باعتباره نقيض الروح الدينية وعدواً للحضارة المهذبة. وربما يكون علينا إذن، أن نحاول أن ننظر إليه

obeikandi.com

الفصل الثاني محمد رجل الله

خلال شهر رمضان من عام ٦١٠م، تعرض رجل عريى من مدينة مكة بالحجاز يُعمل بالتجارة، لتجربة قُدر لها أن تغير تاريخ العالم. فقد اعتاد محمد بن عبد الله وزوجته وعائلته الالتجاع في غار حراء في وادى مكة في خلوة روحانية. وكانت تلك الخلوة من الممارسات الشائعة في بلاد العرب في ذلك الوقت، وكان محمد يقضى الشهر في الصلاة والزكاة وإطعام الفقراء الذين كانوا يأتون لزيارته في تلك الأيام المقدسة. ومن أعلى تلك القمة الجبلية المشرفة، كان بالإمكان رؤية مدينة مكة المزدهرة بوضوح في السهل. وكان محمد - كغيره من أهل تلك المدينة - شديد الاعتزاز بمكة، وقد أصبحت مركزاً للمال، وأقوى مستوطنة في بلاد العرب. وأصبح تجار مكة أكثر ثراء من كل الأعراب في الحجاز، وكانوا يتمتعون بقدر من الأمن لم يكن متصوراً قبل جيلين حين كانوا يحيون حياة بداءة وترحال في شعاب بلاد العرب القاحلة. وفوق كل ذلك، فقد كان أهل مكة شديدي الزهو بالكعبة، ذلك الصرح المكعب الشكل الذى يتوسط المدينة، والذى اعتقد الكثيرون أنه بيت الله، الإله الأعظم عند العرب في ذلك الوقت. وكانت الكعبة أهم مكان مقدس في بلاد العرب حيث كان الحجاج يتوافدون إليها من كل أنحاء البلاد لتأدية شعائر الحج. وكانت قبيلة قريش، والتي يتسب إليها محمد، مستولة عن مجال التجارة في مكة. وكان أفرادها يعلمون أن قدراً كبيراً من مكانتهم التمييزية بين الأعراب الآخرين، يعود إلى تمتعهم بامتياز عظيم، ألا وهو حماية البناء الجبرائىلى المقدس الضخم، والعمل على التأكد من الحفاظ على قدسيته.

وكان بعض الأعراب يعتقدون أن الله - واللفظ يعنى الإله God - هو نفس الإله الذى يعبده اليهود والمسيحيون. (١) ولكن، وخلافاً لأهل الكتاب - كما كان العرب يدعون أتباع الديانتين الميجلتين - كان العرب على وعى مؤلم أن الله لم ينزل لهم ديناً أو كتاباً خاصاً بهم رغم وجود بيته بينهم منذ زمن موغل فى القدم. ومن هنا كان هؤلاء العرب الذين لهم صلة باليهود والمسيحين يتسابهم شعور بالنقص فلقد بدا لهم وكأن الله قد ترك العرب خارج نطاق قضائه. لكن قدر لذلك أن يتغير حينما انتزع محمد من سبأته فى كهفه الجبلى ووجد نفسه مشدوها بحضور سماوى مذهل. وقبما بعد، شرح محمد تلك التجربة التى تتحدى الوصف بقوله: إن ملكاً أحاط به فى عناق رهيب حتى كأنه تتزع أنفاسه من بدنه. ثم التقى إليه الملك بأمر مقتضب «اقرأ». ودون جدوى حاول محمد أن يعترض قائلاً إنه ليس بمطيع القراءة، فما هو بكاهن، أى أحد هؤلاء المتنبئين المجذوبين فى بلاد العرب. ثم قال إن الملك عانقه مرة أخرى، حتى إذا ما ظن محمد أن تحمله قد بلغ مداه، وجد الكلمات السماوية الموحاة لكتاب سماوى جديد، تندفق من فمه. وهكذا نظقت «كلمة» الله لأول مرة فى بلاد العرب وأوحى الله للعرب بكلماته بلغتهم لأول مرة أيضاً. أما ذلك الكتاب المقدس، فكان هو القرآن.

كانت نتائج تلك التجربة الغريبة مهولة. فحينما بدأ محمد دعوته إلى كلمة الله فى مكة، كانت تسود بلاد العرب حالة من التفكك المزمن. فقد كان لكل قبيلة من قبائل البدو العديدة قانون قائم بذاته، وكانت أيضاً كل قبيلة فى حالة من الحرب الدائمة مع التجمعات القبلية الأخرى. وكان يبدو مستحيلاً للعرب أن يتجمعوا، مما عنى عدم إمكانهم إقامة مدينة أو نظام للحكم يمكنهم من احتلال مركز لهم فى العالم. أما الحجاز فقد بدا وكأن من المقدر له أن يبقى فى حالة بربرية متوحشة خارج نطاق الحضارة، ثم بعد ذلك بثلاثة وعشرين عاماً، أى عند وفاة محمد فى ٨ يونيو عام ٦٣٢م، كان

محمد قد تمكن من لمّ شمل القبائل جميعها وجعلها تلحق بمجتمعه المسلم. ورغم أنه من الصحة القول إن الأمر لم يكن مستقراً تماماً، إذ كان محمد يعلم أن بدأً كثيرين كانوا متمسكين بالوثنية. لكن، وعلى العكس من كل الاحتمالات، استمرت وحدة العرب التي أنجزها محمد. وكان محمد يتمتع بموهبة سياسية رفيعة القدر إذ تمكن من تغيير أحوال أمته تغييراً شاملاً، وأنقذهم من العنف غير المجدى، ومن التحلل، ومنحهم هوية جديدة يزهون بها. وبهذا أصبحوا على استعداد لتأسيس حضارتهم المنفردة. ولقد أطلقت تعاليم محمد مخزون قوة العرب لدرجة أنهم، وفي خلال مائة عام، امتدت إمبراطوريتهم من جبل طارق إلى الهيمالايا.

وعلى هذا، فإن كان ذلك النصر السياسى هو الإنجاز الوحيد لمحمد فمن حقه علينا أن يحوز إعجابنا. لكن نجاح محمد اعتمد على الرؤية الدينية التي نقلها للعرب، والتي اعتنتها بدورها الرعية من شعوب الإمبراطورية، وذلك لأنها لبّت حاجة روحانية لديهم. غير أن محمداً والمسلمين الأوائل لم يحققوا انتصاراتهم بسهولة كما يحلو للبعض أن يتخيل. ولكنهم اشتبكوا فى معارك شرسة يائسة. ولولا أن الاعتبار الأول للنبي ورفاقه المقرين كان للدين، ما كتب لهم البقاء. وخلال تلك السنوات الخطرة، كان محمد مؤتماً بالوحي المباشر الآتى من الله. لكنه كان عليه أيضاً أن يوظف كل ملكاته الطبيعية. أما المسلمون فقد كانوا يدركون القدرات غير العادية لمحمد، ويعون أيضاً أنه قد غير مجرى التاريخ. ولهذا، قفى الزمن الإسلامى الأول أرخ لمسيرته أربعة مؤرخين مرموقين هم محمد بن إسحق (ت. ٧٦٧م) ومحمد بن سعد (ت. ٨٥٤) وأبو جعفر الطبرى (ت. ٩٢٣) ومحمد بن عمر الواقدى (ت. ٨٢٠م) وقد ركز هؤلاء المؤرخون على غزواته. وتعتبر كتاباتهم مصادر حيوية لآى سيرة لمحمد، وعلى ذلك متجربى الإشارة إليها كثيراً فى هذا الكتاب. وهؤلاء المؤرخون لم يعتمدوا ببساطة على أفكارهم الخاصة، بل إنهم حاولوا

أن يعيدوا كتابة التاريخ من جديد إعادة جديدة . فنجدهم يُضمّنون سردهم للأحداث وثائق مبكرة، ويتبعون الروايات الشفاهية إلى مصادرها الأصلية . ورغم تجليلهم لمحمد فإن كتاباتهم ليست سيراً من سير القديسين غير النقدية . فنجد أن الطبرى مثلاً، يورد تلك الحادثة التي أوردتها كتاب «آيات شيطانية» سئ السمعة، والتي تبين أن محمداً كان يخطئ أحياناً . وكذلك، نجد ابن سعد وابن إسحق يُوردان أحداثاً غير مدهنة للرَسُول، وخاصة أنهم قد سجلوا كل ما قالته عائشة، التي كانت تمتاز بالصراحة والجرأة، بأمانة . ومن تلك السيرة - والتي تتميز بثقتها في طبيعة الشخصية التي يؤرخ لها، بالقدر الذي لا يحتاج كاتبوها معها للإغراق في عمليات «لتبييضها» - يخرج القارئ بصورة واقعية مفحمة عن ذلك الإنسان غير العادي .

ومن الطبيعي القول بأن هؤلاء المؤرخين لم يكتبوا بنفس الأسلوب الذي يتبعه المؤرخون الغربيون المحدثون . فقد كانوا رجال عصرهم، وهكذا نراهم كثيراً ما يوردون أقصوصات يُضفون عليها طابع الإعجاز، والتي يمكن لنا اليوم تفسيرها تفسيراً مختلفاً . لكن هؤلاء المؤرخين نجدهم يعون طبيعة مادتهم المعقدة، وأيضاً، يعون الطبيعة المراوغة للحقيقة . لكن المساواة بين البشر - وكما سنرى - سمة ذات جذور عميقة في الإسلام . ومثلاً، ففي الفن الإسلامي - والذي يعرف بالأرابيسك ذي الموتيفات المتكررة - نلاحظ عدم طغيان بعض الجزئيات على الأخرى نتيجة استخدام منظور معين، أو وضع جزئيات بعينها في الصدارة . أما الأثر فيتبع من النموذج الكلي نتيجة للصلات المعقدة المتداخلة التي توحد بين الأجزاء المتساوية . ونجد نفس الروح في كتابات هؤلاء المؤرخين الذين لا يُعلون من قدر نظرية ما، أو تأويلات معينة للأحداث على حساب الأخرى . وأحياناً نجدهم يضعون روايتين مختلفتين تماماً عن نفس الحادث جنباً إلى جنب دون محاولة منهم لشرح وجه التناقض بينهما . فمثلاً يورد الطبرى روايتين مختلفتين للقصة التي

يوظفها كاتب «آيات شيطانية»، وأيضاً فإن ابن إسحق يسجل تقريرين مختلفين لقصة إسلام عمر جنباً إلى جنب دون تعليق على التناقض. وفي كل حال يقوم المؤرخ بتسجيل مصادره بدقة، وحتى إذا ما قيل إن سلسلة المصادر لا تتفق مع المتطلبات الحديثة (للتأريخ) فالمؤرخون في حالتنا هذه يبذلون جهدهم كي تساوى أهمية كل رواية للأحداث. وهم إذ يُوردون كل الروايات لا يوافقون عليها جميعها. وهذا في حد ذاته، لبرهان على أن هؤلاء المؤرخين القدماء، ورغم تبجيلهم الواضح للرسول، كانوا يُضمّنون سيرهم كل الروايات بكل ما يملكون من أمانة وصدق.

ورغم هذا فهناك فجوات في رواياتهم. فنحن لا نعلم تقريباً أى تفاصيل عن حياة محمد قبل تلقيه الوحي في سن الأربعين. فقد تنامت بالضرورة قصص عن ميلاده وطفولته وشبابه وكلها مسجلة في السير، لكن ليس هناك مصادر أكثر ثقة يمكن الرجوع إليها. كما أن المادة عن حياة محمد في مكة إبان سنوات نبوته الأولى قليلة. ففي ذلك الوقت، وحينما كان شخصية مغمورة نسبياً، لم يرَ أحد أهمية تسجيل وقائع دعوته هناك. أما خلال السنوات العشر الأخيرة من حياته بعد هجرته للمدينة، فقد أصبح المسلمون على وعى أن التاريخ يتم صنعه أمام أعينهم المشدوهة، ولهذا تم تسجيل الأحداث بتفصيل أكثر.

واعتمد المؤرخون على الأحاديث الشفاهية التي نقلها صحابة الرسول الأوائل إلى الأجيال التالية. ففي القرن التاسع قام العلماء من أمثال محمد بن إسماعيل البخارى ومسلم بن الحجاج القشيري، بفحص متون وروايات كل حديث فحماً دقيقاً للتأكد من مصداقته. وكانت الأحاديث التي لا يوثق في مصداقية سلسلة روايتها - إما بسبب وجود فجوات أو للشكوك حول سمعة المصادر الدينية - تستبعد بلا هوادة من مجموعة الأحاديث الضخمة، مهما كانت القيمة التعليمية لتلك الأحاديث، أو جاذبيتها إن هي نسبت للرسول،

أو للمسلمين الأوائل. وكما سئرى، فقد أصبحت الأحاديث مصدراً رئيسياً من مصادر الشريعة. ويرهن تحقيق الأحاديث على أن المسلمين تبنا موقفاً نقدياً من تاريخهم المبكر. وتلك الموضوعية تتضح فى أعمال المؤرخين الأوائل أيضاً. ولا ينظر المؤرخون، أو الأجيال اللاحقة لجميع الأحاديث التى تم حفظها وتحقيقها على أنها بنفس الدرجة من الأهمية والثقة.

أما مصدر معلوماتنا الأساسى فهو القرآن. والقرآن بالطبع ليس سرداً لحياة محمد، فإنه كشف عن الخالق أكثر من كونه كشفاً عن رسوله. وهو أيضاً يمدنا بمادة قيمة عن تاريخ المجتمع الإسلامى الأول. ويجد الغربيون القرآن كتاباً صعباً، وسأناقش ذلك بتفصيل أكثر فى الفصول القادمة. لكن ربما كان من الأهمية بمكان أن نوضح فى البداية ماهية ذلك الكتاب المنزل وكيف يجب علينا أن ننظر إليه. فإن محمداً قد قال إنه، ولدة ثلاثة وعشرين عاماً، قد تلقى رسالات مباشرة من الله، وقد جمعت تلك الرسالات لتكون القرآن. وعلى ذلك، فإن القرآن لم يهبط من السماء دفعة واحدة مثل التوراة أو (الوصايا) كما تخبرنا المصادر الإنجيلية عن تنزيل التوراة على موسى فى جبل سيناء. فقد نزل القرآن على محمد سطرأ سطرأ، وآية آية، وسورة سورة. وكانت تلك الرسالات أحياناً تعالج موقفاً محدداً فى مكة. وأحياناً، يبدو القرآن وكأنه يقدم الإجابات على بعض نقاد محمد، أو يشرح الأهمية الكثيرة العمق لمعركة، أو لصراعات معينة فى المجتمع. وبعد إنزال كل رسالة على محمد (الذى قيل عنه إنه كان، مثل كثير من عرب الحجاز، أمياً) كان يتلوها بصوت مرتفع ويحفظها المسلمون عن ظهر قلب؛ بينما كان أولئك الذين يستطيعون الكتابة، يقومون بتسجيلها كتابة. أما العرب، فقد وجدوا القرآن مدهشاً. فلم يكن كإى من تلك الأدبيات التى عرفوها من قبل. ولذلك، فقد اعتنق بعضهم الإسلام فوراً لاعتقادهم أن ذلك الأسلوب غير العادى لا بد وأن يكون منزلاً. أما أولئك الذين رفضوا الدعوة، فقد أصيبوا بالذهول ولم

يجدوا تفسيراً لذلك التزليل المحير. وحتى يومنا هذا، فعند تلاوة القرآن، تهتز مشاعر المسلمين بعمق، كما أنهم يقولون إنهم حين الإنصات إليه يشعرون أن بدءاً صوتياً سماوياً يحيط بهم، إنها تجربة مشابهة لتجربة محمد في غار حراء عندما أحاطه عناق الملك، أو حينما أبصر بعد ذلك، هذا الكائن الغيبي يملأ كل بقعة في السماء يدير إليها بصره.

ويرى الغربيون صعوبة فهم ذلك. فقد رأينا كتاباً مثل جيون وكارلايل، وكانوا متعاطفين إلى حد معقول مع الإسلام، يتحIRON إزاء القرآن، وذلك، في حد ذاته ليس بالأمر المستغرب، إذ إنه من الصعوبة بمكان تذوق الكتب المقدمة للحضارات الأخرى. ومن ذلك، تلك القصة المعروفة التي تروى عن بعض السياح اليابانيين الذين كانوا يزورون الغرب لأول مرة، وكانوا ذوي إلمام معقول بالإنجليزية. ولأنهم كانوا يودون معرفة شيء عن ديانات البلاد التي يزورونها، فقد بدءوا يقرءون الإنجيل، وشعروا بالحيرة الكلية إزاءه. وحين وصولهم إلى الولايات المتحدة فاتحوا أحد المثقفين المرموقين فيما حيرهم: فقد حاولوا عن صدق، المثابرة في قراءة ذلك الكتاب، لكنهم - كما قالوا - لم يجدوا أثراً للدين فيه. فأوضح لهم المثقف الأمر قائلاً إنه إن لم تقرأ تلك الكتابات الإنجيلية من خلال إطار عقلي محدد، فإن من الصعب أن يجد المرء فيها أي شيء سماوي أو ديني في سردها لتاريخ اليهود القدماء.

أما في حالة القرآن، فهناك بالإضافة صعوبة الترجمة. فإن أجمل أشعار شيكسبير مثلاً، غالباً ما تبدو تافهة في ترجمتها إلى لغات أخرى، إذ إنه من الصعب نقل الشعرية الخاصة بها إلى تعبيرات أجنبية. أما العربية، فهي لغة من الصعب ترجمتها. وفي هذا الصدد، يقول العرب إنهم يجدون قصائد وقصصاً في لغتهم الأصلية أمتعهم، غير مستوعبة في ترجمتها إلى لغات أخرى. فإن في العربية شيئاً ما لا يمكن نقله إلى الاستعمالات اللغوية الأخرى. وهكذا مثلاً، تبدو الخطب السياسية للساسنة العرب متكلفة وغريبة

في ترجماتها الإنجليزية. فإن كان ذلك صحيحاً بالنسبة للغة العربية العادية وللاقوال الدنيوية والآداب التقليدية فإن صحة ذلك تتضاعف في حالة القرآن حيث اللغة مركبة بقدر عالٍ، وهي أيضاً مكثفة ومحملة بالإيماءات. ويقول العرب الذين يتحدثون الإنجليزية بطلاقة إنهم حينما يقرءون القرآن في ترجمته الإنجليزية، يشعرون أنهم يقرءون كتاباً مختلفاً اختلافاً كلياً. ورغم أنني سأكثر من الاستشهاد بآيات القرآن، فعلى القارئ ألا يتوقع أن يعتره نفس الإحساس الغامر بتلك الكلمات، الذي اعترى المسلمين الأوائل.

لكن ذلك لا يعني أن نكون صلفين ونتجاهل القرآن. فإن القرآن لا يُقرأ مثل غيره من الكتب. ويقول المؤمنون إن القرآن إذا قرئ بالطريقة الصحيحة فإنه يترك حياً بحضور سماوى ومن الصعب على شخص نشأ في التقاليد المسيحية فهم ذلك، لأنه ليس لدى المسيحيين لغة مقدسة مثل السنسكريتية والعبرية والعربية، والتي هي مقدسة لدى الهندوسيين واليهود والمسلمين. والمسيح نفسه - وليست النصوص المقدسة - هو المعنى بالتزليل المسيحي، ولا يرتبط شيء مقدس بالعهد الجديد المكتوب بالإغريقية. أما اليهود، فبإمكانهم تفهم تلك الروحانية الإسلامية بسهولة أكثر لأنهم يجلسون التوراة، أى الأسفار الخمسة التى يُطلق عليها المسيحيون العهد القديم، بطريقة عمالة، فحينما يدرس اليهود التوراة، فهم لا يعرفون بأعينهم فقط على الصفحات استقاء للمعلومات. لكنهم يقرءون الكلمات بصوت مرتفع لكي يتذوقوا تلك اللغة التى استعملها الإله نفسه حينما أفصح لموسى عن ذاته، حتى يحفظوها عن ظهر قلب (لاحظ دلالة التعبير)، وعادة ما يتمابلون إلى الأمام والخلف أثناء التلاوة، وكأنما تدفعهم الروح الإلهية. ومن الواضح أنه حينما يتلو اليهود التوراة بهذا الأسلوب، فهم يخبرون كتاباً آخر مختلفاً عن ذلك الذى يقرؤه المسيحيون الذين غالباً ما يجدون تلك الأسفار مجموعة غامضة من القوانين شديدة الرتابة. ويخبر المسلمون أيضاً إحساساً بالبركة في كلمات

القرآن. وكشال: الأيقونات والقرآن المقدس في المسيحية، حيث تمثل هذه الكلمات حضوراً حقيقياً لكلمة الله بيننا، فإن الله من خلالها قد عبر عن ذاته في شكل إنساني. ويمكن ملاحظة قوة القرآن من خلال تغيير شعوب كثيرة في الإمبراطورية الإسلامية للغاتها واستبدالها باللغة المقدسة للكتاب المقدس. وطبقاً لشكله الحالي، فسور القرآن غير مرتبة بنفس التسلسل الذي تلاها بها الرسول. فحين تم الجمع الرسمي الأول للقرآن في حوالي عام ٦٥٠م، أي بعد ما يقرب من عشرين سنة من وفاة محمد، وضع المحققون السور الطويلة في البداية، وأقصر السور، التي بدأ بها الوحي، في النهاية(*) وليس في ذلك اعتبار كما يتبادر للبعض، لأن القرآن لا يقدم سرداً قصصياً أو مناقشات تستوجب الترتيب التسامعي. وبدلاً من ذلك، فهناك أقوال وتأملات في مواضيع شتى، مثل حضور الله في الطبيعة، وحياة الأنبياء، ويوم الحساب. ويميل بعض الغربيين للرأي القائل بأن في القرآن تكراراً يبعث على الملل لأنه يبدو كأنه يعالج ذات المواضيع مرات عدة. لكن الكتاب لم يقصد به الدراسة الانعزالية، بل التلاوة الجهرية. فحينما يسمع المسلمون تلاوة سورة قرآنية في المسجد، فإن تلاوة واحدة كذلك تستدعي معها كل مبادئ عقيدتهم. وإلى جانب ذلك، فإن غير المسلمين قد يجدون القرآن مصدراً هاماً للمعلومات عن محمد. ورغم أنه لم يتم جمعه رسمياً إلا بعد وفاة محمد فالقرآن لا تنقصه المصداقية. فالدارسون المحدثون المختلقون، والذين أمكنهم تأريخ مختلف السور بلزجة معقولة من الدقة، يوضحون مثلاً أن السور المبكرة جداً تعالج مشكلات خاصة قابلها محمد والدين بعد في مراحل الصراع الأولى، أما بعد ذلك فقد أصبح بالإمكان طرح تلك الصعوبات جانباً بعد أن قويت دعائم الدين وانتصر. ومن هنا، نجد في القرآن تأملاً، وتعليقاً على الرسالة

(*) هذا مخالف لما روي عن جمع القرآن وترتيبه من خلال الوحي. (الحرر)

المحمدية، الأمر الذى يعتبر فريداً فى تاريخ الأديان. وبذلك، أصبح بالإمكان معرفة الصعوبات المحددة التى كان عليه مواجهتها، ثم تطوير رؤيته وتعمقها لدرجة أصبحت معها عالية النطاق.

وبالمقابل، فنحن لا نعرف سوى أقل القليل عن المسيح. فإن أول الكتاب المسيحيين هو القديس بولس، وقد بعث برسائله الأولى بعد حوالى عشرين عاماً من وفاة المسيح. ولم يكن لبولس، على أية حال، اهتمام بحياة المسيح على الأرض، لكنه ركز كلية على المعنى الروحانى لموته وبعثه. وفيما بعد، اعتمد كتاب الأسفار على الإرث الشفاهى الذى تركز فى المقام الأول حول حياة المسيح فى فلسطين، وسجل هؤلاء الكتاب أقواله أكثر مما فعل بولس. وكان مرقس هو أول من كتب، وذلك بعد وفاة المسيح بأربعين عاماً، أى فى السبعينيات الميلادية. أما متى ولوقا فقد كتبا فى الثمانينيات، وكتب يوحنا حوالى عام ١٠٠م. لكن ذلك السرد الإنجيلى يختلف تماماً عن السير التى كتبها المؤرخون العرب. فقد عنى كتاب الأناجيل بالمغزى الدينى لحياة المسيح أكثر من عنايتهم بسرد الوقائع التاريخية. وتعتبر تلك الكتابات غالباً عن احتياجات واهتمامات وعقائد الكنائس الأولى، أكثر من تركيزها على سرد وقائع الأحداث الأصلية.

فمثلاً، يشير الدارسون المحدثون للعهد الجديد إلى أن السرد الإنجيلى لوقائع عذابات المسيح وموته مشوش تشويشاً تاماً، وأن تلك الوقائع قد تم تغييرها. وربما حدث ذلك لأن مسيحي ذلك العصر كانوا يرغبون فى الانفصال التام عن اليهود، لذا نراهم يلقون مسئولية موت المسيح على اليهود وليس على الرومان. أما أقوال المسيح فلم يسجل منها إلا أقل القليل. ولكن لا يعنى هذا أن تلك الأناجيل ليست ذات مصداقية فهى تعبر عن حقيقة دينية هامة. فقد وعد المسيح حواريه أن يرسل إليهم روحه. ولذا، فيمكن القول إن أكثر ما ألهموا به عمقاً يمكن إرجاعه إلى المسيح نفسه.

أما شخص محمد (كما تظهره الكتابات)، فيختلف كل الاختلاف عن

شخصية المسيح المثالية الخارقة للطبيعة كما يظهرها الإنجيل. ورغم أنه قد تطورت عند المسلمين تبعية رمزية لمحمد، فلم يدعوا قط أنه مقدس. وفي الواقع - وكما تقدمه السير الأولى - فهو شخصية شديدة الإنسانية، وليس هناك تشابه بينه وبين شخوص القديسين المسيحيين. رغم أننا حينما نخترق حجب الكتابات عن القديسين، ننتبه أنهم كانوا مجرد آدميين. ومماثل شخصية محمد أكثر شخصيات التوراة اليهودية النابضة بالحياة من أمثال موسى وداود وسليمان وإلياس وإسحق الذين لم يكونوا قديسين بل كانوا مفعمين بالحياة. إن تجميد الحقيقة العليا، أي الإله، والتي هي أقدس من أن توصف بكلمات، من خلال أطر الحياة الإنسانية المأساوية المغلوطة، لنوع من الصراع الأليم. فمحمد لم يكن قديساً مقبولاً. فقد عاش في مجتمع عنيف خطر، ولذا كان عليه أحياناً أن يتبنى أساليب، يجدها من يحظى منا بالعيش في عالم أكثر أمناً، مقلقة. لكن إذا نحن تركنا توقعاتنا المسيحية للقدامة جانباً، فسنجد محمداً شخصية قوية المشاعر وذات أبعاد مركبة. وكان لدى محمد مواهب روحانية وسياسية عظيمة - رغم عدم توافق الجانبين في أغلب الأحوال - ، كما أنه كان مقتنعاً أن على كل الأفراد المتدينين مسئولية إقامة مجتمع خير عادل. وبينما كان يمتلك محمداً أحياناً الغضب القاتم، فإنه كان أيضاً رءوفاً شديد التأثير وعلى قدر هائل من التعاطف. لم نقراً أبداً أن المسيح قد ضحك، لكننا كثيراً ما نجد محمداً يتسم ويداعب المقربين منه، نراه أيضاً يلعب الأطفال، ويختلف مع زوجته، ويكفي بحرقه لوفاة أحد أصحابه، ويعرض ابنه الوليد مزهوا كأي أب ولع. فنحن إن استطعنا النظر إلى محمد كما ننظر إلى الشخصيات التاريخية العظيمة الأخرى، فمن المؤكد أننا سنراه أحد أعظم العباقرة الذين عرفهم التاريخ. فلأن يأتي براءة أدبية، ويؤسس ديانة عظمى وقوة عالية جديدة، فتلك إنجازات غير عادية. ولكي نوفى عبقرته حقها، فإن علينا دراسة المجتمع الذي ولد فيه والقوى التي صارعها.

فحين هبط محمد من غار حراء حاملاً كلمة الله للعرب، كان يحاول التحيل، فقد كان هناك قليلون من بين العرب في الجزيرة يقتربون من التوحيد، لكنهم لم يكونوا قد تفحصوا المعاني التي تتضمنها العقيدة في الإله الواحد. وليس ذلك باستغرب. فقد استغرق اليهود قروناً ليؤمنوا أن يهوه هو الإله الواحد. وقد يكون الإسرائيليون قد مارسوا الأحادية في العبادة، أي أنهم قد وافقوا على عبادة يهوه وحده، لكنهم كانوا يعتقدون وجود آلهة أخرى. وحتى الوصايا العشر التي أتى بها موسى قومه (كما تذكرها توراة بني إسرائيل) تعترف ضمناً بوجود آلهة أخرى يعبدونها، فإنها تنص قائلة: «لا يكن لك آلهة أخرى أمامي». ولقد مر حوالى سبعمائة عام بين خروج الإسرائيليين من مصر تحت قيادة موسى (١٢٥٠ ق.م) وبين تحقيق الوحدانية التي لا هوادة فيها على يد نبي اليهود الذى يعرف بإشعيا ISIAH الثانى، والذى كان ضمن المنتفيين من اليهود فى بابل عام ٥٥٠ ق. م أما محمد فقد انطلق ليجعل العرب يحققون ذلك الإنجاز الأكبر فى فترة لا تتعدى ثلاثة وعشرين عاماً. وسنرى كيف أن بعض الأعراب ترجوا محمداً أن يتبنوا حل الأحادية فى العبادة، أى أن يعبدوا الله مع بقائهم على عقيدتهم فى وجود آلهة أخرى، بينما يعبد هو وأتباعه الله وحده، لكن محمداً رفض أى توفيقية ويشكل نظمي.

ولم تكن الدعوة إلى الاعتقاد فى الوحدانية مجرد موافقة مفهومية عقلانية. بل كانت تتطلب تغيير الوعى الإنسانى نفسه. فكما يوضح الإنجيل أن الإسرائيليين وجدوا إغراء الوثنية أمراً لا يقاوم، وكذلك وجد العرب إمكانية فقدانهم لآلهة أسلافهم أمراً شديداً الإيلام. وإنه لمن غير المستغرب أن اليهود لم يهجروا الوثنية إلى الأبد إلا أثناء مناهم فى الإمبراطورية البابلية. فالوحدانية - كغيرها من الديانات العالمية العظمى - هى نتاج المدينة. ففى عالم الإمبراطورية، (صار لدى اليهود) منظور أوسع ونظرة مختلفة للعالم

بدت معها الآلهة المحلية مزدرة وغير كافية. فقد وفرت الإمبراطوريات القديمة نظاماً عاماً وأمناً ضروريين لازدهار الحضارة. وقد حث هذا الناس على أن ينظروا للكون نفسه على أنه يسوده النظام، ومن هنا سهل الاعتقاد أنه يخضع لسيطرة موحدة. كما أنه حينما يدرك الأفراد أن أفعالهم ستؤثر في الأجيال القادمة، فإن وعيهم الحضارى يتسارع ويتوالد كما يحدث في المدن الكبرى. أما في المجتمعات الأكثر بدائية، مثل ماكانت بلاد العرب في القرن السابع، فإن وجود مثل هذا المنظور شبه محال. فقد كان من قبيل المستحيل والحياة تحفها المخاطر، والقدر يبدو عبثياً - الاعتقاد في إله واحد رحيم وخاصة أن المجتمعية communalism لا الفردية كانت هي السائدة، كما أنه لم يكن هناك سوى القدر القليل من الأمن الاجتماعى. وتمثل الآلهة الوثنية المتنوعة في المجتمع البدائي مصدراً للقوة والتأثير. لذا فقد بدت للعرب الدعوة لتبذ مصدر محتمل للعون واختيار إله واحد أمراً خاطئاً. ورغم أن بعض الأعراب، كأهل مكة، كانوا يعيشون في المدن، فقد كانت ذكرى الصحراء مارالت حديثة العهد. وهكذا استمرت سيادة المعتقدات القبلية.

ولعل عزلة محمد كانت من السمات البارزة لإنجازاته. ورغم أنه كان يعلم عن اليهودية والمسيحية، إلا أن معرفته بهما كانت محدودة للغاية. كما أن محمداً لم يعمل على إحلال الحل التوحيدى الصعب من خلال موروث مؤسسى ذى زخم وروية خاصة، موروث بمقدوره إمداد الناس بإرشاد أخلاقى ظل يفرس فيهم على مدى قرون. فمثلاً، كان لدعوة المسيح والمقديس بولس جذورها في اليهودية، كما أن المسيحيين الأوائل كانوا من اليهود ومن آزرهم من المرابطين في المعابد اليهودية. وفيما بعد، أخذت المسيحية في الانتشار في الإمبراطورية الرومانية حيث كانت المجتمعات اليهودية قد مهدت لها الطريق وأعدت عقول الوثنيين لتلقيها. أما محمد، فقد كان عليه أن يبدأ من لاشيء تقريباً، وأن يشق طريقه وحده نحو روحانية توحيدية خالصة. ولم يكن لأى

مراقب حياىى أن ىرى أن لىى مىمىء أءنى فرصة فى النىام فىما بىءا ءعوتى . وىان مىل ذلى المراقب سىعترض قائلأ إن العرب لم فىكونوا على أى ءرءة من الرقى تؤهلهم لاسىعاب رؤىة كروىتى . وفى الواقع ، كان الاحتمال الأقوى لمحاولة مىمىء التعرفى بربؤتى على نطاق واسع فى ذلى المىمع البنىف الرهىب ، هو عظم خطورة تلك المحاولة ، وأنه مىجرء نىءة مىمىء بىاتىة إءر تلك المحاولة سىكون من حسن الحظ .

وفى الواقع ، واءه مىمىء أخطارأ كاتت نىءاتىة مىنها شبه إعءاز . ولكنى نىمى ، فىنهاىة بىاتىة كان قء قضى على ءءور ءورة العنق القبلى المزمىة التى كانت النطقة مىتلاة بها . أما الوئىة قءا أصبىحت أمراً لا فىظى بأى اءتمام وىان العرب أفضأ قء اسىعدوا لأن بىلءوا مرءلة ءءىلة فى تارىءهم . ولا بء لنا من اسىعاب الأحوال فى بلاد العرب قبل مىءى الإسلام ، تلك الفئرة التى بءعوها المسلمون الباهلىة ، أو زمن البهالة ، كى نقءر ذلى الإنءاز الفرىء .

الفصل الثالث الجاهلية

تعتبر بلاد العرب اليوم من أغنى مناطق العالم، وتحرص دول العالم الكبرى على حماية مصالحها النفطية فيها. أما حين ولد محمد، في مدينة مكة، في عام ٥٧٠ تقريباً، فلم تكن الدولتان العظيمان في المنطقة تكثران لبلاد العرب، إذ كانت دولتا فارس وبيزنطة تتناحran تناحراً هداً قواهما، ولم يتوقف التناحر إلا قُبل وفاة النبي محمد. كانت كل منهما حريصة على صداقة العرب في جنوب شبه الجزيرة، في منطقة اليمن الحالية. وكانت مملكة بلاد العرب الجنوبية تختلف كثيراً عن سائر المنطقة، فكانت لها مزية الامطار الموسمية، مما أكسبها الغنى والخصب، كما كانت تتمتع بثقافة عريقة متقدمة. أما شعاب بلاد العرب وحزونها فكانت برية تبعث الخوف، يسكنها شعب غير مستأنس أطلق عليه اليونان لفظ «ساراكينوى» أى من يعيشون في الخيام. ولم تنظر فارس أو بيزنطة فى غزو تلك المنطقة الموحشة، ولم يدر بخلد أحد أنها قد أوشت على إجاب دينى عالمى جديد، فلم تلبث حتى أصبحت دولة عالمية كبرى.

والواقع أن بلاد العرب كانت تُعتبر منطقة لا رَبَّ لها، ولم ينجح أى من الأديان المتقدمة، التى لوتبطت بالحدائث والسقدم، فى التفاض إلى تلك المنطقة. صحيح أنه كانت هناك بعض القبائل اليهودية، ذات الأصول المشكوك فيها، فى المستوطنات الزراعية فى يثرب (التي أصبحت المدينة المنورة فيما بعد) وفى خيبر وفدك، ولكنه كان من الصعب التمييز بين هؤلاء اليهود وبين جيرانهم من العرب الوثنيين، كما كان دينهم يتسم إلى حد ما بالسذاجة. أما فى المناطق المتحضرة، فقد اعتنق كثير من العرب الدين المسيحى، وما إن حل

القرن الرابع حتى كانوا قد أقاموا كنيستهم السريانية المتميزة. ولكن الأعراب من بدو الصحراء العربية كانوا يстриيون، بصفة عامة، باليهودية والمسيحية جميعاً، حتى مع إدراكهم أن هاتين الديانتين أكثر تقدماً من دينهم. كانوا يعلمون أن فارس وبيزنطة، وهما الدولتان العظيمان، قد تجهزتا لاستعمال الديانتين في السيطرة الإمبريالية. وكان ذلك قد تجلّى في كارثة احتلال مملكة بلاد العرب الجنوبية، إذ فقدت استقلالها إلى الأبد في عام ٥٧٠، وهو العام الذى شهد مولد النبى محمد. وكانت إمبراطورية بيزنطة المسيحية قد حولت الحبشة، وهى إثيوبيا حالياً، إلى دولة عميلة، عندما تحولت إلى اعتناق صورة مارقة من صور المسيحية، تعرف باسم «المونوفسيتية» أى التى تقول بأن المسيح ذو طبيعة إلهية واحدة. وإذا كانت بيزنطة قد اضطهدت المارقين داخل حدودها، فإنها لم تتردد فى استغلالهم لتحقيق المزيد من أطماعها الإمبريالية فى الخارج، وبعد أن جعلت الحبشة تابعة لها، شجعت حاكمها، النجاشى، على التغلغل فى اليمن بغية إخضاعها لسلطان القسطنطينية. ولكن عرب الجنوب لم يعتمدوا على أنفسهم بل طلبوا العون من فارس على التصدى للخطر القادم من الحبشة، ولّى الساسانيون من حكام فارس ذلك الطلب بكل سرور. وكان الفرس يستخدمون الدين أيضاً كسلاح فكرى فى هذا الصراع لبناء الإمبراطورية، إذ ساندوا الدين اليهودى ضد المسيحية البيزنطية. وفى عام ٥١٠ تحول يوسف أسعائى، ملك بلاد العرب الجنوبية، إلى اعتناق اليهودية، وأصبح يعرف باسم جديد هو «ذو نواس» ومعناها من تتدلى ناصية شعره على جبينه. ولكن محاولة الاستعانة بالفرس كان مآلها الفشل عندما سقطت المملكة اليهودية فى أيدي الحبشة عام ٥٢٥، وقيل إن الملك الشاب الوسيم امتطى صهوة جواده وانطلق إلى ساحل البحر فى يأسه حتى ابتلعت الأمواج الحصان وراكبه. ومن ثم أصبحت المملكة العربية الجنوبية مجرد مقاطعة من مقاطعات الحبشة، وذاب أهلها على طلب العون من الفرس.

وأخيراً قام الملك خسرو^(٥) بغزو المنطقة عام ٥٧٠ فأصبحت مملكة الجنوب ذات العزة مجرد مستعمرة فارسية. وهكذا أصبح الدين الرسمي صورة مارقة أخرى من صور المسيحية، والتي تسمى النسطورية التي تقول بأن المسيح له طبيعتان، طبيعة بشرية (الناسوت) وطبيعة ربانية (اللاهوت)، وهي الصورة التي تُحببها فارس. وكان الأعراب من بدو الحجاز ونجد يتفاخرون تفاخراً شديداً بجيرانهم العرب في الجنوب، ومن ثم اعتبروا أن سقوط دولتهم كارثة كبرى. وانتهى الأمر إلى النظر برية إلى كل من اليهودية والمسيحية.

وزاد من تعميق البرية بهذين الدينين المتقدمين ما وقع من أحداث في الشمال، إذ كانت كل دولة من الدولتين العظميين تحرص على تأمين حدودها مع منافستها، وكذلك حماية حدودها من غارات أبناء الصحراء الرُعناء الذين كانوا يقومون بين الحين والآخر بغزو مناطق الاستقرار المأهولة، في سنوات القحط الشديد. واستعانت كل منهما بالقبائل العربية في الشمال التي تحولت إلى اعتناق الصور المارقة من المسيحية، فقامت بيزنطة بتشجيع عرب الحدود على التحول إلى الدين الصحيح عن طريق بناء أديرة وأماكن للعبادة في تلك المناطق. وانتهى الأمر بأن تحولت قبيلة غسان التي كانت تقضى فصل الشتاء على الحدود البيزنطية إلى اعتناق المسيحية المونوفستية، وأصبحت من حلفاء البيزنطيين، وقامت ببناء مخيم الشتاء الجنوبي خارج الرصافة في سيرجيوبوليس. وكان المخيم يضم قاعة كبرى لرئيس القبيلة، بُنيت بالأسلوب البيزنطي، وماتزال آثارها قائمة حتى اليوم. وهكذا فإن دولة القساسنة كانت تمثل حاجزاً من المفترض أن يحمي الإمبراطورية المسيحية من الإمبراطورية الفارسية التي تدين بالزرادشتية^(١). ولكن فارس استطاعت الراه على ذلك. إذ تحولت قبائل لخم العربية في شرقي سوريا إلى الإيمان

(٥) لعله الملك كسرى. (المحرر)

بالنسطورية، وهي العقيدة التي يفضلها العرب المقيمون في منطقة ما بين النهرين التابعة للإمبراطورية الفارسية. ومن ثم قام الساسانيون بتعيين عرب لحكم حكاماً على دولة تمثل حاجزاً يحمي حدودهم، عاصمتها الحيرة. ولكن فارس وبيزنطة انسحبتا من هاتين الدولتين العربيتين، وامتنع هرقل، الإمبراطور البيزنطي، عن دفع المعونات إلى الغاسنة من باب الاقتصاد في النفقات إبان الحرب مع الفرس في عام ٥٨٤ تقريباً، كما قضى الملك خُرواً على نظام الحكم اللخمي في نحو عام ٦٠٢ وعين حكاماً من الفرس مكان العرب. وعندما قامت الجيوش العربية بغزو تلك المناطق بعد وفاة النبي محمد، أي بعد ذلك التاريخ بنحو ثلاثين عاماً، وجدوا أن العرب فيها يستخفون سخطاً شديداً على الدولتين العظميين، وأنهم على استعداد للاتصواء تحت لواء الإسلام.

ولكن ذلك هو ما حدث في المستقبل. أما في مطلع القرن السابع، فقد كانت صور المسيحية المحرفة محاصرة أعراب وسط الجزيرة العربية: كانت الكنيسة للمسيحية المهية في نجران تبهر عيون البنوء، وإن كانوا مايزالون على ريسهم بتلك النظم الدينية، وعقدوا العزم على مواصلة استقلالهم عن الدولتين العظميين: وساد في نفس الوقت لون من ألوان الامتياز التابع من إحسان العرب بأنهم دون غيرهم دينياً وسياسياً. فكانوا يرون أنهم ما لم يتمكنوا من تكوين دولة بدوية موحدة، والإمساك بزمام أقدارهم بأيديهم، فسوف يظلون عرضة للاستغلال بل وقد يضيع استقلالهم مثلما حدث لعرب الجنوب. ولكن فرصة تكوين دولة بدوية موحدة كاتب بعيلة النال. إذ كان عرب الحجاز ومجد قد عاشوا حياة الرُّحَّل في مجموعات قبلية قروناً طويلة، وكانوا دائماً يحاربون بعضهم بعضاً. وعلى مر السنين نشأ لديهم أسلوب حياة بالغ الخصوصية، وأصبح ذلك الأسلوب هو القاعدة بحلول القرن السادس الميلادي. بل إن العرب الذين كانوا يعيشون في المدن والمستوطنات،

جنحوا لتنظيم حياتهم وفقاً للمبادئ الرعوية القديمة، فكانوا يمتلكون الجمال ويرون أنهم من أبناء الصحراء.

كانت شرعة الأخلاق القبلية تتطلب مهارات فنية واجتماعية معينة، إلى جانب بعض الصفات الشخصية التي حرص الأباء على غرسها في الأبناء. وكان عرب شبه الجزيرة من الرُّحَل على الدوام. ولم يكن الجمال الذي تقوم عليه حياتهم قد استؤنس إلا قبل وقتنا هذا بنحو ألفي سنة، وهو يتمتع بطاقة فذة على اختزان الماء، وقطع مسافات طويلة في الصحراء بسرعة خارقة، وكان العرب أول الأمر مزارعين في أراضي الهلال الخصيب ذات الحضارة العريقة، ولكنهم بعد أن اكتسبوا خبرة طويلة في تربية الحيوانات الصالحة للنقل والسفر، أتجه بعضهم من ذوى الجرأة والجسارة إلى الحياة في المناطق الوعرة القاحلة أثناء فترات الجفاف والعطش التي كانت تقع من حين لآخر. (٢) وكانت محاولة اكتساب الرزق والحياة في هذه الظروف الصعبة دليلاً على التحدى والتعرد على الأقدار القاسية، وربما أظهرت كذلك تصميم العرب على إثبات قدرتهم على البقاء في ظروف تكاد تكون مستحيلة. وانتقلوا بالتدرج إلى الحياة في المناطق الصحراوية، فابتعدوا بذلك إلى حد ما عن مراكز الحضارة القائمة. وكانوا يأخذون جمالهم في الصيف كي تعتلف في مناطق الرعى المجاورة للآبار التي كانت كل قبيلة قد ملكت إحداها، وكانوا يتجولون في الشتاء في التلال التي كانت الأمطار تكسوها بالنباتات الكثيرة، وكانت بمثابة الجنة لحيواناتهم. كانوا يعيشون على لبن الجمال ولحوم الحيوانات التي يصيدها الصيادون. ولكنه كان من المحال على الرُّحَل أن يعيشوا في عزلة، إذ كان بقاؤهم يتطلب الدعم من أهل الزراعة، للحصول على القمح والبلح، وهي أغذية أساسية لازمة لاستكمال طعام الكفاف الذي درجوا عليه. وتغلغل الرُّحَل تدريجياً في المناطق الصحراوية لأرض الهلال الخصيب وشبه الجزيرة العربية، ومن ورائهم المزارعون الرواد

الذين استقروا في الواحات، ثم شرعوا في رى الأراضى المحيطة بها، ونجحوا إلى حد كبير في استزراع الصحراء. وكان المزارعون يعتمدون بدورهم على قدرة الرُّحْل الفائقة على التنقل من مكان إلى مكان، وبفضلها استطاعوا الحصول على البضائع والسلع من الخارج. ولما كان الرُّحْل ذوى مهارات قتالية كبيرة، فقد قدموا الحماية لأهل الاستقرار من العرب في مقابله جزء من المحصول.

كانت الحياة في القفار محقوفة بأخطار داهمة، فكان الجوع لا يكاد يفارق الرُّحْل، وكانوا يعانون من سوء التغذية، كما كانوا يتنافسون منافسة ضارية للحصول على ضرورات الحياة. وكان السبيل الأوحده للبقاء هو التماسك فى إطار مجموعة وثيقة الصلات، فالفرد وحده مقضى عليه. وهكذا قام الرُّحْل بتشكيل أنفسهم فى مجموعات مستقلة على أساس صلة الدم والقرابة. ووجدت بينهم أواصر السلالة الواحدة، حقيقية كانت أو خيالية، فأطلقوا على أنفسهم بعض الأسماء الدالة على ذلك مثل بنى كلب أو بنى أسد (أى من سلالة كلب أو أسد). ومن ثم تحالفت هذه المجموعات مع غيرها لتشكيل تآلفات أكبر، وإن كانت الصلات فى داخلها أضعف. ونحن نطلق فى الغرب على المجموعة الصغيرة لفظ «العشيرة» (clan) وعلى المجموعة الكبيرة لفظ القبيلة (tribe) ولكن العرب لم يكونوا يراعون هذا التمييز دائماً وكانوا يطلقون تعبير «القوم» (ومعناها الشعب أو الناس) على المجموعات الصغيرة والكبيرة جيمعاً. وحتى لا تتضخم القبائل إلى الحد الذى يتعذر معه تدبير شئونها، كانت المجموعات تعيد تشكيل تآلفاتها وتحالفاتها بصفة مستمرة. وكان من الأمور الجوهرية غرس مبدأ الولاء الشديد والمطلق «للقوم» وكل من يحالفه. فالقبيلة هى وحدها القادرة على ضمان البقاء لكل فرد من أفرادها، وإن كان ذلك يعنى أن «الفردية» بالمعنى الذى نعرفه لم يكن لها مكان بينهم، ويصدق ذلك على ما يرتبط بالفردية من حقوق الفرد وواجباته. كان كل

شيء يعتبر ثانوياً بالقياس إلى مصلحة الجماعة. وابتغاء غرس هذه الروح الجماعية أرسى العرب فكرة المروءة، التي تبلغ مبلغ العقيدة، والتي يترجمها الباحثون في الغرب عادة بكلمة «manliness» (أي الرجولية) ولكن معناها أوسع ويتركب من عناصر لا توحى بها الكلمة الإنجليزية، فالمروءة تعنى البسالة في القتال، وتعنى الصبر والجلد على الشدائد، وتعنى التمسك بأخلاق الفرسان وواجب الثأر من أى إساءة تلحق بالقبيلة، وحماية الضعفاء والتصدى للأقوياء. وكانت كل قبيلة تعتز بلون المروءة الخاص الذي تتميز به، وكان المعتقد أن الخلف يرثه عن السلف. وتحقيقاً لمروءة الجماعة، كان على كل فرد أن يهب للدفاع عن إخوته في القبيلة وأن يطيع الرئيس دون مناقشة. أما خارج القبيلة فلم يكن هناك أى التزام، ولم تكن هناك فكرة القانون الطبيعي العام في هذه المرحلة من مراحل التطور العربي.

وكانت المروءة تفى بالكثير من مهام الدين، إذ زودت العرب بعقيدة فكرية وروية خاصة، مما وهب وجودهم الذي تكتفه المخاطر معنى له وزنه. ولكن المروءة كانت ديناً يرتكز على الأرض ارتكازاً كاملاً، فالقبيلة هي القيمة المقدسة له، إذ لم تكن لدى العرب أية فكرة عن الحياة الأخرى، ولم يكن للفرد قدره المنفرد أو مصيره الخالد. وكان لون الخلود الوحيد المتاح للرجل أو المرأة هو خلود القبيلة واستمرار روحها. فواجب كل فرد هو غرس المروءة لضمان بقاء القبيلة. وهكذا كانت القبيلة ترعى ذاتها فحسب. فالمتنظر من رئيسها أن يرعى الضعفاء من أعضاء مجموعته، وأن يتولى توزيع ممتلكاتها ويضائعها بالتساوي بينهم. وكانت الأريحية من الفضائل المهمة، إذ كان رئيس القبيلة يدلل على قوته وثقته بنفسه (ومن ثم على قوة قبيلته) بالكرم الشياض والسخاء البالغ، سواء لأفراد قبيلته أو لحلفائه وأصدقائه في الجماعات القبلية الأخرى.

ومازال كرم الضيافة والسخاء من الفضائل العربية الكبرى، وكان لذلك، بطبيعة الحال، جانبه العملى، فالقبيلة التي تنعم بالثراء اليوم قد تكابد البؤس

غداً، وإذا أمكّت يدك في يوم سَعَدِكَ فمن ذا الذي سيأخذ بيدك وقت الشدة؟ ولكن غرس روح الأريحية أعان العرب أيضاً على تجاوز تجمه الكفاح من أجل البقاء، إذ جعلهم لا يكثرثون للغد، وشجعهم على عدم المبالاة بالأشياء المادية، ولذلك أهميته الجوهرية في منطقة تفتقر إلى ما يكفي من ضروريات الحياة الأساسية. وكانت هذه النظرة أيضاً من العوامل التي أدت إلى الإحساس العميق بالقدر وتقبله، وهو الذي تتميز به صفة المروءة، فالدهر (الزمن أو القدر) من حقائق الحياة الشاقة ولا بد من تقبله بعزة نفس وكرامة. بل إن الحياة لتستحيل إذا لم يتقبل الناس بعض المصائب باعتبارها نوازل محتومة. ومن ثم فقد كان العرب يؤمنون إيماناً راسخاً بأنه من المحال إطالة «الأجل» أي إطالة عمر المرء أو ضمان ما يكفي من «الرزق» أي من الطعام والقوت.

وكان على رئيس القبيلة الذي يتولى حمايتها وحماية كل فرد فيها أن يكون على استعداد للثار من كل إساءة تلحق بها مهما تكن. فافتقار المجتمع إلى قانون عام وإلى سلطة مركزية تتولى تطبيقه معناه أن السبيل الوحيد لضمان الحد الأدنى من الأمن الاجتماعي هو الانتقام أو الأخذ بالثأر. كانت حياة الفرد رخيصة، ولم يكن القتل في ذاته معيياً من الناحية الأخلاقية، فالمعيب فقط هو قتل أفراد قبيلتك أو حلفائهم. وكان على كل قبيلة أن تتأثر لمقتل أي فرد من أفرادها بقتل شخص آخر من قبيلة القاتل. ولم يكن أمام رئيس القبيلة سوى أن يتقم حتى يوفر الحماية لأفراد قبيلته، فإذا لم يفعل، لم يعد أحد يُكن احتراماً لقومه، بل قد يشعر الآخرون أن لهم أن يقتلوا من شاءوا من أفراد قبيلته بمنجى من العقاب. ولما كان من اليسير على الفرد أن يختفي في جزيرة العرب فلا يُعثر له على أثر، لم يكن من الواجب إيقاع العقاب بالقاتل نفسه. وكان العقاب البديل هو إضعاف القبيلة المعتدية بحرماتها من عدد من أفرادها مماثل لعدد من قتلته. ويتبدى في هذا النظام

معنى الروح الجماعية بوضوح وجللاء، ففي سبيل تحقيق هذه الغاية يتساوى جميع أفراد القبيلة. ولما كنا قد تخطينا بل وتجاوزنا كثيراً هذا الضرب من التنظيم الاجتماعي فإننا لا نقبل اليوم مبدأ الأخذ بالشار، لكن الافتقار إلى قوات الشرطة الحديثة كان يفرض الأخذ به لضمان الحد الأدنى من النظام العام. وكان النظام المذكور يضمن كذلك توازناً في القوى إلى حد معقول، إذ كان فقدان فرد ما يؤدي إلى إضعاف القبيلة المعتدية بنفس النسبة. وإذا كان ذلك يعني أنه لن تتمكن جماعة ما من التصوق بسهولة على جماعة أخرى، فقد كان يعني أيضاً أنه كان من المحال على العرب أن يتحدثوا. لم يعتمد العرب إلى تجميع مواردهم الهزيلة نشداناً للقوة بل كانوا، فيما يبدو، يدورون في حلقة مفرغة من أعمال العنف، إذ كان الأخذ بشار واحد يؤدي إلى ثار مضاد، إذا رأت القبيلة أن نطاق الشار كان أكبر مما ينبغي.

وكان من الأساليب العريقة الراسخة للحفاظ على توازن القوى أسلوب الغزوات، وكان ذلك بمثابة عمل دائم بل يكاد يكون رياضة قومية. ففي زمن الشدة كان أفراد القبيلة يقومون بالإغارة على أرض إحدى القبائل المعادية أملاً في الحصول على الغنائم من جمال أو ماشية أو غير ذلك من البضائع. وكانوا يتجنبون إراقة الدماء قدر الطاقة، لأن من شأن ذلك الأخذ بشار القتلى. وكذلك لم يكن السطو يعتبر منافياً للأخلاق، إلا إذا قمت بسرقة بضائع أقربائك أو حلفائك. وكانت الغزوات تضمن قدراً معقولاً من الثراء، وكان معناها أن الأغذية والبضائع المتاحة، مهما تكن قليلة، يمكن أن تقاسمها الجماعات التي تتنافس للحصول عليها، ولو كان ذلك يتم بالفظاظة وبالاحصول عليها دون مجهود.

وعلى ما كان في المروعة من سمات الوحشية، وذلك لاشك فيه، كان المبدأ يتميز بنقاط قوة كثيرة أصبح بعضها من القيم المهمة في الإسلام. لم يكن النبي محمد يعرف سوى ذلك من وسائل التنظيم الاجتماعي، ومن ثم

قام بتنظيم المجتمع الإسلامى على أسس قبلية. وبالرغم من النزعة الفردية الجديدة التى عمل الإسلام على غرسها فى نفوس المسلمين، ظل المثل الأعلى للمشاركة الاجتماعية والأخوة من المثل الجوهرية فى الإسلام. وكان من العناصر ذات الأهمية الحيوية للرؤية الإسلامية للإنسان عنصر المساواة، لأن النظام القبلى لم يكن يسمح بقيام صفوة تتمتع بامتيازات خاصة. لم يكن ثمّ ما يماثل الأرستقراطية أو المناصب المتوارثة. ولم يكن رئيس القبيلة يسلم رئاستها إلى ابنه مثلاً، بسبب حاجة القبيلة إلى أفضل الرجال القادرين على النهوض بالعمل، بغض النظر عن نسبه أو امتيازاته. وكان من شأن نزعة المساواة العميقة والقوية التى سادت آنذاك أن تصطبغ بها روح الإسلام، وأن تسم بها مؤسساته الدينية والسياسية، بل ومؤسساته الفنية والأدبية أيضاً. ولكن أخلاق الجاهلية كانت، على ذلك كله، تمثل شرعة وحشية. فلم يكن يستطيع البقاء غير الأقوياء، وكان ذلك يعنى استبعاد الضعفاء واستغلالهم. وكان قتل الأطفال هو الوسيلة المعتادة للحد من عدد السكان، وكانت وفيات الإناث فى الطفولة أقل من وفيات الذكور، ولكنه لما كانت القبائل لا تستطيع الإنفاق إلا على عدد محدود من النساء، كانت الفتيات يُقتلن فى طفولتهن دون رحمة أو شفقة. والواقع أن النساء، شأنهن فى ذلك شأن العبيد، لم يكن لهن حقوق إنسانية أو قانونية، ولكن يُعتبرن مجرد متاع وحسب. وكن يلقين معاملة قاسية دون أمل فى تحسين أحوالهن. وكان من حق الرجل أن يتزوج بأى عدد من النساء يشاء، ولما كان النسب غالباً ما يثبت عن طريق الأم، كانت النساء يرثن الأملاك رسمياً، ولو أن ذلك لم يكن مصدر قوة أو نفوذ لهن، وكان الرجل أحياناً يقترن بامرأة كى يستولى على ميراثها الذى آك قانوناً إليها.

ولا غرو إذن ألا يابه العرب للدين بالمعنى المتعارف عليه للكلمة. فلم يكونوا يملكون ما ينفقونه على طائفة من القس أو العرافين المسئولين عن

وضع تقاليد قبلية أسطورية. وبدلاً من ذلك كان الشاعر يتغنى بأمجاد القبيلة، وهي القيمة العربية العليا، وكان يخلدها في أشعاره. لم يتجه شعراء العرب إلى حكاية قصص الأرباب وضروب الصراع الكونى بينهم، أو استكشاف الدروب المعقدة للروح في أساطيرهم وحكاياتهم، بل كانوا يصفون معارك القبيلة وإنجازاتها، ويكون ما حلّ بها من كوارث، ويساعدون أفرادها على تقدير المروءة حق قدرها والاحتفال بشمائلها الخاصة. وكان قرض الشعر من المهارات ذات الأهمية الفائقة التي يعلى العرب من قيمتها. ولما كانت الأمية سائدة في شبه الجزيرة، كان الشعراء يقومون بإلقاء أشعارهم شفاهة. وكانوا يشعرون أن جتياً يكنهم، وهو من الجان التي كانوا يظنون أنها تسكن البيداء، والواقع أن العرب كانوا يعتقدون أن الشعر نشاط فوق مستوى البشر، بل كانوا يرون أيضاً أن له طاقات سحرية. و«اللعنات» الصادرة من فم شاعر ملهم قد تكون لها عواقبها الوخيمة على العدو. وكان الإحساس بأن الشاعر تملكه قوة «أجنبية» شائعاً في كل زيارة للوحي الشعري، وكان الشعراء في بلاد العرب يقومون بكثير من المهام التي يضطلع بها القسيس أو النبي في المجتمعات الأخرى، فكان الشاعر «يفتح» ذاته للتعبير عن الآمال والرغبات اللاشعورية لقليله، وكان الناس لذلك عندهم يسمعون كلماته يدركون على الفور أنها تعبر عما يدور في أعماقهم. ولذلك اكتسب الشعراء أهمية جوهرية في الحياة السياسية والاجتماعية في بلاد العرب. وقد قيل إنهم كانوا يؤدون وظيفة الصحافة المثلثة في مجتمعنا الحالي، فكانوا ينشرون المعلومات ويقدمون إلى القبائل الأخرى تفسيرهم للأحداث، مما قد يكون له تأثيره القوي في الحرب الدعائية.

ولكن العصر الذي عاش فيه النبي محمد، شهد طائفة أخرى من الأفراد الذين «يكنهم الجان» دون أن يحفظوا بالاحترام الذي يتمتع به الشعراء، وهم طائفة الكهان. كان الكهان يشبهون العرافين أو المتنبئين الجوالين الذين

تصورهم الأشعار الأولى للكتاب المقدس. لم يكونوا أنبياء بالمعنى الرفيع الذي اكتسبه تعريف النبي فيما بعد، ولكنهم كانوا أقرب ما يكونون إلى العرافين، إذ كان الناس يلجئون إليهم إذا ضاع من أحدهم جمل، أو إذا أراد أحد معرفة الطالع. وكان الكاهن يضطر غالباً إلى التموه، كي يخفى جهله بعبارات غامضة تحتل التأويل، ولذلك كانت «نبوءاتهم» عادة ما تكتسى الفاظاً غير محددة أو متسقة بل غير مفهومة. ولم يأبه محمد، كما سوف نرى، للكهان على الإطلاق، إذ كان يرى أن «نبوءاتهم» تافهة، وخيثة ولا معنى لها.

ولكن العرب كانت لهم بالتأكيد حياة روحية، وكانت لها قيمتها الكبرى لهم، وكانوا يرون أن بعض البقاع ذات قداسة، وكانت بها أماكن ومزارات مقدسة لها طقوسها القديمة التي تركز على رب معين من الأرباب، وكان أهمها على الإطلاق الكعبة، التي تقع قريباً من بئر زمزم المقدسة في مكة. ويبدو أن ذلك المبنى المكعب، الذي بنى من صخور الجرانيت، موغل في القدم، وكان يشبه الأماكن والمزارات المقدسة الأخرى التي بادت. وفي ركن الكعبة الشرقي يوجد الحجر الأسود المقدس، وربما كان نيزكا انقض وهاجاً من السماء ذات يوم ليصل ما بين السماء والأرض. وفي عصر النبي محمد كانت الكعبة مخصصة رسمياً للإله هبل، وهو إله استوردته جزيرة العرب من المملكة النبطية، فيما أصبح يعرف الآن بالأردن. ولكن المكانة الرفيعة للحرم، إلى جانب العقيدة الشائعة في مكة، تشير إلى أنه كان، فيما يبدو، البيت الذي بنى في أول الأمر لله، وهو الرب الأعلى للعرب. وكانت حول الكعبة منطقة دائرية كان الحجاج يقومون فيها بشعيرة الطواف، أي أن يطوفوا سبع مرات حول الكعبة في اتجاه حركة الشمس. وكان حول الكعبة كذلك ٣٦٠ صنماً، أو تماثيل للأرباب، وربما كانت رموزاً طوطمية لشي القبائل التي كانت تجمع البيت في الشهر المحدد لذلك. وكانت المنطقة المحيطة بمكة (وهي دائرة نصف قطرها عشرون ميلاً ومركزها الكعبة) أرضاً حراماً، أي أنها كانت حراماً لا يسمح فيه بارتكاب أعمال العنف أو القتال.

وقد يبدو ذلك غريباً للذين نشئوا في مجتمع علماني مثل مجتمعنا، ولكن الكعبة والطقوس المرتبطة بها كانت فيما يبدو تفي بحاجة روحية ونفسية في بلاد العرب، وسوف نرى أن محمداً كان يشعر بالجاذبية الغامضة للكعبة طوال حياته، وأن شعيرة الطواف التي تبدو للغريب توفيقية وعملة كانت لها أهمية بالغة في حياة الناس في مكة. لم تكن واجباً مضمناً يؤديه الناس مرغمين أو دون تفكير، بل يبدو أنهم كانوا يستمتعون به وجعلوه جزءاً من حياتهم اليومية. كانوا يحبون أن يختتموا رحلة صيد ممتعة بأداء الطواف قبل العودة إلى بيوتهم، وربما كانوا يريدون أن يعرجوا على حانوت بالسوق القريبة لاحتساء النيذ مع بعض الندماء، ثم فضلوا قضاء المساء في الطواف بدلاً من ذلك، بسبب تخلف ندماتهم عن الحضور. تُرى أى دافع كان يحفزهم حفزاً على أداء هذه الشعيرة؟ وما الذي كانوا يرون أنها ستحققه لهم؟

يبدو أن الحرم نفسه كان يتمتع بقداسة مشتركة بين أبناء الجنس السامي كلهم، ويبدو أن الدين السومري القديم هو الذي نبعت منه فكرة الدائرة، والأركان الأربعة (التي تمثل أركان الأرض الأربعة) والرموز المقامة حولها وعددها ٣٦٠، فالسنة السومرية كانت تتكون من ٣٦٠ يوماً، إلى جانب خمسة أيام مقدسة يقضيها الإنسان «خارج حدود الزمن» إن صح هذا التعبير، للقيام بشعائر خاصة تربط بين السماء والأرض. ومن وجهة النظر العربية، من المحتمل أن تكون شعيرة الحج تمثل تلك الأيام الخمسة، إذ كان الحج يؤدي مرة واحدة في العام، ويشارك فيه العرب من شتى أرجاء شبه الجزيرة. كانت شعائر الحج تبدأ بالكعبة ثم ينطلق الحجاج بعد ذلك إلى شتى المزارات المقدسة خارج مكة، ويبدو أنها كانت جميعاً مكرسة لألهة أخرى. وكان الحج في منشئه يقع في فصل الخريف، وذكر بعض العلماء أن تلك الشعائر المختلفة قد يكون القصد منها تمثيل تعف الشمس المحتضرة،

استدراً لأمطار الشتاء، إذ يندفع الحجاج جميعاً إلى قاع وادي المزدلفة، حيث يسكن إله الرعد، ثم يسهرون طوال الليل على السهل المحيط بجبل عرفات، الذي كان يبعد عن مكة بنحو ستة عشر ميلاً، ثم يرجمون بالحصاة الأعمدة المقدسة الثلاثة في منى، وأخيراً ينحرون ذبيحة يقدمونها أضحية أو قرباناً. ولا يفهم أحد اليوم حقاً ما كانت تلك الشعائر تعنيه آنذاك، والأرجح أن العرب أنفسهم كانوا قد نسوا، في عصر النبي محمد، الدلالة الأصلية لها، ولكنهم ظلوا على ارتباطهم الوثيق والعميق بالكعبة وغيرها من المزارات المقدسة في بلاد العرب، ولم يتوقفوا بل استمروا في أداء الشعائر الخاصة بها بتفان وإخلاص.

كل فرد منا يحتاج إلى مكان خاص في حياته يستطيع أن يأوي إليه ويقتطع لنفسه فيه وقتاً خارج الزمن، فهو يساعد على التركيز وزيادة الإبداع. أما في بلاد العرب حيث كانت الحياة كلها كفاحاً مريراً، فلا بد أن المكان المقدس كان يمثل ضرورة لا مراء فيها، فقد كان يتيح للعرب أن يتلاقوا في ظل استرخاء نفسى، ملركين أن قواعد الثأر القبلى قد تعطلت طيلة مقامهم فيه. ومن الناحية العملية كان معنى ذلك أن بإمكانهم ممارسة التجارة فيما بينهم، دون خوف من هجوم قبيلة معادية، وكانت الأماكن المقدسة، مثل مكة، من الأسواق المهمة في العادة، وكانت تعقد فيها سوق سنوية. ولكن الحرم بشعائره كان يوفر للحجاج فترة راحة روحية. ويبدو أن الطواف كانت له وظيفة ترويحية، إذ كان يساعد العرب على التركيز، وعلى أن يكتشفوا في الحركة الرمزية أحد الأبعاد الأزلية لحياتهم.

كان الحرم نفسه، على الأرجح يمثل العالم، أى الأرض بأركانها الأربعة المنتشرة من مركز معين. ويبدو أن الدائرة من التماذج الفطرية القديمة، التى نجدها فى جميع الثقافات تقريباً رمزاً للخلود، وللعالم وللنفس. وهى تمثل، مكانياً وزمناً، كلاً كاملاً، ومن ثم فالسير فى محيط الدائرة أو الطواف

حولها - وهو من الممارسات الدينية المشتركة بين أديان كثيرة - يعنى أنك دائماً ما ترجع إلى النقطة التى انطلقت منها: إنك تكتشف أن فى النهاية البداية . وفى منتصف الدائرة، فى النقطة الثابتة المحددة فى مركز العالم الدوار، يوجد الخلود، وهو المعنى النهائى الذى من المحال التعبير عنه . والحاج الذى يدور مرات حوله يتعلم كيف يُعدّل من مساره وكيف يكتشف مركز ذاته بإزاء العالم من حوله . ومن ثم أصبحت شعيرة الطواف شكلاً من أشكال التأمل، ويبدو أن الحجاج كانوا «بهرولون» أثناءها، والهرولة لا تختلف كثيراً عما نسميه اليوم «المشى السريع» . كان ذلك يتطلب تركيزاً جسدياً، وربما كان عملاً، ولكنه كان لهذا السبب يُعين الذهن على الانطلاق . ومعظم الأماكن المقدسة، فى شتى الثقافات التقليدية، يرى الناس أنها تقع فى مركز العالم، وأنها كانت أولى الأماكن التى خلقتها الآلهة . وكان الحاج يرى أنها قد اكتست بهاء البدايات ورواءها، وكان يحس أنه يقترب بصورة ما من مركز القوة فى الوجود .

إننا نحتاج جميعاً إلى الطقوس فى حياتنا حتى تعيننا على تكوين موقف داخلى: فقطقوس الجمالة، على سبيل المثال، تاعدنا على غرس عادة احترام الآخرين . وفى مجتمعنا الذى يميل إلى العلمانية، توقف الكثيرون عن المشاركة فى هذا اللون من النشاط الرمزي، ومن ثم أصبح يبدو لنا تعسفاً أو مختلفاً . ولكن الفنان هو المنوط فى عالمنا بإبداع الرموز الحافلة بالدلالة، وهو يقدمها إلينا لمساعدتنا على اكتشاف أبعاد جديدة لحياتنا . وفى طقوس الطواف أو شعائر الحج، كان العرب يبدعون لونا من الفن العملى، تمكنوا من خلاله من اكتشاف معنى أو دلالة لا يسهل التعبير عنها بالألفاظ . والأرجح أنهم كانوا يدركون، على مستوى عميق ولو لم يفصحوا عنه، الطابع الرمزي أو المجازى لما كانوا يفعلونه، وهى حالة نفسية فقدتها الكثيرون منا، نحن أبناء العرب . وربما كان من بالغ الصعوبة على الذين نشأوا فى ظل

التقاليد البروتستانتية أن يقدروها حتى قدرها، لأن بعض صور البروتستانتية تنظر إلى الطقوس برية عميقة وبعدها يكاد يوازي بينها وبين الخرافات.

كانت الكعبة أهم حرم، ولكن العرب كانت لهم أماكن مقدسة أخرى. فكان الطواف والتعبد أثناء الوقوف على جبل عرفات في سياق الحج قبل الإسلام من عناصر العبادة الأساسية في كل مكان في شبه الجزيرة. وكذلك كان ما يسمى بالحُمى، وهو الأرض التي يحظر استخدامها للأغراض الدنيوية وتتمتع جميع الكائنات الحية بحق اللجوء إليها والاحتفاء بها. وقد امتدت يد البلى إلى المزارات المقدسة الأخرى، ولكننا نعرف أن هياكل أخرى مثل الكعبة كانت قائمة في نجران باليمن، وفي الأبالات، جنوبي مكة، وإن كان أهم ما يتعلق بقصصنا هنا هو الانصباب الثلاثة القرية من مكة، والتي كانت مكرمة لبنات الله الثلاث. ففي مدينة الطائف التي كان يحيط بها سور كبير، كان يوجد نصب «اللات»، ولم يكن ذلك الاسم يعني سوى «الإلهة»، وكانت ترعاه قبيلة نقيف. وكانوا يحيون أن يطلقوا عليها أيضاً لقب «الربة» بمعنى الملكة أو السيدة الحاكمة. وكان يقوم في منطقة النخلة نصب «العزى»، وكانت أقرب الثلاثة إلى القلوب، وكان اسمها يعني «الجسارة» أو القوية، وكان يقوم نصب «مناة» إلهة القدر، في مزار مقدس على شاطئ البحر عند قُدَيْد. ولم تكن هذه الربيات الثلاث تُشبه ربات مجمع الآلهة في التراث اليوناني والروماني، فلم تكن شخصيات مثل «جونو» أو «بالاس أثينا»، بحيث تكون لكل منها قصتها الخاصة وأساطيرها وشخصيتها المتفردة، ولم يكن لاي منها «مجال نفوذ» خاص، كالحب أو الحرب. ولم يلجأ العرب إلى ابتكار الأساطير اللازمة لتضخيم الأهمية الرمزية لهذه الكائنات المقدسة، فمع أنها كانت تسمى بنات الله، لم تكن تمثل شطراً من مجمع للآلهة مكتمل التفاصيل. وكثيراً ما كان العرب يستخدمون ألفاظ القرابة للدلالة على علاقة مجردة، فكان تعبير بنات الدهر مثلاً لا يعني أكثر من المصائب أو تقلبات

الزمن أو القدر. ويحتمل حقاً أن بنات الله كن يعتبرن من الكائنات المقدسة. وكانت النصب التي تمثلهن فى المزارات قطعاً ضخمة من الحجر، أى أنها لم تكن تماثيل فردية أو لوحات مرسومة تمثل أشخاصاً، وكانت الأحجار تشبه رموز الإخصاب التي كان الكنعانيون يستخدمونها وكثرت الإشارة إليها فى الكتاب المقدس. وتبجيل العرب لهذه الأحجار لم يكن يعنى أنهم يعبدونها بأى معنى ساذج غليظ، بل كان يعنى أنهم كانوا يرونها رمزاً أو رموزاً للقداسة. وقد ذكر بعض العلماء أن هذه الربات الثلاث ترتبط بربات الخصب السامية، مثل عناة وعشتار، ومن ثم فالمحتمل أن يكون تقديسهن قد بدأ قبل أن يعيش العرب حياة الارتحال، أى عندما كانوا مزارعين يعيشون من فلاحه الأرض. (٣)

وإذا كان العرب لم يعبدوا اللات والعزى ومناة باعتبارهن ربات لهنّ ذواتهن الخاصة، فقد كانوا يتحسمون لهن حماساً بالغاً، على نحو ما سوف نرى. وكان تقديسهن مقصوراً على مزاراتهن، أى أن الناس لم يكونوا يصلّون لهن فى منازلهم على نحو ما كان اليونان والرومان يصلون لأربابهم ورباتهم. (٤) ولكنهن كنّ جزءاً أساسياً من الحياة الروحية للبدو فى الحجاز، الذى كانوا جميعاً يعتبرون النخلة والطائف وقُدَيْد من الأماكن المقدسة والمزارات التي تهىء للعرب «نقطة ارتكاز» نفسى. وكانت عراقه الربات، أى البعد الزمنى الهائل الذى يفصلهن عن العرب، من أسباب تأليههن. فكان العرب إذا صلّوا لهن فى الهيكل يشعرون أنهم يتواصلون مع أجدادهم الذين كانوا يبجلونهن فى ذلك المكان نفسه، وكان الإحساس بالتواصل ذا طاقة على رأب صدع الزمن. لم تكن هياكل هذه الربات تعتبر مهمة مثل الكعبة، ولكنها كانت تماثيل الأماكن المقدسة الأخرى فى بلاد العرب فى إيحائها بوسيلة لتأكيد ملكية المكان، وإضفاء مغزى روحى على قفار الفيافي العرية وحزونها. كانت الربات قد أقيمت لتعبر عن الهوية الأساسية للكثير من

العرب، ولذلك فأى مساس بهذه العبادة القديمة يؤدي إلى إحساسهم بتهديد هذه الهوية على أعماق المستويات.

ولكن طائفة أخرى من العرب بدأت تبدي عدم رضاها بالدين القديم، ويبدو أن بلاد العرب شهدت في المرحلة الأخيرة من الجاهلية لونا من القلق الروحي أو ما يمكن وصفه بالملال، فبعد أن كان البدوى يجد في النظام القبلى والوثنية القديمة ما يفي بحاجته قرونًا طويلة، بدأت الحياة تتغير في القرن السادس. كانت معظم مناطق شبه الجزيرة العربية تعيش خارج التيار الرئيسى للحضارة، ولكن العرب بدءوا يدركون بعض أفكارها ودوافعها. ويبدو أن بعضهم قد سمع بالفكرة الدينية التى تقول بالحياة الآخرة، على سبيل المثال، وهى التى تؤكد خلود الفرد وتضع ذلك فى مصاف القيم العليا. فكيف يتفق ذلك مع المثل الأعلى الجماعى القديم وهو فكرة القبيلة؟ كان بعض العرب قد بدءوا تعاملهم التجارى مع البلدان المتحضرة، وعادوا بقصص باهرة عنها، ووصف الشعراء أعاجيب سوريا وبلاد فارس. ولكن العرب، فيما يبدو، لم يكونوا يطمحون فى التمتع بمثل تلك القوة والإنجازات الرائعة، إذ كان النظام القبلى يحول دون تجميع مواردهم الضئيلة ومواجهة العالم باعتبارهم قوة موحدة، وكانوا يدركون إدراكاً مبهماً بأنهم أصبحوا تلك القوة، وكانت القبائل قد وقعت، فيما يبدو، فى شرك الحلقة المفرغة من الحروب وأعمال الأخذ بالشار، فكان كل ثار يؤدي حتماً إلى ثار آخر، فى الوقت الذى كان الإحساس الجديد بالفردية يقرض فى الخفاء حبال الروح الجماعية القديمة.

وكان أكثر من أحس بتقطع السبل بين العرب أولئك الذين انتهوا إلى حياة الاستقرار. ففى القرن السادس، هاجرت إحدى القبائل من منطقة القلاقل فى جنوب الجزيرة العربية، واستقرت فى واحة يثرب، إلى جوار القبائل اليهودية المقيمة هناك. ونجح المهاجرون فى ممارسة الزراعة، ولكنهم اكتشفوا

أن النظام القبلي لم يعد صالحاً بعد أن أقلع العرب عن الترحال في الفيافي الشاسعة وأصبحوا يعيشون جيباً إلى جنب. وما إن حل القرن السابع حتى كانت الواحة كلها، فيما يبدو، قد وقعت في الحلقة المفرغة القديمة، وهي أعمال العتف والحروب. وكانت قبيلة قريش في مكة، التي يتسمى إليها النبي محمد، وكان مولده في عام ٥٧٠ تقريباً، والتي أصبحت أقوى قبيلة في بلاد العرب، تعاني من نوع غامض من الملل، إذ وجدت أن النظام الفكري القديم لم يؤهلها لحياة المدينة.

كانت قريش قد استقرت في مكة في أواخر القرن الخامس. وكان جدُّها الأول قُصَيّ، وأخوه زُهرة، وعمه تيم، قد استقروا في وادي مكة بجوار الحرم. كما أقام مخزوم، وهو ابن عم آخر، وابنا عمه جُمح، وسهم، مع قُصَيّ، وأصبحوا هم والعشائر التي حملت أسماءهم يعرفون باسم قريش الجوف. واستقر أقارب قريش الأبعدون في المنطقة المحيطة بمكة، وأصبحوا يعرفون باسم قريش الأطراف. ويروى أن قُصَيّ سافر إلى سوريا وأحضر معه الربات الثلاث، اللات والعزى ومناة إلى الحجاز، كما وضع الإله النبطي هبل على عرشه في الكعبة، ونجحت قريش، في حملة استعانت فيها بالحيلة والقوة، في حكم مكة وطرد خزامة، القبيلة التي كانت موكولة بالوصاية عليها ولكنها فشلت، في نظر الناس، في أداء الأمانة المقدسة المعهود بها إليها. ويبدو أن صراعاً نشب بين عبد الدار وعبد مناف، ابني قُصَيّ، بعد وفاة والدهما، واستمرت عواقب ذلك الصراع بين أبنائهم وأحفادهم، مما كان له تأثيره في مجرى السياسة الداخلية في مكة حتى عهد النبي محمد. وكان عبد الدار هو الابن القريب من قلب قُصَيّ، وكان يحظى بتأييد مخزوم وسهم، وجُمح، وعمهم عَدِيّ وأبناء أسراتهم. وأصبحوا يعرفون باسم الأحلاف. وأثار عبد مناف بن قُصَيّ قضية ميراثه، وكان يؤيده فيها ابن أخيه أسد، وزُهرة، وتيم، ورجل يتمتع بمهابة كبرى هو الحارث بن فهر. وقد

ختموا العهد الذى قطعوه على أنفسهم بأن غسلوا أيديهم فى إناء من الطيب عند الكعبة، وأصبحوا يعرفون باسم خاص هو المَطيَّون. ولكن أيا من الجانبين لم يكن يريد الدخول فى صراع كبير، ومن ثم توصلا إلى اتفاق يقضى بأن يحتفظ عبد الدار والأحلاف بمزايا اسمية، فى حين تظل السلطة الحقيقية فى أيدي عبد مناف والمطييين. وكان أبناؤهم فى العشائر، ممن يحملون أسماءهم، يميلون إلى الإبقاء على ذلك الحلف.

وبدأت قريش تعمل بالتجارة، وكانت تمزج بين أنشطتها التجارية وبين أنشطتها التقليدية فى تربية الحيوان، وكان موقع مكة مثالياً لمن يريد مزاوله الأعمال التجارية الطويلة الأجل. إذ كان صيت الكعبة الذائع وهبتها من العوامل التى تجذب الكثير من العرب للحج فى المدينة كل سنة، وكان الحرم قد أوجد المناخ الصالح للتجارة. وكانت مكة تقع فى مكان متميز، عند مفترق الطرق أو قل عند ملتقى الطريقين الرئيسيين للتجارة فى بلاد العرب، وهما طريق الحجاز الذى يمتد بحذاء الساحل الشرقى للبحر الأحمر ويربط اليمن بسوريا وفلسطين وشرق الأردن، وطريق نجد الذى يربط اليمن بالعراق. ونجحت قريش لمجاًحاً عظيماً. وعملت قريش على كفالة أمن المدينة بإنشاء أحلاف مع البدو فى المنطقة. ولما كان العرب الرُّحَل يفضلون قريشاً فى مهاراتهم الحربية، فقد قدموا مساعدتهم فى القتال ونالوا فى مقابل ذلك أسهماً فى شتى الشركات التجارية بمكة. وعمدت قريش إلى استثمار فضيلة نادرة تسمى «الحلم»، وهى التى مكنت القبيلة من الإدارة السياسية العاقلة البالغة البزاعة، فأصبحت بذلك أعظم قوة فى بلاد العرب إبان القرن السادس.

وكانت قريش تدرّك ضرورة عدم السماح للدولتين العظيمين باستغلالها، ولذلك التزمت التزاماً صارماً بالحياد فى الصراع الدائر بين فارس وبيزنطة، حتى تتجنب المصير الذى انتهت إليه مملكة الجنوب. ومع ذلك فقد تدهورت

علاقتها مع البيزنطيين تدهوراً شديداً في عام ٥٦٠ تقريباً^(٦٧)، في حين كانت مملكة العرب الجنوبية لاتزال ولاية من ولايات الحبشة، وهي الدولة العميلة لبيزنطة. ويبدو أن أبرهة، الحاكم الحبشى للمملكة الجنوبية، تملكته الغيرة من النجاح التجارى الذى أصابته مكة فحاول غزو المدينة. وعلى ما اكتسبه الحادثة من زركشة أسطورية، فيبدو أن أبرهة قد أدرك أن الكعبة كانت عاملاً أساسياً من عوامل نجاح قريش، فقرر تحويل الحجاج إلى مملكة الجنوب حتى يجتذب المزيد من التجارة، ومن ثم قام ببناء معبد مسيحي رائع فى صنعاء من الرخام المَعْرَق، وقيل إن هدفه المعلن عندما ضرب خيام عسكره خارج مكة كان تدمير الكعبة. ولكن يبدو أن الطاعون قد أصاب جيشه وهو على أبواب المدينة مما أرغمه على الانسحاب فى ذلة ومهانة. واتخذ هذا الخلاص الرائع صورة المعجزة فى أعين قريش، وكان الأحباش قد اصطحبوا معهم فيلاً فى هذه الغزوة، وانبهر أهل مكة بمراى هذا الحيوان الضخم الغريب، وذكر فيما بعد أن الفيل عندما وصل إلى البقعة المقدسة خارج المدينة، جثا على ركبتيه ورفض أن يتحرك. وبعد ذلك أرسل الله حشداً من الطير من ناحية ساحل البحر، فألقت الطيور حصى وحصباء مسمومة على الأحباش فأحدثت بهم القروح البشعة. وأصبح عام الفيل ذا أهمية كبرى لقريش. ويقول محمد بن إسحق، أول من كتب سيرة النبي محمد (ت - ٧٦٧ تقريباً) إن البدو باتوا يحترمون قريشاً بعد هذه المعجزة، «فهم أهل الله، قاتل الله عنهم، وكفاهم مشونة عدوهم» (ابن هشام/٦٢)(٧). وقد أثار قصة الفيل مشاعر النبي محمد نفسه، كما أشار إليها القرآن فى سورة الفيل.

وقد حرصت قريش بعد ذلك حرصاً شديداً على استقلالها، وما إن حلت بداية القرن السابع حتى كانت قد حققت قدراً من الثراء لم يخطر على قلب بشر فى أيام العرب الرَّحَل القديمة. وبطبيعة الحال كانوا يرون الخلاص فى الثراء والرأسمالية، وهى التى أنقذتهم، فيما يبدو، من حياة الفقر والأخطار،

ومنحتهم درعاً من الأمن يكاد يكتسى صفة القدامة. لم يعودوا يعرفون الجوع، ولم تعد تباذهم القبائل المعادية. وبات المال يكسى في أعينهم قيمة شبه دينية، على نحو ما سوف نرى. ولكن الرأسمالية القوية المغامرة لم تكن تمشى في الواقع مع شرعة الأخلاق الجماعية القبلية القديمة، إذ كانت تُشجع، بطبيعة الحال، على نفسي الجشع والتزعة الفردية. وكانت شتى العشائر تتنافس فيما بينها منافسة ضارية، وفي الوقت الذي ولد فيه محمد كانت قد انقسمت إلى ثلاثة أحزاب رئيسية. كانت بعض العشائر الضعيفة، ومنها عشيرة هاشم التي ينتمي إليها محمد، لم تكن قد حققت النجاح الذي أصابته العشائر الأخرى، وكانت تحس بأنها تتعرض لضغوط لا قبل لها بها، إذ كان الناس قد نبذوا الشرعة القبلية القديمة التي تقضى بالمشاركة في الثروة على قدم المساواة، واتجه الأفراد إلى تكديس ثروات شخصية، وغدوا يفتنون على حقوق اليتامى والأرامل، فيضيفون تراثهم إلى ثروتهم، ولم يكونوا يراعون الضعفاء والفقراء من أبناء القبيلة، وفقاً لما كانت الشرعة القديمة تقضى به. أي إن هذا الازدهار الجديد قد مزق الوشائج التي كانت تربطهم بالقيم التقليدية، وكان الكثيرون ممن لم يصيبوا من النجاح ما أصابه غيرهم من أبناء قريش، يشعرون شعوراً مبهماً بأن السبل قد تقطعت بهم فوقعوا في حيرة وضياح. ولكن النظام الجديد كان، بطبيعة الحال، موضع الترحيب لدى أنجح التجار ورجال المصارف ورجال المال، إذ نشطوا لتكديس المزيد من رهوس الأموال بحماس يكاد يشبه الحماس الديني. لم يكونوا قد ابتعدوا بأكثر من جيلين اثنين عن فقر حياة الرّحل، ولكنهم صاروا يعتقدون أن المال والبضائع المادية تستطيع إنقاذهم، وكانوا يريدون الحصول على كل ما يستطيعون الحصول عليه من هذه الأشياء. ولكن بعض أفراد الجيل الصاعد لم يكونوا راضين عن ذلك، وكانوا فيما يبدو يبحثون عن حل جديد، روحى وسياسى معاً، للملال والسخط في المدينة.

كثيراً ما يقال إن الإسلام دين الصحراء، ولكن ذلك غير صحيح. لا شك أن الشرعية القبلية القديمة كان لها تأثيرها في الرسالة القرآنية، ولكن الدين الجديد قد تلقاه عرب مكة أول الأمر في جو من الرأسمالية القائمة على التاجر الفتاك في دنيا المال والأعمال. كان الإسلام نتاجاً للمدينة، شأنه في ذلك شأن جميع الأديان «الاعترافية» العظيمة، والعقلانية الفلسفية اليونانية. وقد يبدو ذلك غريباً لنا لأننا درجنا على اعتبار عزوف عيسى الناصري عن العالم هو خلاصة الروح الدينية. ونحن لا نتوقع ظهور نبي في حي المال والتجارة في مدينة لندن أو في مدينة نيويورك! ولكن الديانات الهندوسية والبوذية والجنينية والكنفوشية ظهرت جميعاً في الأسواق التجارية. وكان فلاسفة اليونان يعلمون الناس في السوق، وكان أنبياء إسرائيل الكبار يُلقون مواعظهم في المدن، في الوقت الذي كان بنو إسرائيل قد بدءوا يتخلون عن حياة الترحال. لقد نشأت هذه الأديان العالمية كلها في المناخ التجاري لحياة المدينة، في الوقت الذي كان التجار فيه قد بدءوا في انتزاع بعض السلطة التي كانت قاصرة في يوم من الأيام على الملوك والطبقات الأرستقراطية والكهنوتية. وكان الازدهار الجديد قد بدأ يلفت أنظار الناس إلى التفاوت بين الأغنياء والفقراء، ويشير قلقهم العميق إزاء مشكلات العدالة الاجتماعية. كان جميع كبار القادة الدينيين والأنبياء قد تصدروا لهذه القضايا وقدم كل منهم حلاً يميزه عن سواه. وفي مطلع القرن السابع، عندما كانت قريش وغيرها من أبناء العرب يسبيلهم إلى التخلي عن حياة الترحال القديمة، والوعي بالمشكلات الاجتماعية لحياة الاستقرار، أتى نبي الإسلام برسالة دينية جديدة إلى العرب.

كان الناس قد بدءوا من قبل يتحسون طريقهم نحو دين التوحيد، وكان البعض على استعداد للإصغاء إلى رسالة محمد من أنه لا يوجد سوى إله واحد، وفي الوقت الذي بدأ فيه دعوته في مكة، يبدو أن الناس كانوا يُقرّون

بوجه عام بأن الكعبة مكرسة لعبادة الله، وهو الرب الأعلى للعرب الوثنيين، رغم وجود صنم هبل وسيادته على باقى الأصنام. وبحلول بداية القرن السابع، كان الله قد ازدادت أهميته فى الحياة الدينية لكثير من العرب. وكثير من الأديان البدائية ترسى الإيمان برب أعلى يطلق عليه أحياناً رب السماء. وكان من المعتقد أنه خلق السماوات والأرض ثم تقاعد، فيما يبدو، كأنما أرهاقه الجهد الذى بذله. وكان الناس قد فقدوا الاهتمام بهذا الكيان المتعالى، والذى لا تدركه الأبصار، ووضعوا مكانه أرباباً أكثر جاذبية وأيسر فى الوصول إليها. كانت ربات الإخصاب بصفة خاصة تؤثر فى حياة الرجال والنساء بصورة مباشرة بعد حياة الاستقرار والشروع فى استزراع الأرض. ونحن نشهد ذلك فى الكتب الدينية اليهودية، إذ بدأ بنو إسرائيل القدماء يعبدون «بعل» و«عناة» و«عشتروت» بعد أن استقروا فى كنعان، إلى جانب ربهم الأكبر «يهوه»، وبدا لهم من الغباء تجاهل هذه الآلهة القديمة التى كانت تعرف الأرض خيراً منهم، أما فى وقت الشدة، فكانوا يضرعون من جديد إلى اسم «يهوه».

والأرجح أن العرب كانوا قد نسوا مهام الإخصاب القديمة للربيات العربيات فى سنوات الترحال والتنقل، ومن ثم أصبح الله، الرب أعلى، يكتسب أهمية أكبر. ويبين القرآن بوضوح وجلاء أن قريشاً كلها كانت تؤمن بأن الله قد خلق السماوات والأرض. وكانت تلك من الحقائق المسلم بها آنذاك: «ولكن سألتهم [أى قريش] من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ﴿العنكبوت: ٦١﴾ (٨) ولكنهم استمروا فى عبادتهم للآلهة الأخرى ولم يفقدوا اهتمامهم العميق بها. ومثلما كان بنو إسرائيل القدماء يفعلون، كان العرب يتوجهون بالصلاة إلى اللات والعزى ومناة فى أيام الرخاء، أما فى الأزمات فكانوا يتوجهون بالفريزة إلى الله، إذ كان وحده يملك القدرة على غوثهم إذا حاقت بهم الأخطار المدلهمة. ويقول

القرآن إنهم إذا كانوا فى الفلك، وكان العرب فيما يبدو يرون فى ركوب البحر مخاطرة حقيقية، كانوا يدعون الله حتى إذا نجاهم، وزال الخطر، ورسوا على اليابسة، بغوا فى الأرض فتوجهوا إلى الآلهة الأخرى. (٩)

ولكن يبدو أن البعض كان على استعداد لما يتجاوز ذلك، ففى متهل القرن السابع كان معظم العرب قد آمنوا بأن الله، ربهم الأعلى، هو نفسه الإله الذى يعبده اليهود والمسيحيون. وكان العرب الذين اعتنقوا المسيحية يطلقون لفظ الجلالة نفسه على ربهم، ويبدو أنهم كانوا يقومون بالحج إلى بيته الحرام مع الوثنيين. ولكن وعى العرب كان يزداد بأن الله لم ينزل عليهم كتاباً خاصاً بهم. ونحن نرى من السير الأولى للنبي محمد أن العرب الوثنيين كانوا يكتون احتراماً كبيراً «لأهل الكتاب» الذين أوتوا من العلم ما لم يُوتَ العرب. وقرر بعضهم أن يبحث عن دين أصيل لا يرتبط بالدولتين العظيمين ولا يصطبغ بما يربطه بالإمبريالية والتحكم الأجنبى. ويقول لنا سوزومينوس، المؤرخ الفلسطينى المسيحى، إن بعض العرب أعادوا اكتشاف دين إبراهيم القديم وظلوا يدينون به فى زمنه، وهو زمن سحيق يرجع إلى القرن الخامس. وإن شئنا الدقة العلمية، فإن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا مسيحياً، إذ كان يعيش فى وقت سابق على التوراة التى أتى بها موسى إلى بنى إسرائيل. وسوف نجد أن بعض العرب كانوا يحاولون ممارسة دين إبراهيم فى بلاد العرب فى الوقت الذى كان النبي محمد يلقى فيه التنزيل.

ويقص علينا ابن إسحق فى السيرة النبوية قصة وقعت قبيل بعثة النبي محمد، إذ حاول أربعة رجال من قريش الخروج على عبادة الأصنام فى الكعبة والبحث عن الدين الصحيح. ومن ثم عقدوا حلفاً سرياً واتهموا زملاءهم فى القبيلة بأنهم قد أفسدوا دين أبيهم إبراهيم، وبأن الحجر الذى يطوفون حوله لا قيمة له، فهو لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، وقالوا لهم فلتبحثوا لكم عن دين، فليس لكم والله من دين تدينون به، ومن ثم

جعلوا يضربون في الأرض، سعيًا وراء الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام. (١٠) (ابن هشام/١٤٣).

ويذهب بعض العلماء في الغرب إلى أن القول بوجود طائفة حنيفية صغيرة لا يزيد عن كونه أسطورة ابتدعها الأتقياء، إذ ترمز للقلق الروحي الذي اتسمت به المرحلة الأخيرة من الجاهلية، وليس من الحقائق التاريخية. ولكن هذا القول لا بد أن يكون قد بُنى على أسس واقعية. إذ إن ثلاثة من أعضاء الطائفة الأربعة كان لهم شأن في حياة محمد وأصحابه الأوائل، كما كان الرابع، وهو عثمان بن الحويرث، من الشخصيات المهمة في مكة عندما كان محمد في العشرينيات من عمره. فكان من تجار قريش، ثم اعتنق المسيحية وحاول إقناع زملائه في القبيلة أن يبايعوه ملكاً عليهم، ووعدهم بأن يُحقق لهم شروطاً تجارية أفضل مع البيزنطيين، وربما كانوا يطمحون في تحويل مدينة مكة إلى دولة عميلة، ولكنهم رفضوا اقتراحه على الفور، إذ كانت قريش، شأنها في ذلك شأن جميع العرب، تُعارض فكرة اتخاذ ملك عليها معارضة شديدة.

أما الحنفاء الثلاثة الآخرون فقد اشتهروا بين أوائل المسلمين، فكان عبيد الله بن جحش هو ابن عم النبي محمد، وقد اعتنق الإسلام ثم تحول آخر الأمر إلى المسيحية. وسوف نعرف في الفصل التالي أن ورقة بن نوفل، الذي تحول هو الآخر إلى النصرانية، كان من أبناء عمومة زوجة الرسول الأولى، وأنه شجعه وآزره مؤازرة مهمة عندما بدأ محمد يتلقى الوحي، وكان يعتقد أنه تنزيل من عند الله. أما ثالث هذه الطائفة التي وصفت بأنها أسطورية، فقد ظل يبحث طوال عمره ولم يكتب له أن يعتنق ديناً رسمياً راسخاً، إذ لم يكتب زيد بن عمرو بالخروج على عبادة الكعبة بل كان، فيما قيل، يتتقد عبادة الأوثان علناً وصراحة. وكان أخوه غير الشقيق خطّاب بن نفيل من المخلصين لعبادة الأوثان، وساء ما كان زيد يفعله، بل غضب من ارتداده

واستهاته بالربات إلى الحد الذي جعله يطرده آخر الأمر من البلدة. وقيل إنه شكل فريقاً من شباب المتحمسين لعبادة الأوثان وجعلهم رقباء على التلال المحيطة بمكة حيث كان زيد يختفى عن الأنظار، بهدف منعه من دخول الكعبة. وهكذا ترك زيد الحجاز ورحل إلى البلدان المتحضرة سعياً وراء الدين الصحيح وبلغ الموصل في العراق ثم ارتحل إلى سوريا، وهو يسأل كل راهب أو حاخام يصادفه عن الدين النقي الذي جاء به إبراهيم. وأخيراً قابل راهباً أخبره أن الوقت قد حان لظهور نبي في مكة يبشر بالدين الذي يبحث عنه. وهكذا عاد زيد أدراجه ولكنه تعرض لحادث اعتداء عند الحدود الجنوبية لسوريا، ولفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن يقدر له أن يقابل محمداً. ولكن ابنة سعيداً أصبح من أخلص صحابة النبي محمد.

والقصة حافلة بالدروس، فهي تعبر تعبيراً بليغاً عن روح التساؤل والبحث التي عرفها بعض العرب آنذاك، وهي تبين كذلك مدى المعارضة التي كانت تنتظر كل من يهدد الديانة الوثنية في ذلك الوقت. وكان بين القرشيين عدو كبير من أمثال خطاب بن نفيل، الذين كانوا يخلصون كل الإخلاص لدين آبائهم، ولا يطيقون سماع كلمة واحدة تمس أربابهم ورياستهم القدامى. لم يكونوا يرون أن ثمة حاجة إلى التغيير، فدين الكعبة دين معقول في نظرهم، وكان عاملاً من عوامل وحدة قريش في مدينتهم. وسوف نرى أن ابن خطاب، واسمه عمر، كان يشارك أباه عشقه المشيوب للعقيدة القديمة. ولكن الشوق لدين بديل ظل قائماً. وتقول إحدى الروايات إن زيدا، قبل إرغامه على مغادرة مكة، وقف بجوار الكعبة، واتكأ على البيت الحرام ثم صاح قائلاً لقريش أثناء الطواف «يا معشر قريش، والذي نفس زيد بيده، ليس فيكم من يتبع دين إبراهيم سوى». ثم أضاف قائلاً: «إلهي! لو أنني أعرف كيف تريدني أن أعبدك لعبدتك العبادة التي ترضاها، ولكنني أجهلها». (١١) ولم يلبث دعاء هذا العربي أن أصبح من الدعاء المستجاب.

obeikandi.com

الفصل الرابع الوحي

لا نعرف عن حياة محمد المبكرة سوى النذر القليل، ويمدنا القرآن بأكثر الأوصاف ثقة عن حالة النبي قبل تلقيه عبه الرسالة في سن الأربعين، يأتي ذلك في سورة الضحى:

«ألم يجدك يتيماً فأوى، ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى..»
(الضحى: ٥ و ٦)

أما فيما بعد فقد أضاف الموروث الإسلامي بعض التفاصيل - والتي قد يكون منها المتخيل - إلى تلك الحقائق العارية. وبالمثل، نجد أن أناجيل متى ولوقا قد أضافت بعض القصص الأسطورية عن ميلاد المسيح وطفولته، والتي هي روايات متخيلة للحقائق اللاهوتية. وتتأمل تلك القصص طبيعة مهمة المسيح على الأرض، وتوضح أنه ومنذ كان في رحم أمه كانت له سمات العظماء. ومثل تلك القصص أضفت على كل من محمد وعيسى صفات الأبطال بالمعنى الكلاسيكي للفظ. فقبل إن كليهما خاض آفاقاً غير مسبوقة من التجربة، وواجه مواقف عظيمة الخطورة، ثم أب إلى قومه حاملاً معه هبة غيرت من حياتهم. ففي تلك الروايات يصبح الأنبياء مثلهم مثل البطل الإغريقي برومسيوس الذي سرق النار من الآلهة وهبط بها على الأرض لتضيء حياة البشر، وتبين القصص عن طفولة هؤلاء الأبطال كيف يتم إعدادهم لأقدارهم الاستثنائية بواسطة قوى خارج نطاق المعرفة، فمنح عيسى مقدرة خارقة على شفاء الأمراض، وكانت المعجزة عنصراً هاماً في مراحل الرشد من عمر عيسى. غير أن محمداً لم يكن صانع معجزات، وكان دائم القول إن تنزيل القرآن هو معجزة في حد ذاته وبرهان كاف على مصدره

السماوى. وكثيراً ما كان محمد يصر على أنه «رجل مثل كل الرجال»، وهذا أمر أكده القرآن فى الآية السابقة المستشهد بها والتي تنص على أنه كان «صلاً» حينما أوحى إليه الله^(٢). أما القصص التي تروى عن المعجزات المتعلقة بحمل أمه به، وبطفولته فهي غير ممثلة لبقية حياته.

وعلى ذلك فبالإمكان النظر إلى بعضها على أنها ردود أفعال تخيلية من قبل الناس لطبيعة نبوته، كما أنها تأكيد ليقين المسلمين أنه هو من تأت إليه الأمم، وترقب الجميع من اليهود والمسيحين مقدمه، وقيل إن راهباً مسيحياً تنبأ ليزيد بن عمرو الحنيف بمقدم نبي عربى. وقد أصبحت تلك النبوءة موتيفة متكررة عن حياة محمد المبكرة فى المجتمع الإسلامى، وفى الواقع، فإن عرب الحجاز لم يكن لهم سوى صلوات قليلة بالمسيحين، وكانوا لا يكادون يعرفون شيئاً عن المسيحية. ولم يكن حتى وفاة محمد أن تعرف العرب على الكنائس المزدهرة والتي كانت فى أوج نشاطها فى سوريا وفلسطين. ولا يعرض القرآن إلا للقليل عن الديانة المسيحية^(٣)، غير أنه لم يكن عدائياً إزاء ديانة عيسى، فقد بين أن رسالة محمد هي استمرار وتأكيد للعقيدة السابقة، وكان بعض المسيحين العرب فى الكنيسة السريانية قد ترجموا جزءاً من الإنجيل بطريقة تبين أنهم كانوا يتوقعون رسالة محمد. فقد ذكر أن المسيح قال إنه سيرسل بعد وفاته إلى أتباعه «روح قدس» Paraclete، يقوم بتذكرتهم بكل ما علمهم إياه ويساعدهم على فهمه^(٤). وترجم اللفظ Par-acleto فى ذلك الجزء من الكتاب المقدس السريانى إلى الكلمة «Munahbema»، والتي بدت، بعد الحدث، قرية جداً من محمد. وكان اللفظ الذى ظهر لدى بعض المسيحين العرب الآخرين هو Periklytos،

(٥) عرض القرآن إلى لب الديانة المسيحية على لسان عيسى وهو فى المهدي، كما ذكر عقيدة النصارى. وتحدث عنهم بهذا اللفظ، ويلفظ «أهل الكتاب»، كما تحدث عن مواطن الخلاف معهم. (المحرر)

والتي تترجم إلى اللفظ العربي «أحمد»، وهو اسم كان شائعاً في بلاد العرب. ولا بد أن محمداً قد أعلم بتلك الترجمة، كما أن القرآن يشير إلى المعتقد بأن المسيح قد بشر برسول يأتي من بعده اسمه «أحمد» ليؤكد رسالته^(٤). ويُعتقد أيضاً أن يهود المستوطنات الزراعية في شمال بلاد العرب كانوا يتوقعون مقدم رسول في شبه الجزيرة. ويحتمل أنه كان هناك تزايد مفاجئ لعقيدة مسيانية عكست حالة القلق في بلاد العرب في نهاية زمن الجاهلية من خلال منظورات يهودية تقليدية. وقد حدث أيضاً أن هاجر حاخام يهودى شديد الورع من سوريا إلى يثرب، وحينما سأله الناس عن السبب الذى من أجله ترك ذلك البلد الخصيب اللطيف إلى «أرض الصعاب والجوع» - أجاب بأنه يرغب أن يكون موجوداً فى الحجاز عند وصول «النبي»، ثم قال لقبائل يثرب اليهودية: «لا تتركوا أحداً يصل إليه قبلكم أيها اليهود. إنه سيبعث لسييل دماء وبأسر نساء وأطفال الذين يعارضونه. لكن، لا تدعوا ذلك يثنيكم عنه»^(٥). وكان أن ترك ذلك المناخ المياني أثراً كبيراً على عرب يثرب الذين شعروا أن دينهم أقل شأنًا وكفاءة مقارنة بالرسالة المنزلة التي يملكها اليهود في كتابهم المقدس. وفيما بعد، تذكر أحدهم حالة التوتر التي سادت بين القبائل اليهودية والعربية في الواحة (يثرب) فقال:

لما كنا نسمع من رجال يهود، كنا أهل شرك أصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا، وكانت لاتزال بيننا وبيننا شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه تقارب زمان نبي يبعث الآن تقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك.^(٦)

وسنرى في الفصل السابع كيف أن هذا هيا عرب يثرب لمقدم محمد. ولذا، فإنهم حينما قابلوه تعرفوا عليه في التو على أنه ذلك الشخص المنتظر. وبالمثل، فإن الكتاب المقدس يتحدث عن وجود إحساس عال بتوقعات في فلسطين، حيث ساد، على ما يبدو، جو مسياني عمائل. فحينما

يتكلم نبي باسم الله، فهو أيضاً - وبمعنى أعمق - يتحدث باسم الناس، إذ إنه ينطق بأمالهم ومخاوفهم ويشاركهم حالة القلق السائدة، لكن باستطاعته أن يخاطبهم على مستوى أكثر عمقاً. وتلك القصص، عن توقعات اليهود والمسيحيين في بلاد العرب تعكس حالة عدم ارتياح روحى هناك في مطلع القرن السابع، لكنها أيضاً تبرهن على الأثر القوي للأبطال الأنبياء مثل عيسى ومحمد على أجيالهم والأجيال اللاحقة أيضاً، أى أنها تقول إن إنجازاتهم كانت مرموقة ومتوافقة تماماً مع حاجة زمان كل منهم، حتى إنها بدت، بشكل مبهم، مقدرة، وإنها أيضاً قد حققت الطموحات الدينية السابقة عليها.

أما محمد فقد كان على وعى حادّ بالأمراض التي أصابت مجتمع مكة، رغم النجاحات المبهرة الأخيرة، وكان قد ولد في عشيرة بنى هاشم حوالى عام ٥٧٠م، وكانت العشيرة قد ذوت قوتها وساء مركزها. أما هاشم بن عبد مناف حفيد قصي، فكان شخصية هامة إبان حياته. فإنه أول من قام بإعداد القافلتين اللتين كانتا تسيران كل عام من مكة إلى الشام واليمن. وقيل أيضاً إنه كان على علاقة طيبة بنجاشى الحبشة وإمبراطور بيزنطة. وفي البداية، أخذت العشيرة التي أسسها طريقها إلى الازدهار، أما عبد المطلب بن هاشم، فكان شخصية كاريزمية ويعتقد أنه أعاد اكتشاف بئر زمزم المقدس وكان أسلاف قريش من الكفار قد ردموه. ولذلك كان لعشيرة هاشم تميز إمداد الحجاج بالمياه من زمزم لدى حضورهم لتأدية الشعائر. وكان عبد المطلب تاجراً كبيراً، أما قطيعه من البعير فكان شاهداً على استمراره في مزاولته نشاطات البدو الرحل. وكان لديه عشرة من الأبناء وست من البنات يفوقون بعضهم البعض في الجمال وحسن المنظر. وقد ذكر المؤرخ محمد بن سعد الأثر الذي كان يتركه أبناء عبد المطلب فى القوم فقال ما معناه: لم يكن بين العرب من هم أشد تميزاً ومهابة منهم، ولا أنبل وجهاً منهم. وكانت أنوفهم

من الطول حتى أنها كانت تستقى قبل شفاهم. (٧) وكان الابن الأصغر عبد الله حياً إلى قلب عبد المطلب بصفة خاصة، وقيل إنه كان أكثر وسامة من إخوته. وعبد الله هو والد محمد. كانت تلك السنوات حاسمة بالنسبة لقريش التي أخذت أقدار عشائرها تتغير بصفة مستمرة. ووقع أثناء طفولة محمد حادث له دلالة فقد أضحى النزاع بين «الأحلاف» والمطيين وبرهن على مدى تدهور أقدار بني هاشم حين كان عبد المطلب في أرذل العمر. فقد باع تاجر يعنى بضائع لأحد أهم رجال عشيرة «سهم» التي كانت من «الأحلاف». لكنه رفض دفع ثمنها. والتجأ اليمنى إلى قبيلة قريش لإحقاق العدالة، ودعا رئيس عشيرة تيم أى شخص يهيم العدالة والمعاملة الحقة إلى الحضور واستجابت عشائر بني هاشم وعبد المطلب، وأسد، وزهرة، وكلهم من المطيين، وعقدوا عهداً عرف فيما بعد بحلف الفضول (٨). ثم ذهب الجميع إلى الكعبة وأقسموا أن يساندوا المظلوم والمضطهد دائماً. وقيل إن الصبي محمداً كان حاضراً تلك المراسم وإنه تحدث بحماس واستحسان عن ذلك التجمع الذى اتسم بالشهامة. فقد كانت العشائر التى لحقت ذلك الحلف فى مركز أضعف من عشائر «الأحلاف» الذين كانوا يحتكرون تجارة مكة ويضيقون على الآخرين. ويبدو أن ذلك الحلف تكون لمجابهة المحتكرين من أجل حماية مصالحهم.

وتوضح ظروف طفولة محمد أن عائلته كانت تمر بأوقات صعبة. فحينما حان الوقت كى يتزوج عبد الله قرر عبد المطلب أن يتزوج هو الآخر كى يُقيم تحالفاً مع عشيرة زهرة. وهكذا خطب لنفسه هالة بنت أهيب، وخطب آمنة بنت وهب، والدة محمد، لولده عبد الله، وكانت كلتاها قريبتى تاجر مرموق من زهرة. وتمثل القصة المتداولة عن حمل آمنة بمحمد تناقضاً ملحوظاً لقصة حمل مريم بعبسى. فبخلاف الحمل العذرى فى حالة عيسى، وكما يروى، كان عبد المطلب وولده عبد الله ييران فى شوارع مكة معاً لزيارة

زوجتيهما حديثى العهد حينما اندفعت امرأة من منزلها ودعت عبد الله إلى فراشها. وفيما يبدو أنه كان باستطاعة العرب قبل الإسلام أن ينكحوا أى عدد من النساء. ويبدو أيضاً أن عبدالله لم يجد غضاضة فى العرض رغم أنه كان فى طريقه إلى زفافه، فقد أجاب المرأة ببساطة قائلاً: إن عليه أن يكون مع والده، لكنه عزم على أن يزور المرأة وهو فى طريق عودته فى الصباح. وحينما وصل إلى منزل والد أخته، نكح زوجته التى حملت من فورها فى محمد، وفى الصباح، حينما ذهب ليفتش عن المرأة التى دعتة إليها لم تُبد اهتماما وقالت له إنه فى الليلة البارحة كان هناك ضوء ساطع يشع من بين عينيه، الأمر الذى دلّ على أنه كان على وشك أن يكون أباً لنبى، أما فى هذا الصباح فإن ذلك الضوء قد اختفى، وحملت امرأة أخرى فى رسول الله.

وتوفى عبد الله أثناء حمل زوجته، وكانت الأسرة تعاني من الضيق قدرأ لم يستطع معه أن يترك لها سوى خمسة من البعير وأمة صغيرة اسمها بركة^(٥). ويقال إن أخته لم تشعر بأية متاعب أثناء حملها. وبدلاً من ذلك فقد سمعت صوتاً ينبها بأنها تحمل سيد العرب، ورأت نوراً يخرج من بطنها وأبصرت من خلاله قلاع البصرة وسوريا التى تلقت نور الإسلام فيما بعد. وولد محمد فى الثانى عشر من ربيع الأول وأرسلت أخته فوراً إلى عبدالمطلب قائلة له إن الوليد سيصبح رجلاً عظيماً يوماً ما. وفى غمرة الفرحة والامتنان حمل الشيخ حفيده إلى الكعبة. وقيل أيضاً إن عبد المطلب كان قد أنبئ بالمستقبل العظيم الذى ينتظر حفيده. فقد تنبأ كاهن أن أحد سلالة عبد المطلب سيحكم العالم، كما أنه رأى حلمأ ذات ليلة رأى فيه شجرة تخرج من ظهر الطفل تصل قمتهأ إلى السماء وتمتد فروعها شرقاً وغرباً، وخترج منها ضوء عبده العرب والفرس (الذين قبلوا الإسلام فيما بعد).

(٥) فى الأصل الإنجليزى (Bahira)، والصواب أنها بركة الحبشية، أو أم إيزن، وميائى ذكرها فى النصل القادم.
(المرر)

وكان الاطفال غالباً يُسلمون إلى مرضعات فى الصحراء يتبنونهم، حيث كان الاعتقاد أن الصحراء أكثر فائدة للصحة من المدينة. وكانت البدويات على استعداد لآخذ أطفال قريش لإرضاعهم، وذلك لأنهن كن يتوقعن الهدايا والمعونة من العائلة. ولكن - ولأن آمنة كانت فقيرة - لم تهتم النساء بمحمد. وكانت تلك السنة سنة جدباء عانت فيها كثير من القبائل من المجاعات القاسية. ولما كانت قبيلة بنى سعد معدمة، قررت حليلة بنت أبى ذؤيب، والتي كانت تنتمى إلى تلك القبيلة، أن تأخذ محمداً، وذلك لأنها لم تجد رضيعاً غيره. ولكن حليلة كان قد بلغ بها الجوع لدرجة أنها لم يكن لديها حليب لترضعه وليدها، أما شارفها (ناقتها) فكان ضرعاًها قد جفا، كما تهالكت أتانها، التي كانت قد ركبها إلى مكة. لكنها بمجرد أن تسلمت محمداً حدثت أمور أخرى. فتقول حليلة: «فلما أخذته، رجعت به إلى رحلى فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن فشرب حتى روى، وشرب معه أخوه حتى روى، ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك وقام زوجى إلى شارفنا تلك، ماذا إنها لحافل! فحلب منها ما شرب، وشربت معه حتى انتهينا ربا وشبعنا فبتنا بخير ليلة. قالت: يقول صاحبى حين أصبحنا: تعلمى والله يا حليلة لقد أخذت نسمة مباركة، قالت: فقلت: والله إنى لأرجو ذلك. قالت: ثم خرجنا وركبت أتانى وحملته عليها معى، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها من شىء من حمهم حتى إن صواحبنى قُنن لى: يا ابنة أبى ذؤيب، ويحك! أرى عينا، أليست هذه أتانك التى خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله، إنها لهى، فيقلن والله إن لها لشأنا. قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً لنا، فنحلب ونشرب. وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها فى ضرع، حتى كلُّ الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانها: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت

أبى ذؤيب فتروح اغنامهم جياعاً ما تتبض بقطرة لبن، وتروح غنمى شباعا لبنا. فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت ستاه وفصلته، وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ ستبه حتى كان غلاماً جفراً» (٩).
فمن غير المستغرب إذاً أن نرى حليلة غير مرجحة بفقدان محمد وتوسلت إلى أمنة أن تتركه معها لحين من الزمن، لكن وقعت حادثة مخيفة منكرة جعلتها تعدل عن رأيها.

تقول القصة إنه ذات يوم اتدفع إخوة محمد فى الرضاعة نحو والديهم وهم يصيحون فى رعب قائلين إن رجلين يرتديان البياض قد أمسكا بمحمد ويبدو أنهما شقا بطنه. واندفعت حليلة إلى الموقع لترى الطفل يرقد فى وهن على الأرض، ثم قال فيما بعد إن الرجلين قد اتترعا قلبه من صدره وقاما يغله بالشلج. وبعد ذلك وضعا على ميزان ثم أعلمها أنه أكثر ثقلا من العرب مجتمعين. وفى النهاية قبله أحدهم على جيته وخاطبه برفق قائلاً له إنه حبيب الله حقاً ولن يخاف أبداً. ولو علم ما أعده الله له لغمرته العادة (١٠).

ولتلك القصة مثيلاتها فى أقصوصات الحضارات الأخرى التى تصف شعائر الإعداد initiation، وهى ترمز إلى النقاء الضرورى للشباب المعد لكي يتلقى تجربة سماوية دون تلويث الرسالة المقدسة. وقد قال بعض كتاب المسلمين إن تلك الحادثة وقعت قبل الإسراء، الأمر الذى يدل على إمامهم بمغزها الحقيقى.

لكن حليلة المسكينة وزوجها الحارث لم يكونا يعلمان شيئاً عن هذا، ولذلك كان بديهاً أن يتملكهما الرعب. وهكذا اعتقنا أن محمداً تملكته نوبة مرضية فذعرا وعادا به من فورهما إلى مكة قبل أن تشتد أعراض مرضه. لكن أمنة طمأنتهما وطلبت منهما إخبارها بالقصة، ثم هدأت من روعيهما مخبرة إياهما أن طفلها غير عادى وأنه قد تُنبئ له بمستقبل عظيم. وقررت

استبقاء محمد معها فى مكة. لكنه حينما بلغ السادسة توفيت أمته وتيمم مرة أخرى. وذهب بعد ذلك ليعيش فى منزل جده عبدالمطلب الذى يبدو أنه أصبح المفضل. وكان لدى جده ولدان من زواجه الأخير. وهكذا نشأ محمد مع عمه: العباس، وحمزة فى الشخصية المرحية، وكانا تقريباً فى مثل عمره. وكان عبد المطلب قد بلغ من العمر أزدله ويقترب من الموت، وفى هذه الأثناء، كان يحب أن يُحمل قراشه إلى الكعبة حيث يرقد محاطاً بأولاده الكبار. وكان محمد مولعاً بالتفافز إلى جانبه على الفراش حيث يرقبه جده بحب ويربت على ظهره. ثم توفى عبد المطلب ومحمد فى الثامنة، وانتقل للعيش فى منزل عمه أبى طالب الذى كان قد أصبح رئيساً لبني هاشم. وهناك تمتع برفقة ولدى عمه طالب وعقيل.

كان أبو طالب إنساناً طيباً يتمتع باحترام كبير فى مكة رغم ذواء قدر عشيرته. ورغم تزايد سوء حاله للمادية، كان عطوفاً على ابن أخيه اليتيم. وفى إحدى السنوات قرر أن يرافقه محمد فى إحدى رحلاته التجارية إلى الشام ولدهشة قريش أنهم حينما وصلوا إلى بَصْرَى (٥) اندفع راهب محلى يدعى بحيرا خارج صومعته ودعاهم إلى الغداء. وكان الراهب عادة يتجاهل القافلة، لكنه رآها فى تلك السة تظلمها غمامة وضاعة علم بمقتضاها أن التى الذى طال انتظاره كان حاضراً. ومن الملاحظ أن هذه القصة الإسلامية توازى القصة الإنجيلية عن الطفل عيسى الذى كان مفقوداً فى المعبد. لكن التقارير المبكرة عن القصة توضح أن المصادر الأولية للقصة كانت تجهل المسيحية. وبما أنه قد حدث خلط بين اسم ذلك الراهب «بحيرا» واللفظ السريانى *Bhira* ويعنى المبجل - سيدعى الأعداء للمسيحيون أن بحيرا ذلك هو من علم محمداً ما أسموه الهرطقة المحمدية *Muhammadanism*.

(٥) من أعمال دمشق. (المرور)

وبما أن محمداً كان أصغر الموجودين سناً فقد تُرك في الخارج ليحرس البضاعة بينما لبّت قريش دعوة بحيرا. وأثناء الطعام تأمل الراهب التجار بتمعن لكن لم يجد أحداً منهم يُطابق أوصافه أو صاف النبي التي يعرفها الراهب من كتبه. وهنا سألهم عما إذا كان في معيبتهم شخص آخر. عند ذلك شعرت قريش بالخرج لتركهم حفيد عبد المطلب العظيم جالساً بالخارج كالعيد، فأحضره، وأخذ الراهب يرقبه بتمعن. وعقب انتهاء الطعام اتحنى به جانباً وطلب منه أن يقسم باللات والعزى - آلهة قومه - أن يجيبه بصدق. وهنا اعترض محمد قائلاً:

«لا تسألني باللات والعزى شيئاً فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما»، وبدلاً عن ذلك أتسم بالله وحده وأجاب أسئلة الراهب عن حياته. ثم فحص الراهب جسده ووجد خاتم النبوة بين كتفيه، وحيثُ نصح أبا طالب فقال له: «فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه من اليهود. فوالله لئن أراه، وعرفوا منه ما عرفت ليبيغينه شراً، فإنه كائن لابن أخيك هنا شأن عظيم، فأسرع به إلى بلاده»^(١١). ولكن، وحتى بلوغ محمد الخامسة والعشرين، لم تكن هناك علامة على تلك العظمة رغم أنه يقع شاباً ذا مقدرات عظيمة. وعرف في مكة باسم الأمين، وكان طوال حياته ذا مقدرة على كسب ثقة الآخرين. وشب محمد ليصبح وسيماً، ذا جسد مكتنز متوسط الطول. وكان كث اللحية والشعر المشعج. أما وجهه فكان ذا تعبير مضيء، يميز مدهش ذكرته جميع المصادر. وتميزت شخصيته بالدفء الشديد حتى إنه كان يهتم اهتماماً تاماً بكل ما يفعله. وعبرت لغته الجسدية في مشيته ووقوفه وجلوسه عن تلك السمات. ومن سماته أيضاً أنه لم يحدث أن نظر خلفه حتى ولو اشتبكت عباته في شجيرة شائكة. وبناء على ذلك، أصبح باستطاعة أصحابه أن يتحدثوا ويتضحكوا بحرية وهم واثقون أنه لن يستدير ليراهم. ولم يحدث أنه حين كان يستدير لمحادثة شخص ما أن

استدار إليه جزئياً، بل كان يتجه إلى من يحادثه بكل جسده ويحادثه وجهاً لوجه. وإن هو صافح أحداً، فلم يكن ليحب يده أولاً. أما أعمامه، فقد راعوا أن يتلقى محمد تدريبات عسكرية جيدة فصار رامى سهام ماهراً، ذا كفاءة فى استعمال السيف والمصارعة. لكن محمداً لم يصبح مبهراً فى ميدان القتال مثل عمه الأصغر حمزة الذى كبر ليُصبح مارداً ذا قوة جسمانية خارقة. واشتغل عمه العباس فى سوق المال، أما محمد فأصبح تاجراً مهمته قيادة القوافل إلى الشام وبلاد ما بين النهرين. وهذا ما حدا بالغريين أن يلقبوه بسائق الإبل، ذلك الوصف الذى قصد به الخط من شأن مهمته التى تطلبت قدراً كبيراً من المسئولية وحسن الإدارة. كما أبدى بعض الباحثين تشككهم فى أن محمداً مارس التجارة، إذ ادَّعوا أنه لا يوجد بالقرآن ما يدل على معرفة وثيقة بالشام والبلاد الأخرى التمدنية، كما أنه لم يشر إلى المسيرات والمواكب والممارسات المسيحية السريانية المبهمة والتى ألهمت شعراء معاصرين لمحمد فى شبه الجزيرة^(١٢). لكن تلك التشككات فى الآراء الموروثة عن امتهان محمد للتجارة هى أقوال مبعثها الكراهية إذ إنه لا يوجد سبب يجعل أحداً يخترع أمراً كهذا.

لكن، وعلى الرغم من قدرات محمد، فإن منزلته كيتيم كانت حجرة عثرة، مما لا بد وأنها تسببت له فى الألم، وهكذا سنرى أنه طوال حياته كان مهموماً بمآزق الأيتام ومعاملتهم. وبالإضافة، فإن منزلته الاجتماعية المتواضعة جعلت من الصعب عليه أن يجد لنفسه زوجة. فقد حدث أن أراد الزواج من فاختة إحدى بنات أبى طالب، وكانت فى مثل عمره. وكان أن نبهه أبوطالب أن مركزه لا يسمح له بعد بالزواج، ثم اختار أبوها لها زوجاً مناسباً من عشيرة مخزوم الأرستقراطية. ورغم ما كان عليه أبوطالب من رقة المشاعر واللباقة، فلا بد وأن ذلك قد تسبب فى إيلام محمد الذى كان يحب النساء ويشعر بالحاجة إليهن، وهو فى ذلك كان يختلف عن كثير من

معاصريه. ولقد رأينا كيف أنه لم تكن للنساء مكانة في الجاهلية، كما أن كثيراً من المسلمين البارزين كانوا يعاملون زوجاتهم وبناتهم معاملة قاسية. ولكن كان محمد يحب صحبة النساء ويحتاج إلى التعاطف والحميمية حتى إنه فيما بعد حيرت رفته وتسامحه مع النساء بعض أصحابه المقربين فلم يكن محمد ذلك الفاسق المنحرف الذي تصوره الأساطير الغربية بل كان يحتاج من النساء الصداقة والحب.

على أية حال، تغير حظُّ محمد في حوالى عام ٥٩٥م تغيراً درامياً. فقد طلبت منه خديجة بنت خويلد، التي تمتَّ له بصلة قرابة بعيدة. أن يذهب ببضاعة لها إلى الشام. وكانت بعض المدن تتيح الفرصة لبعض النساء أن يزدهرن في مجال الأعمال والتجارة، فقد حققت بعض النساء في القرن الثاني عشر نجاحاً مرموقاً في التعاملات المالية والتجارة وإدارة المحلات، ويبدو أنه كان هناك وضع مائل في مكة في القرن السابع الميلادي، وكانت خديجة قد تزوجت مرتين وأنجبت عدداً من الأطفال. وتسمى خديجة إلى عشيرة بنى أسد، التي أصبحت في بداية القرن السابع أكثر قوة من بنى هاشم، كما أنها كانت تحقق دخلاً جيداً من التجارة. وقيل محمد التفويض وذهب في رحلة تجارية برهنت على أنها رحلة حاسمة. ورافقه في رحلته تلك شخص يدعى ميسرة رأى أموراً غريبة تحدث في أثناء الرحلة أنبأ بها خديجة، فقال لها إن راهباً اتحنى به وأخبره أن محمداً هو النبی الذي تنتظر بلاد العرب مجيئه بشغف، وأضاف قائلاً إنه حدث بعد ذلك، ولدهشته، أن رأى ملكين يظللان محمداً من الشمس المحرقة، وحينما سمعت خديجة تلك الأخبار ذهبت من فورها لاستشارة ابن عمها ورقة بن نوفل الخفيف، والذي كان قد اعتنق المسيحية ودرس الإنجيل وظل ينتظر مقدم النبي العربي باشتياق. وهكذا، فحينما سمع أخبار خديجة صاح قائلاً: «لئن كان هذا حقاً يا خديجة فإن محمداً لنبي هذه الأمة» (١٣).

وعرضت خديجة الزواج على محمد. ولم يكن حماساً ورقة هو دافعها

الوحيد، لكنها كانت معجبة بصفتها الشخصية. وكانت خديجة بحاجة لزواج جديد، ورغم فرق العمر بينهما فقد كان رواجهما موقفاً. وقالت خديجة لمحمد: «يا ابن عم، إني رغبت فيك قرابتك، ووسطك فى قومك، وأمانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك»^(١٤). وتذهب الروايات إلى أن خديجة كانت فى الأربعين فى ذلك الوقت. لكن، وبما أنها حملت فى ستة أطفال من محمد على الأقل، فمن المحتمل أنها كانت أصغر من ذلك. وعلى أية حال فقد كانت تكبره بدرجة ملحوظة. ومن الشائع فى الغرب أن يكون الزواج من أرملة ثرية وأكبر سناً من الزوج موضع تهكم. وكان من المفهوم ضمناً (فى الغرب) أن محمداً وافق على الزواج من خديجة لتلك الأسباب التى تستدعى السخرية، حتى إننا نجد ماكسيم رودينسون فى سيرته المتعاطفة مع الرسول يلمح إلى أن محمداً لا بد وأنه وجد الزواج محبباً جنسياً وعاطفياً. غير أن العكس يبدو صحيحاً تماماً. ففى السنوات الأولى لرسالته، لم يكن لمحمد أن ينجح فى مهمته دون مسانبتها ومشورتها الروحية. فخديجة كانت امرأة فذة. ويصفها ابن إسحق بأنها امرأة ذات تصميم ونبيل وذكاء. وكان محمد يلتجئ إلى خديجة حينما كان يهاجم أعداؤه، أو حينما كان يعتريه الخوف من تجربته الروحية، طلباً للمؤازرة، وطوال حياتها ظلت خديجة أول إنسان يتعرف على قدرات زوجها الفذة، وما فتت تمده بالقوة وتخفف عنه عبأه، كما أنها أشهرت دعوته.

ورغم أن محمداً كان إنساناً متقد العاطفة فلم يتزوج بأخرى أصغر سناً من خديجة طوال سنوات رواجه بها، وتلك حقيقة أوكى لهؤلاء الذين يتقدونه لتعدد زوجاته فى السنوات الأخيرة من حياته أن يبرروها. والواقع أنه بعد وفاتها كان مدح محمد الدائم لخديجة يُغضب النساء اللاتى تزوجهن، كما أنه فى إحدى المناسبات شحب وجهه من الأسى لاعتقاده أنه سمع صوتها. ليس هذا إذاً زواج مصلحة. كما أن محمداً كان يُخرج الجزء

الأكبر من دخل أسرته للفقراء مما نجم عنه أن يعيش هو وأسرته في تقشف. لكن على الرغم مما ساد داره من تقشف، فقد كانت أسرته سعيدة، وحملت خديجة من محمد في ستة أطفال على الأقل. وقد توفي ابناهما القاسم وعبد الله في طفولتهما، وبقيت لهما أربع بنات هن زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة. وأحب محمد الأطفال دائماً، وظل طوال حياته يحتضنهم ويقبلهم ويشاركهم ألعابهم. كما أنه تفانى في حب بناته، وكان من عادة العرب أن يتخذوا كنية شرفية لدى ميلاد أول أبنائهم، وهكذا كنى محمد بأبي القاسم، الأمر الذي كان مصدر بهجة له. وكان من الممكن أيضاً لخديجة أن تكتن بأب القاسم^(١٦). غير أنه أمكن لمحمد تعويض فقدانه لابنائه، إلى حد ما. فقد أهدت إليه خديجة عبداً حديث السن من قبيلة كلب العربية في شمال الجزيرة. وتعلق ذلك العبد، واسمه زيد بن حارثة بسيدته، حتى أن عائلته حينما عثرت عليه وأتت إلى مكة لدفع النقود اللازمة لعتقه توصل إليهم أن يبقى مع محمد. وفي المقابل، منحه محمد حرته وأصبح أباً متبنيّاً له. وحينما بلغت ابنته فاطمة الرابعة بعد ذلك بسنوات قليلة لحق بالعائلة عضو جديد. فقد لحق بأبي طالب ضيق مالي، وحدثت مجاعة شديدة في تلك السنة أدت إلى تدهور أحواله أكثر. ولكي يتخفف من عبئه ضم العباس أخاه الأصغر إلى عائلته وانضم على الذي كان يبلغ الخامسة إلى عائلة محمد. ونظراً إلى أن محمداً نشأ يتيماً فقد كانت نظرتة جدية إلى علاقة النبي. فحينما كان والدا محمد في الرضاع يحضران لزيارته كان يهدى إليهما طعاماً أو شاة. وازدهرت أحوال زيد وعلى في ظل رعايته وأصبحا من القادة في المجتمع الإسلامي الأول. وكان على يملك ذلك النوع من القوة الذي يعث على الولاء في قلوب الأصدقاء.

وقد تحسن مركز مكة خلال السنوات الخالية من الأحداث التي سبقت دعوته. وعُرف عنه بوجه خاص رفقته بالفقراء والعييد. ووقعت حادثة تظهر دلالتها حينما تتأمل في سياق الأحداث المتأخرة عنها. ففي عام ٦٠٥

ميلادية، وحينما كان محمد فى حوالى الخامسة والثلاثين، قررت قريش إعادة بناء الكعبة حيث إن بعض حجارتها كانت قد تفلقت، كما كانت بحاجة إلى سقف جديد بدلاً من ذلك الذى خربه اللصوص. لكن قدسية المكان جعلت من المهمة عملية حساسة محفوفة بالمخاطر. ففى معظم المجتمعات المحافظة ينظر للأشياء المقدسة على أنها محرقات ويكون التعامل معها بقدر كبير من الحذر. وقلقت قريش أشد القلق من تهدم ذلك الأثر العظيم، ورغم ذلك فقد تابرت لتنفيذ الخطة. واقترب الوليد بن المغيرة وكان من أكثر الشخصيات تأثيراً بمكة، وضرب الكعبة بفأسه قائلاً «يا الله، لاتخش شيئاً، فنحن لا نعتزم إلا ما هو خير يا إلهى». وسُمح للعمل أن يبدأ، وتولت كل عشيرة مسئولية ركن معين للتأكيد على جماعية جهد القبيلة، وحينما وصلوا إلى الأساسات، تخيل أن المدينة اهترت بأكملها. ولذلك قررت قريش تركها كما هى. ثم أخذت الحوائط ترتفع، ولكن معركة حامية نشبت حينما حان الوقت لإعادة الحجر الأسود إلى مكانه لأن كل عشيرة أرادت الاستئثار بذلك الشرف. وبعد مرور خمسة أيام كانت المعركة مازالت مشتعلة، وإن دل ذلك على شىء، فلأنما يدل على التنافس الشرس الذى كاد ينخر فى عظام وحدة القبائل فى مكة. وحينما ينسوا من إيجاد حل توفيقى مقبول، قررت العشائر قبول حكم أول شخص يظهر فى الموقع. وحدث أن كان ذلك الشخص محمداً، وكان قد عاد لتوه من رحلة عمل، وتوجه كعادته إلى الكعبة ليؤدى الطواف. ورحبت به العشائر بارتياح وصاح الجميع «هذا الأمين، رضيتا، هنا محمد» (١٧).

وهنا طلب منهم محمد أن يأتوا بعباءة وأن يضعوا الحجر وسطها على أن يمسك ممثلون لكل عشيرة بطرف الثوب، وبذلك يعيدون الحجر إلى مكانه جماعة. وكان لمحمد أن أعاد بناء الكعبة لاحقاً بشكل جذرى أكثر، وذلك حينما جعل منها مركز العالم الإسلامى، كما قُدر له أيضاً أن يعيد توحيد قريش حول بيت الله المقدس.

وكما رأينا، فقد كان محمد في الأربعين حينما بدأ خلواته الروحية. وقد قالت زوجته عائشة فيما بعد إنه حينذاك كان قد بدأ يقضى وقتاً أطول في الخلوة مكرساً نفسه لعبادة الله. كما بدأ يتلقى أحلاماً بدت مضيئة بالوعد والأمل مثل «فلق الصُّبح»، وخلال فترات الخلوة كان محمد يمارس تدريبات روحانية يدعوها العرب تَحْتًا، كما كان يقوم بتوزيع الطعام على الفقراء. وفيما بعد أصبحت الصلاة والزكاة ممارسات أساسية في الإسلام. ولعله أيضاً كان يقضى وقتاً طويلاً متفكراً قلقاً. فنحن نعلم من ممارساته اللاحقة أنه كان قد شخص علة الحياة في مكة تشخيصاً دقيقاً. ولا بد أيضاً أنه كان قد شعر بإحباط عميق لأنه لا يمكن أن يأخذ أحد أفكاره حيثن بجديّة، هذا بالإضافة إلى أن مركز عشيرته المتدنى في تلك المدينة لم يكن ليشجّع له أن يقوم بدور قيادي فيها. غير أنه لا بد من كونه على وعى بأنه يمتلك سمات فذة غير مستغلة. وفي هذا الصدد يذكر القرآن أن الله لم يرسل من قبل نبياً إلى قريش، رغم أنه أرسل أنبياء إلى جميع أمم الأرض، ويبدو أن محمداً، ونظراً لما كانت قد وصلت إليه الأحوال في مكة من سوء، اعتقد أنه لن يتسنى إلا لرسول من عند الله أن يصلح مشاكل مدينته. لكننا أيضاً نعلم من القرآن أنه لم يتخيل قط للحظة واحدة أنه سيكون ذلك الرسول. (١٨)، وفي كل الأحوال فمثلته مثل موسى، فقد تسلق جبله، وعلى قمة ذلك الجبل، التقى بالله في الليلة السابعة عشرة من رمضان عام ٦١٠م.

ونحن لا نعرف الكثير عن التحنث. غير أنه على ما يبدو كان عبارة عن تدريبات منظمة ظهرت في أغلبية التقاليد الدينية لمساعدة الأفراد الكفاء على السمو فوق حدود خبراتهم العادية. وسيعبر محمد فيما بعد عما حدث له في خبرته الخاصة بالعالم الماورائي بقوله إن ملكاً زاره، وظهر إلى جانبه في الكهف أمراً إياه أن «يقرا». ومثل أنبياء عبريين قبله ترددوا كثيراً قبل أن ينطقوا بلفظ «الله»، أجاب محمد «ما أنا بقارئ» معتقداً أن الملك قد ظنه

أحد الكهنة سيئى السمعة الذين كانوا يقرءون الطالع فى مكة - وروى محمد قائلًا ما معناه أن الملك طوقه فى عناق حتى بلغ منه الجهد^(١٩). وأخيراً وجد محمد نَفْسَهُ ينطق بالكلمات الأولى من القرآن ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم﴾. (سورة العلق: ١ - ٥)

وأفاق محمد وهو فى حالة من الذعر والثفور، إذ سيطرت عليه فكرة احتمال تحوله إلى أحد الكهنة المجاتين وأصيب باليأس حتى إنه - وكما يقول الطبرى - «فقد رغبته فى الحياة. واندفع خارجاً من الكهف وبدأ يتسلق إلى قمة الجبل ليلقى نفسه إلى حتفه من أعلاه. ولكن، وهو على قمة الجبل، شاهد رؤيا لمخلوق تعرف عليه على أنه جبريل. ويروى محمد ذلك قائلًا:

«فخرجت حتى إذا كنت فى وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله. وأنا جبريل، قال: فرفعت رأسى إلى السماء أنظر، فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل. قال: فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء، قال: فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيتك كذلك، فمارلت واقفاً ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى^(٢١). غير أن هذا الملاك لم يكن ذلك المخلوق الجميل الإنسانى الهيئة والذى يصوره الفن الميحي أحياناً. فإن جبريل هو روح الحق، أى الوسطة التى يكشف الله بها عن ذاته للإنسان. وكانت تلك التجربة ساحقة عنيفة لحضور ملا كل الأفق حتى أصبح لا مفر هناك منه. واتب محمد إحساس طاغ بحقيقة مقدسة كانت قد انسحق على إثر إدراكها حضوراً الرسل والأنبياء فى معظم النواميس. وفى المسيحية، وصفت بأنها رهبة غامضة ومبهرة، وسميت فى اليهودية بالمقدس، أى الحضور «الأخر» الرهيب للإله.

وتعرض السير المختلفة روايات متعارضة عن الرؤية الأصلية لمحمد. فيذهب البعض إلى أن التجربة اتحصرت فى الرؤيا داخل الكهف فقط، بينما

يقتصر آخرون على ذكر رؤيا الملك في الأفق. لكن يؤكد الجميع على الرعب والرهبنة اللذين تملكا محمداً. وقد ورد عن صياح الأنبياء العبريين لدى خبرتهم للمقدس خوفاً من أن يكونوا على شفا الموت. فقد صاح إشعيا لدى رؤياه للمقدس في العيد «ويل لى إني هلكت». فقد حجبت الملائكة أنفسها بأجنحتها وقاية لها من الحضور الإلهي، أما إشعيا فقد نظر إلى سيد الملوك بعينين نجستين^(٢٥) {إشعيا ١٦/٩} وخبر إرميا للحضور الإلهي المأشديداً سرى في أوصاله، ومثله مثل محمد في عناق الملك، فقد خبر التزليل كنوع من الاغتصاب المقدس.

«لقد أقنعتنى يا رب فاقتعت والححت على فغلبت... لاني كلما تكلمت صرخت. ناديت ظلم واغتصاب»^(٢٣). {إرميا ٢٠ - ٩٧}.

فشعر بقوة رهية تغزو كيانه انتهكت ذاته الإنسانية التي لم تُعدّ لمثل ذلك الاتصال المقدس. وكل ما خبره هؤلاء الأنبياء هو سمو، حقيقة تتواجد خارج نطاق المفاهيم، وتدعوها عقائد التوحيد «الإله» وترجع طبيعة التجربة الرهية إلى كونها قد نقلت كلا من أولئك الأنبياء إلى عوالم مجهولة، نائية عن سلوان ما هو طبعى من الأمور، كل ما فيها صادم، لكنها أيضا مبهرة وتمارس جاذبية لا تقاوم، ذلك لأنها، وبطريقة ما، تحمل معها ذكر شىء، مألوف يرتبط ارتباطاً معقداً بأعماق النفس. لكن، وبخلاف إشعيا وإرميا، لم تكن لدى محمد سلوى وجود دين قائم يؤازره ويساعده في تأويل التجربة. ويبدو أنها قد اعترته دون أدنى سعى لها وتركته بإحساس انتحارى يائس. فقد دفع به في فضاء لم يتخيله قط، وكان عليه أن يحاول فهم التجربة بطريقة ما. وهكذا، وبينما هو في خضم وحدته ووعيه، التجأ بعفوية إلى زوجته.

لقى محمد بنفسه في حجرها وهو يزحف على يديه ورجليه، بينما يرتعد الجزء الأعلى من جسده متشنجا، وصاح «دثرنى، دثرنى» قالها

متوسلاً إليها أن تحميه من ذلك الحضور. ورغم احتقاره للكهنة الذين كانوا يتدثرون بعباءات وهم يلقون بالنبوءات اتخذ محمد نفس وضعهم، وانتظر وهو يرتعد أن يخفت الرعب. وأخذته خديجة بين ذراعيها وهى تخفف عنه وتحاول أن تبعد عنه الخوف. وأكدت جميع المصادر اعتماد محمد على خديجة فى تلك الأزمات. وفيما بعد، كان يتلقى الرؤى فى جانب الجبل، وكان أيضاً فى كل مرة يصرع إلى خديجة راجياً إياها أن تحتضنه وتدثره فى عباءته. لكن خديجة لم تكن بالنسبة لمحمد مجرد شخصية أم تبعث الطمأنينة. لكنها أيضاً كانت مستشاره الروحى، ظلت تمنحه الاستشارة التى وجدها الرسل والأنبياء الآخرون فى الديانات القائمة. وسألها محمد فى المناسبة الأولى بعد أن بدأ خوفه يتراجع إن كان قد أصبح كاهناً. فقد كان ذلك هو شكل الوحى الوحيد الذى يعرفه، ورغم قدسية تجربته الرهيبة، فقد كان هناك نوع من التماثل المريب بينها وبين تلك التى يتعرض لها من يتلبسهم الجان فى بلاد العرب. وفى هذا الصدد يقول حسان بن ثابت، شاعر يثرب، والذى سيسلم فيما بعد، إنه حين تلقى نداءه الشعرى، ظهر له جنه، وطرحه أرضاً، وأجبره على النطق بما أوحى إليه من كلمات (٢٤).

وكان محمد لا يعير الجن اهتماماً لأنهم كانوا هوائيين خطائين. وتخيل محمد، إن كان ذلك هو إثابة الله له على إخلاصه فى عبادته، فقد فقد هو الرغبة فى الحياة. وبين القرآن كيف أن محمداً كان شديد الحساسية لدعوى كونه مجنوناً، أى يملكه جنّ. كما كان دائماً يميز بين القرآن وبين ما عرفه العرب من شعر. وأسرعت خديجة تطمئنه، فإن الله لم يكن ليفعل شيئاً بتلك القسوة والعقوبة، فقد حاول محمد صادقاً أن يحيى بالطريقة التى يتطلبها الله، وفى المقابل لن يسمع الله له بالفشل. وقالت له خديجة: «أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدى الأمانة، وتحمل الكلّ وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق» (٢٥).

ومن أجل أن تنزل به الطمانينة أكثر، اقترحت أن يستشير ابن عمها ورقة ابن نوفل الذي كان ملماً بالكتب المقدسة وباستطاعته أن يمدحها بتصحيحه من هو متخصص. ولم يكن لدى ورقة أدنى شك إذ صاح من فوره «قدوس قدوس، والذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتي يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقول لي: فليثبت» (٢٦).

وحينما أبصر ورقة محمداً في الكعبة ثانية أسرع إلى نبي الإله الواحد وقبله على جبينه.

لا بد لنا الآن من وقفة لتأمل طبيعة التجربة. فالعالم الآن لا يحكم على كل تلك الرؤى أو الإيحاءات بأنها هستيريا أو عقائد فاسدة. ففي كل الحضارات كان الوحي يُعتبر شكلاً من أشكال التليس possession الحميد سواء بالتعبير الفني أو الديني، فالقصيدة والرسالة تلح على صاحبها أو مبدعها بقوة طاغية أو أمرة، وتبدو أيضاً وكأنها تعلن عن نفسها. وغالباً ما يشعر المفكر المبدع أنه قد أوحى إليه بنفس الطريقة. ومعنى آخر فقد لمس أو أماط اللثام عن حقيقة غير مختلفة، لها وجودها الخاص. والمثال الشهير على ذلك هو أرشميدس الذي قفز من حمامه حينما اكتشف مبدأ الشهير صائحاً «يوريكا: (وجدتها)». فحينما كان أرشميدس مستلقياً كان في حالة تلقُّ عقلي وبدا الحل وكأنه قد دخله دون أن يستدعيه، وكأن الحل كان له وجود مستقل عن عقله. وبشكل ما، فإن كل الإنكار الخلاقة التلقائية موحاة، وتتطلب قفزة إلى الامام في عالم الحقيقة غير المختلفة. وإذا نحن نظرنا إليها من تلك الزاوية، فالوحي لا يعنى تراجع العقل، لكنه العقل وقد تزايدت سرعته، وقد تكبسل أو تم تكثيف محتوياته encapsulated، بحيث يظهر الحل دون معاناة الإعداد المنطقي. وعلى هذا، يعود العبقري المبدع من تلك الممالك التي لم يسبق اكتشافها كأحد الأبطال وقد أخذ شيئاً من الآلهة وعاد به إلى البشر. وربما كان بالإمكان النظر للإيحاء الديني بطريقة مماثلة.

إن الشاعر الذى يستمع إلى العقيدة التى تبدو خارج ذاته ليستمع بالطبع إلى اللاوعى. فقد أصبح حاملاً لرسالة أو منحة من كان يطلق عليهم مصادر الإيحاء الإلهى.

أما فى مجتمع صغير كمجتمع مكة، فكان هناك الكثير مما هو مشترك بين لاوعى القوم. وبلغت علمانية محضتة، فإن محمداً قد وصل إلى أعماق المشكلة التى كانت تواجه معاصريه. ثم جاءهم بما لم يكن إلا لدى القلة منهم الاستعداد للاستماع له. وكما سترى، فلقد خرج القرآن إلى النور آية آية وسورة سورة، وتلاه محمد على قومه، فخاطب مستوى العمق فى كثير منهم، الذين تعرقوا عليه، وأمكن للقرآن أن ينفذ من خلال تحيزاتهم وأهوائهم ومصادر قلقهم ومعارضتهم الأيديولوجية لحل تصورى روحانى اجتماعى لم يطرأ على تفكيرهم من قبل، لكنه لى أعماق أمانيتهم وطموحاتهم. ففكرة الإله، أو الحقيقة المطلقة، فى جميع الديانات مشروطة conditioned حضارياً. وكان عرب الحجاز على ما يبدو يبحثون عن حل دينى يوائم احتياجاتهم المحددة. ولم توائمهم فكرة الإله المسيحية مثلاً، والتى كانت قد لونتها الفلسفة والمثل العقلانية الإغريقية. أما دين محمد فهو عودة فطرية إلى التجربة الدينية السامية، ولأنبياء العبرية العظام، ولذلك كان أكثر ملاءمة لشعوب الشرق الأوسط. وإنه لمن الإغراء بمكان أن نحاول تفسير شعبية الإسلام بين شعوب الشام وبلاد ما بين النهرين وإيران وشمال إفريقيا برفض تلك الشعوب لفكرة الإله المستوحاة من الإغريق والتى كانت غريبة عليهم، وبعودة أقرب إلى الرؤية السامية. لكن محمداً لم تكن لديه حينذاك أى فكرة أنه يؤسس ديناً عالمياً جديداً. فقد كان ذلك ديناً للعرب الذين كانوا - كما بدا لهم - قد تركوا خارج خطة السماء، فلقد أرسل الله كتبه لليهود والمسيحيين - الذين يدعوهم القرآن أهل الكتاب - لكن لم يكن هناك تنزيل خاص بالعرب، وكان التنزيل الذى بدأ محمد تلاوته بوحي إلهى على جبل

حراء قرآناً عربياً. ولبت تلك الرسالة أعمق احتياجات العرب، فقد كان لمحمد أن يخترق بشكل ما مستوى جديداً من الوعي، يعالج ما أصاب مجتمعه من سوء. وكان يمد العرب رويداً رويداً بحلولهم الخاصة.

ونحن غالباً نستعمل كلمة «وحي» أو «كشف» لتحدث عن فكرة أو رؤية جديدة كلية. لكن دراسة أصل اللفظ Revelation توضح وجود شيء تم إماطة اللثام عنه، وبطبيعة الأمر، لا يمكن لرؤية أو مفهوم ديني أن يكون مبتكراً، حيث إنه يوضح الحقيقة الجوهرية سابقة الوجود. وقد فهم محمد تلك الحقيقة وعبر عنها أكثر من كثير من القادة الدينيين. ولم يكن هناك ما هو جديد بخصوص الوحي على جبل حراء. فقد كان هذا دين الله الجديد الذي أوحى به مرات ومرات، والذي أوكل محمداً كي يأتي به إلى العرب. إن دين (الإله) الذي كان لمحمد أن يشير به بعد وقت وجيز في مكة، لم يبدأ على جبل حراء، بل في يوم الخليفة. فقد جعل الله آدم خليفته في الأرض، وبعد ذلك أرسل الرسول بعد الآخر لكل أمم الأرض (٢٧). وعلى هذا، فجميع الأديان بشكل جوهرى ديانة واحدة. ولم ينص القرآن قط على إلغاء التزيلات السابقة، ولكن، ومن حيث الجوهر، تتساوى جميع العبادات والموروثات والكتب المنزلة (٢٨)، لكن المهم في الأمر هو طبيعة استسلام المرء لله، وليس لآى تعبير إنسانى عن إرادة الله. فليس للبشر أن يتغنوا «دينا غير دين الله» (٢٩)، وقد أكد الأنبياء جميعاً ذلك وواصلوا الرسالة التي تبين إنصاح الله عن ذاته. وهكذا يقول القرآن إشارة إلى الاعتقاد بأن عيسى قد بشر بمقدم الـ Paraclete والتي، كما رأينا، قد ترجمت إلى لفظ أحمد الذي هو تنويع على اسم محمد:

﴿وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد﴾ (٣٠) (سورة الصف: ٥)

أما الشيء الفريد الذى تميز به وحى محمد، فهو أن الله - وللمرة الأولى - قد أرسل رسولا إلى قريش، وأنزل كتاباً بلغتهم. ولهذا، فإنه يوجد توجه عفوى بخصوص الأشكال التاريخية للوحى. ومن الجدير بالذكر هنا التأكيد على هذه النقطة، إذ إن التسامح شيء قد لا يرتبط بالإسلام فى ذهن شعوب الغرب. لكن، وكما سنشير فى الفصل القادم، فإن عدم تسامح الإسلام ليس نتيجة لخلافات عقائدية كذلك التى قسمت المسيحيين. إن له مصدراً آخر مختلفاً تماماً. فبعد وفاة محمد، لم يُطلب أبداً من اليهود أو المسيحيين أن يعتنقوا الإسلام، لكن سمح لهم بممارسة دياناتهم بحرية تامة فى أنحاء الإمبراطورية الإسلامية. وفيما بعد، كان الزرادشتيون والهندوس والبوذيون والسيخ يُعدون من أهل الكتاب. فلم يجد المسلمون قط مشكلة فى أن يتعايشوا مع أهل الكتاب. وقد استضافت الإمبراطورية الإسلامية المسيحيين واليهود لقرون عدة. لكنها أوروبا الغربية المسيحية هى التى وجدت أنه من شبه المحال أن تقبل المسلمين واليهود فى أراضٍ مسيحية.

ومن الواضح أن الوحى على جبل حراء عام ٦١٠ كان حدثاً هاماً فى التاريخ الإسلامى. لكنه كان فقط البداية. إن معجزة القرآن، وكما يرى العديد من المسلمين اليوم، ليست فى الأسلوب الأسمى لتنزيله على محمد على جبل حراء بمكة، ثم فى المدينة بعد ذلك، لكن فى إمكانيته المستمرة على منح الملايين من الرجال والنساء فى جميع أنحاء العالم الإيمان بالمعنى الجوهري للحياة وبقيمتها. وكان على دين الإسلام أن يواصل التجديد فى تطبيقه للرؤية الأصلية على متغيرات العالم، وكان عليه، كغيره من الأديان، أن يستجيب مع كل جيل للمستحدثات.

وكثيراً ما يُدعى محمد فى القرآن النبى الأسمى، أى الذى لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ويؤكد الاعتقاد فى أميته على الطبيعة الإعجازية للتنزيل. غير أن بعض الدارسين الغربيين المحدثين يذهبون إلى أن لقب «أسمى» لا يجب أن

يفسر على أنه جهل بالقراءة والكتابة، إذ إن النبي كاجر قد يكون ألم بمبادئ الكتابة. أما المعنى الذي يذهبون إليه فهو أنه كان نياً «للأميين» الذين لم يتلقوا كتاباً سماوياً من الله. وبمعنى آخر يفسر لفظ الأمل على أنه يعنى غير اليهودى (النبي المرسل لغير اليهود) Gentiles. وواصل البعض من هذا المنطلق تأكيدهم أن لفظ أمى متصل بلفظ أمة، ويعنى فى هذا السياق نبي القوم. وفى الواقع، فإنه ليست هناك صلة بين أمى وأمة. كما أن المسلمين يجدون هذا التفسير مهيناً. ولقد رأينا كيف أن الغربيين، ولمدة ألف عام تقريباً، لم يستطيعوا الاعتقاد أنه كانت لمحمد رسالة نبوية حقاً. ويبدو أن تفسيرهم للفظ «أمى» محاولة منهم لشرح ما حدث. غير أنه من الحماقة أن تحدى التفسير الموروث للمسلمين للفظ «أمى». كما أنه لا يوجد فى المصادر الأولى أى ذكر عن قلوة محمد على الكتابة والقراءة. وحينما كان يحتاج لإرسال خطاب يمليه على أشخاص مثل على الذى كان ملماً بالقراءة والكتابة.. ولو كان صحيحاً أن محمداً قد أخفى مقدرته على الكتابة والقراءة طيلة حياته لكانت تلك خُدعة كبرى. وخلافاً لكون ذلك منافياً لطبيعته، فإنه من الصعب جداً الإبقاء على مثل تلك الخدعة إذا نحن أخذنا فى الاعتبار حبيمية الصلة بين محمد وقومه، إن التأويل الشائع للفظ أمى هو تأويل مبكر جداً، وهو أيضاً من الأهمية بمكان لدى المسلمين، فإن له نفس أهمية الميلاد العذرى فى المسيحية، والتي تؤكد على النقاء اللازم للرجل أو المرأة كى يأتى بكلمة إلى الناس، لأن التنزيل لا يجب أن يشوبه أو تتدخل فيه إضافة إنسانية خالصة.

وفى نفس الوقت، فإنه من الخطأ تصور قيام محمد بمهمته بأسلوب سلبى كآلة هاتف بين الله والبشر. فقد كان عليه، كغيره من الأنبياء، أن يتواصل كى يتعقل السوحى، الذى لم يكن يأتيه دائماً فى شكل شفاهى واضح. فأحياناً كانت التنزيلات تأتبه فى شكل رؤى أكثر منها كلمات^(٣١). وكما

رأينا، فإن زوجة محمد اللاحقة عائشة قد قالت بأن التزييلات المبكرة كانت بصرية وتلك التزييلات كانت تتكون من إحياءات أكثر غموضاً وثرأء، ذات معانٍ مذهلة overwhelming فارقة: «إن أول ما بدئ به رسول الله من النبوءة، حين أراد كرامته ورحمة العباد به: الرؤيا الصادقة، لا يرى رسول الله رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح» (٣٢).

وتوحي عبارة «فلق الصبح» بالتغير الفجائي الذي يجتاح العالم حينما تخترق الشمس الظلام في أراضى المشرق حيث لا يوجد غسق. فما خبره محمد في تلك الرؤى هو رؤية مبهرة للأمل أكثر من كونه رسالة واضحة النص.

ويوضح المأثور الإسلامى أن التعبير عن تلك الرسائل بالكلمات لم يكن قط أمراً سهلاً. وقد قال محمد ذات مرة: «أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسى تقبض» (٣٣) (السيوطى - الإتيقان فى علوم القرآن).

فقد كانت تلك عملية تخليق اليمة. غير أنه أحياناً كان يقول إن المحتوى الشفاهى كان واضحاً بدرجة كافية، وكان يبدو له أنه يرى ملكاً فى هيئة رجل ويسمع حديثه. أما فى أحيان أخرى فقد كان الوحي أكثر إيلاماً وغير واضح، وقيل إن الرسول قال إن الوحي كان أحياناً يأتيه على شكل صلصة جرس وكان ذلك أشد حالات الوحي عليه وكانت الصلصلة تنتهى حينما يدرك فحوى الرسالة (٣٤).

وسنرى كيف أن محمداً كان يلتجئ إلى داخل نفسه، باحثاً فى روحه عن حل للمشكلة، مثل الشاعر الذى يستمع إلى القصيدة التى يأتى بها تدريجياً إلى النور، وحينذاك لا يجب عليه أن يسرع ويصوغها فى كلمات قبل أن تشكل تلك الكلمات نفسها فى الوقت المناسب. فيأمر الله محمداً قائلاً:

﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه﴾. (القيامة: ١٨/١٥)

فإن الصوت السماوي لم يكن رسالة مدوية من السماء، كما أن الله ليس بحقيقة يمكن تعريفها بالنظر إلى هناك. فما كان ليتاح إلا بالنظر في الداخل. وسيطور الصوفيون فيما بعد ذلك المفهوم عن الله كأساس لوجودنا. وسيسمع بعضهم صوتاً سماوياً يخبرهم أنه «لا إله إلا الله».

ومرة أخرى، فنحن على غير علم يعدد التنزيلات التي تلقاها محمد في تلك الأيام الأولى. لكننا نعلم أن محمداً وخديجة وورقة آثروا الصمت إزاءها، فإن محمداً لم يكن أبداً ذلك الفرد الذي يشتاق للترويج لنفسه كما يصفه أعداؤه الغريون. وعلى أية حال، فبعد الإيحاءات القليلة الأولى مرَّ محمد بفترة عامين صمت إبانها الوحي. وكانت تلك فترة أسي عظيم. وقد أرجع بعض الكتاب المسلمين حالة اليأس الانتحاري التي اتنابت إلى تلك الفترة. فهل كان ذلك وهماً؟ أم أن الله قد وجده لا يصلح لحمل الرسالة وهجره؟ فقد كان ذلك الصمت فاجعاً. ثم نزلت سورة الضحى حاملة معها نفحة من الطمأنينة التوراتية:

﴿والضحى والليل إذا سجى. ما ودَّعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى. ألم يجدك يتيماً فأوى ووجدك ضالاً فهدى. ووجدك عائلاً فأغنى. فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر. وأما بنعمة ربك فحدث﴾ (٣٦)

والآن، أصبح محمد على وشك بدء رسالته. فقد تعلم الشقة بتجاربه، وأيقن أن الموحى إليه هو الله، وأنه ليس بكاهن واهم. أما ذلك الفعل العقائدي فكان يتطلب الشجاعة، لكنه كان قد قرر أن يتخذ خطوة تتطلب قدراً أعظم من العزم. فقد قرر أن يتقبل تفسير ورقة بن نوفل لتجربته، أي أنه تم اختياره وتكليفه بأن يصبح نبي قريش. وأصبح عليه الآن أن يقدم نفسه لقومه، الأمر الذي حذره من صعوبته ورقة النبي قال له إنه شيخ عجور ومن غير المحتمل أن يعيش طويلاً، لكنه تمنى أن يعيش كي يأخذ بيد محمد

حينما ينزله قومه. وتملك محمداً الرعب لدى سماع ذلك. وتساءل باستياء عما إذا كانوا سينذونه جميعاً. وأخبره ورقة بأسى أنه لا كرامة لنبي في قومه (أرضه). وكما سئري، فقد كان محمد شديد الخذر حينما بدأ في نشر كلمة الله. وكان يعلم أن القوم قد يسخرون من دعوته، وأنهم قد يظنون عماله للبيزنطيين، مثل المسيحي الخفيف عثمان بن الحويرث، أو أنهم يتهمونه بالخيانة والكفر بالدين المتوارث. وبالرغم من ذلك، فقد استعد محمد لتقبل تلك المهمة الخطرة، وتلك الرسالة التي ستقوده في اتجاه لم يتخيله قط.

obeikandi.com

الفصل الخامس التذير

كان محمد قد تعرض لتجربة رهيبة على جبل حراء وإن كانت قد أنارت الطريق أمامه آخر الأمر، وكانت تشبه إلى حد ما تجربة يعقوب مع الملك الذي أنزل عليه. وكان عليه الآن أن يأتي إلى قومه بالرسالة التي تلقاها من ملكوت الله. كانت سورة الضحى تتضمن أمراً اجتماعياً واضحاً، وهو أن على الرجال والنساء أن يرعوا الضعفاء والمساكين من أبناء القبيلة، ولم يكن في ذلك ما يُعتبر جديداً، فهو عنصر من العناصر الأساسية في المروءة، ذلك المثل الأعلى القديم، ولو أن قريشاً كانت، فيما يبدو، قد غفلت عنه. ويقول القرآن إن هذه الرسالة كانت تمثل عنصراً جوهرياً في كل ما أنزل على من سبق محمداً من الأنبياء في كل مكان في العالم. ويذكر التراث الإسلامي أن عدد هؤلاء الأنبياء قد وصل إلى ١٢٤٠٠٠ نبي، وهو رقم رمزي يوحى باللاتهائية. فالله لم يترك البشر دون إطلاعهم على أسلوب الحياة الصحيح، ولو أنهم كانوا يُصرون عادة على تجاهل الرسالة القدسية. أما الآن فلقد أرسل الله أخيراً رسولا إلى قريش، ولم يكن قد جاءهم مبعوث مثله من قبل. وفي عام ٦١٢، وهو بداية البعثة، كان مفهوم محمد للدور المنوط به متواضعا، إذ لم يكن مُخلصاً أو مسيحا، ولم يدرك أنه مبعوث إلى الناس كافة، بل لم يكن في ذلك الوقت يرى أن عليه أن يدعو العرب الآخرين في شبه الجزيرة إلى دينه، بل يتصور أن يقتصر على إبلاغ رسالة إلى مكة وما حولها، باعتباره خاتم سلسلة طويلة من الأنبياء^(١). ولم يكن يرى أنه مكلف بمهمة سياسية^(٢). بل كان التذير فحسب. وقد تغير مفهوم محمد لرسالته فيما بعد، ولكنه كان يعتقد في البداية أنه مرسل حتى ينذر قريشاً من مغبة

وأخطار الطريق الذي بدءوا السير فيه من عهد قريب: ﴿يأيها المدثر، قم
فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر﴾ (٣٦)

ولكن ذلك لم يكن يعنى أن محمداً بدأ برسالة القارعة، فلم تكن الآيات
أو السور الأولى من القرآن تشير إلى يوم الحساب إلا إشارات موجزة،
وكانت الرسالة الأولى تحمل الفرح في جوهرها، إذ كان الغرض هو أن يدرك
كل رجل وامرأة في مكة ما أنعم الله به من خير، وهو ما كانوا يستطيعون أن
يشهدوه بوضوح وجلاء في الطبيعة من حولهم. إذ خلقهم الله وهداهم،
وسخر لهم الكون كله بنظامه للحكم. فإذا تأملوا آيات (أى علامات) قدرة
الله في العالم، وهو ما كانت قريش كلها تقر بأنه قد خلقه، تمكنوا من إدراك
نعمه الفياضة عليهم ومدى نكودهم ونكرانهم: ﴿قتل الإنسان ما أكفره،
من أى شيء خلقه، من نطفة خلقه فقدره، ثم السبيل يسره، ثم أماته
فأقبره، ثم إذا شاء أنشره، كلا لما يقض ما أمره، فليتنظر الإنسان إلى
طعامه، أنا صببنا الماء صباً، ثم شققنا الأرض شقاً، فأنبتنا فيها حباً، وعنباً
وقضباً، وزيتوناً ونخلاً، وحدائق غلباً، وفاكهة وأبا، متاعاً لكم
ولأنعامكم﴾ (٤١) ومع ذلك كان الإنسان يرفض أن يعيش وفقاً للنهج الذي
وضعه الله.

ولكن محمداً لم يُصدر قائمة طويلة بالواجبات، بل كان قائماً بصفة
رئيسية، بإصلاح ميثاق الشرف العربي القديم الذي كانت قريش تعرفه. وكل
ما يتطلبه القرآن، هو أن يسعى الرجال والنساء إلى إيجاد مجتمع العدل الذي
يلقى فيه الضعفاء معاملة كريمة. كان ذلك هو جوهر أو صلب الرسالة
القرآنية. فإذا بدا لنا اليوم أن المسلمين غير متسامحين، يجب أن ندرك أنهم
لم يكونوا على الدوام غير متسامحين إزاء الصور الأخرى للحقيقة، على نحو
ما كانت عليه المسيحية الغربية من عدم تسامح. والواقع أنهم لا يتسامحون
إزاء الظلم، سواء كان الذي يرتكبه أحد حكامهم، مثل شاه إيران محمد رضا

بهلوى، والرئيس المصرى أنور السادات، أم إحدى البلدان الغربية القوية. فالرسالة الأولى للقرآن بسيطة: من الخطأ تكديس الأموال لبناء ثروة شخصية، ومن الخير إعطاء الصدقات وتوزيع الثروة فى المجتمع.

ويقول علماء الغرب إننا نخطئ إذا نظرنا إلى محمد باعتباره اشتراكياً، مشيرين إلى أنه لم ينتقد الرأسمالية فى يوم من الأيام، فالرأسمالية، رغم كل شىء، قد عادت بفوائد جمّة على قريش، وإلى أنه لم يحاول أن يتأصل شأقة الفقر تماماً، وهو هدف كان من المحال تحقيقه فى بلاد العرب إبان القرن السابع. وقد لا يكون محمد متفقاً مع جميع المفاهيم الحديثة للاشتراكية، بالصورة التى نشأت وتطورت عليها فى الغرب، ولكنه كان اشتراكياً بالتأكيد، بالمعنى الأعمق للمصطلح، وقد خلف طابعاً لا يمحى على شرعة الأخلاق الإسلامية. والواقع والصحيح أنه لم يجنح إلى إدانة الثروة والممتلكات مثلما فعل المسيح، إذ لم يؤمر المسلمون بأن يتخلوا عن جميع ممتلكاتهم بل أن ينفق كل منهم بسخاء وأن يؤدوا إلى الفقراء نسبة منتظمة من دخلهم. وقد أصبحت الزكاة ركناً من أركان الإسلام الخمسة^(٥). وكان التصدق بالمال، بصورة ما، منصوباً عليه فى أولى الشرائع الأخلاقية الإسلامية^(٦). إذ أمر المسلمون بالآلا يكتزوا المال أو أن يتسلموا لتوازع التنافس على اكتساب مايزيد عما فى أيدي الآخرين^(٧). كما أمروا برعاية الفقراء وبآلا يأكلوا أموال اليتامى ظلماً حين يتولون الوصاية عليهم، وهو ما كان الكثيرون من أفراد قريش يفعلونه^(٨). وقد سادت هذه الشرعة الأخلاقية حتى عندما أصبح المسلمون يمثلون قوة عالمية كبرى وعندما أصبح الكثيرون ينعمون بشراء بالغ. وكان معنى نزعة المساواة فى الإسلام هو أن القانون السماوى أخذ يسلب الخليفة، تدريجياً، كل سلطة سياسية حقيقية، فأصبح، بصفة أساسية، رمزاً للوحدة فحسب. وإذا كان رجال القصر يتمتعون بالثراء، فإن الأتقياء من المسلمين فى جميع مجالات الحياة الدينية فى الإمبراطورية الإسلامية - الفقهاء منهم

والمصوفة - كانوا يقولون إن ذلك الثراء الظاهري غير إسلامي. فإذا أراد حاكم محليّ إثبات صفته الإسلامية، كان من أول واجباته أن يدلل على نقشفه وعلى أنه يطبق المثل الأعلى للمساواة. وهكذا فإن نور الدين وصلاح الدين، اللذين نظّما الرد الإسلامي على الصليبيين، تبرعا بمعظم ممتلكاتهما إلى الفقراء وعاشا مع رفقاتهما حياة تتسم بالبساطة والنقشف. وهكذا تمكنا من استمالة الناس، إذ أثبتنا أنهما أقرب إلى الإسلام من أي حاكم آخر في الشرق الأدنى. وقد شادا إمبراطوريتهما على أساس ذلك التأييد الشعبي، وشهد الناس بصدقهما لأن حياتهما كانت شديدة الشبه بحياة النبي.

كان محمد نفسه يعيش دائماً حياة بساطة ونقشف، حتى عندما أصبح أقوى سيد في بلاد العرب. فكان يكره الترف، وكان منزله كثيراً ما يخلو من الطعام، ولم يكن لديه في يوم من الأيام أكثر من مجموعة واحدة من الملابس، وعندما كان بعض الصحابة يحثونه على ارتداء ملابس رسمية فاخرة، كان دائماً ما يرفض، وكان يفضل القماش الخشن الغليظ الذي يرتديه معظم أفراد أمته. وكان عندما تأتيه الهدايا والغانم يتصدق بها على الفقراء وكان يقول للمسلمين ما كان المسيح يقوله من أن الفقراء يدخلون الجنة قبل الاغنياء. ولم يكن من قبيل المصادفة أن الكثيرين ممن سبقوا بالإيمان برسالة كانوا من بين المحرومين والضعفاء في مكة: كان العبيد والنساء يدركون أن هذا الدين يحمل إليهم رسالة الأمل. وعلى نحو ما سوف نبين، نجح النبي في هداية عدد من أبناء الطبقات الغنية، ولكن معظم أفراد قريش من الأقوياء وأبناء الأرستقراطية لم يستجيبوا له، وعندما كانوا يشاهدون المسلمين مجتمعين في الكعبة، كانوا يسخرون من الطعام الذين كان حفيد عبدالمطلب العظيم يجد السرور في صحبتهم. وعندما اشتد ساعد الإسلام، لم يكن أقرب صحابة النبي إليه من بين أغنياء المسلمين وأبناء الطبقة الرفيعة، بل كان أقربهم إليه من البسطاء الذين آمنوا من بين عشائر قريش الفقيرة. ولم يكن

السبب في ذلك يرجع إلى أي ميول شخصية، إذ كان محمد يعرف أنه يجب أن يكون قدوة للمسلمين الأوائل وأن الله لا يحب الظلم والاستغلال. فعلى المجتمع الكريم الذي يطيع ما أمر الله به أن يرسى أسس أسلوب حياة قائم على المساواة الصارمة.

وقد يتساءل علماني محدث عما حلنا بمحمد، إذا كان ذلك هدفه، إلى السعي إلى الله، وعن السبب الذي جعله يتكبد كل تلك المعاناة النفسية على جبل حراء، وكان يمكنه الشروع في حملة للإصلاح الاجتماعي وحسب، وقد يقول إنه كان يعرف أن للمشكلة مصدراً أعمق وأن مثل تلك الإصلاحات ستقتصر على الظاهر فحسب، ولن تؤتي أكلها إلا إذا وضعت قريش «قيمة» علوية أخرى في قلب حياة أبنائها. كان يدرك على مستوى أعمق مما وصل إليه أي واحد من أقرانه أن جذور المرض في مكة كانت تكمن في الموقف السقيم وغير الواقعي - وهو موقف الطفغيان (إن الإنسان ليطغى) والاستغناء (أن رآه استغنى)^(٩). ففى سالف الأيام، عندما كان على الأفراد أن يولوا القبيلة الأولوية في كل شيء، لم يكن أمام العرب مناص من إدراك تكافل أفراد القبيلة. كانوا دائماً يواجهون الفناء في الفيافي العريية، وكان نجاحهم المادى وثراؤهم يحميهم من الأخطار التي لم تكن سوى سمات للحياة العربية العادية. ومن ثم فقد انجهموا إلى ابتداء دين جديد من المال، وهنا من التطورات المفهومة، فأصبحوا يعتدلون أنهم قادرون على التحكم في أقدارهم، بل ويُلْمح القرآن إلى أن بعضهم كان يحسب أن المال قادر على أن يكفل له لونا ما من الخلود^(١٠)، وهو الذي كان من المحال تحقيقه إلا عن طريق القبيلة في الأيام الخوالي. ومع ذلك فكان مجتمعهم يقوم على مثل أعلى جماعي، أما الآن فالمعاشرة تتقاتل فيما بينها، وكان بعضها يشعر أن بقاءه نفسه كان في خطر. كان رباط الوحدة القديم الذي يشد القبيلة بعضها إلى البعض قد بدأ في التمزق، ومعنى ذلك أن القبيلة مآلها حتماً إلى التفتت. ومن ينظر إلى سيرة النبي محمد فلا بد أن يخلص إلى هذه النظرة.

فلقد نجح آخر الأمر في هزيمة قريش، بعد عشرين عاماً تقريباً، لا بسبب براعته فحسب، ولو أنها براعة لا يستهان بها، بل لأن رجال قريش لم يستطيعوا الوقوف أمامه جبهة موحدة. والواقع أن نزعة فردية قاسية كانت قد بدأت في بداية بعثة النبي محمد، تفتصب شرعة الأخلاق الجماعية القديمة، ويبين القرآن ذلك في المثل الصارخ الذي يضره لمن يود لو يفدى نفسه من عذاب يوم الحساب بجميع أقربائه^(١١)، وهي ظاهرة كان من المحال تصورها يوماً ما، عندما كان العرب يعتبرون أن روابط الدم مقدمة.

لم يكن من الممكن تصحيح هذه المثالب إلا إذا نجحت قريش في إذكاء روح جلييلة داخل نفوس أبنائها. وكانت معظم الحلول السياسية الجديدة في ذلك الوقت ذات طابع ديني. وعندما طلب محمد آنذاك من قريش أن تنظر فيما يترتب على إيمانها بالله خالق السموات والأرض من آثار، لم يكن يقترح عليها شيئاً غير مسجوق، فالإلحاد بمعناه الحديث لدينا كان فيما يبدو مستحيلاً من الناحية النفسية، بل كان مستحيلاً بهذا المعنى قبل القرن الثامن عشر، وفي الغرب فقط. كانت قريش جميعاً على استعداد للإيمان ضمناً بوجود ربها الأعلى. وكان كثير من أفرادها قد آمن بأن الله هو الإله الذي يعبده اليهود والنصارى. ولكن محمداً الآن يطلب منهم التفكير في الآثار المترتبة على ذلك الإيمان. لم يكن عليه إثبات وجود الله، بل إنه كان يقول إنه إذا كانت قريش تؤمن حقاً بما تقول، فلا بد لها من التفكير في معنى ذلك. كان اليهود والنصارى يؤمنون بأن الله سوف يعث الناس في اليوم الآخر، وهي فكرة كانت النزعة القدرية العربية القديمة تنكرها، وإن كانت تترتب عليها آثار أسامية لكل نفس من نفوس الأفراد، بل إن أضعف أفراد القبيلة يتمتع بروح مآكها الخلود، ومن ثم فله أهمية قدسية. فإذا كانت قريش جادة في إيمانها بأن الله قد خلق العالم، فقد يكون عليها أن تنظر إلى ما خلق الله بعيون جديدة.

وكان محمد في السوات الأولى من بعثته، يقتصر في دعوته على عدد مختار بحرص شديد، وكان يذكر قريشاً بالعقائد القديمة الكثيرة، ويطلب منهم أن يعيدوا النظر فيها بغية تطبيقها على الأحوال الراهنة. كيف كان الشعور الجديد بالاستغناء (أن رأه استغنى) يتمشى مع ما يذكرونه باعتزاز عن عام الفيل، عندما أنقذ الله المدينة من الدمار بمعجزة رائعة فرغ بذلك من مكائهم وهيتهم إلى حد يصعب وصفه؟ لقد كانت تلك من الآيات الأخرى التي دعاهم الله إلى تأملها بدقة:

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كغصف مأكول ﴾ (١٢). كان اعتزاز قريش وتفاخرها بهذه الحادثة بمثابة إقرار من أفرادها بأنهم لم يبلغوا ما بلغوه من قوة ولجأ مادي بفضل جهودهم البشرية فحسب.

لم يكن القرآن يسيط الشام عن أي شيء جديد، بل كان يقول إنه «تذكرة» (١٣) أي إنه يذكر الناس بما كانوا جميعاً يعرفونه. وكان بمثابة «بيان» وحسب للحقائق القديمة، فهو يبرؤها ويزيد من إيضاحها وشرحها. وكثيراً ما يقدم القرآن الموضوع الجديد بكلمات مثل: «ألم تر كيف...» أو «فليتنظر...» أي إن كلمة الله لم تكن تتخذ صورة الأمر التوقيفي المتزل من السماء راعداً مُرهياً بل كانت تدعو قريشاً إلى الشروع في حوار، وكان التحدى فيها لا يهدم الماضي بل يقوم على أسس من النظرات والتقاليد العربية العريقة. فعلى سبيل المثال نرى أن القرآن يذكر قريشاً بأن الكعبة التي يعترفون بها أيما اعتزاز، إنما هي بيت الله، وأنها من الأسباب الأولى لنجاحهم. لقد كانت سبب قيام الحبشة بغزو بلادهم في عام الفيل، ولو لم يكن هذا البيت العتيق قائماً، وهو الذي منحهم الله إياه، لما تمكنوا من إقامة تلك الأسواق الناجحة، ولظلت مدينتهم تتعرض لخطر عدوان القبائل الأخرى، ولما تمكنوا من قهر مرض الجوع والتحرر منه:

﴿ لإيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف. ﴾ (١٤).

لم يكن القرآن يحثهم على التواكل، أو إيكال كل شيء لله، بل على عكس ذلك تماماً، على نحو ما سوف نرى. والواقع أنه كان يطلب منهم إعادة النظر في عدد من أولى وأهم عقائدهم الأساسية، على ضوء أوضاعهم الحالية. كان أبناء قريش لا يزالون يجوبون الطواف حول بيت الله، ولكنهم بعد أن سمحوا لذواتهم ونجاحهم المادى باحتلال مركز الدائرة في عالمهم، كانوا فيما يبدو قد نسوا معنى الشعائر القديمة. إن معنى «الإيلاف» هو وحدة قريش التي تدور حول هذا المكان المقدس، وقد تعرض «الإيلاف» للخطر بسبب قيامهم بتفتيت المثل الأعلى الجماعى القديم، وعدم رعايتهم للعشائر الضعيفة، ولليتامى والفقراء والمسنين والمحرومين. ولو أنهم استمروا في فعل ما يفعلون لفقدوا الوعي بموقعهم الحقيقى فى العالم.

كان القرآن يحاول فى هذه المرحلة المبكرة أن يفتح عيون أهل مكة على الكثير مما يدينون به لله، رغم ما أحرزوه أخيراً من نجاح مادى وأمن ظاهرى. لقد طلب منهم أن يتأملوا آيات الخير الذى أنعم الله به عليهم، وأن يتأملوا قدرته التى تبدى بوضوح وجلاء حيثما يعموا وجوههم فى عالم الطبيعة من حولهم. فإذا أخفقوا فى تحقيق ذلك الخير داخل مجتمعهم كانوا بذلك يخرجون عن الطبيعة الحققة للوجود:

﴿ الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان، الشمس والقمر بحسبان، والنجم والشجر يسجدان، والسماء رفعها ووضع الميزان، ألا تطغوا فى الميزان، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان، والأرض وضعها للأنام، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام، والحب ذو العصف والريحان، فبأى آلاء ربكما تكذبان؟ ﴾ (١٥).

إن جميع الكائنات الأخرى تسبح بحمد الله وتسجد له، إذ تقر بأنه هو بارئها وهو فاطرها، وأنه أصل وجودها ولا تستطيع البقاء من دونه. الله هو

القوة أو الطاقة الأساسية التي تُلهم جميع الأشياء وتمنحها الحركة والقوة. وهو الذي خلق الميزان الذي يحافظ على العلاقات الصحيحة فيما بينها، فإذا لم تنجح قريش في إقامة الميزان داخل المجتمع، بحيث تراعى التوازن الصحيح والمعيار العادل في كل تعامل فيما بين أفرادها، تكون قد أخفقت في التوافق مع طبيعة الأشياء. وكان محمد يريد لأوائل المؤمنين برسالته أن يتخذوا هذا الموقف، وهو موقف يتم بإحساس بالمسئولية في الإقرار بفضل الله. ولساعدتهم على تنمية هذا الإحساس طلب منهم أن يركعوا لله في إطار شعيرة الصلاة مرتين في اليوم، مثل النجوم والأشجار. وقد أصبحت الصلاة ركناً من أركان الإسلام الخيمة. ومن شأن الحركة الخارجية في الصلاة أن تساعد على غرس الحركة الداخلية وتعيد توجيه مسار الحياة على مستوى عميق وجوهري.

وانتهى الأمر بدين الله الذي دعا إليه محمد إلى أن أصبح يعرف باسم الإسلام، وهو فعل التسليم الوجودي الذي كان ينبئ على كل مؤمن أن يقوم به لله، فالمسلم كلمة تعني «من يُسلم» كيانه كله - رجلاً كان أو امرأة - إلى الخالق. ولكن المؤمنين كانوا يطلقون على دينهم صفة «التزكى» وهي كلمة أجدها غامضة وليس من اليسير أن أترجمها إلى الإنجليزية. ولكن غرس التزكى كان معناه أن يكتسب من آمنوا بمحمد فضيلتي التواضع والكرم، وأن يستعملوا ذكاءهم لغرس روح الرعاية والمسئولية، وهي الروح التي تجعلهم يحدبون على الإنفاق مما لديهم على جميع مخلوقات الله. ومن خلال التفكير في أسرار الخلق وتأملها بذهن ثاقب يستطيع المسلمون أن يتعلموا السلوك القائم على الرحمة والعطف، ومعنى هذا السلوك الكريم أنهم قد اكتسبوا التهذيب الروحي. وكان لله المثل الأعلى والأعظم، ولذلك فقد حث القرآن المسلمين على تأمل آياته لتقدير مدى كرمه وفضله على العالم الطبيعي بأسره. فمن ثمار العقل الكريم النظام والانضباط، بدلاً من الفوضى وهمجية

الإنانية. فإذا سلم المسلم بما أمر الله به، وجد أن حياته تشكلت وفقاً للرقى والتهديب في الكون.

إن كل المخلوقات الأخرى تدين بالإسلام بالفطرة، وهي لا تملك إلا طاعة مشيئة الله والتسليم بنظامه القدسي^(١٦)، أما الإنسان فهو الوحيد الذي يتمتع بحرية اعتناق الإسلام طوعاً، وتطويع حياته لتتفق مع منبع وجوده والقوة التي ترعى هذا الوجود. أي إنه لا يُسلم نفسه إلى طاغية متعسف، بل إلى القوانين الأساسية التي تحكم الكون.

ولكن ما شأن قسوة الطبيعة، والكوارث الطبيعية التي تُرجعها في لغة القانون إلى «المشيئة الإلهية»؟ إن القرآن لا يتجاهلها إذ يقول في السورة التي أشرت إليها في الفترة السابقة:

﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون، وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون، إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين﴾ (يس).

لم يخبر أحد قسوة الطبيعة خيراً من العرب، وكانت الأرياب المتعددة أيام الوثنية وفي التقاليد الدينية الشرقية، لا تعدو أن تكون رموزاً لقوة أولية، هي طبيعة الأشياء، وكانت تعتبر عليا، وذات أسرار لا تُكْتَنه، ولا تسم بأى طابع شخصي. وكانت بعض هذه الأرياب ترمز إلى صفات الخير في تلك القوة وتعتبر تجسيدا للحب أو الحصب أو القانون أو الحكمة ولكن كانت هناك آلهة أخرى تعبر عن الجوانب السيئة في حياة الرجال والنساء. كانت هناك آلهة للحرب أو للعنف، وكانت لها أجياناً خصائص شريرة. كانت التقاليد الهندوسية تقول إن الشر يمثل أحد الألقنة التي تخفى الحقيقة المتعالية وغير الشخصية للرب. وكانت الرؤية الوثنية التي تزخر بالحروب الدائرة بين الأرياب والريات بمثابة تعبير تراجيدي، وإن كان يتسم بشجاعة الصديق، عن الصراع الذي يراه كل إنسان دائراً في العالم وفي أعماق كيانه. ولم

تكن الوثنية تتصور أى حل لهذا الصراع. وكانت الدلالة الرمزية الأصلية للأرباب القدامى قد فقدت في بلاد العرب إبان فترة الترحال، كما يفترق الدين العربى إلى الأساطير التى تعبر عن هذه المعانى الوثنية. ولكننا نستطيع أن نرى بعض عناصر هذا المعنى فى القرآن، إذ إن آيات الله فى العالم تعبر عن الأسرار التى لا تكتنه عن الله، والتى كان أصحاب الأديان القديمة يرمزون لها بالأرباب.

ويصور القرآن الله تصويراً يتعد به عن الصفات الشخصية، وهو يزيد فى هذا الابتعاد كثيراً عن «يهوه» فى الكتاب المقدس لليهود، وعن «الاب» الذى يتجدد عند النصرانى فى المسيح عيسى. ففي الدين القبلى الأول للعبرانيين كان «يهوه» يُتزل المصائب أو يُنعم النعم على الرجال والنساء وفقاً لمشيئته وحسب، وكان ذلك أحياناً بصورة تعفية إلى حد ما. أما حين يقضى الله بفرق إنسان مثلاً، فهو لا يفعل ذلك بسبب عداء شخصى. بل إن صورته هنا أقرب إلى سُنّة الطبيعة أو الناموس الأعظم، وأقرب إلى الرب الأعلى الذى كان أنبياء العبرانيين المتأخرين يدعون إليه، إذ يتعالى فى ذلك تماماً على جميع المفاهيم البشرية المحضة للخير والشر، وللصواب والخطأ:

«لأن أفكارى ليست أفكاركم ولا طرقكم طرقى يقول الرب. لأنه كما علت السموات عن الأرض هكذا علت طرقى عن طرقكم وأفكارى عن أفكاركم» (اشعيا).

ولا يسع الإنسان إلا أن يدهش للعبقرية الروحية للنبي محمد الذى لم تكن له أية صلة تقريباً باليهود أو بالنصارى الممارسين لدينهم وكانت معرفته بتلك الكتب السماوية الأولى، حتماً، معرفة بالغة الضآلة، ومع ذلك فقد نجح فى النفاذ إلى قلب الخبرة بدين التوحيد. ويؤكد القرآن أن الله يستعصى على أفكارنا البشرية، وأنا لا نستطيع أن نتكلم عنه إلا من خلال الرموز والإشارات، وهى تفصح نصف إفصاح عن طبيعته التى لا يمكن التعبير

عنها، وتخفيها كذلك نصف إخفاء. فطرائق الخطاب القرآنى كلها طرائق رمزية، فالقرآن دائماً ما يضرب «الأمثال» العظيمة حتى يتأملها المسلمون ويتدبروا معناها. وهو لا يقدم عقائد عن الله بمعنى تعريف طبيعته أو تحديدها، بل يقتصر على بيان «الآيات» التى تدلل على طبيعة قدسية تتيح للإنسان أن يخبر صفة من صفاته.

وكثيراً ما يسء أبناء الغرب فهم الطابع الاستعارى للاهوت القرآنى، لأننا اعتدنا أن نقرأ ما نقرأ من كتب فى هذه الأيام للحصول على المعلومات. ولكن المسيحيين فى العصور الوسطى كانوا قد وضعوا منهجاً يتصف بالرمزية الخالصة لقراءة أسفارهم الدينية، وهو منهج لا يختلف عن منهج تناول المسلمين للقرآن. بل إن بعض الحوادث التى يرويها، عن حياة الأنبياء مثلاً أو يوم الحساب الذى يراه قريباً، تعتبر فى جوهرها تمثيلاً رمزياً لحقائق قدسية ويجب ألا نفهمها باعتبارها حقائق واقعية وحسب. ومثلما كان البوذيون ينظرون إلى شتى الأرباب والريات باعتبارها جواتب أو نوازع فى نفوسهم، كان المسلمون دائماً يتحدثون عن «موسى فى نفس الإنسان» أو عن «يوسف فى قلب المرء» أى إنهم كانوا ومايزالون ينظرون إلى الصراع بين الخير والشر الذى يكثر القرآن من وصفه، باعتباره دراما روحية تقع أحداثها دون توقف وبلا نهاية فى داخل نفوسهم. ولذلك فعندما يقرأ المسلمون القرآن فإنهم يكتبون الوعى بتاريخ وجودهم وكيانهم، لا برواية موضوعية عن الخلاص. وهم يبذلون جهداً فى مخيلتهم لإبداع خبرتهم الداخلية بالصراع حتى يعودوا إلى منبع الخلق ويقهروا الشر فى نفوسهم.

وقد حث القرآن منذ أيامه الأولى الرجال والنساء على اكتساب هذا الموقف الرمزي القائم على المخيلة القوية. ويظهر ذلك بوضوح وجلاء فى الكلمات العظيمة التى تصف «الآيات» فى الطبيعة. وإذا كانت المسيحية تتسم أحياناً برؤية تشاورية إلى حد ما للعالم الطبيعى، بسبب الاعتقاد بأنه انتكس وفقد

كماله الأول نتيجة لخطيئة الإنسان، فإن الإسلام لا يؤمن - شأنه في ذلك شأن اليهودية - بسقوط الإنسان والخطيئة الأصلية بالمعنى المسيحي، ولا يقول بأن الموت والألم والأحزان تمثل عقوبات للإنسان على سقيوطه الأول، بل بأنها دائماً تمثل جزءاً لا يتجزأ من نظام قدسي لا يمكن تمييز أغواره. والعالم المادى ليس عالم سقوط، بل هو مظهر إشراقى يفضح عن الحقيقة العلوية التى لا يمكن حصرها فى اللغة البشرية العادية أو طرائق الفكر المعتادة. وقدرة البصيرة على التناذر من خلال هذا العالم المعزق إلى القوة الكاملة للوجود الأول والأصيل كانت وما تزال من مهام المخيلة والفن والدين. ويحث القرآن المسلمين على بذل الجهد فى مخيلتهم وفى أذهانهم على النظر إلى العالم من حولهم نظرة رمزية:

﴿إِن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والقلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ (البقرة: ١٦٤).

وتؤكد التقاليد الإسلامية أهمية المخيلة، ويصف الفيلسوف الصوفى الكبير محيى الدين بن عربى (ت - ١٢٤٠) للمخيلة بأنها الملكة التى وهبها الله للإنسان، وهى ملكة إدراك التجلى القدسى للفرد، أى إدراك تجليات الله فى العالم من حولنا. وهذه الطاقة الإنسانية الفذة تمكن الرجال والنساء من التوجه من الصدمات والمآسى التى تصيب البشر. ولكن القرآن لا يطلب من المسلمين أن يتخلوا عن العقل. فالآيات موجهة إلى «قوم يعقلون» و«قوم يعلمون»، والقرآن يحث المسلمين على أن «ينظروا» إلى الآيات فى العالم الطبيعى وأن يتدبروها بعناية (٢٠). وقد ساعد هذا الاتجاه على تنمية عادة التأمل والاستطلاع الذكى التى مكنت المسلمين من إرساء وتطوير تراث رائع فى العلوم الطبيعية والرياضيات. ولم ينشأ فى يوم من الأيام أى صراع بين البحث العلمى

العقلاني وبين الدين في التراث الإسلامي على نحو ما اتضح في القرن التاسع عشر عندما أحس المسيحيون أن مكتشفات لاييل وداروين تؤدي إلى تقويض الدين تقويضاً لا قيام له بعده. بل إن بعض المتصوفة من الطوائف الشيعة الثورية اتخذوا من العلم والرياضيات مقدمات للتأمل والتدبر.

وهكذا فعندما طلب محمد من أبناء قريش أن يقبلوا أن ما جاءه هو تنزيل من عند الله، لم يكن يطلب منهم الموافقة على عقيدة لاهوتية أو مجموعة من الأفكار اللاهوتية، إذ لا يوجد في الإسلام - شأنه في ذلك شأن اليهودية - نص على أرثوذكسية لاهوتية، بل إن الأفكار والمفاهيم المتعلقة بالله هي في جوهرها من الأمور الموكولة إلى كل فرد على حدة. بل إن القرآن يعادى الجتوح إلى شطحات التأمل في الذات الإلهية، ويصفها بأنها «إسقاطات» بشرية وضرب من تحقيق الأمانى وحسب. والتفكير المذهبي لم يتجاوز «الظن» إذا امتد إلى الحقيقة المتعالية لله، وكانت تلك من عادات التخرص التي لا طائل من ورائها، ومحاولة التعبير عما يستعصى على التعبير، وهو مما أدى إلى وقوع الفتنة بين أهل الكتاب فانقسموا شيعاً وأحزاباً^(٢١).

ولا يدعو الإسلام مثلما لا تدعو اليهودية إلى الأرثوذكسية، أي إلى تعاليم «صحيحة» عن الذات الإلهية، بل يصران، بدلاً من ذلك، على الممارسة الصحيحة للدين أي إلى إقامة أركانه العامة وشعائره. ومن ثم فإن القرآن يقول إن «المؤمن» ليس هو الفرد الذي يوافق على مجموعة من الأفكار، مثل تلك التي توجد في المذاهب العقيدية المنوعة أو «المواد التسعة والثلاثين»، بل إنه الفرد الذي نجح في اكتساب خشية مباشرة من الحقيقة القدسية التي سلم لها نفسه، وهو يرتعد وجلاً عند ذكرها ويعبر عن إسلامه بشعيرتين متلازمتين هما الصلاة والصدقات:

﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، أولئك هم المؤمنون حقا﴾ (٢٣) (الأنفال ٢ - ٤).

وعلى العكس من ذلك يكون الكافر (أى الكافر بنعمة الله)، فهو ليس شخصاً لا يؤمن بوجود الله، وليس شخصاً يعتقد أفكاراً لاهوتية غير صحيحة، وإنما هو من يجحد فضل الله، والقرآن يوضح باستعمال أصل الفعل «كفر» أن هذا الموقف هو موقف تعمد اللجاجة والعناد، فكفار مكة كانوا يعلمون فى قلوبهم معنى «الآيات»، ولكن الغطرسة جعلتهم يعارضون الله بدلاً من إعادة تنظيم حياتهم (٢٣).

وعلى الرغم من جهود النبي محمد فى السنوات الأولى من بعثته فى التركيز على أهمية المقدسات الأساسية التى كانت قريش تجملها كل الإجلال، مثل الكعبة، فقد كان يدرك بالقطرة أن رسالته سوف تثير عداة عميقاً له، ومن ثم التزم الحذر الشديد حقاً فى اختيار من يدعوهم إلى الإيمان، فكانت الدعوة إبان السنوات الثلاث الأولى من البعثة تقتصر على أفراد دون غيرهم، وتتم بالخصوصية المحضة، بحيث انتشرت كلمة الإيمان من فم إلى فم ومن قلب إلى قلب.

ومع ذلك فقد نجح فى تكوين مجموعة صغيرة من المؤمنين الصادقين الذين أدركوا على الفور أهمية ما جاء على لسانه. وكانت هذه المجموعة تلتقى لأداء صلاة الجماعة مرة كل صباح، ومرة أخرى كل مساء، وكان يبدو أن الصلاة أثارت نفوراً عميقاً لدى أبناء قريش، إذ بدا لهم من البغيض أن العرب الذين كانوا يتمتعون باستقلالهم البدوى الصارم على امتداد قرون طويلة، باتوا على استعداد للركوع والسجود على الأرض مثل العبيد.

وكان ذلك النفور الذى اتضح على الفور دليلاً على أن دعوة محمد قد مست نقطة حساسة فأصابها ولم تخطئها، إذ إن الطاعة العميقة كانت تمثل

تحدياً لما نجحت قریش فی اكتسابه منذ عهد قريب من كبرياء، وترُفَع وما سبق وصفه بالاستغناء (أى الاكتفاء الذاتى) وبلغ من قوة ذلك النفور أن أصبح من المحال على المسلمين أداء الصلاة علناً فاضطروا إلى أدائها فى الشعاب المحيطة بمكة. ويبدو أنهم كانوا يمارسون كذلك لونا من الإحسان وتقديم الصدقات الذى كانوا يرون أنه من عوامل التطهير الأخلاقى، وكانوا يقومون الليل للتهجد والتبتل، ويقرءون القرآن فى أثناء ذلك.

وربما كانت عادة قيام الليل ترجع إلى تهجدات الليل التى كان يؤديها الرهبان المسيحيون فى صحراء سوريا، إذ كانوا ينهضون فى الهزيع الثانى لترتيل المزامير، وقد أثرت تلك العادة فى مفهوم العرب للمقصود بالكتاب المقدس، إذ رأوا أنه لم يكن كتاباً يقرؤه كل فرد على حدة بل هو نصٌ يرتلونه وينشدونه بصوت عالٍ فى الطقوس الدينية والعبادة. وإذا كان المسلمون - كما هو واضح - يقومون بدراسة القرآن اليوم، بحيث يقرؤه الفرد وحده ويتأمله بنفسه، فإنهم لا يزالون يقولون إن تأثيره الكامل لا يتحقق إلا عندما يقرؤه أحدهم بصوت عالٍ ويرتله ترتيلاً خاصاً. ولا شك أن للصوت معنى غامضاً وهو يجعل لغة القرآن تشبه أنغام الموسيقى، وهى الفن الذى يثير الإحساس بالبارئ المتعالى على هذا الكون بصورة أقوى وأكمل من أى فن آخر. ويرجع الفضل إلى القرآن فى الحيلولة دون اقتصار مفهوم الله، على الرب البعيد الموجود خارج نفس الإنسان، والواقع أن أوائل كتاب السيرة كانوا دائماً ما يصفون اعتناق شخص ما للإسلام بقولهم إن الإسلام قد «دخل قلبه». وسوف أتحدث عن دور القرآن والخبرة التى اكتسبها المسلمون الأوائل الذين آمنوا بفضل القرآن بمزيد من التفصيل فى الفصل التالى. ولكن يبدو أن الجمال الفذ للغة العربية عند ترتيلها كان يمس المشاعر الدفينة على أعمق مستوى، وكانت ترن فيه أصدااء الأشواق والآمال اللاشعورية للذين ينصتون إليه. ولقد مر كل منا بتجارب مماثلة، إذ كان يحس بأن قصيدة ما أو قطعة

موسيقية معينة قد رفعته برهة من الزمن إلى مستوى أعلى من مستوى ذاته، وجعلته يحس بوجود حقيقة أكبر منه ومن الوجود. لم يكن النطق بكلمات الله تجربة سهلة للنبي محمد، وكان القرآن يستمر في التنزل عليه حتى أثناء أنشطته العادية. فكان يُغشى عليه ويتصيب منه العرق الغزير، حتى في الأيام الباردة. وقد ذكر بعض الثقات أنه كان يحس بهم عميقاً، وهو إحساس يشبه الحزن، وأنه كان يخفض رأسه ويضعها بين ركبتيه أثناء استماعه إلى الكلمات المقدسة.

من كان أول من أسلم؟ كانت خديجة قد صدقت بالتنزيل منذ البداية، وتبعها أفراد بيت محمد، مثل علي، وزيد، وبنات النبي الأربع. ولكن محمداً أحس بخيبة أمل بالغة لأن أعمامه أبا طالب والعباس وحمزة لم يظهروا اهتماماً باعتماد الإسلام، وقال له أبو طالب إنه لا يقوى على هجر دين آباءه، وهو التحفظ الذي أبداه الكثيرون من أبناء قريش فيما بعد. وكان محمد يدرك أن ذلك التنزيل، على ما فيه من معانٍ تضرب بجذورها في التقاليد الوثنية القديمة، لا بد أن يمثل أو يتضمن خطراً يتهدد الإخدين بنزعة «المحافظة» في قريش، وكان ذلك مما حدا به إلى التكتّم والعزوف عن المجاهرة في السنوات الثلاث الأولى من بعثته. ولكن عمه أبا طالب كان يكنّ احتراماً كبيراً لشخص محمد واستمر يُجيره ويحميه علناً حتى عندما أصبح ذلك شاقاً وعسيراً. وكانت حماية أبي طالب، باعتباره شيخ قبيلة قريش، ذات أهمية حاسمة لمحمد، فإذا كانت شرعة الأخلاق القبليّة بسبيلها إلى التفتت، فالواقع أنه كان من المحال على الفرد أن يظل على قيد الحياة إذا لم تُجره عشيرته.

ولكن أفراداً آخرين من أسرة محمد قبلوه نبياً لهم، وكان من بينهم جعفر، الابن الآخر لأبي طالب، وكذلك صديقه المقرب وابن عمه عبد الله ابن جحش وأخته زينب بنت جحش، وأخوه عبيد الله الذي كان من

الاحناف الذين كانوا يبحثون عن شكل بديل لدين التوحيد. أما زوجنا العباس وحمزة فلم تقبلا تردد زوجيهما وحنرهما، فاعتنقت أم فضل وسلمة الإسلام، وكذلك فعلت أسماء زوجة جعفر، وعمة محمد وهي صفة بنت عبد المطلب. وانضمت إلى المسلمين أم أيمن، الجارية التي أعتقها النبي، وكانت الجارية الصغيرة التي تركها عبد الله، والد النبي، لآمنة مع الجمال الخمسة. وقال محمد عنها ذات يوم: «من يُرد أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن»^(٢٤)، وعندما بلغ زيداً ما قاله النبي بهره ما سمعه فطلب يدها من النبي، مع أنها كانت تكبره بسنوات كثيرة. ووافقت أم أيمن، فتزوجها وأنجب منها طفلاً اسمه أسامة، وهو أول أحفاد محمد، ومن أوائل من ولدوا في الإسلام.

ولكن محمداً نجح في أيام الإسلام الأولى في إقناع رجل من غير أبناء أسرته برسالة الإسلام، وكان ذلك حدثاً له أهميته الحيوية، ألا وهو صديقه عتيق بن عثمان الذي عرف دائماً بكنيته وهي أبو بكر. وقد نُسب إلى محمد أنه قال بعد ذلك بسنوات: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كيوه ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما عكم عنه حين ذكرته له، وما تردد فيه»^(٢٥) (ابن هشام ص ٢٥٣). لم يكن يتمتع كثير ممن دخلوا الإسلام بنفوذ في مكة مماثل لنفوذ أبي بكر، ولكن أبا بكر كان، فيما يرويه ابن إسحق:

«رجلاً مألُفاً لقومه، محبباً سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر: لعلمه وتجارته وحنن مجالسته، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه، ممن يغشاه ويجلس إليه»^(٢٦) (ابن هشام - ص ٢٥٢).

ونجح أبو بكر في هداية الكثيرين من شباب مكة إلى دين الله، وكان بعضهم من العشائر القوية. وكان معروفاً ببراعته في تفسير الأحلام، وحدث

ذات يوم أن جاءه خالد بن سعد، وهو ابن أحد كبار رجال المال من بني عبد شمس، وقد أصابه حزن عميق، إذ رأى فيما يرى النائم أنه كان يقف على شفا حفرة شاسعة من النار، ورأى في هلع أن أباه كان يحاول أن يلقي به فيها، ثم شعر بذراعين أحاطتا بوسطه وأنقذتاه من السقوط. وفي اللحظة التي أفاق فيها أو قُبِّلَها، انفتحت ليرى أن الذي خلصه لم يكن سوى النبي محمد. وبيّن لنا هذا الحلم، في الصورة التي يُروى بها، مدى الإحساس الغامض والعاجل بالخطر، لدى الكثير من الشباب آنذاك. كانت مشاق حياة الصحراء قد توارت وابتعدت عن أعين الكثيرين، ويبدو أنهم لم يكونوا يشاركون آباءهم ولعهم بالرأسمالية الجديدة، بل إن صراعاً عميقاً قد بدأ يشوب علاقتهم بآبائهم وإن لم يفصحوا عنه. كان محمد يمس مشاعر دنيئة لم تبلور بعد عند هؤلاء الشباب، الذين كانوا يُحسون بالملال الذي يسود مكة إحساساً بالغ الحدة. واعتنق خالد الإسلام، ولكنه تكتم أمر دينه ولم يخبر أباه به أطول مدة ممكنة.

وقد روى حلم آخر عن اعتناق الإسلام، يصور جانباً أكثر إيجابية من جوانب التأثير القرآني، إذ كان التاجر الشاب الأرستقراطي عثمان بن عفان، وكان أيضاً من بني عبد شمس، عائداً من رحلة تجارية في سوريا عندما سمع في الحلم صوتاً يصيح في البرية: «أيها النوام هبوا من سباتكم! فإن أحمد قد أتى إلى مكة!» (٢٧) وفرح عثمان وإن كان قد حار في أمر هذا الصوت، إذ كان الصوت يثير مكان من شيء ما في أعماقه، حتى دون أن يعرف ما تعني الكلمات التي سمعها: كانت تجربة الإسلام تجعل المسلمين في حالات كثيرة يشعرون بأنهم هبوا من رقاد وخمول طال أمده. وفي اليوم التالي لحق بعثمان وهو على ظهر الطريق تاجر آخر من جيل الشباب هو طلحة بن عبيد الله التيمي، الذي كان من أبناء عمومة أبي بكر. وكان طلحة عائداً من سوريا، وأخبر عثمان أنه قابل راهباً حدثه عن النبي أحمد الذي آن أوان ظهوره في

الحجاز، ثم أطلعه على نبا أدهشه وهو أن «أحمد» هو فى الحقيقة محمد بن عبد الله الهاشمى. ومن ثم انطلق الرجلان عائدين إلى مكة، بأقصى ما يستطيعان من سرعة، وذهبا على الفور إلى أبى بكر.

ويقول المؤرخ المكى ابن شهاب^(٥) الزهرى، الذى ولد بعد وفاة الرسول بنحو أربعين عاماً وكرس حياته للقيام بالبحوث فى فترة فجر الإسلام، إن محمداً سرعان ما نجيح:

«كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو للإسلام سراً وعلانية، فدخل الإسلام من دخل من أحداث الرجال وضعفاء الناس، حتى كثر عدد من آمن به، ولم يتقصد كفار قريش ما كان يقوله. وكان إذا مر بهم فى مجالسهم يشيرون إليه قائلين: «هذا هو الفتى من بنى عبد المطلب الذى يتحدث عما أنزل من السماء إليه»^(٢٨).

ويؤكد ابن إسحق أيضاً هذا النجاح المبكر^(٢٩)، ولكن الزهرى يوضح أن أول من آمن به كانوا يتمون إلى فئتين دون غيرهما وهما الشباب و«الضعفاء». وقد انضم إلى الطائفة الجديدة بعض الذين يعانون من الحرمان الشديد، وكان من الطبيعى أن يتجذبوا إلى التعاليم الاجتماعية التى أتت بها، ثم أصبحوا من الشخصيات المهمة فى الإسلام. وكان من بينهم عبد الله بن مسعود، وكان يعمل بالرعى، ويتمتع بموهبة كبرى فى استظهار الآيات القرآنية التى تنزل على محمد، ولذلك كان من أهم الثقات فى رواية أوائل ما نزل من القرآن، وكذلك خباب بن الأرت، وكان حداداً يعمل بصناعة السيوف، وكذلك اثنان من الرقيق الذين أعتقوا، وهما صهيب بن سنان وعمار بن ياسر، واللذان كانت عشيرة مخزوم ذات القوة والمنعة قد

(٥) فى الأصل الإنجليزى: Ibn Shihan Al Zubri وهو خطأ، فمن المعروف أنه محمد بن شهاب الزهرى (ت ١٢٣هـ). (المعروف)

أجارتها، إلى جانب طائفة من الرقيق، فيها الرجال وفيها النساء، وأشهرهم بلال الحبشى الذى أصبح أول مؤذن يدعو المؤمنين للصلاة.
ولكن تعبير «الضعفاء» لم يكن يعنى أن كلاً منهم كان فقيراً أو منبوذاً، فالتعير من المصطلحات الفنية التى كانت القبائل تستعملها للإشارة إلى الأوضاع الاجتماعية لشتى العشائر. وعندما بدأ محمد بعثته كانت عشائر قريش تنقسم إلى جماعات رئيسية ثلاث وضعها «مونتجومرى واط» فى القائمة التالية:

(ج)	(ب)	(أ)
مخزوم	عبد شمس	هاشم
سهم	نوفل	عبد المطلب
جمع	أسد	زهرة
عبد الدار	عامر	تيم
		الحارث بن فهر
		عدى

وكانت عشائر للمجموعة الأولى (أ) تنتمى جميعاً إلى حلف الفضول، وكانت أضعف العشائر فى المدينة. وكانت تشتمى من ذلك عشيرة عدى التى تدهورت أحوالها فى الفترة الأخيرة، وعشيرة أسد (التي تنتمى إليها خديجة) إذ قويت شوكتها. وكان معظم أوائل من دخلوا الدين الجديد يتمون إلى المجموعة الأولى. وكان أبو بكر وطلحة، على سبيل المثال، من عشيرة تيم، وكان التاجر الشاب ذو المستقبل المشرق عيد الكعبة (الذى تغير اسمه إلى عبد الرحمن) من بنى زهرة. وقد يكون بعض أفراد هذه العشائر «الضعيفة» ممن أحرزوا نجاحاً شخصياً مثل أبى بكر الذى كان ثرياً، ولكن تدهور سلطة عشائرتهم جعلتهم يشغلون موقعا هامشياً فى المدينة. وعلى نحو ما سوف

نرى، كان معظم ألد أعداء محمد يتمون إلى العشائر القوية في المجموعتين الثانية والثالثة، إذ كانوا هنا وأسعد حالاً بالحالة الراهنة. ولكن بعض من آمنوا بـمحمد ممن يتمون إلى العشائر المهمة - مثل خالد وعثمان - قد يكونون قد شعروا بأنهم لا مكان لهم على القمة، وأصبحوا يدركون مدى الهوة التي تفجر فاهما بين أشد الناس نجاحاً ومن يليهم في المنزلة. وكانت هذه الضروب من الترتيب الهرمي والتفاوتات والانقسامات غريبة عن الروح العربية، مما جعل رسالة محمد تلقى الترحيب. وهكذا فإن الإسلام كان في بدايته حركة للشباب وللذين كانوا يشعرون بأنهم يُدفع بهم إلى موقع هامشي في مدينة مكة.

وكان معنى ذلك حتمية نشوء الصراع، وسرعان ما اتضح أن الإسلام قد بدأ يُحدث صدوعاً أدت إلى الانقسام داخل الأسرة الواحدة. وكان في الظاهر لا يرأب الصدع بإعادة الوحدة إلى قريش بل يزيد الطين بلة، وهو ما تجلّى بصورة صارخة عندما بدأ محمد الجهر بدعوته وإعلانها على الملأ، إذ أنزل عليه من القرآن ما أمره، في عام ٦١٥، أي بعد نحو ثلاث سنين من بداية البعثة، بأن ينذر عشيرته الأقربين وأن يدعوها جميعاً إلى دخول الإسلام^(٣٠). وأحس في البداية أن المهمة كانت أكبر من طاقته، ولكنه صدع بما أمر ودعا أربعين رجلاً من بنى هاشم، وكانوا كبارها والمقدمين فيها، إلى تناول وجبة متواضعة معه. كان الطعام المتواضع نفسه يمثل رسالة موجهة إليهم، إذ كان محمد يبدى انتقاده الشديد لمظاهر الضيافة الباذخة التي أصبحت من تقاليد العرب باعتبارها من وسائل إظهار القوة والثقة، لأنه كان يحس أنها تتضمن «مذاق» الطغيان القديم (إن الإنسان ليظفي)^(٣١). وعندما كرت السنون وذكر على ما حدث في تلك المأدبة، وكان ممن تولوا تقديم الطعام، كان حديثه يوحى بأنها كانت معجزة الأرغفة والسمكات الخمس، فمع أن الطعام لم يكن كافياً لإشباع المدعوين، فقد شبع الجميع ورووا وبقي ما يزيد عن حاجتهم.

وقام محمد بعد الانتهاء من الطعام فعرض مبادئ ما أنزل عليه، وفي هذه الأثناء عمد أبو لهب - وكان أخاً غير شقيق لأبي طالب - إلى مقاطعة حديث محمد بفظاظة ولم يلبث أن فض الاجتماع. واضطر محمد إلى دعوتهم جميعاً من جديد في اليوم التالي، وقام من جديد فشرح لهم الإسلام ورجاهم في النهاية أن يؤمنوا بما جاء به قائلاً:

«يا بني عبد المطلب، إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتم به؛ إني قد جئكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى ووصى وخليفتى فيكم؟» (الطبرى ج٢ - ص ٣٢٠ - ٣٢١).

وساد صمت يشويه التوتر، فلم ينبس أحد بيت شفة، لا أبو طالب ولا العباس أو حمزة اللذان كانا في سن النبى نفسها تقريباً. ولم يعد على يطيق صبراً على ذلك، فأنشأ يتحدث أمام الجميع، على حداثة سنه وغلظة طبعه:

«وقلت، وإنى لأحدثهم سناً، وأرْمصهم عيناً، وأعظمهم بطناً، وأحمشهم ساقاً، أنا يا نبى الله، أكون وزيرك عليه. فأخذ برقبتي ثم قال: إن هذا أخى ووصى وخليفتى فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا».

(المرجع نفسه).

وكان ذلك أكثر مما يحتمل، فنهض الرجال للانصراف، وهم يقولون ضاحكين لأبى طالب: «قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع» (٣٢٢).

كان الناس بصفة عامة راضين عن محمد، ولكن دعوته كانت تفصم عرى الأسرات، وكان ابن أخت خديجة واسمه أبو العاص بن ربيع، من عشيرة بنى عبد شمس، قد تزوج زينب ابنة محمد الكبرى، دون أن يعتنق الإسلام، وكانت عشيرته تحاول إقناعه بتخليها. ولكن الحب كان يربط بين قلبيهما، فقال أبو العاص لعشيرته فى حزم إنه لا يتوى أن يتخلى عنها ولو أنه لا

يستطيع أن يحلوا حذوها فيؤمن بالدين الجديد. وكان الإسلام قد بدأ يتسبب في انقسامات مريوة أخرى داخل أسرة خديجة، فكان أخوها غير الشقيق نوفل بن خويلد، يعارض الإسلام فيما يبدو معارضة مريوة، وإن كان أخوه واسمه الأسود قد دخل في الإسلام، وكان ابن أخيها حكيم بن حزام لا يزال على حبه لخديجة ولو أنه رفض اعتناق الإسلام، رغم اعتناق أخيه خالد للدين الجديد. وكان أبو بكر يواجه مشكلات مماثلة، إذ اتبعته زوجته أم رومان في اعتناق دين الله، مع ابنه عبد الله وأسماء، في حين ظل ابنتهما عبد الكعبة يعارضه معارضة شديدة. كان محمد، فيما يبدو، يشبه المسيح في تأليب الأب على ابنه، والأخ على أخيه، وفي تقويض العناصر الأساسية لحياة الأسرة من روابط وواجبات ودرجات كل فرد من أفرادها. وسرعان ما أصبحت هذه المشكلة أكثر حدة وشدة.

ما الذي وجدته الناس مثار اعتراض في رسالة محمد في هذه السنوات الأولى؟ لا يبدو أن أحداً وجه أي انتقاد لتعليماته الاجتماعية، حتى رغم معارضة العشائر الناجحة لرسالته، فكان أفرادها على أنانيتهم وحبهم على المال لا يستطيعون الدفاع عن الأنانية والمادية. ويتضح من القرآن أن معظم الانتقادات الأولى كانت تتركز حول فكرة يوم الحساب، وهي التي كان محمد يتفق فيها مع التراث اليهودي والمسيحي، إذ كانت هذه الفكرة قد بدأت تحتل مكاناً أساسياً، وازدادت أهميتها بالتدريج في بعض ما أنزل على محمد من الآيات، وكانت تؤكد خلود الفرد الذي تحمل أعماله دلالات حاسمة على مصيره. وكانت الدلالة الرمزية للحساب تدعم فكرة المسئولية الفردية بدلاً من المسئولية الجماعية وحسب، مما هيا الدافع والحافز للعرب على اكتساب وتنمية الروح الجديدة. ويُنتق القرآن قريشاً بأن ثراء العشيرة وقوتها - وهو ما كان الكثيرون يعتمدون عليه - لن يُجدي فتيلاً في اليوم الآخر. وبدلاً من ذلك سوف يُسأل كل واحد منهم عما إذا كان قد قام برعاية يتامى وتلبية حاجات

الفقراء . لماذا حرص كل منهم على اكتناز الثروات الشخصية بروح الانانية ولم يشرك الضعفاء والمحرومين من أفراد القبيلة في ثروته؟ لقد كانت تلك الفكرة تمثل تهديداً واضحاً لقريش الغنية، ولم يكن أفرادها على استعداد لأن يأخذوا هذه الفكرة الداعية إلى المساواة مأخذ الجد، حتى وإن كان القلق ياورهم لإحساسهم على مستوى الوعي الباطن بأن سلوكهم يمثل انتهاكاً لتقاليد أسلافهم . كان من الأيسر لهم أن يسخروا من فكرة الحساب برمته، وأن يصموها بأنها «أساطير الأولين» (٣٣) أو بأنها «سحر ميين» (٣٤) . كيف يمكن للأجساد التي بليت وأصبحت عظاماً نخرة أن تُبعث من جديد؟ وهل يعنى محمد بذلك حقاً أن آباءهم الأولين سوف يُشرون من قبورهم أيضاً؟ (٣٥) كانوا يستمكون بالمعقولة العربية القديمة التي تُكرر الحياة الآخرة، ولكن القرآن يُشير إلى أنهم لا يستطيعون إثبات ذلك، إن هم إلا يظنون (٣٦) .

ويشير القرآن أيضاً إلى أن هذه الاعتراضات مصدرها الشعور بالذنب وبالتزعة المادية، وهي التي أصابت ملوك الناس بالغلظة . والذين ينكرون حقيقة الحساب هم من يعلمون أن سلوكهم هو سلوك الخاطئين (٣٧) . ويبدو أن كثيراً من الفقرات التي تصف «الآيات» يقصد منها الرد على بعض هذه الاعتراضات: فإذا كان الله قادراً على أن يخلق إنساناً من نقطة - وهي معجزة يشير إليها القرآن مراراً - وأن يُبدع كل ما تشهده العين من روائع في هذه الدنيا، فلماذا يعجز عن إحياء الموتى؟

﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نقطة فإذا هو خصيم مبين، وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون، أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾ (٣٨) (يس ٧٧ - ٨٣) .

وقد أصبح يوم الحساب نفسه صورة قوية للرجوع الأخير، أى رجوع جميع الكائنات آخر الأمر إلى الله، خالقها ورازقها ومصدر حياتها. ورغم هذه الاعتراضات، يبدو أن محمداً قد حقق نجاحاً كبيراً فى السنوات الأولى من بعثته. وبدأ فى وقت من الأوقات أنه يوشك على هداية جميع أبناء قبيلته إلى دين الله الخنيف. ولكن أزمة معينة نشأت فى عام ٦١٦، إذ كان محمد حتى تلك اللحظة قد نحاشى أى ذكر رسمى للآلهة العربية الأخرى. ويبدو أن عدداً كبيراً من أبناء قريش كانوا يتصورون أن بإمكانهم مواصلة تجيل اللات والعزى ومناة بالأسلوب التقليدى. ويبدو أن محمداً لم يكن قد أكد عنصر التوحيد فيما أنزل إليه، ولكنه اضطر آخر الأمر إلى الإفصاح. وعندما متع من آمن برسالته من عبادة «بنات الله» اكتشف أنه فقد معظم مناصريه بين عشية وضحاها، وأن القرآن يوشك أن يحدث صدعاً وانقساماً فى قبيلة قريش.

الفصل السادس

افتراق الطرق

انفجرت أولى دلائل المتاعب على نحو غير متوقع. فقد تبع بعض أفراد قريش جماعة من المسلمين إلى شعاب مكة وهاجموهم في أثناء تأديتهم الصلاة هناك، ودافع المسلمون عن أنفسهم، وسالت أولى دماء في سبيل الإسلام حينما جرح قريبُ النبي سعد بن أبي وقاص أحد مهاجميه، بعظمة بعير. ويبدو أن الحادث صدم جميع أهل مكة. فقد تسامحت قريش مع محمد بشكل عام، لكن حدثت فجوة من الشك والكراهية بين أغلبية قريش وجمع المسلمين بمجرد أن نهى محمد عن عبادة الألهة القديمة، يقول ابن إسحق:

«فلما يادى رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله، لم يبعد منه قومه، ولم يردوا عليه - فيما بلغنى - حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته، إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام، وهم قليل متخفون».

لكن، لماذا انزعجت قريش هكذا؟ فقد كان هناك من يقتربون من رؤية التوحيد ورأوا اليهودية والمسيحية ديانات أسمى من الوثنية العربية القديمة. كما أن عبادة «بنات الله» كانت محصورة بصفة رئيسية في أضرحة الطائف ونخلة وقُديد، ولا بد أنها كانت هامشية بالنسبة للحياة الدينية في مكة. غير أنه من الصحيح أيضاً أن بعض قريش كانوا يخشون إغضاب قبائل البدو، والذين كانوا قد قاوموا بعض القبائل التي تحمى الكعبة من مكة لما اعتقدوه عن ضلالهم، لكن المشكلة كانت أكثر عمقاً من ذلك. ويوضح القرآن أن جميع الأفراد الذين كانوا مهيمتين في مكة، تجمعوا تلقائياً ضد محمد وأعلنوه عدواً

لقومه. وذلك لأنهم استغربوا فكرة عدم وجود إله سوى الله، وقالوا إنها بدعة غريبة، وإن عبادة بنات الله واجب مقدس يجمع الأعراب جميعاً^(٢٢).
 وحينما دعا محمد أبا طالب للإسلام أجابته أنه لا يمكنه ترك دين آباءه. وإنه من الصعب بالتبعية لنا فهم وتقدير مثل ذلك التكريس العميق للماضي، وذلك لأن مجتمعنا الحديث قد قام على أسس التغيير، ومن هنا فإننا نتوقع دائماً التقدم المستمر ونحن نعتز بالابتكار، ولا نقلق، كما فعل محمد، إذا اتهمنا بالتجديد^(٢٣). لكن استمرار الماضي في المجتمعات الأكثر تقليدية قيمة مقدسة. إن التغيير الذي نقبله نحن على أنه أمر يديهي يتطلب مراجعة مستمرة للبنية الأساسية، الأمر الذي لم يستطيعه أي مجتمع قبلنا. واتخذ الدين في بعض المجتمعات قبل الحديثة طبيعة إلزام المعاهدات. فقد كان يُنظر للدين والحضارة في تلك المجتمعات على أنها منجزات تحمّنها المخاطر، لذا يجب ألا تُهدد عن طريق إهانة الآلهة الراحية لتلك الحضارة. وهكذا، ففي مثل تلك الأحوال ينحصر التغيير بين القلة من الصقوة. ويوضح مصير سقراط الذي حكم عليه بالموت في أثينا عام (٣٣٩ ق. م.) مدى خطورة إطلاق روح المغامرة بين الناس، فقد اتهم بسب الآلهة وإفساد الشباب. وكان لمحمد أن يواجه نفس الاتهامات وينجو من الموت بأعجوبة.

فإن محمداً حينما طلب من أهل مكة أن يعبدوا الله وحده وتركوا عبادة الآلهة الأخرى، طلب منهم أن يتبنوا انجماً دينياً جديداً لم يكن الكثير من أهل قبيلته مستعدين لقبوله، فقد رأينا كيف أن المذهب التوحدي لا يتطلب الموافقة العقلية فقط، بل أيضاً تغيير الوعي. وقد أدى طلب النبي إلى إذكاء مشاعر الخوف العميق، لأنه كان يهدد مقدسات اعتقد القوم أن بقاء مجتمعهم يعتمد على بقائها. وبالمثل، فقد خاض المسيحيون الأوائل نفس التجربة في عهد الإمبراطورية الرومانية، حيث لم يُنظر للتقدم على أنه مسيرة شجاعة في آفاق المستقبل، ولكن كان يعني العودة إلى الماضي المثالي. أما آلهة روما

فكانت تعتبر حامية الدولة التي إن هي أهملت عبادتها فستُرفع عنها تلك حماية. ولا يعنى هذا أن الوثنية الرومانية كانت بالضرورة غير متسامحة، فإن لم تكن هناك مطالبة بأن تحمل آلهة جديدة محل آلهة الاسلاف فقد كانت الحرية الدينية التامة تُمنح لعبادى تلك الآلهة الجديدة. فقد وجد دائماً مكان لعبادة جديدة، كما انتهى الناس غالباً لمذاهب مختلفة. ولم يحدث أن سمعنا عن تحول جذرى إلى ديانة جديدة ورفض جميع الديانات الأخرى. فمن الصحيح أن اليهود كانوا يعبدون إلهاً واحداً، لكنهم حينما أعلنوا أنهم لا يتبعون سوى القانون اليهودى القديم اتهموا بالكفر وعدم احترام الديانة الأم والإلحاد لأنهم رفضوا عبادة آلهة روما. وحينما رفض المسيحيون القيام بتقديس تلك الآلهة الوثنية نظر إليهم على أنهم انتهكوا المحرمات، واعتقد الناس أن ذلك قد يتسبب فى كارثة، وتجنباً لتلك الكارثة، فقد قام الأباطرة المتعاقبون باضطهاد المسيحيين. وتُبرهن المعاناة الرهيبة التى تعرض لها الشهداء على مدى تهديدهم للإمبراطورية الرومانية. وكانت أجسادهم التى مثل بها قرباناً للآلهة كى يبرهنوا لها على أن الناس ككل لا تقبل ذلك الإلحاد.

فمن السهل إذاً، والحال كانت كذلك فى الإمبراطورية الرومانية القوية، أن نفهم قلق قريش العميق من «الإلحاد» محمداً وذلك عندما رفض الاعتراف بالآلهة القديمة. فالحياة البدوية كانت محافظة لأنها كانت محفوفة بالمخاطر. فمثلاً، لم يتطرق إلى ذهن أحد حتى أن يحلم بإلغاء طرق الأبار التقليدية ويكتشف طرقاً جديدة لتلك الأبار الموجودة منذ القدم. وبما أن قريشاً لم يكن يفصلها عن حياة الرعى سوى جبلين، فلا بد أنهم كانوا يرون منجزاتهم هشة بالرغم من مباهاتهم بالاكتفاء الذاتى، وكانوا - مثلهم مثل الرومان - يقدرّون استمراريتهم مع الماضى حق قدرها ويعتقدون أن لمُجاحهم يقوم على الاحترام الورع لتقاليد آبائهم. ولذلك نجد أن فى القرآن، وفى المصادر المبكرة، كثيراً ما يتهم محمد من قبل أعدائه بأنه خطر على المجتمع، وأيضاً بإهماله دين

آبائه والإلحاد. وتلك هي نفس عواطف الحق والرعب المركبة التي كانت تجيش بها الحشود في ملاعب روما.

وقد حاول بعض المدافعين المسيحيين الأوائل أن يتواصلوا مع الوثنيين ليوضحوا أن دينهم ليس بدعة تكفيرية: فقد كتب جستين، عالم اللاهوت الفلطيني الشهير الشهير في عامي ١٥٠ و ١٥٥م، دفاعين مقتضاهما أن المسيحيين يتبعون خطوات أفلاطون وغيره من الفلاسفة المجليين الذين آمنوا بإله واحد. ويشير القرآن أيضاً إلى لحظة يبدو أن محمداً حاول فيها الوصول إلى قريش لتهنئة روعهم أملاً في إعادة العلاقات الودية. فيذكر الله تعالى محمداً قائلاً:

﴿ وَإِنْ كَادُوا لِيَفْتَنُواكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلاً. وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً. إِذَا لَأَذُقْنَاكَ ضَعْفَ الْحَيَاةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴿٧٢﴾ . . (الإسراء: ٧٥-٧٢)

ويقترض الدارسون في الغرب أن تلك الآية تشير إلى حادثة ما يدعى «آيات شيطانية» السيئة السمعة، كما يدعون أن محمداً قدّم تنازلات مؤقتة للمشركين.

والقصة - كما تظهر في طبقات ابن سعد وتاريخ الطبري - تقول إنه في إحدى المناسبات تدخل الشيطان في تلقى محمد لكلمة الله. فكما تقول المأثورات، إن محمداً أثناء تلقيه سورة النجم شعر بإيحاء أن ينطق بآيتين نقولان بأن الآلهة الثلاث اللات والعزى ومناة من الممكن تبجيلهن كوسيطات بين الله والبشر. وبما أن قريشاً كانت تعتقد أن «بنات الله» مقدسات فقد ظنوا خطأ أن القرآن قد وضعهن في منزلة واحدة مع الإله. واعتقاداً منهم أن محمداً قد تقبل ألهمهم، فقد سجدت قريش لتؤدي الصلاة مع المسلمين، وبدا وكان الخلاف الحاد قد انتهى. ولأنهم ظنوا أن القرآن يكرم لعبادات آبائهم، وأن محمداً تخلى عن الرسالة التوحيدية، فلم تعبد قريش في الإسلام تهديداً

يتهك ديانتهم ويُتزل النوازل بقوم مكة . وتتابع القصة لتبين أن محمداً تلقى وحياً إلهياً يُبين أن قبوله الظاهري لعبادة بنات الله كان وحياً من الشيطان، وبناء على ذلك حذفت الآياتان من القرآن واستُبدلتا بآيات أخرى تلمن الآلهة الثلاث كتلفيات من وحى خيال العرب غير جدية بالعبادة .

أما ما يجب توضيحه هنا هو أن مسلمين كثيرين يعتقدون أن هذه القصة مشكوك في صحتها، كما يشيرون إلى أنه لا توجد إشارة واضحة إليها في القرآن وأن ابن إسحق لم يذكرها في التقارير الأولى الموثوق بها من سيرة محمد . كما أنها لم تذكر في مجموعات الأحاديث الكبيرة عن محمد والتي جمعها البخاري ومسلم في القرن التاسع . وحينما يرفض المسلمون شيئاً من التراث فإنهم لا يفعلون ذلك بدافع احتمال التأويلات النقدية لما يرفضون، لكن لعدم كفاية الأدلة، لكن الأعداء الغربيين للإسلام رأوا في القصة مناسبة كي يشككوا في محمد ويبرهنوا على عدم إخلاصه . فكيف لرجل قام بتغيير الكلمات السماوية طبقاً لما ارتآه أن يكون نبياً حقاً؟ فالتى الحق - هكذا يقولون - لا بد أن يكون قادراً على التمييز بين الإيحاء السماوي والشيطاني . ولا يتأتى لرجل أن يُغير ما أنزل عليه لمجرد اجتذاب تابعين . ورغم ذلك، فقد حاول باحثون مثل: ماكسيم رودينسون ومتجورمى مؤخراً أن يبرهنوا على أن القصة حتى في صياغتها الحالية، ومع افتراض صحتها، لا تحدث بالضرورة تأويلاً سلبياً . وعلى أية حال، فقد بقيت القصة على قدر كبير من الأهمية في الغرب أكثر منها في العالم الإسلامي، على الأقل حتى عام ١٩٨٨ .

ومنذ الصراع الناجم عن رواية سلمان رشدي «آيات شيطانية» والتي نشرت في ذلك العام، اتخذت القصة أهمية جديدة . فقد اعترض المسلمون نظراً لأنهم يرون القصة تقدم محاكاة ساخرة لحياة محمد، وتكرر الأساطير الغريبة القديمة عن محمد، وتقدمه على أنه مُدَّع، ذو طموحات سياسية خالصة، وأيضاً كمنغمس في شهواته استغل إيحاءاته ترخيصاً له في أن يأخذ لشخصه

من النساء ما أراد، وتبين الرواية أيضاً صحابته الأوائل أشخاصاً تافهين قساء. أما ما هو أكثر إيلاماً - كما يقول المسلمون - فهو أن الكتاب يُشوه صدق القرآن، ويشعرون أن ما يدعى بحادثة الآيات الشيطانية، والتي يتخذ منها الكتاب عنواناً، قد وُظِّفت لتبرهن على أن الكتاب المقدس للمسلمين لا يستطيع التمييز بين الطيب والخبيث، وأن ما يُقال عن مشيئة الله ما هو إلا إيهامات إنسانية محضه - إن لم تكن شريرة - كما يدعى النقاد الغربيون دائماً.

وهكذا أعلن كثيرون ممن أيدوا رشدى تأييداً بليغاً أن الإسلام ينفي البحث والحرية الإبداعية (هكذا!) رغم أن المسلمين الأوائل أسسوا حضارة عظمى ذات جمال رائع، كما أنهم أرسوا دعائم تقليد فلسفى عقلانى كان مصدر إلهام المفكرين فى أوربا فى العصور الوسطى. ورشدى لم يعرض فى كتابه لشخصيات الرسول وصحابته كشخص من الواقع بالطبع، لكن تلك الشخصيات هى جزء من رؤية حلم لشخصية مصابة بانهايار نفسى. وتلك الشخصية هى جبريل فاريشتا النجم السينمائى فى تلك الرواية والذى قام باستبطان وخلق صور الكراهية والاحتقار التى تبتاها الغرب لمدة تقرب من ألف عام، وحاول عن طريق ذلك أن يُوجد حلاً توفيقياً لمشكلته مع الغرب.

ونظراً لأن الصراع الحديث المترتب على ذلك بين الغرب والعالم الإسلامى قد فتح جراحاً عميقة، فمن المهم أن نوضح الأمور المرتبطة بحادثة تلك الآيات، هذا إن كانت قد حدثت بالفعل: هل كان محمد على استعداد لتقديم تنازلات بشأن رسالته التوحيدية فى سبيل جذب عدد من الاتباع؟ وهل كان للقرآن أن يُلوث ولو لوهلة تحت أثر للشر المطلق؟ وفى هذا السياق قدّم رودينسون وواط أطروحتهما أن القصة لا تُبرر أن يرى أحد محمداً على أنه مدعٍ ساخر. فبالرجوع إلى الطبرى الذى يُقدم روايتين للحادث فى سيرته وتعليقه على القرآن، نجد أنه يقدم دراسة عن ظروف القطيعة النهائية بين محمد

وقريش . وهو يقول، كما يقول ابن إسحق، إن قريشاً في البداية كانت على استعداد لقبول رسالة محمد، ويستشهد بحديث لعروة بن الزبير الذي يمت للرسول بقرابة بعيدة، والذي كتب بعد حوالي سبعين عاماً من وفاة الرسول. ويؤكد الحديث نجاح محمد المبدي. ويقول عروة إن قريشاً لم تعترف محمداً في البداية ولكنها كادت توليه أذناً صاغية. فقد كان الجميع على استعداد لتقديم عبادتهم للإله الأعلى الأزلي، مادام محمد يشر بعبادة الله، والاهتمام بالفقراء والمحتاجين، لكنهم بمجرد تأكده على أن عبادة الله تستوجب استبعاد جميع آلهة أسلافهم، فكما يقول عروة إن «قريشاً» ردت على الحق بالعنف، ولم توافق على ما قاله، وحركت ضده الذين اتبعوه، ما عدا من حماهم الله وكانوا قلة. وأصبح الإسلام أقلية محتقرة بين عشية وضحاها. ويُضيف عروة أيضاً أحد التفاصيل المهمة فيقول إن أوائل من أثاروا الناس ضد محمد كانوا من لديهم أملاك في الطائف، مدينة اللات^(٥).

واعتماد الكثير من قريش الفرار من حرارة مكة القائظة إلى الطائف حيث كانت لهم منازل صيفية في مدينة اللات في ذلك المكان الأكثر برودة ورطوبة في أرض الحجاز. ولا بد أن ضريح الآلهة كان مُهماً بالنسبة لهم لأنهم كانوا يمارسون العبادة هناك في أثناء غيابهم عن الكعبة. وحينما حرم محمد على قومه عبادة اللات فلا بد وأنهم أصابهم الأسى والخوف لأنه قد عرّض مركزهم في الطائف للخطر. ويورد الطبري رواية لرجل يُدعى أبا العالية توحى بقلق قريش لدرجة حاولت معها الوصول إلى اتفاق مع محمد. وكما يقول الأثر فإن الاتفاق مؤداه أنه إن وعد محمد أن يطلق بعض الأقوال الاسترضائية عن بنات الإله الثلاث فستبونه قريش مكانة في الدوائر الداخلية لمكة. وعلى هذا - وكما يدعى - فقد تلا محمد آيتين يمتدح فيهما اللات والعزى ومناة كوسطاء مُعترفٍ بهنّ، ليعرف فيما بعد أن تلك الكلمات كانت من إحياء الشيطان^(٦).

لكن تلك القصة تتعارض مع المأثورات الأخرى ومع القرآن نفسه، ويجب أن نعلم أن مؤرخاً مسلماً كالطبري لا يُكرس بالضرورة لجميع المأثورات التي يُسجلها، فهو يتوقع من القارئ أن يقارنها بعضها ببعض وأن يقرر بنفسه مدى صدقها. فلم يكن محمد في تلك المرحلة المبكرة جداً من رسالته النبوية مهتماً بالقوة السياسية. وهكذا، فإن تلك القصة التي رواها أبو العالية غير محتملة الحدوث. فإن القرآن، كما رأينا، استنكر أن يكون لمحمد دور سياسي في ذلك المنعطف الزمني، كما أن الرسول فيما بعد سوف يرفض عروضاً من ذلك القبيل من قادة قريش دون تردد.

والطبري أيضاً يحفظ مآثوراً يعرض الحدث بشكل آخر، وفي هذه الرواية نرى محمداً يبحث مع نفسه عن حل لذلك الصراع المؤلم مع قريش. وتوحي تلك الرواية أن محمداً لم يكن ليتزلق ببساطة إلى إطراء بنات الله. فقد قدم الطبري محمداً وهو يصغى إلى حل مبتكر يجعل قريشاً تتقبل رسالته التوحيدية.

«لما رأى رسول الله توَلَّى قومه عنه، وشق عليه ما يرى من مباحثتهم ما جاءهم به من الله، تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه، حتى حدث بذلك نفسه، وتمناه وأجبه»^(٧).

وكما يقول الطبري، فبينما كان الرسول في أحد الأيام يفكر ملياً في الأمر في الكعبة، بدأ وكان الإجابة واته في صورة وحى يمنح مكاناً ما للآلهة الثلاثة دون تفريط في رؤيته للتوحيد. فقد كان كثيرون من قريش يجلسون في الكعبة حينما نزلت سورة النجم. واعتدل الجميع في جلستهم وأخذوا ينصتون حينما بدأ محمد تلاوة الكلمات التالية:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾^(٨).

فقد كان أي شيء ينطق به محمد عن «بنات الله» ذا أهمية فائقة لديهم. وكان هنا على وشك أن يبين أن القرآن يرفض تلك العبادة رفضاً باتاً. أو أن

يأتى بشيء أكثر إيجابية عنهن، وحينذاك، وطبقاً لرواية الطبرى وضع الشيطان كلمات مشابهة لهاتين الآيتين بين شفتيه: تلك الغرائق العلاء، وإن شفاعتهن لترجمي^(٨).

وطبقاً لتلك الرواية، فقد ابتهجت قريش لذلك. أما الغرائق، فربما كانت طيوراً من نوع Numidian كانوا يعتقد أنها ترتفع فى طيرانها أكثر من أى طائر آخر. ولو افترضنا صدق الرواية، فيحتمل أن محمداً الذى كان يعتقد فى وجود الملائكة والجن، كاد يُحسى تلك الطيور تحية رقيقة دون تفریط فى رسالته. فلم تكن الغرائق على مستوى واحد مع الله - ولم يخطر لأحد أن يضعها على نفس المستوى - فقد كانت تحوم بين السماء والأرض، ولذا فقد كان هناك احتمال توسطها بين الله والبشر، الأمر الذى صدقت الآية التالية فى سورة النجم على صحته^(٩). وهكذا، أشاعت قريش تلك الأخبار السعيدة، فى أنحاء المدينة بقولها: «لقد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر»^(١٠). والذين نشوا على ثقافة مسيحية قد لا يفهمون لفظ الشيطان كما يشار له فى الحادث نفس فهم أولئك القوم فى القرن السابع. فالشيطان فى العالم الميحي أصبح رمزاً للشّر المستطير، بينما هو فى القرآن - كما فى كتب اليهود - شخصية بالإمكان السيطرة عليها. وفى رواية خروجه من رحمة الله يقول القرآن إن الله حينما خلق الإنسان أمر الملائكة أن يسجدوا لأدم، لكن الشيطان أو إبليس الذى قد يكون تعريباً للفظ اليونانى Diabolos^(١١)، رفض وطرد من الحضور الإلهي، ولا يرى القرآن أن تلك هى الخطيئة الأولى المطلقة، بل هناك تفسيرات تقول إنه سيتم العفو عنه يوم القيامة^(١٢). كما ادعى بعض الصوفيين أن الشيطان قد أحب الله أكثر من الملائكة لأنه رفض أن يمجّد مخلوقاً بأسلوب تجيلى هو من حق الله وحده. وهكذا، فحادثة تلك الآيات

(٨) عُجمة «إبليس» أو اشتقاقها من هذا من اللفظ الإنجليى اليونانى مسألة فيها شك عند اللغويين. (المحرر).

الخلافة لا تُوحى قط أن القرآن قد تلوّث ولو لبرهة بشراً حقيقياً . فالإسلام لا يكرس لمبدأ السقوط The Fall بمعناه المسيحي ، فهو يخبرنا أن آدم استسلم لغواية الشيطان، لكن ذلك كان ممارسة للإرادة الحرة كما يفهمها المسلمون - وأغلبية اليهود - كمرحلة ضرورية في تطور الإنسان. ويرغم خطيئته، فقد أصبح آدم أول الأبناء رغم ارتكابه زلة شيطانية، كما لم يصبح الشيطان أبداً محطماً Destroyer للإنسانية. ولا بد أن يحضرنا ذلك التمييز اللغوي حينما نسمع بعض المسلمين الآن يشيرون إلى أمريكا على أنها «الشيطان الأعظم». كما أنه في المذهب الشيوعي الشائع ينظر إلى الشيطان على أنه كائن مسكين حقير تمتع بما هو تافه بدلاً من القيم الروحانية للحقّة. وهكذا، فقد رأى إيرانيون كثيرون أمريكا على أنها: «المهرج الأعظم» لمحاولتها غواية الناس عن طريق الماديات المتفسخة^(١٢).

وهكذا، فحينما بعد سنرى قرشاً تتجه إلى محمد كي يقدم حلاً توفيقياً فيما يخص رسالته التوحيدية: فبالإمكان أن يعبد الله هو بينما يعبدون هم آلهة أسلافهم مع الإله الواحد. لكن محمداً كان دائم الرفض. وفي القصة موضع التراع - وكما حفظها الطبري - فقد حل إنكاز صريح لوجود تلك الإلهة محل ما سمي «بالآيات الشيطانية»، وكما تقول الرواية، فقد أتى جبريل محمداً ذات ليلة وسأله: «يا محمد، ماذا صنعت! لقد تلوّث على الناس ما لم آتك به عن الله عز وجل، وقلت ما لم يقل لك»^(١٣).

ونزلت آية جديدة تنبذ بنات الله كمجرد أسماء. فتلک الآلهة ما هي إلا اختراع إنسانى وليس هناك تنزيل من الله بشأنها: ﴿إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾ (النجم: ٢٦/١٩).

وتلك هي أكثر إدانة قرآنية جذرية لتلك الآلهة. وبعد نزول تلك الآية لم يعد هناك مجال للتوافق مع قرش.

وحتى إذا ما أخذت القصة كما جاءت في تلويخ الطبري مأخذ الجد، فليس فيها ما يوحي بأن محمداً كان بصدده حل توفيقى مشبوه مع قرش.

فتقول الرواية: إن محمداً حينما سمع أن الكلمات التي نطق بها كانت من إيحاء الشيطان أصابته صدمة، لكن الطبري يذكر أن الله طمأنه فوراً بتزيله ورحياً آخر أخبره فيه أن أنبياء آخرين قد حاول الشيطان غوايتهم، وأن ذلك لا يعتبر كارثة لأن الله دائماً يصحح الأوضاع بإرساله آيات بديلة عن تلك التي تم نسخها، ويوضح هنا القرآن المخاطر المرتبطة بمفهوم الوحي:

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾. (الحج: ٥١).

فقد خضع آدم أول الأنبياء كما رأينا لغواية الشيطان، كما أن رسلاً من بعده تعرضوا لأقوال شيطانية حينما بلغوا كلمة الله لأتوامهم، ولم يعن هذا تلوث كتبهم بأثر للشر، أما العرب فكثيراً ما كانوا يستعملون لفظ «شيطان» ليشيروا إلى مزاج إنساني بحت. وقد رأينا مدى صعوبة تأويل تلك الإيحاءات تأويلاً صحيحاً على محمد. وعلى ذلك، فقد كان من السهولة بمكان إساءة تأويل البنية الخفية Undercurrent للوحي لاختلاطه بفكرة شخصية للمرء، أو التعبير عنها بكلمات غير دقيقة. لكن ذلك لم يمنع محمداً قط حرية تغيير ما أوحى به إليه وفق ما يرى. فقد أوضح القرآن أنه ليس لمخلوق أن يُغير في كلمات الله، ولو كان محمد نفسه قد أخذ مثل تلك المبادرة لكانت العواقب وخيمة^(١٦). وباستطاعة الله إصلاح ما كان قد أساء فهمه في اللحظة التي يتم فيها الإيحاء إلى نبي ما. وبلغت بشرية، فإنه يمكن القول إن محمداً كان يشعر أنه في حالة تلقٍ للوحي بصفة مستديمة في الفترة التي كان يأتي فيها القرآن إلى العرب. أي أن التزليل كانت له صفة الاستمرارية، وكان محمد أحياناً يرى في الرسالة الموحاة مضامين جديدة تقول أو تضيف إلى معانٍ سابقة.

وعند هذا المنعطف برز في رسالة محمد تأكيد جديد على وحدة الذات الإلهية كأهم جزء في الرسالة الموحاة. ومنذ ذلك الحين أصبح محمد شديد الحرص على رسالته التوحيدية.

وقد ظهر توجه حديث يميل إلى تذوق الوثنية القديمة وأكثتها المتعددة وما يقال عن الأسلوب الصادق الشجاع الذي واجهت به تلك العبادات المآسى والمعاناة رافضة رفاهية الحل النهائي. وفي مقابل ذلك تبدو العقيدة التوحيدية شمولية وأحادية مما تسبب في كثير من المشاكل الفلسفية في حين برهن مجمع الآلهة الوثنية (بانتيون) على وجود أساليب متعددة متنوعة للحقيقة المطلقة، وعلى ذلك فإصرار الديانات التوحيدية على وجود إله واحد يسدى عدم تسامح إزاء اختلافات البشر. غير أن تعدد الآلهة يتسمى إلى مرحلة تطور للجنس البشرى لم يكن فيها وعى الإنسان نفسه على قدر كافٍ من التوحد، وحين كان الكون والدنيا أيضاً يبدوان وكأنهما يحويان عدداً من العناصر المختلفة المتنافرة، أما حينما بدأ الرجال والنساء يرون أن كلاً منهم وحدة لا تنفصل عناصرها، وأن الكون كيان واحد تحكمه قوة مشتركة، فقد بدأ البشر في الاتجاه إلى الحل التوحيدي. حين ذلك تبدو الآلهة القديمة مجرد مظاهر مختلفة للكائن الأعظم أو الحقيقة العظمى، وبتعبير توحيدى تبدو تلك الآلهة صفات لله.

ونستطيع رؤية ذلك في الفترة الأخيرة من الإمبراطورية الرومانية. فقد ساعدت تجربة الحياة في ظل كيان سياسى عملاق - الناس على أن ينظروا للعالم المعروف لديهم كوحدة كلية. أى أن الآلهة والعبادات المحلية المرتبطة بنطاق محدود لم تعد كافية. وتدرجياً، وبشكل متزايد، بدأ الناس يرون أن الله، بشكل ما، واحد، كما قال بذلك الفلاسفة والإغريق. لكن، وكما رأينا، كانت تلك فترة انتقال أليمة. فحتمياً كان هناك من الناس من هم على استعداد للانتقال الجذرى للديانة التوحيدية أكثر من غيرهم، بينما ازدهرت الوثنية أيضاً لفترة طويلة بعد أن أصبحت المسيحية الدين الرسمى للدولة في الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع الميلادى. فقد كان الحل الخاص بالديانة التوحيدية يعنى أن يتخلى الناس بحزم عن الماضى الذى قدسوه. وقد وجد

البعض تلك الفجوة فى الاستمرارية مدعاة للقلق العميق. وعلى هذا، فقد كانت هناك فى بلاد العرب أزمة مشابهة فى بداية القرن السابع. فقد كان المشهد السياسى فى بلاد العرب قد أثر فى الحالة الروحانية والنفسية للعرب. فقد كانوا محاطين بامبراطوريات ذات شأن، كما أنهم كانوا يعلمون بوجود عالم متوحد خارج نطاق صحراء العرب. كما أنهم كانوا قد بدءوا ينظرون إلى أنفسهم كأفراد ذرى حقوق ومسئوليات لا يمكن إنكارها. ويعنى ذلك أنهم كانوا قد بدءوا يخبرون وعيهم الشخصى كوحدة لها بصيرة خاصة. كما بدأ النظام القبلى، والذي كان يعنى أن تذهب كل قبيلة مذهبها، يبدو غير مؤات بشكل فاجع لظروف الحدائة. وتوضح قصة الأحناف استعداداً لدى العرب للديانة التوحيدية. غير أن الآخرين لم يكونوا بعد مستعدين للانفصال الجذرى عن الماضى، أو لفقدان تلك الاستمرارية التى كانت لها مركزية فى حياتهم الروحانية القديمة.

وإن كان من الصحيح أن إحساس محمد بمهمته كان قد أخذ فى التطور، فلا بد أنه شعر أكثر بحاجة العرب لوجود بؤرة مشتركة. والديانة التوحيدية بطبيعتها معادية للقبلية، فهى تتطلب من البشر التوحد كمجتمع متفرد. وفيما بعد، كان لمحمد أن يرى وحدة العرب مبنياً هاماً، لكنه فى عام ٦١٦م، حينما حدثت القطيعة الخطيرة مع قريش، كان وعى محمد الأقوى هو حاجة العرب الدينية لأن يجدوا حقيقة عليا واحدة وراء آيات الطبيعة المتعددة المتنوعة. وكانت الآيات التى قيل إنها حلت محل تلك المتنازع عليها، قد وضحت أن الآلهة القديمة ما هى إلا إسقاطات إنسانية، لا يمكن لها أن تكون فى منزلة الإله الأعلى والأسمى الذى يفوق مفاهيم البشر المحدودة. ومعظم الجدل القرآنى بخصوص ما يدعى «شركاء الله» أو «أصحابه» يؤكد على عدم فاعلية الآلهة الوثنية بطريقة تتشابه - إلى حد ما - مع بعض ما جاء فى كتب اليهود. فليس من المجدى جعلهم مركز عالمنا لأنهم لا يملكون أن يفعلوا لنا

شيئاً، فهم لا يستطيعون أن يمدوا أتباعهم بالطعام والرزق^(١٧)، كما أنهم كوسطاء لا رجاء فيهم، ولن يكون باستطاعتهم مساعدة الرجال والنساء الذين وثقوا فيهم يوم الحساب^(١٨). فإن تلك الآلهة ما هي إلا مخلوقات كالرجال والنساء والملائكة والجن الذين لا يملكون تقديم المساعدة الجذرية. وفي هذا الصدد، يبدو تشابه مع بعض الزامير العبرية، والتي لم يكن ليتنى لمحمد قراءتها، لكن نفس الجدل وظف فيها.

﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين. ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطنون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنتظرون﴾^(١٩). (الأعراف: ١٩٤ و ١٩٥).

ويقدم القرآن مفهوماً للإله العلى بشكل جوهرى يستوعبه العرب. فيطلق عليه من الصفات ما ينطلق من البنية القبلية، لتقريب المفهوم إلى أذهانهم. فالله هو الذى يمنح الولاية والنصر، فى حين كانت الآلهة القديمة رئاسات ضعيفة بشكل جد خطير، حيث كانت لا تملك رعاية تابعيها. وتصبح الوحدة الإلهية الأساس الروحاني لدى المسلمين. كما أن بمقتضاها أيضاً ستجرى للمحاولة لتحقيق الوحدة فى حياة الفرد والمجتمع. فلكى يتحقق التكامل الفردى، كان ذلك يستلزم جهداً مستديماً، كما أن تجربة التكامل تلك تنجم عنها إichاءات بالإله الواحد (أو بوحدة الإله) حين يحاول الفرد العثور على مركز واحد، أو هدف واحد، فى النفس التكاملة تكاملاً صحيحاً، ويلخص الجزء الأول من الشهادة - التى هى إعلان الإيمان للمسلم - عزم كل مسلم: «أشهد ألا إله إلا الله» كما أن الشهادة تحرم على المسلمين أن يُجلبوا - بأى شكل ولو محدود - آلهة أخرى كالملائكة والعزى ومناة، بل أيضاً تحرم عليهم أن يسمحوا لمغانم أخرى ظاهرة أن تشتت ولاءهم لله. فقد تقدم الأيديولوجيات الإنسانية والتطلعات والحماس الوعد بنوع من الخلاص، لكنها

فى النهاية لن تؤدى إلا للإحباط. وينطبق هذا بوضوح على المال والسنجاح والرفاهية المادية، كما أنه ينطبق أيضاً على التعصبات الدنيوية الأخرى التى تبدو جذابة لكنها غير مستطبعة أن تهدئ القلق وعدم الرضاء الأساسى للبشر، والذى يلجئ الكثيرين إلى السلوى الذى يقدمها الدين ويقدمها الفن. وحينما التجأ بعض المسلمين فى عصرنا إلى الأيديولوجيات الغربية، مثل القومية والاشتراكية حذرهم المصلحون من أن تلك لن تأتى بالإرضاء المأمول. فرغم أنها ليست شريرة فهى غير موثمة وليس بإمكانها تقديم الحماية والعون أو الإرضاء النهائى على أعلى مستوى فردى أو جماعى أو سياسى. وخطيئة الشرك تحذر المسلمين من تبنى مثل بشرية خالصة - مهما بلغ صلاحها فى حد ذاتها -، وذلك من الأهمية القصوى بىمكان، كى لا يتحولوا إلى الوثنية.

وبعد القطيعة النهائية مع قريش نزلت سورة الإخلاص، وقرأ المسلمون تلك السورة فى صلاتهم اليومية وفى المساجد، وهى تذكرهم بالوحدة الإلهية التى يجب عليهم أن يخبروها فى حياتهم اليومية عن طريق تكامل شخصياتهم بينما هم يجمعون قواهم المتناثرة الموزعة ويلمسون أعماق أولوياتهم.

﴿قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾. (سورة الإخلاص).

لكن لم يكن الكثيرون من قريش مستعدين لإيجاد القطيعة مع الماضى ونبذ مقدساتهم القديمة. ويبدو أن كثيراً من أتباع محمد قد قرأوا من قومهم كى يتبعوه، وبدأ أقوياء قريش حملة للإخلاص منه، إذ كانوا ينظرون إليه على أنه مرتد، أى ملحد يُعادى أكثر قيم المجتمع قدسية والثى يجب ألا تُتهك حرمتها. ولهذا، قابل وفد منهم أباً طالب، زعيم عشيرة محمد، وطلبوا منه أن يرفع عنه الولاية (الحماية). ولم يكن لأحد فى مجتمع بلاد العرب أن يستمر فى البقاء دون والٍ أو حامٍ. فربما كان النظام القبلى قد بدأ فى الذواء،

لكن كانت القبيلة والعشيرة الوجدتين الأساسيتين في المجتمع، وكان من المحال العيش خارج تلك المجموعتين. والرجل الذي لا مولى له كان يُقتل دون أن تكون له حصانة. غير أن وفد قريش ذكّر أبا طالب بواجبه تجاه قبيلة قريش جمعاء، فقالوا له: «يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تُخلى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه» (٢٠).

وكان الموقف شديد الحساسية، فقد أحب أبو طالب محمداً، لكنه بالتأكيد لم يكن يرغب في أن يجلب عداة كل العشائر الأخرى ولم يكن أيضاً مسلماً، ولم يشعر بالارتياح لإدانة محمد الدين القديم. لكنه كان يعرف أنه إن سلمهم ابن أخيه فسوف يقتلونه، وكان ذلك يعني فشله رئيساً للعشيرة حيث لم يُوقّر له الحماية الكافية، مما يمثل لطمة قوية لمتزلة بنى هاشم، والتي كانت بالفعل تمر بأوقات عصيبة. وهكذا، رفض أبو طالب، حينئذ، أن يلتزم بشيء وأجاب رؤساء القبائل بلطف وردداهم رداً جميلاً. واستمر محمد يشير بالعين الجديدة تحت حمايته.

ولكن بعد فترة عادت قريش إلى أبي طالب، متذرة، فهاجوا وقالوا: «إنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين».

وقد شعرت قريش أنها تُقاتل في سبيل حياتها كاملة، والتي كانت تُفوّض كل يوم. وكانوا قد تحققوا أنه لا يوجد إمكان لإيجاد أسلوب توفيقى وأن على أحد الأطراف أن يتصر. واستاء أبو طالب ودعا إليه محمداً وتوسل إليه أن يُنقذه ويُنقذ نفسه مطالباً إياه ألا يُحمّله أكثر مما يحتمل. وظناً منه أن أبا طالب كان على وشك التخلي عنه قال له محمد وعيناه تترقق فيهما الدموع: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته». وترك الغرفة وهو يبكي

بحرارة. ولكن أبا طالب ناداه من فوره وقال له: «أذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا» (٢١).

ولحين من الزمن ظل محمد آمناً. فمادام أبو طالب قد ظل يحميه حماية فعالة لم يكن هناك في مكة من يستطيع الإضرار به.

وكان أبو طالب من أفضل الشعراء الموهوبين في مكة، وهنا، نظم بعض الأشعار شديدة الغضب يهجو فيها كل العشائر التي كانت من حلفاء الهاشميين التقليديين والتي انقلبت ضدهم بسبب محمد. وردت عشيرة أبي طالب بإعلاناتها تكافلها مع الهاشميين الذين كانوا يمتنون لهم بقرابة وثيقة. لكن تبعت تلك الأنبياء الحسنة أنبياء انضمام مؤسف لصفوف الأعداء. فقد كان أبو لهب معادياً لمحمد منذ البداية. لكن، ولكي يصلح العلاقات بينهما، خطب بتين من بنات محمد، رقية وأم كلثوم، لابنيه. لكنه بعد رفض محمد النهائي الاعتراف «ببنات الله» قرر أن يتحالف أكثر مع عبد شمس، عشيرة زوجته، وأجبر ابنه على ترك بنات محمد، لكن عثمان بن عفان، ذلك الشاب الأنيق الذي اعتنق الإسلام، كان معجباً منذ زمن برقية أجمل بنات محمد، وتمكن بذلك أن يطلب يدها للزواج.

وبدا أبو لهب منذ ذلك الوقت في العمل الوثيق مع أعداء محمد. وكان على رأس هؤلاء أبو الحكم، ابن شقيق الوليد رئيس مخزوم المُن، فأصبح الوليد قائد المعارضة ولقب المسلمون أبا الحكم بأبي جهل. وعلى المستوى الشخصي كان أبو جهل طموحاً، وربما كانت الغيرة قد تملكته من مقدرة محمد السياسية. ولكن يبدو أيضاً أن القلق تملكه من رسالة محمد الدينية. فتحالف مع رؤساء آخرين مهمين مثل أبي سفيان، رئيس عبد شمس والذي كان داهية، وكان أيضاً صديقاً لمحمد ذات يوم. أما نسيه عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة فكانا في مقدمة المعارضين، وكذلك كان أمية بن خلف، ذلك الشيخ البدوي رئيس عشيرة جُمح. وفيما بعد انضم إليهم سهيل بن عمرو

رئيس عامر وكان من كبار الوثنيين، رغم أنه كان معتاداً - مثل محمد - الذهاب إلى الخلوة. وهكذا نجد أن سهيلاً كان متأرجحاً لأنه لا يلد وأنه تعرف على تيمات روحانية في رسالة محمد. وآزر هؤلاء أيضاً بعض الشباب من أمثال عمرو بن العاص وكان دبلوماسياً نشطاً ومحارباً قديراً، وخالد بن الوليد وصفوان بن أمية. أما أكثر أعداء محمد حماساً فكان عمر بن الخطاب وكان في حوالى السادسة والعشرين في وقت قطيعة محمد مع قريش. وكان عمر ابن الرثى المتحمس الخطاب، والذي قام بطرد أخيه لأمه زيد الخنيف إلى أعلى مكة، حينما شوّه سمعة دين الآباء. وكان عمر شبيهاً بأبيه، فينما أوصى الآخرون بالحنز كعادة قريش في الكفر، كان عمر مستعداً للمجاهرة بأعمال العنف.

وكان كل هؤلاء قد فقدوا أقرباء لهم ذهبوا إلى معسكر المسلمين. واستمر القرآن يفرق الأسر بشدة. فمثلاً فقد سهيل بن عمرو ابنه الأكبر عبد الله، وابنتين له، وزوجيهما وثلاثة من إخوته وابن عمه ونسيته سودة. فبدا الأمر وكان محمداً يُكوّن عشيرة من نوع جديد تتألف من المنشقين الشباب الذين نبذوا الولاء الأسرى. وربما رأى أعداء محمد التضمينات السياسية لرسالته قبل أن يراها هو، فقد كان القرآن يؤكد أنه ليس لمحمد دور سياسي في مكة. لكنهم تساءلوا إلى متى يقنع رجل يقول إنه يتلقى رسائل من الله - بقبول قيادة عدد أكبر من البشر العاديين أمثالهم؟ وكان بعض من هم أشدّ عداوة لمحمد قد بدوا يقتنعون أنه لا أمل في حل توفيقى. ولذا، فسيخرج جانب واحد متصراً من تلك المعركة الحاسمة، ورأى الرجال من أمثال أبي جهل والفتية من أمثال عمر، وهو ابن أخته، أنه لن يوجد احتمال لحل سلمى.

غير أنهم لم يكن باستطاعتهم فعل الكثير بعد. فمادام محمد تحمّ حماية أبى طالب لم يكن أحد بمسطيع قتله دون التسبب في مواجهة ثارية بين عشيرتى بنى هاشم وأبى طالب تتضرر منها الأسرتان.

وهكذا، حاولت المعارضة في البداية فرض المقاطعة، والقيام بأفعال السخرية. ففي حالة العبيد والمسلمين الأكثر ضعفاً كان بالإمكان مهاجمتهم دون دية، لكن كان عليهم استخدام أساليب أكثر دهاء مع أشخاص مثل محمد ممن تتوفر لهم الحماية الكافية. ويخبرنا ابن إسحق عن سياسة أبي جهل العامة فيقول:

«كان إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة، أتبه وخزاه، وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لُنُسْفَهَنَ حلمك، ولنغيلنَ رأيك، ولنضعنَ شرقك، وإن كان تاجراً قال: والله لنكسِدُنَ تجارتك، ولنهلكنَ مالك. وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به» (٢٢).

أما العبيد، فقد وقعت عليهم معظم المعاناة، لأنهم لم تكن تتوفر لهم الحماية العشائرية. وكان أمية، رقيس عشيرة جُمع، يأخذ عبده الحبشى المسلم بلالاً، في أشد أوقات النهار قيظاً ويقيده ويتركه معرضاً للشمس وعلى صدره صخرة ضخمة. لكن بلالاً لم يهن عزمه، واستمر يُعلن الوحدانية وهو يصيح «أحد.. أحد..» بينما يتردد صوته ذو القوة غير العادية في أنحاء المكان. ولم يستطع أبو بكر أن يأخذ موقف المخرج من عذاب بلال، فاشتراه من أمية وأعتقه. ويقال أيضاً إنه اعتق سبعة عبيد آخرين بنفس الطريقة. كما تعرض المسلمون، الذين كانوا يتمون إلى عائلات رفيعة المستوى، للمعاناة على أيدي عائلاتهم. فمثلاً قام خالد بن سعيد، ذلك الشاب الذي اعتنق الإسلام بعد حلم رآه عن جهنم بسجنه وحرمانه من الطعام والشراب. كما أساءت عشيرة مخزوم معاملة أسرة عمار بن ياسر الذي اعتنق الإسلام، لدرجة عجلت بوفاته والدته.

ولذلك، قرر محمد البحث عن موطن آمن للمسلمين الذين كانوا يتعرضون لأسوأ أنواع العذاب، وطلب من نجاشي الحبشة المسيحي أن يلجئ المسلمين هناك. ورغم عداوة قريش للحبشة منذ عام الفيل، فقد وافق

النجاشي. وفي عام ٦١٦م غادر ثلاثة وثمانون مسلماً مكة مصطحين عائلاتهم، وكان يقودهم عثمان بن مظعون، وكان موحداً متقشفاً قبل اعتناقه الإسلام. وذهب أيضاً أفراد من أسرة محمد، بينهم جعفر بن أبي طالب، وابنة محمد رقية مع زوجها عثمان بن عفان. ويعتقد بعض الباحثين الغربيين المحدثين بوجود أسباب أخرى لتلك الهجرة غير الالتجاء، ويقولون باحتمال محاولة محمد فتح خط تجارة مستقل باتجاه الجنوب لهؤلاء الذين كانوا يعانون من العقوبات التجارية التي فرضها أبو جهل. وأوحى هؤلاء الباحثون أن قائمة أسماء المهاجرين تشي باحتمال وجود خلافات داخل جماعة المسلمين، وذلك لأن بعض المهاجرين - من أمثال عثمان بن مظعون وعبيد الله بن جحش - والذين كانوا قد وجدوا بأنفسهم طريقهم إلى الوجدانية، ربما شعروا بالغيرة من التأثير الذي كان يمارسه قادم جديد نسبياً مثل أبي بكر على محمد. لكن، إن كانت تلك الخلافات هي الدافع إلى الهجرة، فلا بد وأنها لم تكن جدية، فرغم أن عيد الله تحول إلى المسيحية أثناء وجوده في الحبشة، فقد عاد عثمان مرعاً إلى مكة حالماً ساد الأمن واستمر في ولائه لمحمد وأبي بكر.

وارسلت قريش مبعوثين إلى النجاشي عقب وصول المسلمين هناك تطلب منه أن يعيدهم، فقد كان في ذلك الخروج الجماعي تهديد لهم من نواح عديدة. وأخير المبعوثان النجاشي أن المسلمين أهاتوا عقيدة مكة ومزقوا المجتمع. ودعا النجاشي المهاجرين المسلمين إليه وطلب منهم الكلام دفاعاً عن أنفسهم. فوضح جعفر الأمر قائلاً إن محمداً هو نبي الله الحق والذي أكد رسالة المسيح. ولكي يبرهن على تلك النقطة أخذ يتلو وصف حمل مريم العذراء في المسيح:

«وَأَذَكَرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا. فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا. قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا. قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكَ غُلَامًا

زكيا . قالت أنى يكون لى غلام ولم يمستى بشر ولم أك بغيا . قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً ﴿٢٣﴾ . (مریم: ١٦ - ٢١) .

وحيثما فرغ جعفر، كأن لجمال القرآن أثره، فقد بكى النجاشى بشدة حتى ابتلت لحيته، وذرفت أعين قساوسته ومستشاريه الدموع على خدودهم بغزارة ابتلت معها صحفهم التى كانوا يحملونها .

وحاول المبعوثون الوقية بأن قالوا للنجاشى إن القرآن لا يعترف بالوهية المسيح، لكنه رفض ترحيل المسلمين إلى مكة . وكان مسيحيو الحبشة قد قلقوا من مائدة أناس كانوا يرونهم هراطقة، لذا لجأ النجاشى إلى معاملات غامضة لتبرير ذلك . والقصة، فى صورتها التى وصلت بها إلينا غير كاملة . إذ إنه ربما كانت لمحمد خطط سياسية أو اقتصادية وراء تلك الهجرة، وكانت تلك الخطط قد نسيت حينما بدأ ابن إسحق الكتابة . وربما كان وفد قريش من مكة قد وضّح للنجاشى أن المسلمين ليسوا بالقوة الكبيرة التى تخيلها، لذا لم يُساندهم بالدرجة المأمولة .

وفى تلك الأثناء استمر أبو جهل ورفاقه فى إيذاء المسلمين . وكانوا قد بدعوا فى التفكير فى اعتراضات جديدة على الإسلام وتساءلوا: لماذا اختار الله محمداً ولم يختار شخصاً أكثر منه أهمية مثل الوليد؟ ولماذا لم يأت محمد بالمعجزات؟ ولماذا يتزل الله القرآن تدريجياً بدلاً من الإيحاء به تنزيلاً واحداً مهيباً كالذى تلقاه موسى على جبل سيناء؟ ولماذا لم يرسل الله ملكاً رسولاً بدلاً من أن يختار بشراً عادياً؟ . وظن بعض من قريش أن محمداً يتلقى تدريبات على يد يهودى أو مسيحي ولا يتلقى وحياً من الله نفسه . غير أن قريشاً لم تكن تملك إلا الشكوى . واتحصر اضطهادهم للنبي وأصحابه بشكل رئيسى فى الحظر التجارى والامتهان اللفظى بعد أن رحل معظم المسلمين الذين يمكن اضطهادهم إلى الحبشة . ولقى محمد نفسه بعض المعاملة الفظة .

وفى هذا الصدد يتذكر عمرو بن العاص - وكان ضمن الوفد الذى أرسلته قريش إلى النجاشى والذى لم يلم حتى وقت متأخر - مناسبة أمين فيها محمد فى الكعبة، فبينما كان يؤدى الطواف، كان قادة قريش يجلسون بالقرب من الكعبة يشكون قائلين إنهم «لم يواجهوا قط مثل تلك المشاكل التى يواجهونها مع ذلك الرجل، فقد أعلن أن أسلوب حياتهم أحق، وأهان أسلافهم، ولعن دينهم، وقسم جمعهم، وسب آلهتهم. فإن ما احتملوه كان فوق طاقتهم». وكلام آخر من هذا القبيل. ويعد أن أتم محمد الطواف الثالث برفقة أتباعه، بدا وجهه مسوداً من الغضب. ثم توقف فى مسيره وواجه متقديه قائلاً: «أسمعون يا معشر قريش، أما الذى نفسى بيده، لقد جتكم بالذبح».

وأصابت الكلمة الأخيرة الوقوف بالصدمة وأجمت آلتهم، لكنهم استعادوا بأسهم فى اليوم التالى، فقفزوا عليه عند ظهوره فى الكعبة وأحاطوا به متوعدين، وما فتوا يعاملونه بقسوة، ويتجاذبونه من عباة، وعند ذلك تدخل أبو بكر باكياً وقال: «أقتلون رجلاً يقول ربي الله؟! وهنا تركوه لحال سبيله. ثم اختتم عمرو قائلاً: «إن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط» (٢٤).

ولابد أن ذلك كان مبعثاً للأسى والضيق. غير أن تلك المضايقات لم تكن عنيفة. إذ تراجعت قريش سريعاً واحتوى العنف.

وفى الواقع فقد أتت تلك التصرفات بعكس ما أريد منها، حيث دفعت البعض إلى اتباع محمد. فذات يوم مثلاً زاد أبو جهل إهانة لمحمد بوجه خاص، لكنه لم يعره اهتماماً بل جاوزه وخطأ تجاه منزله. وفى وقت متأخر من ذلك اليوم حضر عمه حمزة العظيم بعد رحلة صيد وقوسه معلق فى كفه. وكان كما يقول ابن إسحق: «أعز فتى فى قريش وأشد شكيمة» (٢٥). وكان يجب أن ينهى يومه فى الميدان بالقيام بشعائر الطواف، ويعد ذلك يتجاذب أطراف الحديث مع أى شخص يتصادف وجوده فى الكعبة.

لكن فى ذلك اليوم انتحت به امرأة وأخبرته عن امتهان أبى جهل لمحمد مبكراً. ولم يكن حمزة مسلماً، لكنه حينما سمع ذلك استشاط غضباً وأسرع ليجد أبى جهل فضربه بكل قوته على ظهره وصاح قائلاً: «أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فرد ذلك على إن استطعت». فقامت رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبى جهل. فقال أبو جهل: دعوا أبى عماره، فإنى والله سيبت ابن أخيه» (٢٦).

وقد ترك اعتناق حمزة الإسلام أثراً قوياً فى نفوس قريش، ولأسباب واضحة، فقد عرفت أن محمداً عزّ وامتّع.

وكان للقرآن أكبر الأثر فى اعتناق القوم للإسلام. ففى أثناء حجة عام ٦١٦م، وحينما أتى الحجيج مكة من جميع أنحاء الجزيرة، زرع أبو جهل زملاءه فى جميع منافذ المدينة كى يحذر القادمين من محمد. وهنأ، انتاب شاعراً يُدعى الطفيل بن عمرو من قبيلة دوس فى المنطقة الغربية، الذعر للرجة أنه سد أذنيه بالقطن ليتأكد أنه لن يسمع «لسحر» النبى، ولكنه حينما أتى الكعبة ورأى محمداً واقفاً يصلى قبالتها، شعر فجأة بالفضاهة وقال: «فلياركنى الله ها أنا رجل ذكى وشاعر أعرف الفرق بين الحق والباطل تماماً، فما الذى ينعنى أن أستمع لما يقوله هذا الرجل؟ فإن كان خيراً تقبلته، وإن كان شراً تركته» وتبع محمداً الذى شرح له الدين ثم تلا آيات من القرآن عليه. فاندھش الطفيل وصاح: «والله ما سمعت قولاً أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه. قال: فأسلمت وشهدت شهادة الحق وقلت يا نبى الله، إنى امرؤ مطاع فى قومي وأنا راجع إليهم وداعيتهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لى آية تكون لى عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه، فقال: «اللهم اجعل له آية» (٢٧). وعاد إلى قبيلته، وخلال السنوات القليلة التى تلت، اعتنقت سبعون أسرة من قبيلته الإسلام.

ويبدو أن الجمال القرآنى الفائق اخترق تحفظات القوم. فقد أراح الطفيل القطن من أذنيه مختاراً بعد مقاومته خوفه. غير أن آخرين ثابروا غير متأثرين

وأبقوا على الحواجز في أماكنها. وحدث أن قررت قريش أن تُجرب مسلماً جديداً، وأرسلت عتبة بن ربيعة للتفاوض مع محمد. وهنا عرضوا عليه المال والمركز وحتى الملك. وهذا إن صح، فهو يُعدّ مؤشراً على بأسهم: فإن المال كان ذا قيمة شبه مقدسة لكثير من قريش، كما كانت لديهم كراهية فطرية لأي سلطة عليا مثل الملكية. وانتظر محمد حتى أنهى كلامه وقال: «والآن، فلتتصت إليّ، وجلس عتبة ويداه خلفه يتكئ عليهما وأنصت باهتمام، بينما محمد يرتل سورة «فُصِّلَتْ» والتي تصف الحواجز التي يقيمها أهل قريش في قلوبهم حتى لا تخترق الرسالة السماوية أرواحهم.

﴿فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون. وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل فإننا عاملون﴾ (٢٨).
(فصلت: ٣ و٤).

وكثيراً ما يحدثنا القرآن عن الحجاب التي تجعل القلوب المتحجرة محصنة ضد قوة رسالته الملحة. ولم يكن عتبة بعد مستعداً أن يُزيل تحفظاته. ولم يلحق بمحمد حينما سجد بعد أن انتهى من التلاوة. لكن حينما عاد إلى صحبه في المجلس أدركوا فوراً أنه قد مرّ بتجربة هائلة. ووجد عتبة أنه من الصعب جداً أن يصف ما حدث له حينما أنصت إلى بهاء الكلمات. فقد كان يوسعه فقط أن يقرر ما لا تماثله تلك الكلمات. إنها لمختلفة عن أي إحياء آخر عرفه العرب من قبل، فلم تكن مثل الشعر أو تلاوات السحرة أو إحياء الكهنة البهيمية. ومن المهم بمكان أن أحداً من أعداء محمد لم يتهمه بتزييف الروحي. فقد وجدوا شيئاً غريباً يحدث لم يجدوا له تفسيراً. وأخيراً حذّر عتبة قريشاً قائلاً: «ورائي أتى قد سمعت قوله والله ما سمعت مثله قط.. أطيعونى واجعلوها بي... والله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم» (٢٩).

ويمكن القول إن محمداً على - أحد المستويات - قد أتى بشكل أدبي جديد تماماً، كان البعض معدين له، بينما وجده آخرون صادماً مُربكاً. فقد كان من

الجديّة وقوة الأثر لدرجة أن وجوده في حد ذاته بدأ إعجازاً، خارج نطاق المقدسات الإنسانيّة العادية. ويتحدّى القرآن أعداء محمد أن يأتوا بمثله، فإن سماته الفريدة كما أن محتواه آيات تمكن البشر من الالتقاء بالخالق بطريقة أيقونيّة^(٣٠). وما زال المسلمون يخبرون بذلك الحضور الغامض حين يرتلون القرآن أو يجلسون قبالة نصوص من هذا الكتاب المقدس التي تزين جدران المساجد. وقد رأينا مركزيّة القرآن في روحانيات المسلمين، تماماً مثل مركزيّة عيسى، كلمة الله، بالنسبة للمسيحيين. وفيما بعد سنجد المسلمين يتحدثون بلغة إنسانيّة عادية عن «الكلمة غير المخلقة» Uncreated word، تماماً مثل اللوجوس «الكلمة» أو «المسيح» في مقدمة إنجيل يوحنا، فالقرآن إذاً، هو أكثر من أن يكون مجرد إفصاح عن معلومات متميزة، بل هو أيضاً رمز يشابه كل رموز التوراة، وشخص المسيح، وتلك الرموز التي اتخذها البشر في الاعراف الأخرى آيات على «التواجد» الإلهي بيننا.

وحدثاً ألهمت فكرة انبثاق «حضور حقيقي» أو «تجاوز للوجود المادي» بواسطة نص أو عمل فني، أو مقطوعات موسيقية، نقاداً غربيين، مثل جورج شتاير وبيتر فولر. فحينما يتحدث ابن إسحق وغيره من كتاب السيرة الأوائل عن الإسلام وهو «يدخل قلب» من يُنصت إلى القرآن، ويحطم التحيزات والخوف، فإن ذلك يوحى بشيء من قبيل ما وصفه شتاير في كتابه «حضور حقيقي»: «هل يوجد أي شيء فيما نقوله؟» Real presences: Is there anything in what we say? وهؤلاء الذين لا يستطيعون أن يخبروا أي جمال في القرآن من بيننا هم أنفسهم الذين يجلدون في موروثاتنا ما يسميه شتاير «طيش»، أو عدم معقولية، أو حماقة الجاد من الفن والأدب والموسيقى، وذلك التوجه هو الذي «يشكك في خصوصيات وجودنا ويضعها موضع التساؤل». ومثل هذا الفن، هكذا يقول شتاير، يتطلب منا ضمناً أن «نغيّر حياتنا». إنها لقياً مع بعد لا مادي تخترق «البيت الصغير

لكياننا التحذيري «Cautionary»، غير أنه متى أنصتنا إلى نداءات الفن تلك، فإن ذلك المنزل يصبح «غير قابل للسكنى بالطريقة التي كان بها من قبل»^(٣١). إن شتاير لا يعتقد في وجود الله، ولهذا فهو يقول إن الفن بالنسبة لأناس كثيرين يمثل الإمكانية الوحيدة للتسامي في عالم مليء بالشكوك. ومن الواضح وجود فروق مهمة بين نظرية شتاير وبين تجربة المسلمين الذين شعروا أن حياتهم قد تغيرت بصورة لا عدول عنها بواسطة جمال القرآن. لكن أدلة اللقاء الأولى مع الكتاب المقدس للإسلام توحى بقلقة مماثلة للأحاسيس، وبقطة، ولمحة ثراء محير يخترق الحواجز التحذيرية. وقد قوبل كتاب شتاير بترحيب كبير لدى نشره، مما يوحي أنه عكس تجربة كثير من قرائه. أما نظريته فقد علمنا بلمحة عن تأثير ذلك العمل الأدبي الكلاسيكي العربي الرائع. فمحمد موحى إليه والقرآن - كنص وفعل يتجلى فيه الله - لا بد وأن يكون من الأمثلة الأشد لفتا للانتباه عن العلاقة بين التجربة الدينية والفنية.

ويدون ذلك «الغزو» أو «البشارة»، كما يسميها شتاير، لم يكن محتملاً للمجتمع الإسلامي الأول أن يمارس تلك القطيعة المخيفة مع الماضي، وأن يتهاك حرمة الموروث من المقدسات العميقة، وأن يهزم التحيزات أو الأهواء المتأصلة. فقد تجاوزت أصداء القرآن مع شيء ما مدفون في أعماق العرب، والمخ القرآن إلى موجودات خارج نطاق النص، تماماً كتلك الآيات التي يصفها. وهكذا استطاع الوصول إلى تلك الخصوصيات العميقة، مشجعاً المسلمين على تغيير حياتهم على مستوى أشد عمقاً من المستوى العقلاني. ويقول المسلمون الآن إن إعجاز القرآن يتجلى في استطاعته ممارسة ذلك التأثير حتى يومنا هذا، حتى على هؤلاء الذين يتكلمون لغة غير العربية. وفي هذا الصدد يشير الباحث الإيراني المتميز سيد حسين نصر إلى أن القرآن مازال حتى الآن يتطلب من المسلمين تغيير حياتهم. ويرى أن الآيات المشطية غير

مترابطة المعنى المنطقي - وخاصة في السور الأولى - فتمثل اللغة الإنسانية وهي تشظى تحت ثقل الكلمة المقدسة، كما أنها أيضاً تعكس تفكك حياة الفرد نفسه. ولكي يكشف الإنسان المعنى الأعمق الذي يرمز إليه القرآن فلا بد للمسلم أن يدمج أجزاء حياته. فقراءة القرآن، أو الإنصات إليه، ليس مجرد تجربة عقلية لاستخلاص المعلومات أو لتلقى الإرشاد الواضح، لكنه تنظيم روحاني. أما عملية التأويل، فما هي إلا بحث عن معنى باطنى يتطلب من الفرد أيضاً أن يخترق أعماق نفسه أو نفسها. ولفظ تأويل، يعنى حرفياً إرجاع الشيء لأصوله أو بداياته. ويتطلب القرآن من المسلمين حين قراءتهم القرآن أن يتقلوا من المستوى الظاهر إلى الباطن الخفى لكيانهم فى محاولة لاكتشاف الأساس أو الاصل (٣٢).

ومن الطبيعى أن تجربة الشخصى الغربى ستكون مختلفة تماماً. ليس فقط لأن الترجمات لا يتواجد بها جمال العربية الأسمى، لكن التجربة المشار إليها تتطلب توجهاً غريباً على معظمنا. فلأن يحد المرء نفسه بالقراءة الظاهرية العقلانية دون أن «تلكزه» خاصية العربية التى تدفعه للبحث عن المقدس، غير المنطوق به، خارج نطاق النص الكلامى، فغالباً ما تكون التجربة مقفرة. وخاصة أن القراءة تتم بروح عدائية ومن منظور استعلاء متخيل، كحالة جيون مثلاً، وتلك الروح ليست بالروح المبدعة التلقية التى قد ينجم عنها أى تجربة خيالية.

وفى نهاية عام ٦١٦م، تسبب القرآن فى اعتناق شخص بعيد عن كل التوقعات - الإسلام. فبعد أن قرر أن الوقت قد حان لقتل محمد، أخذ عمر ابن الخطاب يقطع شوارع مكة وسيفه فى يده فى اتجاه منزل أسفل جبل الصفاة حيث كان يعلم أن محمداً يقضى فترة ما بعد الظهيرة. ولم يكن يعلم أن أخته فاطمة وزوجها سعيد (ابن زيد الخيف)، وقد ظنوا عمر بعيداً، قد دعوا حداً مسلماً يدعى خباب بن الارت ليتلو عليهم أحدث السور تنزيلاً.

لكن وبينما هو متوجه إلى جبل الصفاة، استوقفه شخص من عشرته كان قد اعتنق الإسلام سراً، ولكى يصرف عمر عن هدفه، أخبره أن يعود لينظر ما يحدث بمنزله. وهرول عمر آيأ، وسمع كلمات القرآن تنبعث من منزله، فصاح وهو يذخل «ما هذه الهيمنة التي سمعت؟». وأسرع خباب يخبئ في غرفة علوية بينما اندفع عمر نحو فاطمة وسعيد، وضرب أخته وألقى بها أرضاً. لكن يبدو أنه شعر بالرجل عندما رأى دماءها تسيل. وعلى أية حال، فقد اعترى التغير وجهه. والتقط الصحيفة التي كانت قد سقطت من خباب في عجلته. وبدأ في قراءة الآيات الأولى من سورة طه، وكان أحد أفراد قريش القليلين المتمكنين من القراءة والكتابة. ثم صاح متعجباً وقال: «ما أحسن هنا الكلام وأكرمه». وكما صرع تجلى المسيح - كلمة الله - سول الطرسوس، صرع جمال القرآن نظيره المسلم عمر، فقد تخلل تحيزاته وكرهيته المثقلة، وأثر في حسه الداخلى والذي لم يكن هو يدري بوجوده، وفوراً، أمسك عمر بسيفه مرة أخرى وهرول في شوارع مكة تجاه جبل الصفاة، واندفع إلى داخل المنزل الذى يوجد به محمد وأمسك به من رداته. فصاح به محمد: «ما الذى جاء بك يا ابن الخطاب؟» وأجاب عمر: «يا رسول الله، لقد جئتك لأؤمن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله» (٣٣). فكبر محمد تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب الرسول أن عمر قد أسلم.

لكن ابن إسحق سجل رواية أخرى عن إسلام عمر جديدة بأن نستشهد بها. فلقد كان عمر في زمن الضلال سكيراً وكانت متعته الكبرى تلك الصلوات التي يقوم بها في أنحاء السوق. في أحد الأيام تغيب كل رفاقه في الشراب، وفكر عمر أن يمضى وقته مؤدياً الطواف حول الكعبة، وحينما وصل إلى هناك رأى محمداً قائماً يصلى يتلو القرآن بصوت خفيض، وقرر أنه يريد أن يسمع الكلمات. ومن هنا رحف عمر تحت ستار الكعبة وتسلل حولها حتى أخذ موقفه قبالة محمد. وكما قال: «ما بينى وبينه إلا ستار

الكعبة». وهناك تهاوت كل دفاعاته إلا واحداً. وسرى مفعول «سحر» العربية لغة القرآن، وقال عمر: «فلما سمعت القرآن رق له قلبي فبكيته ودخلني الإسلام»^(٣٤)، ولم يكن عمر أبداً من ذوى أنصاف الحلول، ففي الصباح التالي قرر أن يبلغ أبا جهل بالأخبار وذهب إلى وكره وصاح أبو جهل مبتهجاً وهو يفتح الباب: «جئت لأخبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد، وصدقت بما جاء به، قال: فضرب الباب بوجهي وقال: قبحك الله، وقبح ما جئت به»^(٣٥).

وكما لنا أن نتخيل، فقد كان إسلام عمر القشة الأخيرة، وخاصة أنه رفض تأدية الصلاة في السر، وسجد أمام الكعبة في حضور الجميع. ولم يحتمل أبو جهل وأبو سفيان مشاهدته، لكن لم يكن في أيديهم ما يفعلونه، لأن عمر كانت تحميه عشيرته عدى. وهنا، حاول أبو جهل أن يُجيع محمداً كي يستسلم. وفرض المقاطعة على عشائر هاشم وعبد المطلب. وتمكن من أن يجعل جميع العشائر تُوقع معاهدة كي يتحلوا ضد خطر الإسلام. وهكذا، حظر التزاوج أو الاتجار مع تلك العشيرتين الخارجيتين على القانون، وكان ذلك يعنى ألا يبيع لهم أحد طعاماً. ولكي يحافظوا على أمنهم، انتقل كل أفراد بنى هاشم وبنى عبد المطلب للسكنى في ناحية عشيرة أبى طالب، التى أصبحت «جيتو» صغيراً. وحين وصل محمد وخديجة إلى هناك، غادر أبو لهب وعائلته المنطقة واتخذوا مسكناً في ناحية عبد شمس واستمر الحظر عامين. أما أبو طالب فقد رفض وأعضاء عائلته - الذين لم يُسلموا من منطلق المبدأ المحض - أن يبنذوا أقاربهم. ولم يكن للحظر شعبية خاصة بين الاقوام والعشائر الأخرى، التى لها أقارب بين عشيرة بنى هاشم وعبد المطلب، والذين لم تُطاولهم ضمايرهم أن يتركوا أهليهم يموتون جوعاً. وكان المسلمون من أمثال أبى بكر وعمر، والذين كانوا يتمنون إلى عشائر أخرى، يرسلون الطعام والإمدادات بانتظام إلى الجيتو، كما كان يفعل ذلك أيضاً

أقرباء وأصدقاء آخرون. وكان أحدهم يدعى هشام^(ه) بن عمرو، وله أقارب عديدون في بني هاشم، وكثيراً ما كان يرسل بغيراً محملاً بالإمدادات ليلاً إلى نزل أبي طالب^(هه)، وكان يضرب الجمل على مؤخرته ويرسله فيتهادي في الطريق. وفي إحدى المرات، استوقف أبو جهل حكيم بن حزام ابن شقيق خديجة في طريقه إلى الشعب، وفي يده قمح، وارتفع الجدل العنيف بينهما، وهنا لحقهما أحد المارة وأخذ جانب حكيم، وسأل أبا جهل إن كان فعلاً يعترم منع رجل يحمل الطعام إلى عمته. وظل أبو جهل سادراً في رفضه إطلاق حكيم، فضربه الرجل بعظم فخذ بغير وألقاه أرضاً.

وفي أثناء الأشهر الحرم التي يحرم فيها القتال، كان باستطاعة محمد والمسلمين مغادرة موقعهم والذهاب بانتظام إلى الكعبة، وهناك كان يصبح هدفاً لإهانات جديدة. وكانت امرأة أبي لهب - والتي كانت تظن نفسها شاعرة - مغرمة بقذف النبي بالأشعار المهينة عند مروره. وفي إحدى المرات، ألقت بحمل من الخطب الشائك في طريقه. وربما كانت تلك مناسبة تنزيل سورة المد:

﴿تبت يدا أبي لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى ناراً ذات لهب . وامراته حمالة الخطب . في جيدها حبل من مسد﴾.

وربما رأى أولئك الذين نبشوا على تعاليم «وعظة الجبل»، أن محملاً، بعدم إدارته الخلد الآخر لهم، أعطى مثلاً سيئاً. لكتنا نجد في الإنجيل نفسه عيسى يعلن أعداءه بعبارات واضحة. وقد تنبأ بمصير رهيب لمدينتي بيت صيدا وكوارزيم، والتي لم تستمع لكلماته. كما أنه - وكما جاء في إنجيل متى - قام بسب القريسين Pharisees، والسدوسيين Seducees بهجاء عنيف يعتبر

(ه) ورد هذا الاسم خطأ في النص الإنجليزي متكرراً في هذا الفصل، وقد كتب (Hishim)، (المحرر).

(هه) المقصود أنه يرسل البعير إلى شعب بني هاشم وبني المطلب، وقد ذكرت اللفظة مستزلة من أبي طالب، فقد كانوا جميعاً في شعب واحد. (المحرر)

تشهيراً بدون شك . ومن ثم نجد نوعاً من التشدد الجديد فى القرآن فى تلك الفترة . فتجده يُبنى دوماً بكوارث تحمل على مكة التى رفضت الإصغاء إلى كلمة الله . ويبدو أن معرفة المسلمين بكتب اليهود بدأت تنع فى تلك الفترة لأن القرآن أتى بقتصص جديدة عن الأنبياء السابقين من أجل تعزية المسلمين وإنزال الطمأنينة عليهم، والتى هدفت - طبقاً لاسلوب الخطاب المستعمل - إلى إثارة حب الاستطلاع، فإن تلك القصص غالباً ما تبدأ هكذا «هل أتاك حيث موسى؟» و«هل أتاك نبأ فرعون؟» وكان موسى أكثر الشخصيات شعبية إبان الحظر . فالقرآن يشير مرات ومرات إلى أنه قد تم تحذير فرعون ليطيع كلمة الله، لكن المصرين رفضوا الإنصات وتم عقابهم . غير أن أنبياء آخرين مثل يوسف ونوح ويونس ويعقوب وعيسى قد حذروا أقوامهم بأن عليهم أن يتبعوا الصراط المستقيم ليوجدوا مجتمعات عادلة متراحة، إن كانوا يريدون النجاة من سوء العقاب . وتضمن القرآن أيضاً الأنبياء الذين لم يذكروا فى التوراة مثل هود وشعيب وصالح الذين أرسلهم الله للشعوب العربية القديمة، مثل عاد ومدين وثمود، بنفس الرسالة .

وكانت معرفة محمد بالإنجيل والتوراة مازالت محدودة . كما أننا نجد فى القرآن الأنبياء الذين يجعلهم العرب مذكورين على قدم المساواة مع أنبياء التوراة والإنجيل . وتعكس قصص الأنبياء فى القرآن وضع محمد والمسلمين الأوائل فى مكة وتختلف كثيراً عما تعكسه القصص الإنجيلية كما وردت فى الكتاب المقدس . فمثلاً تعطينا قصة نوح فكرة واضحة عن المصاعب التى عاهاها محمد مع كبراء مكة والمعارضة التى واجهوها بها نبوته :

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لآنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آياتنا الأولين . إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين ﴾ .

(المؤمنون: ٢٢ - ٢٤) .

غير أنه - وكما رأينا - فالقرآن يرى كل القصص آيات، ترمز إلى علاقة الله مع البشر، وليست مجرد سرد للأحداث كما وقعت. كما يحاول القرآن استخلاص النتائج من أحداث تلك القصص القديمة التي عرفها العرب ليصل إلى لب الرسالة.

ومن ثم، فبعد أن يرفض نوحاً قومه، يأمره الله ببناء السفينة، ويفرق كل من لم يتبع نصحه. كما أنه في تلك الفترة يصور القرآن يوم الحساب حدثاً مهيباً يفصل الله فيه المؤمنين عن غير المؤمنين في مشاهدة شديدة الرمزية، والتي هي: ﴿آية لمن خاف عذاب الآخرة﴾ (٢٧). غير أن القرآن يبين أن ذلك العقاب ليس جزافاً. فكما ينص القرآن ﴿فما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادهم غير تبسبب﴾ (٢٨) (هود: ١٠١)، فكما جلبت المدائن والأقوام الذين رفضوا الاستماع إلى تحذيرات الأنبياء دمارهم على أنفسهم، فإن على مدينة مكة أن تتوقع كارثة لأن قريشاً رفضت إصلاح حياتها وإقامة مجتمع طبقاً للنظام الحق.

ولكن رسالة القرآن في ذلك الوقت لم تكن كلها دماراً وخراباً. فالقرآن دائماً يحث المسلمين على الصبر وعلى تحمل معاناتهم بجلد وكرامة. كما أنه يوضح أن عليهم ألا يتحيتوا الفرص للانتقام الشخصي من أعدائهم. وأيضاً، فقد أمدته قصص الأنبياء السابقين بالسلوى بتوضيحها أن عقيدتهم ليست ابتكاراً متفرداً حتى ولو بدوا وكأنهم يديرون ظهورهم لأبائهم، فإن لهم نسبهم الروحي الذي يصل إلى آدم، أول الأنبياء الذي علم البشر الطريق الحقة للحياة. ووضحت لمحمد في تلك الأونة معارضة قريش له على طول الخط حتى بين أولئك الذين كانوا أقل تصلباً من أبي جهل.

وبعد فرض الحظر بوقت قليل، قدم إلى محمدٍ وفدٌ صغير يقوده الوليد المخزومي المبجل على أمل الوصول إلى حل سلمي. وكان اقتراب الوليد من

الموت - بحكم سنه - يقلل من احتمال وجود خطر من محمد عليه . كما ضم الوفد ثلاثة من قادة عشائر شمس وأسد وجُمح، وكانت تلك العشائر أعضاء في حلف الفضول، وربما أن تلك العشائر قد أصابها القلق من السطوة التي يمنحها الحظر لأبي جهل في مكة . وقد يكونون قد تحققوا من قدرات محمد الكامنة ومقدرته على إنعاش مقادير العشائر الأضعف .

واقترح الوفد حلاً توفيقياً، وهو أن يعبد المسلمون الله، بينما يستمر الآخرون في عبادة اللات والعزى ومناة . ولكن محمداً قد درس الأمر بدقة، ونزلت سورة الكافرون:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ .
(سورة الكافرون) .

وبدا الوضع يتحسن فجأة بالنسبة للرسول بعد عامين من فرض الحظر، وبدأ وكان الحزم قد أتى كله . فقد أخذ الحظر يفقد شعبيته بشكل متزايد . فلم تكن التقاليد العربية تسمح أن يتساقط القوم جوعاً بينما يقف ذووهم موقف المتفرجين . وهكذا، فقد أخذت تصلهم إمدادات متظمة من الطعام بصفة غير متظمة . وأخيراً، قام أربعة من قريش تربطهم صلة قرابة وثيقة بأفراد من بنى هاشم وبنى المطلب بالتخطيط لإنهاء الحظر . وبدأ هشام بن عمرو - وكان قد أرسل بغيراً محملاً بالإمدادات إلى نزل أبي طالب - بتحريك دعم لإنهاء المقاطعة . وتمكن من أن يجد أربعة آخرين يتماثل فكرهم مع فكره، وقرروا أن يحاولوا إجبار أبي جهل على الإذعان . وكان ثلاثة من هؤلاء - وهم: مطعم بن عدى، وأبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود - يفتحون لعشائر الحلف . وقد يكون هؤلاء قد شعروا بالقلق لتصاعد سطوة المخزوميين - عشيرة أبي جهل - في مكة أثناء المقاطعة . كما أن الشخص الرابع، وهو زهير

ابن أبي أمية - والذي كانت تربطه قرابة بأبي طالب - كان مخزومياً، وانفقوا على أن يبدوا المفاوضات.

وفي اليوم المحدد، ارتدى زهير عباءة بيضاء طويلة، وأدى الطواف بوقار حول الكعبة. وبعد انتهائه من الطواف، أقبل على الناس مخاطباً كبراً مكة: «أناكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكت لا يباع ولا يُتاع منهم؟»، وعارضه أبو جهل غاضباً لكن الرجال الأربعة الآخرين تحدثوا مؤازرين اقتراح زهير. وأخيراً خطأ مطعم بن عدى نحو الكعبة ليبحث عن الصحيفة التي وقعتها العشائر لفرض المقاطعة، وقيل إن القوم انتباههم خشوع عميق حين اكتشفوا أن الصحيفة قد أكلتها الأرضة ولم تترك سوى الصيغة الانتاحية التي تقول «باسمك اللهم». وهنا أصروا على العدول عن المقاطعة.

ولا بد أن جماعة المسلمين قد ابتهجت ابتهجاً شديداً، فقد بدا أن أوقاتاً أفضل قد بدأت، وسمع مجتمع المنفيين في الحبيشة الأتباء، وقاد عثمان بن مظعون ما يقرب من ثلاثين عائلة عائدتين إلى مكة، تاركاً الباقيين مع جعفر ابن أبي طالب. وسرَّ محمد وخديجة للقياً رقية وزوجها عثمان بن عفان. لكن عودة المهاجرين كانت متسرعة. فقد كان من الحتمي أن يستتبع الحظر معاناة رغم سبل الإمدادات غير القانونية. وفي أوائل عام ٦١٩م حدثت وفاة جعلت وضع محمد في مكة مستحيلاً.

الفصل السابع الهجرة: قبلة جديدة

أحياناً ما يطلق كُتّاب السيرة النبوية على عام ٦١٩ عام الحزن، إذ توفيت فيه خديجة، بعد فترة قصيرة من رفع الحصار المضروب على المسلمين، وكانت قد تخطت الستين من عمرها، ومن المحتمل أن نقص الطعام قد أضر بصحتها ضرراً لم يكتب لها أن تبرا منه. وكانت أقرب رفقاء محمد إليه، وكان من المحال على أى أحد أن يشغل الفراغ الذى تركته بعد وفاتها، بل لم يستطع حتى أبو بكر الصديق، على إخلاصه، أو عمر بن الخطاب، على وقلة مشاعره، توفير اللون الخاص من المؤازرة الحميمية الذى كان محمد يجده عند خديجة، ولا بد أن فقدها أثر فيه تأثيراً عميقاً. ولم تنقُص فترة طويلة حتى توفى شخص آخر، وكانت لوفاته آثارها العملية، إذ أصيب أبو طالب بمرض عضال واتضح أنه لن يشفى منه. وقامت قريش، قبل وفاته، بمحاولة أخيرة لإقرار السلم. فرغم جميع الضغوط التى تعرض لها، كانوا يعلمون أن أبا طالب قد سلك مسلك السيد العربى الحقيقى بمناصرة ابن عشيرته مناصرة لم يتحزح عنها، ومن ثم قام أبو جهل بتشكيل وفد من قريش، يرأسه بنفسه، وذهب بالوفد إلى أبى طالب، وكان آنذاك طريح الفراش؛ طلباً للمصالحة، وقال أعضاء الوفد إن محمداً ما عليه إلا أن يعترف بدينهم حتى ينصرفوا عنه. ولكن محمداً كان قد حسم هذه القضية قبل ذلك بعامين وأخبر قريشاً أن الله هو الإله الاحد. وغضب الجميع غضباً شديداً وانصرفوا وهم يعلنون عن تحديهم له ويزعمون أن الله نفسه سوف يحكم بينهم وبين محمد.

وبعد انصرافهم، دُهِش محمد عندما قال له أبو طالب إنه كان محقاً فى رفضه ذلك الحل الوسط، ومن ثم توسل إلى عمه أن يخطو خطوة اخرى

ويعلن إسلامه لله. ولكن أبا طالب قال له برفق إنه إن أعلن إسلامه فلن يكون ذلك إلا إرضاء له. وقال إنه سوف يموت كما عاش على دين آبائه. وفي اللحظة الأخيرة، لاحظ العباس أن شفتى الرجل المحتضر تتحركان وأخبر محمداً أنه كان فيما يبدو يقرأ الشهادة. ولكن محمداً هز رأسه، إذ كان يعرف أن أبا طالب لم يدخل الإسلام.

كان أبو لهب هو رئيس بنى هاشم الجديد، وكان ذلك أمراً بالغ الخطورة لمحمد، ولكن أبا لهب قدم له في البداية قدراً من الحماية. وكان ذلك أمراً متوقفاً منه باعتباره الرئيس الجديد، ولكن تلك الحماية لم تكن على نفس المستوى من الفاعلية التي تميزت بها حماية أبي طالب، لأن الجميع كانوا يعلمون أنه كان يقدمها مرغماً ومن ثم استغلوا ما أصاب محمداً من ضعف جانب، وبدأ جيرانه يلعبون الأعيب باللغة القبيح برحم الشاة، فكانوا يطرحونها عليه وهو يصلى بل إن أحد اللاهين طرحها ذات يوم في بومته إذا نصبت له، وهى القدر التى يطهو فيها الطعام. وبينما كان يسير ذات يوم فى المدينة اعترضه سقيه شاب من سفهاء قريش، نثر على رأسه تراباً، فلما عاد الرسول ودخل بيته والشراب على رأسه، قامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى، وهو يقول لها: «لا تبكى يا بنية، فإن الله مانع أباك»، وكان يقول بين ذلك: «ما نالت منى قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»^(١).

وقد يكون الضعف الذى أصاب محمداً قد أثر فى موقف المسلمين الآخرين، فقد أدى الحصار المضروب عليهم إلى أن تكبد أبو بكر خسارة اقتربت به من الإفلاس إذ انخفض رأسماله من ٤٠٠٠٠ درهم إلى ٥٠٠٠ درهم. وكان يعيش فى حى بنى جمح، وكانت علاقته قد ساءت منذ أن اعتنق الإسلام برئيس العشيرة، وكان هرماً بديناً يدعى أمية بن خلف. وكان أمية يحب أن يعرض العبد المسلم الذى يملكه، واسمه بلال، لحر الشمس

اللافح في الفترة الأولى لاضطهاد المسلمين، لكنه شعر الآن أنه يستطيع أن يفعل الفعلة نفسها بأبي بكر وهو التاجر المجل، ومن ثم ربطه هو وابن عمه الذي كان يصغره في السن، واسمه طلحة، في قيد واحد وتركهما يكتبان بالشمس الحارقة في ذلك الوضع المشين. وكان ذلك دليلاً على أن عشيرة تيم التي يتيمان إليها لم تعد على استعداد بل لم تعد لديها القدرة على حماية أبي بكر، ومن ثم أدرك أنه لم يعد له مستقبل في مكة. وهكذا غادر المدينة، بعد موافقة النبي محمد، وانطلق ليلحق بالمهاجرين في الحبشة. ولكنه التقى في الطريق مع ابن الدغنة^(*)، زعيم مجموعة صغيرة من القبائل الرّحل (التي كانت تسمى الأحاييش) والتي كانت من حلفاء قريش. ودُعر ابن الدغنة حين سمع أن أبا بكر قد اضطر للخروج من مكة، شبه طريد، واقترح عليه العودة معه على الفور، قائلاً إنه سوف يتولى حمايته بنفسه. ووافق أبو بكر مسروراً، وكان على قريش في حرصها على إرضاء ابن الدغنة أن تقبل الوضع الجديد، ولو أنها طلبت من البدوي أن يضمن أن أبا بكر سوف يمتنع عن الصلاة أو قراءة القرآن علناً، وقالت قريش إن أبا بكر يمتنع بشخصية ساحرة والأرجح أنه سوف يفتن الشباب ويصرفهم عن دين آبائهم. وقبل ابن الدغنة هذه الشروط ووعده أبو بكر ألا يؤدي الصلاة إلا في منزله بعيداً عن العيون.

ولكن نقرأ آخر كان يرفض التكتّم. وكان منهم عثمان بن مظعون^(**)، وكان زاهداً من بني مخزوم، وكان يمتنع بالجوار، أي الحماية، التي يوفرها له الوليد بن المغيرة، وكانت تكفل له القوة والمنعة، فقال إنه «نقص» في نفسه أن يغدو آمناً و«أهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبي»،

(*) تكرر وروده في النص الإنجليزي "Ibn Dughumna"، والصواب ما أثبتناه (المحرر).

(**) ورد اللفظ خطأ في النص الإنجليزي "Ma'zum" .. (المحرر).

ومن ثم ذهب إلى الوليد وأعلن أنه «يرد إليه جواره»، مما أصاب الرجل الهرم بحيرة واضحة. وبدا له أنها فرصة رائعة للتكفير عن نفسه طائماً مختاراً، ولكن ذلك كان أقرب إلى الورع المسيحي منه إلى التقوى الإسلامية. ففي أيام اضطهاد الرومان للمسيحيين كان بعض المتحمسين لدينهم يكشفون عن عقيدتهم طوعاً للسلطات، رغبة منهم في الاستشهاد، ولكن محمداً لم يكن يرضى بمثل ذلك التطرف. بل إن ذلك لم يكن يتفق مع التقاليد العربية، فالحياة في بلاد العرب كانت شاقة وعيرة دون التعرض للمزيد من الأخطار والمعاناة. وبعد أيام معدودة حضر عثمان بن مظعون مجلس إنشاد للشعر الذي يلقيه لييد بن ربيعة، وكان أكبر شعراء عصره. وكانت قريش تشعر أن زيارة لييد لبلدهم تمثل تكريماً وتشريفاً لها، ومن ثم هالهم ما فعل عثمان مع الشاعر، فعندما أنشد لييد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطلٌ

قال عثمان: «صدقت» ولكنه عندما أكمل البيت قائلاً:

وكل نعيم لا محالة زائلٌ

صاح عثمان: «كذبت! نعيم الجنة لا يزول»، وكان ذلك سلوكاً لا يُغتفر إزاء ضيف مُكرَّم، فأحس لييد بأنه قد أهين إهانة بالغة، فقال: «يا معشر قريش! والله ما كان يُؤذَى جليسُكم! فمتى حدث هذا فيكم؟» فقال رجل من القوم: «إن هذا سفيه في سفهاء معه قد فارقوا ديننا، فلا تَجِدَنَّ في نفسك من قوله»، ولكن عثمان واصل إهانته، فقام ذلك الرجل فلطم عينه فحَصَّرَها، وكان الوليد بن المغيرة شيخاً مهذباً ولا بد أنه كان يشهد ما يجري بأسى وأسف، فقال: «أما والله يابن أخي، كانت عينك عما أصابها لغنيَّة، لقد كنت في ذمة منيعة». ولكن عثمان أدار لهم خده الآخر بروح التحدى، قائلاً: «إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله»^(٢). وقد حرص محمد على التبرؤ من تلك الحادثة التي يمجُّها الذوق السليم، ولم

يكن ليوافق على انتهاك مبادئ المجاملة على هذا النحو، ولا بد أنه قد أحس أن آخر ما كان يحتاج إليه هو ذلك اللون من الاستفزاز.

ثم وقعت الأزمة. إذ حفز أبو جهل أبا لهب على أن يسأل محمداً إن كان أبوه عبد المطلب، الذي كان يحب محمداً ويعتز به اعتزازاً شديداً في طفولته، قد دخل النار. كان السؤال خدعة، إذ كان محمد يقول بما يقول المذهب المسيحي اليهودي من أنه لا نجاء إلا لمن اعتنق الإيمان الصحيح. ولم تكن لديه إجابات جاهزة للتهرب من مثل تلك الأزمة، وهي الإجابات المتحررة اللطيفة التي ابتدعها أصحاب التوحيد في السنوات الأخيرة. فإذا قال محمد إن الوثنية القديمة تستطيع أن تخلص رجلاً مثل عبد المطلب وتنجيه من النار، فسوف يكون رد قريش أنه من الطبيعي في هذه الحال ألا تكون في حاجة إلى الغائها. أما إذا أقر بأن عبد المطلب لن ينجو من النار، فمن المحتمل أن ينزع أبو لهب حمايته عنه بعد أن أهان ذكرى أحد الأسلاف الذين يتمتعون بالحب والإعزاز.

كان على محمد أن يجد سنداً جديداً يحميه، وبلغ به اليأس أن حاول أن يجد هذا السند في الطائف، مدينة اللات. وكانت الطائف بلدة تجارية مثل مكة، وإن لم تبلغ ما بلغته مكة من نجاح، ولكنها كانت تقع في منطقة أكثر خصباً من بلاد العرب، ولا بد أن محمداً قد مر في طريقه إلى المدينة التي تحيط بها أسوارها على الجبل، بحدائق غناء، وبساتين لقاء وحقول حنطة جميلة. وكان كثيرون من أبناء عشيرة عبد شمس، ومن بني هاشم - عشيرة محمد نفسه - يملكون مساكن يقضون الصيف فيها في الطائف، ومن الجائز أن محمداً كان له بعض المعارف في المدينة. ولكن المحاولة كانت تكتنفها الأخطار، لأن بني ثقيف، الذين كانوا يتولون الرصاية على المعبد القديم، لا بد أن شعروا بإهانة بالغة حين يهاجم محمد عبادة اللات. وقام محمد بزيارة ثلاثة إخوة في المدينة وطلب منهم أن يقبلوا دينه ويجيروه، ولكنه لقي

منهم الصدود، بل لقي جفاءً مهيناً. بل لقد بلغ بهم الحق على محمد الذي تجاسر على اقتراح ما اقترح، أن أمروا عبيدهم بتعقبه والسياح به في الطرقات.

وتفادياً لعبث الغوغاء، لجأ محمد إلى بستان يحتفى به، وكان مالكا البستان، وهما عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة بن ربيعة، جالسين فيه وقد شاهدا ما لقي من سفهاء أهل الطائف. ومع أنهما كانا في طبيعة معارضى محمد في مكة، فقد كانا من أصحاب العدل والإنصاف وساءهما أن يريا أحد أبناء قريش وهو يفرّ من السفهاء هذا الفرار المهين. وأرسلا إليه عبداً صغيراً يطبق فيه قطف من العنب. وكان محمد وهو قابع في البستان يحس أنه قد استفد كل طاقاته، ولا بد أنه افتقد خديجة واشتاق إليها شوقاً جارفاً في تلك اللحظة، فكان ما يؤله الآن هو الألم الذي طالما نجحت في مداواته، ولا بد أن أحس أنه في ميس الحاجة إلى مشورتها ونصحها. ولقد كان من عادة العرب أن «يستيزوا» (أى أن يلجئوا ويعتصموا) بأحد الأرباب أو أبناء الجن عندما تلمّ بهم مُلّمة، ولكن محمداً الآن استعاذ بالله قائلاً:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلت؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»^(٤) (ابن هشام - ص ٣٨٥ و ٣٨٦).

ومثل تلك الرواية الدقيقة للحالة النفسية التي انتابت محمداً غير مألوفة في سيرة ابن إسحق، مما يُستَمّ منه أنها كانت تمثل أزمة في تطوره الروحي،

إذ لم يعد يعتمد على الصلحة البشرية، وكان عليه أن يركن إلى عقيدته فلا رب ولا أمان ولا «مجبر» إلا الله.

وقد استجاب الله دعاءه، على الفور فيما يبدو، حين أرسل إليه «آية» تتمثل في عداس، العبد الصغير، حاملاً طبقة فيه قطف العنب. وكان عداس نصرانياً من مدينة نينوى في العراق الحديث، وقد دهش عندما رأى ذلك العربي يبارك الطبق «باسم الله» عندما وضع فيه يده. ودهش محمد كذلك وفرح عندما علم أن عداساً من بلدة النبي يونس بن متى، وقال لعداس إنه هو أيضاً نبيّ ومن ثم فهو أخّ ليونس. وبلغ التأثير بعداس مبلغه فأكبَّ يقبل رأس محمد ويديه ورجليه، مما أزعج عتبة وشيبة اللذين كانا يرقبان ما يحدث، وكان ذلك مثلاً آخر على قوة تأثير محمد الغامضة في الشباب. ولكن محمداً شعر بأن عزله قد انحسرت بعد ذلك الاتصال مع واحد من أهل الكتاب، وبعد أن ذكّرت بالثاس جميعاً خارج بلاد العرب ممن يستطيعون فهم دعوى نبوته حتى لو لم يستطع ذلك عرب الحجاز. وقيل إنه لقي المزيد من العزاء والسلوى وهو في طريق العودة إلى مكة حين استمع إليه نفر من الجن وهو يقرأ القرآن، فبهروهم جماله^(٥).

ولكن «الاستعاذة» أو الاستجارة بالله لم يكن معناها أن محمداً كان قادراً على الاستغناء عن حماية البشر، فالقرآن يقول بوضوح وجلاء إن على المسلمين أن يبذلوا كل جهد بشريّ ممكن لرعاية أنفسهم، وألا يتواكلوا تاركين كل شيء لله، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٦) (الرعد: ١١). وهذه آية يجب المسلمون المشتغلون بالكفاح السياسي اليوم أن يستشهدوا بها. وقبل أن يدخل محمد مكة أرسل إلى ثلاثة من رؤساء العشائر الأخرى يعرض عليهم التحالف معه، إذ إن الخطر الذي يواجهه في مكة كان سيزداد حتماً، حين يبلغ قريشاً أنه على استعداد للهجرة إلى الطائف، ورفض التحالف اثنان من الرؤساء الذين خاطبهم، وهما الأخنس

ابن شريق الزهرى، وسهيل بن عمرو العامرى، لأسباب تتعلق بمبادئ الحياة القبلية^(٥)، ولكن الثالث واسمه مُطعم^(٥)، شيخ بنى نوفل، وكان قد كافح لرفع الحصار، أعلن قبوله لإجارة محمد ومن ثم تمكن النبى من دخول مكة. ولكن هذا الحل لم يكن يمكن أن يصبح حلاً طويل الأجل، فبدأ محمد فى نحو تلك الأونة فى الدعوة لدينه بين حجاج البدو فى مواسم الحج السنوية، أملاً أن يجد مجيراً دائماً بينهم. أى أنه كان قد بدأ فى توسيع رسالته لشرها بين غير أهل مكة من العرب. ولكن البو كانوا فى البداية مُعرضين، بل أظهروا العداء والميل إلى إهانة محمد، ولم يندُ أنهم على استعداد للدخول فى دين محمد. وكانت تلك أياماً كئيبة، ولكن محمداً - ربما بسبب اضطراره إلى ترك آماله القديمة فى العرب وربما بسبب إحساسه بأنه قد استفد طاقته البشرية - تعرض لأعظم تجربة دينية فى حياته، وكان ذلك فى عام ٦٢٠.

كان محمد فى زيارة ابنة عمه أم هانئ، أخت على وجعفر، ولما كانت تقيم بالقرب من الكعبة، نهض فى منتصف الليل وذهب لقراءة القرآن هناك. ثم قرر أنخر الأمر أن يغفو قليلاً فى الحجر، وهى منطقة غير مفتوحة فى الشمال للغربى من البيت العتيق. ثم شعر بجبريل وهو يوقظه ويرفعه على ظهر جواد سماوى اسمه البراق، ويطير به فيما يشبه المعجزة إلى القدس، وهى التى يصفها القرآن بأنها المسجد الأقصى^(٨). وبعد هذا الإسراء (أى رحلة الليل) نزل محمد وجبريل على جبل المبد حيث حياهما إبراهيم وموسى وعيسى ورهط من الأنبياء الآخرين. وصلى الجميع معاً، وأعطوا محمداً ثلاث كسوس، فى إحداها ماء، وفى الأخرى لبن وفى الثالثة خمر. واختار محمد أن يشرب اللبن، وكان ذلك رمزاً للطريق الوسط الذى حاول

(٥) وردت فى النص الإنجليزى خطأ "Mu'tim"، وهو مُطعمُ بن عدى بن نوفل. (المحرور).

الإسلام أن يسير فيه بين التطرف في الزهد وبين مذهب اللذة. وبعد ذلك صعد في المعراج (أى السُّم) مع جبريل إلى السماء الأولى من السماوات السبع، ومن ثم بدأ صعوده إلى عرش الله. وكان في كل مرحلة يرى نبياً من الأنبياء العظام، إذ كان آدم يرأس السماء الدنيا، حيث عرضت على محمد رؤيا الجحيم، وكان المسيح ويحيى (يوحنا المعمدان) في السماء الثانية، ويوسف في الثالثة، وإدريس في الرابعة، وهارون وموسى في الخامسة والسادسة، وكان إبراهيم، أخيراً، في السماء السابعة على أعتاب القللك المقدس.

ويترك ابن إسحق تلك الرؤيا العلوية دون إيضاح، احتراماً لها وتبجيلاً، وإن كان يستشهد بحديث نبوي يقدم سبباً علمياً لتلك التجربة ولو أن هذه التجربة كانت - فيما يبدو - ذات طابع فردي، أى أنها كانت خاصة بمحمد دون سواه، لأنها لم تتضمن تنزيل آيات قرآنية. وعندما وصل محمد إلى العرش، قال الله لمحمد إن على المسلمين أن يؤدوا خمسين صلاة في اليوم، ولكن موسى أخبره وهو في طريق العودة أن يرجع ويحاول تخفيض العدد. وتكرر ذلك حتى انخفض عدد الصلوات المفروضة يومياً على المسلمين إلى خمس صلوات، وكان محمد يرى أنها كانت أكثر مما ينبغي وإن كان قد أبدى استحياؤه من طلب تخفيض آخر. وقد التزم المسلمون بعد وفاة محمد بالصلوات الخمس اليومية، وبدل هذا الجزء من السيرة على أن الصلاة لم يكن المقصود بها أن تكون عبثاً ينوء به كاهل المؤمن، بل أن تكون عبادة تتميز بالاعتدال وأن تكون في طوق كل فرد^(٩).

وكانت لهذه التجربة الدينية أهميتها البالغة في تنمية الطابع الروحي للإسلام. ويحتفل المسلمون بذكرها في كل عام يوم ٢٧ رجب، وهو الشهر السابع من الشهور الهجرية (القمرية) وطالما كتب متصوفة المسلمين وفلاسفتهم وشعراهم تأملاتهم في مغزاها. بل لقد دخلت هذه التجربة إلى التقاليد

الغريبة لأن روايات المسلمين عن المعراج، أى صعود محمد إلى السماء، أثرت في رواية دانتى للرحلة الخيالية في الجحيم والمطهر والجنة في الكوميديا الإلهية، ولو أن دانتى، بسبب الانقسام النفسى الذى اتسم به الغرب، قد وضع محمداً، كما سبق أن أوضحنا، في الدرك الأسفل من النار. وقد أبدى المتصوفة اهتماماً بالغاً بهذه التجربة، وكانوا يعتقدون أن الرؤيا العلوية التى رآها محمد قد أشار إليها القرآن فى سورة النجم:

﴿ولقد رآه نزلة أخرى، عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، إذ يغشى السدرة ما يغشى، ما زاغ البصر وما طغى، لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ (١٠) (١٣ - ١٨).

وسدرة المنتهى ترمز هنا، مثلما ترمز فى التقاليد الهندوسية إلى الحد الأقصى للمعرفة الإنسانية، ويقول القرآن بوضوح وجلاء إن محمداً رأى «آية» واحدة فقط من آيات ربه، ولم ير الله نفسه، وكان المتصوفة المتأخرون يؤكدون المفارقة الكامنة فى هذه الرؤيا، إذ رأى محمد ولم ير - فى الوقت نفسه - الذات الإلهية^(١١).

ويصور الصوفيون محمداً هنا فى صورة البطل الذى اشتق طريقاً جديداً إلى الله بهذه التجربة الفريدة، ولو أنها تُشبه تجارب المتصوفة الآخرين فى تقاليد أديان تفصل بينها مسافات شاسعة. ففى ما كتبه الشاعر الفارسى العظيم فرید الدين العطار فى القرن الثالث عشر، نجد أننا نقترّب كثيراً على المستوى الروحى من «يوحنا الصليب» الذى كان يؤكد أهمية ترك جميع المفاهيم والتجارب البشرية والتخلّى عنها، أى تجاوز ما يصفه القرآن بأنه سدرة المنتهى، بمعنى حدود المعرفة البشرية المعتادة. ويؤكد العطار أن محمداً اضطر فى النهاية إلى أن يترك الجميع ويمضى وحده، بل إن جبريل نفسه لم يستطع أن يصطحب النبى فى المرحلة الأخيرة من رحلته. فبعد أن تجاوز محمد مدارك الحواس المعتادة، وبعد أن تجاوز المنطق والعقل فى هذه الرحلة، وجد

نفسه في مجال تجربة جديدة، ولو أنه كان عليه أيضاً أن يبدى استعداداً للتخلي عن نفسه أيضاً:

سمع دعوة، رسالة من الصديق،

دعوة قادمة من جوهر الكل، تقول:

«اترك النفس والجسم يا أيها الفاني

وادخل الآن، يا مقصدي وغايتي،

«ولتَرَّ جوهرى وجهاً لوجه يا صديقي!»

غلبته الرهبة ففقد النطق وفقد نفسه -

كان محمداً لا يعرف محمداً هنا

ولا يرى نفسه، بل كان يرى نفس النفوس

وجه الذي صنع الكون^(١٢).

إنها تجربة تشترك فيها جميع التقاليد الدينية الكبرى، وهي تعبير عن العقيدة القائلة بأنه من المحال على الإنسان أن يرى الله ويظل في قيد الحياة.

ولكن تجربة الفناء بالنسبة لذاته، ومواجهة تجربة العدم، بعثت محمداً إلى مستوى رفيع سام من الوجود. ولقد تمكن فيما بعد أن يسترجع هذه التجربة بحيث يوسع من نطاق قدرة البشر على الإحساس بالقداسة. وأصبح المعراج نموذجاً للنسبة الصوفية في الإسلام، وأصبح الصوفيون يتحدثون دائماً عن الفناء في الله، وهو الذي يعقبه البقاء والإحساس الأرقى والأرفع بتحقيق الذات.

وكان بعض المسلمين وما يزالون يصرون دائماً على أن محمداً قام برحلته إلى عرش الله بجسده، ولكن ابن إسحق يورد حديثاً لعائشة تقول فيه إن الإسراء والمعراج كانتا تجربتين روحيتين محضتين (ولكن الله أسرى بروحه - ص ٣٦٩) ومهما يكن التفسير الذي نختاره لها، فإن التجربة الدينية حقيقة من حقائق الحياة الإنسانية، وهي تتميز بالتشابه الكبير في جميع التقاليد.

ويزعم البوذيون أن مثل ذلك الإحساس بالملق، والامتداد الشاسع للوحى، ما هو إلا حالة طبيعية محضة، وليس نتيجة اللقاء مع «الأخر». ويبدو أن الوعى الإنسانى، عندما يتعرض للضغط فيصل إلى أقصى حد ممكن له، يصور ذلك تصويراً رمزياً، ويشبه ذلك، وإن اختلف السياق اختلافاً كاملاً، الضغط الذى يتعرض له البدن عندما يصل الإنسان إلى حافة الموت مثلاً فيتصور أو يتوهم أنه يسير فى ممر طويل، وأنه يقابل عند الباب شخصاً يأمره بالرجوع وهلم جراً. ويتمتع الرجال والنساء، فى جميع الأديان، بموهبة خاصة تمكنهم من مكابدة هذه التجربة، كما أنهم يقومون بتنمية هذه الموهبة من خلال تدريبات معينة وحيل خاصة تشابهه هى الأخرى تشابهاً كبيراً فيما بينها. وتجربة المعراج التى وصفها الكُتَّابُ المسلمون تشابه مع تجربة «تصوف العرش» فى التقاليد اليهودية، التى شاعت من القرن الثانى حتى القرن العاشر للميلاد. ويقوم الموهوبون بإعداد أنفسهم لتخليق الصوفى والرحلة إلى عرش الله من خلال تدريبات خاصة، إذ يصومون مثلاً، ويقرءون أوراداً معينة تولد لديهم حالة التلقى المنشودة، كما يلجئون إلى بعض الأساليب البدنية. ويبدو أنهم كثيراً ما يضعون رءوسهم بين رُكبتهم، على نحو ما ذكرته بعض الروايات التاريخية الإسلامية عن محمد. وكانت تدريبات النفس ذات أهمية كبرى فى التقاليد الأخرى. وكانوا بعد ذلك يشعرون بأنهم يبدءون رحلة صعود تكتنفها المخاطر إلى عرش الله، وكانوا، شأنهم فى ذلك شأن المسلمين، يصفون الرؤيا العلوية القصوى بأساليب تقوم على المفارقة، وتؤكد أنها فى جوهرها تستعصى على الوصف والتعبير. وكان المتصوفة فى إطار هذه التقاليد يعتبرون مؤسسيها من الأبطال الذين اكتشفوا طريقاً إلى الله، وتعرضوا لمخاطر شخصية فى سبيل ذلك.

ويعض جوانب الإسراء والمعراج تشبه التأملات الصوفية التى يمر بها الإنسان عند تحوُّله، ومكابدته ألم التحول من أسلوب حياة معين إلى أسلوب

آخر. وهى تشابه تشابهاً غامضاً مع التجربة التى مرت بها راهبة شابة اسمها «بيريتوا»، وهى من الشهداء المسيحيين الذين لاقوا حتفهم فى قرطاجنة فى أثناء اضطهاد الإمبراطور سيفيروس لهم، عام ٢٠٣، ويعتقد معظم الباحثين أن الروايات الواردة فى كتاب «أعمال بيريتوا وفليكيتاس» الذى قام بتحقيقه ونشره أحد المحررين بعد وفاتها بقليل، صحيحة، وتقول إحدى هذه الروايات إن الراهبة كانت فى السجن تنتظر محاكمتها، فألح أصحابها عليها أن تدعو الله أن يهبها رؤيا تدلهم على ما إذا كانوا سوف يموتون حقاً أم لا. وقد طلبوا ذلك من بيريتوا بسبب ما عرف عنها من مواهب صوفية خاصة، فوعدهم بإجابتهم إلى طلبهم فى اليوم التالى. وقد تكون قد هيات نفسها بصورة لا شعورية لتلقى الرؤيا، مثلما يفعل اليوم مرضى التحليل النفسى الذين يقدمون أحلاماً ذات دلالات مهمة لأطبائهم^(١٣). وبالفعل، رأت بيريتوا تلك الليلة فى منامها سلماً تنتهى درجاته فى السماء (معراج محمد)، وكان الصعود محفوظاً بمخاطر جمّة، مما جعلها تخشى فى لحظة معينة ألا تقوى على الوصول إلى آخره، ولكن رفاقها شجعوها على المشاورة حتى وجدت نفسها آخر الأمر فى حديقة كبيرة جميلة. وكان فيها أحد الرعاة، وكان يحلب شاةً له، ومن ثم قدم لها بعض اللبن المخثر، وعندما أفاقت بيريتوا من نومها وجدت أنها لا تزال تمضغ شيئاً حلو المذاق ويصعب تحديد كنهه. وتأكد لها ساعتها أنها سوف تموت، وحثت أصدقاءها فى السجن على «أن يطرحوا كل أمل فى الحياة الدنيا»^(١٤). ورأت بعد ذلك أحلاماً كثيرة أخرى نقلتها إلى رفاقها، وهى تدل على أنها قد بدأت تتقبل، لا شعورياً، موتها الوشيك، وكانت قد بدأت تنهياً نفسياً لا للخلود فحسب بل للاستشهاد أيضاً، وهو ما كان بمثابة التجربة الدينية القصوى فى الأيام الأولى للمسيحية. ولكن محمداً لم يكن يوشك أن يموت، بل كان يوشك أن يبدأ مرحلة جديدة من مراحل بعثته، وهى مرحلة تتطلب قطع الوشائج التى

تربطه إلى الماضي وكان الماضي نفسه نوعاً من الموت. ولكن رؤياه كانت تتضمن العزاء والسلوى، فهو لم يتناول اللبن، مثلما فعلت ييربثوا من الراعى الطيب بل من الأنبياء العظام الذين سبقوه فى رؤيا تعبر عن إحساسه بالاستمرار والتواصل مع الكتب المنزلة السابقة.

ويشبه المعراج نفسه تجربة الدخول فى سلك كهنوت الشامانيين، والتي يقول الباحث الأمريكى جوزيف كاميلب إنها ما تزال تحدث فى شتى أرجاء شمالى آسيا وأمريكا من سيبريا حتى تيرا ديل فويخو، وهو يوضح ذلك قائلاً: إن الكاهن الشامانى يمر فى شبابه المبكر بتجربة نفسية عارمة تتحول نفسه على أثرها إلى الاستبطان الكامل. وهى نوع من الانشقاق الفصامى إذ يفتح اللاوعى كله فيتلع الشامانى ويستغرقه^(١٥). ويلجأ رجال الغابات إلى توليد هذه التجربة عن طريق الرقص مدة تطول فتمعن فى الطول. وقد وصف أحد الشامانيين ما حدث عندما وصل إلى حالة الغيوبة وأغشى عليه قائلاً:

«عندما أخرج أجد أننى قد بدأت الصعود من قبل، وأنا أتسلق خيوطاً، تلك الخيوط التى تمتد هنالك فى الجنوب، أتسلق خيطاً ثم أتركه، ثم أتسلق خيطاً آخر، ثم أتركه وأتسلق خيطاً آخر... وعندما تصل إلى مكان الله تقوم بتصغير ذاتك. لقد أصبحت ضيلاً، وأنت تأتى ضيلاً إلى مكان الله. وتعمل ما يجب عليك أن تفعله هناك، ثم ترجع إلى حيث يوجد الجميع. ثم تعود آخر الأمر وتدخل جسدك مرة أخرى»^(١٦).

لقد مر بصورة من صور الفناء الذاتى وتغلغل إلى بقاع لا يستطيع الآخرون أن يرتادوها، وهو يعود بأنبياء من منطقة الصور الأسطورية أى من مقر القوة والسلطان.

وتدل تجربة الإسراء والمعراج بالصورة التى رواها الرواة لنا على أن محمداً كان قد بدأ يرى أنه ربما أصبح أكثر من مجرد المنذر المتواضع لقريش، ومع

ذلك فقد كان لا يزال يبحث عن مجير من أبناء البشر. كان من عادته في أثناء الحج أن يحرص على زيارة الحجاج أثناء مقامهم فترة الثلاثة أيام المقررة في وادي منى، متنقلاً بين الخيام. وهكذا التقى بمجموعة من ستة من العرب الوثنيين من مدينة يشرب، في موسم الحج عام ٦٢٠. وكانوا قد ضربوا خيامهم عند ماء العقبة في أقرب جنبات ذلك الوادي إلى مكة. وعندما جلس إليهم محمد وحدثهم عن رسالته وقرأ عليهم القرآن، لم يجد عداءً ولا صدوداً بل وجد أن العرب يُصغون إليه ويفرحون بما أنزل إليه. وعندما فرغ من حديثه التفت العرب وقالوا لبعضهم بعضاً إن هذا لا شك هو النبي الذي ما نئى يهود يشرب يتحدثون عنه. وكان من دأب اليهود أن يغيظوا جيرانهم الوثنيين بحكايات عن نبي يأتي بالهلاك لهم، فيفتنون مثلما فئيت قبيلتنا عاد وإرم وهما من القبائل العربية القديمة. فإذا كان محمد هو ذلك النبي، فمن المهم أن يمنعوا اليهود من الوصول إليه قبلهم^(٥) وأدركوا أيضاً على الفور أن محمداً يستطيع أن يحل مشاكل يشرب، وهي المشاكل التي كانت فيما يبدو تستعصى على الحل.

وفي تلك الأيام لم تكن يشرب قد أصبحت بعد مدينة مثل مكة. كانت واحة، أو جزيرة خضراء تبلغ مساحتها نحو عشرين ميلاً مربعاً، تحيطها جبال بركانية، وتلال صخرية، وأراض حجرية تتعذر زراعتها. لم تكن مركزاً تجارياً بل مستوطنة زراعية تعيش فيها شتى المجموعات القبلية متلاصقة متناحرة، يودها العداء القاتل، في شتى قرأها ومزارعها. وكان المستوطنون اليهود الرواد أول من استزرع هذه المنطقة، ولو أننا لا نعرف من أين أتى هؤلاء اليهود. وربما كانوا لاجئين من فلسطين فرّوا إلى بلاد العرب بعد أن قمع الرومان ثورتهم عام ١٣٥ للميلاد، وربما كانوا من القبائل العربية التي اعتنقت

(٥) قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلموا والله إنه النبي الذي توعدكم به يهود، فلا تستنكم إليه (المترجم).

اليهودية. وهناك احتمال ثالث وهو أن يكون بعض العرب من غير التميمين إلى قبائل بعينها قد ارتبطوا بمجموعة من العبرانيين واعتنقوا دينهم. وفي مطلع القرن السابع كان في يثرب ثلاث قبائل يهودية رئيسية، وهم بنو قريظة، وبنو النضير، وقبيلة أخرى أصغر وأقل أهمية وهي قبيلة بنى قينقاع. وحرص اليهود على هوية دينية منفصلة، ولكنه - باستثناء ذلك - كان من المحال تقريباً أن يميز المرء بينهم وبين جيرانهم من العرب الوثنيين، إذ كانت أسماءهم عربية لا عبرانية، وكانوا يراعون تقاليد النظام العربي القبلي، وكان التناحر فيما بينهم كثيراً ما يتسم بالمرارة والشدة التي اتسم بها عداؤهم لأى من القبائل العربية.

وكان بنو قبيلة قد هاجروا خلال القرن السادس من جنوب الجزيرة العربية واستقروا في الواحة جنباً إلى جنب مع اليهود. وتفرغ هؤلاء القادمون الجدد إلى فرعين من جذع واحد هما الأوس والخزرج، ومن ثم تحولوا إلى قبيلتين متميزتين، تتكون كل منهما من عشائر مختلفة. وكان الأوس والخزرج في البداية أضعف من اليهود، ولكنهم تمكنوا تدريجياً من اكتساب الأرض الخاصة بهم، وبناء قلاعهم الخاصة، وأصبحوا أقراناً ونظراء لهم. وفي مطلع القرن السابع كان الأوس والخزرج أقوى قليلاً من اليهود، ولكنهم بدءوا يحاربون بعضهم بعضاً.

كان التحول من حياة الترحال إلى الاستيطان سبباً في نشوب أزمة في يثرب، وكان الإحساس بها هنا أحد من الإحساس بالملال في مكة. لم تكن العادات القبلية التي أثبتت نجاحها في الشعاب والهضاب تناسب حياة الاستقرار، فكان الرُّحَّل في الصحراء يدافعون عن الأرض التي ورثوها عن أسلافهم دفاع الغيور العنيد، ولم يكن ذلك عسيراً عندما كانت المسافات الشاسعة تفصل بينهم، أما حين تكدسوا معاً في واحة صغيرة، تفرض على كل قبيلة أن تدافع بحماس عن أفدنتها الضئيلة، فقد انهيار النظام. وكانت

جماعة من الجماعات تقوم بغزو أرض الأعداء وفقاً للنظام الذي تبتت دعائمه على مر الزمن، وكان لا بد من الشار من كل غزوة. ودخلت قبائل يثرب تدريجياً في حلقة مفرغة من أعمال العنف، وكانت الحروب الدائمة مصدر خراب للبلاد، فهي تدمر المحاصيل وتقوض مصادر ثروة يثرب وقوتها. وتورطت القبائل اليهودية وازداد تورطها في الصراعات الدائرة، فكانت تحالف بأشكال متفاوتة مع الأوس أو مع الخزرج. وتجمد الموقف بحلول عام ٦١٧، فلم تتمكن أي مجموعة من فرض سيطرتها وتفوقها، وكان الصراع قد أنهك قوى الجانبين وحلفائهم. وبلغت الحرب الأهلية ذروتها في ذلك العام في معركة بعاث، وهي التي أحرز فيها الأوس انتصاراً اسمياً مع حلفائهم اليهود من بني النضير، دون أن يتمكنوا من استغلال انتصارهم وجنى ثماره الفعلية. وبدأ الجميع يدركون أن أمل يثرب الأوحده يتمثل في أن تخضع لسلطة عليا، على الرغم من استراية العرب الراسخة بالنظام الملكي. وكان عبد الله بن أبي، أحد رؤساء الخزرج، قد رفض القتال في موقعة بعاث لأنه كان يدرك أنها لا أمل فيها. ومن ثم اكتسب سمعة من يتمتع بالحياد إلى حد ما، وبدأ الناس ينظرون إليه باعتباره قادراً على أن يصبح ملكاً عليهم أو رئيساً أعلى لهم، وإن كان الكثيرون، بطبيعة الحال، غير مطمئنين إلى هذا الحل، فكان الأوس يعارضون بشدة تولية رجل من الخزرج عليهم، وتسليمه مقاليد السلطة العليا، وهذا مفهوم، كما كانت عشائر الخزرج الأقل قوة لا تريد لابن أبي أن تكون له اليد العليا.

وعندما عرض محمد نفسه على حجاج يثرب الستة خلال موسم الحج عام ٦٢٠، أدركوا على الفور أن نبي الله يمكن أن يكون رعيماً أكثر حياداً بكثير من ابن أبي. أما رسالة التوحيد التي أتى بها فلم تكن مصدر إزعاج لهم، فلقد عاشوا ردهاً طويلاً من الزمن جنباً إلى جنب مع اليهود حتى اعتادوا فكرة وجود إله واحد، وكانوا على أتم استعداد لخفض منزلة ربانهم

القديمة إلى مستوى الجن والملائكة ماداموا قد أحوا أنهم دون مستوى اليهود لأنهم لا يملكون كتاباً مقدساً خاصاً بهم، ولأنهم كانوا «قوماً لا يعلمون العلم»^(١٧)، ومن ثم أسعدهم سعادة بالغة أن يتلقوا دعوة محمد القائلة بأنه نبي للعرب وأنه قد أتى إليهم بقرآن عرّبي: وأسلموا لله على الفور، وراودتهم الآمال العريضة ليثرب إذ قالوا: «إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشرا ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فننقلم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبتك إليه من هنا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك»^(١٨) (ابن هشام - ٣٨٢). ووافقوا على أن يعودوا إلى محمد بالرد بعد عام واحد. وكان من بالغ الأهمية لمحمد أن يحظى بتأييد أوسع في تلك الواحة إذا كان يعتزم الانتقال إليها مع أصحابه. ولم يكن يتوقع أي متاعب مع اليهود لأنه كان يعتقد على الدوام أن رسالته كانت تتفق مع رسالتهم، ولكن هؤلاء الحجاج كانوا يتمنون إلى قبائل الخزرج الصغيرة، وكان لا بد أن يجتذبوا الأوس إلى دينهم، حتى يتمكن محمد من توحيد يثرب.

وكانت قضية المسلمين قد جنحت فيما يبدو للجمود عدة سنوات، ولكن التطورات الجديدة كانت تشر بإمكان كسر الجمود وتحسن الأوضاع. وكان محمد قد أجرى تعديلات كبيرة في أسرته إبان ذلك العام، إذ كان بحاجة إلى زوجة، وإلى وجود أنثى في حياته، وعرض عليه أن يتزوج سودة، ابنة عم سهيل رئيس بني عامر، وأرملة أخيه واسمه السكران، وكانت قد هاجرت هي والسكران إلى الحبشة في عام ٦١٦، ثم توفي السكران بعد عودتهما إلى مكة بقليل. ووافقت سودة على الزواج، وقام بتزويجها من النبي أحد إخوة سهيل وهو أبو حاطب بن عمرو.

وكان أبو بكر حريصاً كذلك على توثيق علاقته بمحمد، بعد أن أخلص له العمل والجهد سنوات طويلة مما كلفه نفقات كبيرة. ولم تكن عائشة قد

تجاوزت السادسة من عمرها في عام ٦٢٠، ولكنها كانت قد خُطبت من قبل إلى ابن مطعم، رئيس بني نوفل، المجير الجديد للنبي. ولكن مُطعماً كان على أتم استعداد لإلغاء الخطبة لأن زوجته كانت تخشى أن يعتق ابنهما الإسلام، ومن ثم تمت خطبة عائشة إلى محمد في حفل لم تحضره الفتاة الصغيرة. وقد روت بعد ذلك بسنوات عديدة ذكرياتها عن تلك الفترة، فقالت إنها أدركت لأول مرة منزلتها الجديدة عندما أوضحت لها أمها أنها لم يعد من المسموح لها أن تلعب في الطرقات مثل غيرها من الأطفال، بل كان عليها أن تدعو صديقاتها للعب معها في منزل الأسرة.

وقد أثار موضوع زوجات النبي تأملات كثيرة في الغرب، تسم بالبناءة والصفاقة، ويكثر من مشاعر الجسد التي فشل الكتاب في إخفائها، على نحو ما رأينا في الفصل الأول الذي بيّنت فيه أن محمداً كثيراً ما اتهم بالميل إلى الشهوة الجسدية. وقد فرض القرآن فيما بعد ألا يزيد عدد زوجات المسلم على أربع، ولو أن محمداً قد سمح له باعتباره نبياً بأكثر من ذلك. والواقع أن الاتصاف على زوجة واحدة لم يكن يعتبر من الأعراف المستحبة في بلاد العرب إلا من جانب قلة لا تذكر، ويعد سنوات كثيرة عندما أصبح محمد من سادة العرب العظماء، كانت زوجاته الكثيرات من دلالات منزلته الرفيعة. ويغلب أن يكون تعدد الزوجات هو العرف السائد في المجتمع القبلي، ولا يجد الكتاب المقدس غضاضة على الإطلاق في الحديث عن الإنجازات الجنسية للملك داود، أو الزوجات اللاتي لا يحصى عددهن للملك سليمان، ويعتبر عدد زوجات النبي محمد، بالقياس إلى زوجاتهما، ضئيلاً إلى درجة كبيرة. والواقع أنهما كانا يعيشان، مثل النبي محمد، في مجتمع يمر بفترة انتقالية من الحياة القبليّة إلى حياة المدينة. ولكن يخطئ من يظن أن محمداً كان ينعم بالملاذ في حديقة من المتع الدنيوية، بل إن كثرة زوجاته كانت أحياناً، على نحو ما سوف نرى، نعمة ونقمة معاً.

ويجب علينا وحسب أن نرصد أمرين، الأول أن اختيار سودة أو عائشة لم يكن يستند إلى المفاضن الجسدية لأى منهما. فلم تكن عائشة سوى طفلة صغيرة، وكانت سودة قد بلغت الثلاثين وتخطت مرحلة ربيع الشباب، بل بدأت تميل إلى السمنة. ونحن لا نكاد نسمع المزيد عنها، مما يدل على أن الزواج كان أقرب إلى لون من «الترتيبات» العملية منه إلى رواج يقوم على الحب. فكانت لازمة لرعاية أسرة محمد، وقد علت منزلتها كذلك، على الأقل بين المسلمين، عندما أصبحت زوجة للنبي. والثانى هو أن كلا من هاتين الزوجتين كانت لها أبعادها السياسية، إذ كان محمد يعقد أواصر قرابة ونسب ذات أهمية كبرى. فكان ما يزال يأمل أن يهدى الله سهيلاً، بسبب تدبئه العميق، والزواج بسودة جعله من أصحاب النبي. كما كان من المهم توثيق العلاقة مع أبى بكر، فإذا كان محمد قد شرع فى تكوين لون آخر من العشيرة، لا يستند فيه على القرابة بل على التمازج الفكرى، فإن رابطة الدم كانت ما تزال تعتبر بالغة الأهمية.

ولابد أن أبا بكر قد أسعده لإيجاد هذه الرابطة مع محمد، لأنه كان قد بدأ، فى نحو ذلك الوقت، يشعر بأنه قد أصبح معزولاً مرة أخرى فى مكة. كان قد بنى مسجداً صغيراً بجوار باب مسكنه، مما أثار سخط بنى جمح. ويقول ابن إسحق إنه كان «رجلاً رقيقاً، إذا قرأ القرآن استبكى، فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء، يعجبون لما يرون من هيئته»^(١٩). وعندما أجاره ابن الدغنة، اشترطت قريش ألا يؤدي الصلاة علناً، ومن ثم ذهب وفد إلى الرئيس البدوي وسأله فى استياء:

«يا ابن الدغنة! إنك لم تُجر هذا الرجل ليؤذينا! إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويكى. وكانت له هيئة ونحو، فنحن نتخوف على صيانتنا ونساننا وضعفتنا أن يقتهم. فإنه أمره أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء»^(٢٠) (ابن هشام - ٣٤٧).

ولكن أبا بكر رفض التنازل عن مسجده، وربما يكون قد أحس بأنه لن يستطيع المزيد من التنازلات، وأن فيما سبق له أن قدمه الكفاية. ومن ثم عاد يتعرض للإهانات، وألقى أحد السفهاء التراب عليه في الطرقات، وقال له رؤساء قريش إنه هو السبب فيما يحدث له.

وفي موسم الحج التالي عام ٦٢١ رجع المؤمنون السنة من يثرب إلى مكة، طبقاً للاتفاق، ومعهم سبعة آخرون، كان اثنان منهم من الأوس وقابلوا محمداً للمرة الثانية في وادي العقبة ويايعوه على أن يعبدوا الله وحده وأن يراعوا أوامره ونواهيه. وقال أحدهم فيما بعد:

«يايعنا رسول الله على أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى بيهتان نقتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف. فإن وفيتم فلکم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمرکم إلى الله عز وجل، إن شاء عذب وإن شاء غفر» (٢١) (ابن هشام - ٣٩٤).

وفي هذا الاجتماع الذي أصبح يعرف باسم «العقبة الأولى»، كان التأكيد على الدين أكبر من التأكيد على السياسة. كانت الوثنية القديمة قد عجزت عن حل الأزمة في يثرب، وكان الناس على استعداد لقبول مذهب فكري جديد. وكانت التكاليف الدينية التي قدمها محمد كفيلاً بغرس احترام الآخرين باعتبارهم أفراداً يتمتعون بحقوق ثابتة لا يمكن نزعها، وكان لا بد أن تحمل هذه الشريعة الأخلاقية الجديدة محل المثل الأعلى القديم الذي يتمثل في القبيلة، ويجعل الجماعة أهم من أفرادها. وكانت هذه النزعة الفردية الجديدة صالحة لنوع جديد من المجتمع، لأن من شأنها أن تساعد أهل يثرب على أن يدركوا أن مكسب أحد الأفراد لا يعني بالضرورة خسارة لغيره آخر، على نحو ما كان الحال عليه في الصحراء، حيث كانت ضرورات الحياة لا تكفي الجميع.

وعندما عاد الحجاج إلى يثرب أرسل معهم محمد أحد المسلمين الأكفاء المتمكنين من دينهم وهو مصعب بن عمير، بعد أن عاد من الحبشة، لتعليم

أهل الواحة وقراءة القرآن عليهم. وكانت الكراهية القبليّة قد استحكمت بين الأوس والخزرج حتى لم يعد يطبق أحد منهما أن يسمع أحد أبناء القبيلة المعادية وهو يقرأ القرآن، أو أن يؤمّ في الصلاة، وهكذا كان لا بد أن يقوم بالقراءة من لا يتسمى لأيهما ويتمتع من ثم بالحياذ. كان زعماء الأوس في البداية يضمرون عداً شديداً للسدين الجديد، وحدث ذات يوم أن سمع سعد بن معاذ، رئيس أحد العشائر الرئيسية للأوس، أن مصعباً كان يجلس علناً في حديقة تقع في أرض تلك العشيرة لتعليم أفرادها، فأفرغه ما سمع، ولكن مصعباً كان ضيفاً على ابن خالته أسعد بن زرارة، وكان من بين الستة الأوائل الذين اعتنقوا الإسلام، ومعنى ذلك أنه من غير اللائق أن يقدم سعد على إهانة الضيف المكي. ومن ثم أرسل أسيد بن حضير، الذي يليه في المنزلة داخل العشيرة، لإخراج مصعب من أرضه. وحمل أسيد حرته وانطلق إلى الحديقة، وعندما رأى الرجال قد تحلقوا حول مصعب، حريصين على متابعة حديثه، أرغى وأزيد وقال متشتماً: «ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا؟» (ابن هشام - ٣٩٦)، فأجاب مصعب: «اجلس واسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره»، ووافق أسيد وقال: «أنصفت»، ثم ركز حرته وجلس ليستمع إلى القرآن. وكالعادة، تمكّن جمال الكلام من اقتحام معاقله، ولاحظ أفراد عشيرته أن تعبير ملامح وجهه قد تغير تماماً فسادته السكينة وأشرق محياه، وبعد أن فرغ مصعب من قراءته قال أسيد: «ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟» فقبل له أن يقتل ويظهر ثوبه ثم يشهد شهادة الحق بأن لا إله إلا الله ويركع ركعتين. وعندما فعل أسيد ذلك انطلق مهرولاً إلى سعد.

وما إن لمح سعد أسيداً حتى علم من التعبير الذي يكسو وجهه أنه قد خذله، فقبض على حرته وهو يصيح مغضباً: «والله ما أراك أغيت شيئاً!» ثم خرج إلى الحديقة، وتكرر الشيء نفسه، إذ طلب إليه مصعب أن يجلس

ويستمع، فركز سعد حربته في الأرض، وعكّن منه جمال القرآن بدوره، وكان تحوله إلى اعتناق الإسلام حاسماً، إذ استدعى سعد أفراد العشيرة وسألهم عن سبب اختيارهم إياه رئيساً لهم، قائلاً: «كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً وأميننا نقيياً». ومن ثم أمرهم أن يضمروا ثقتهم فيه في هذا الأمر أيضاً، قائلاً: «فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله»^(٢٢) وكان من نتيجة ذلك أن آمنت العشيرة كلها بالإسلام دفعة واحدة. والواضح أن القصة قد تأثرت بالصياغة النمطية للرواة، واصطبغت بالطابع الرومانسي على مر السنين، ولكن سعداً أثبت في الواقع أنه من أكثر مسلمي يثرب إخلاصاً لدينه، ومن الأرجح أن إسلامه ترك انطباعاً قوياً على الذين كانوا يسعون للعثور على زعامة جديدة وعلى حل لمشكلاتهم التي كانت تبدو مستعصية.

ولم يلبث أن أسلم الكثيرون في كل أسرة تقريباً في الواحة، ولو أنه كان ما يزال هناك «جيب مقاومة» وثنية صغيرة في عشيرة الأوس، يستمد إلهامه من أبي قيس بن الأسلت، الذي كان شاعراً ورئيساً. وكان الشعراء دائماً ينهضون بدور حاسم في تحديد هوية القبيلة والتغنى بأمجادها، وكان بمقدورهم أن يدمروا سمعة أحد الأشخاص بنفس الفاعلية والإحكام اللذين تميز بهما أجهزة الإعلام اليوم. وكان يمكن أن تكون الدعاية الشعرية المعادية ذات أثر مدمر في بلاد العرب يضاهي الهزيمة العسكرية الكبرى، ويجب ألا تغفل عن هذه الحقيقة عند التعرض لعداء محمد للشعراء الذين كانوا يسخرون منه. وفي ذلك العام الانتقالي الذي مرت به يثرب، كان أبو قيس يحث العرب من أفراد عشيرته على أن يظلوا مخلصين للصورة العريضة الأصيلة لدين التوحيد، فلا يقبلوا القرآن بسبب ما ارتبط به من معانٍ دخيلة. ومن ثم كتب الآيات التالية، يتوجه فيها بالخطاب إلى الله، وكان أهل يثرب قد أدركوا من قبل أنه الإله الأوحيد:

أَرَبَ النَّاسِ أَشْيَاءَ أَلَمَّتْ
 أَرَبَ النَّاسِ أُمَّسَا إِنْ ضَلَّكُنَا
 فَلَوْلَا رَبُّنَا كُنَّا يَهُوداً
 وَلَوْلَا رَبُّنَا كُنَّا نَصَارَى
 وَلَكُنَّا خُلِقْنَا إِذْ خُلِقْنَا
 نَسُوقُ الْهَيْدَى تَرْسُفُ مُذْعَنَاتِ
 يَلْفُ الصَّعْبُ مِنْهَا بِالذَّلُولِ
 فَيَسِّرُنَا لِمَعْرُوفِ السَّبِيلِ
 وَمَا دِينُ الْيَهُودِ بِذِي شَكُولِ
 مَعَ الرَّهْبَانِ فِي جَبَلِ الْجَلِيلِ
 حَنِيْفًا دِينُنَا عَنْ كُلِّ جَيْلِ
 مُكَشَّفَةَ الْمَنَابِكِ فِي الْجُلُولِ (٢٣)

(ابن هشام - ص ٣٩٨)

ولا ينبغي أن ندهش لنظرة أبي قيس بن الأسلت إلى الدين المكي الجديد باعتباره ذا صلة بأهل الكتاب، وذلك لأن محمداً عمل منذ «العقبة الأولى» على إقامة بعض الروابط المهمة مع التقاليد اليهودية. وكان من الواضح أنه يحاول استعمال اليهود المقيمين في الواحة، ويبدو أنه كان يتطلع إلى العمل والصلاة مع أهل ذلك الكتاب القديم، بعد أن طالت فترة العزلة، فأمر مصعباً أن يعقد اجتماعاً خاصاً للمسلمين في عصر يوم الجمعة، في الوقت الذي يستعد فيه اليهود لشعائر يوم السبت، مما أوجد رابطة بين الصلاة الجديدة وبين الاحتفال اليهودي، مع الإبقاء على مسافة كافية تفصل بينهم. ثم أمر المسلمين بالصوم في يوم التكفير اليهودي (يوم كيبور) الذي كان يقع في العاشر من شهر تشرى بالتقويم اليهودي، ومن ثم كان صوم المسلمين يطلق عليه يوم عاشوراء، وهو اللفظ العربي عن الآرامية ليعنى «العاشر». كما أصبح على المسلمين أن يؤدوا الصلاة عند الظهر، مثل اليهود، بعد أن كانوا يؤدون الصلاة صباحاً ومساءً فقط، إلى جانب قيام الليل للتهجد. كما سُمح للمسلمين أيضاً بالزواج من اليهوديات وأكل طعام اليهود. ولكنهم لم يراعوا جميع قوانين الطعام اليهودية، بل صورة معدلة منها تشابه تشابهاً

عجيباً مع الصورة الواردة في «أعمال الرسل» إلى الامميين الذين يعتنقون المسيحية (٢٤٧).

وفوق ذلك كله أمر المسلمون الآن أن يُولوا وجوههم في الصلاة شطر بيت المقدس، مثلما كان اليهود والمسيحيون يفعلون. وقد أثبت إسراء محمد إلى القدس أن هذه المدينة المقدسة العريقة كانت تشغل مكانة أساسية في العقيدة الإسلامية أيضاً، وكان اعتماد القدس قبلة للمسلمين بمثابة تذكرة وتبيان للرابطة بين الدين الجديد والأديان السماوية السابقة. وأصبح المسلمون يولون وجوههم شطر القدس في الصلاة ثلاث مرات يومياً، ومن شأن الاتجاه الذي يأخذه الجسد أن يوحي بالتوجه الروحي الجديد وأن يُعلم المسلمين على أحد المستويات الأساسية أنهم كانوا يشاركون أهل الكتاب في أهدافهم.

وتقبل القرآن كذلك الاسم الآرامي الذي أطلقه اليهود على يثرب، وهو مدينتا وهو لا يعنى أكثر من «المدينة»، ومن ثم أصبحت الكلمة في العربية «المدينة». وكان محمد، أثناء بحثه عن وطن جديد لبعض أصحابه قبل ذلك بخمس سنوات، قد حاول إقامة الروابط مع المسيحيين المونوفيزيين في الحبشة، ولكن تلك المحاولة قد أصابها الإخفاق لأسباب لا نستطيع أن نفهمها الفهم الكامل. وكان محمد نفسه قد اكتشف الآن أنه من المحال عليه مواصلة العيش في مكة، ولكنه كان من المحال أيضاً على الرسول المرسل إلى العرب أن يغادر بلاد العرب. وكان أن حث المسلمين جميعاً على أن يهاجروا معه إلى الواحة التي أصبحت تسمى «المدينة»، وكان يناشد القبائل اليهودية المقيمة فيها أن تقدم له العون والمؤازرة.

(٥) «البرم أهل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم، المعصنات من الزونات والمعصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا أتيتوهن أجورهن محصين غير ساهمين ولا مستغنى أخذانه (الثلاثة - ١٥) وفي الكتاب المقدس: «لذلك أنا أرى أن لا ينقل على الراجمين إلى الله من الأمم، بل يرسل إليهم أن يمتنعوا عن تجمسات الأصنام والزنا والخنوق والدم» «فقد تمتعوا بما نهب للأصنام وعن الدم والخنوق والزنا التي إن حفظتم أنفسكم منها فعمما تفعلون، كونوا معالين» أعمال الرسل ١٩/١٥ -

وفى عام ٦٢٢ قام فريق ضخم من الحجاج بمغادرة المدينة إلى مكة فى موسم الحج، وكان بعضهم ما يزال وثنياً، ولكن ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين كانوا من المسلمين، وكانوا يمثلون أقوى الأسرات نفوذاً فى المدينة. ووقعت أثناء الرحلة حادثة ثبت فيما بعد أنها استطلعت الغيب بصورة تدعو للدهشة، إذ إن البراء بن معرور، أحد رؤساء الخزرج، اقترح على غيره من حجاج المسلمين برثة يشويها التردد أن يغيروا قبلتهم فى الصلاة أثناء موسم الحج. كان الجميع يحثون خطاهم جاهدين وقد يموا وجوههم شطر مكة، حيث بيت الله العتيق، أهم الأماكن المقدسة، وحيث كان معظمهم على وشك أن يقابلوا تبسيهم للمرة الأولى. وبدنا لهم أنه من غير اللائق أن يُديروا ظهورهم إلى مكة فى الصلاة حتى يواجهوا بيت المقدس. ورأى الآخرون أن البراء لم يكن مصيباً، لأن قبلة محمد، فى حدود ما يعرفون، كانت بيت المقدس، وكان ذلك سيباً كافياً لأن يُولوا وجوههم شطرها. ولكن البراء أصر على رأيه واتخذ من مكة قبلة له أثناء الرحلة وإن كان ما يزال قلقاً بعض الشيء، ومن ثم توجه فور وصوله إلى الكعبة لمقابلة محمد وسؤاله عن رأيه. ولكن إجابة محمد كانت غامضة إذ قال له: «كنت على قبلة لو صيرت عليها»^(٢٥) وإن كان الرسول استمر يولى وجهه شطر بيت المقدس فى الصلاة، وأطاعه البراء وحذا حذوه. وقد تذكر أبناء عشيرة البراء، فى قابل الأيام، ما أبداه البراء من بصيرة نافذة. ولم يلبث أن توفى البراء بعد أن عاد إلى المدينة، وكان المعتقد أنه لا ينبغى الاستهانة بحدس الذين يشرفون على الموت بل يجب أخذه مأخذ الجد.

وأثناء شعيرة الإقامة فى وادى منى، حدث اجتماع آخر فى الشعب عند العقبة، ولكن الاجتماع انعقد هذه المرة فى جوف الليل، وكانت البيعة التى عقدها المسلمون فى ذلك العام أصبحت تسمى بيعة الحرب: «بايعنا رسول الله يبيعة الحرب على المع والطاعة، فى عسرتنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا،

وأثره علينا، وأن لا تنازع الامر اهله، وأن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم»^(٢٦) ولم تكن بيعة الحرب تعنى أن الإسلام قد تحول فجأة إلى دين عدواني وحربي، ولكن البيعة كان لابد منها بسبب الخطوة التي كان محمد يوشك أن يخطوها، إذ كان يحث أصحابه على الهجرة من مكة إلى المدينة، ولم تكن الهجرة تغييراً جغرافياً فحسب، إذ إن المسلمين كانوا يوشكون على التخلي عن قريش وقبول حماية قبيلة لا يتسبون إليها بنب الدم^(٢٧). كانت خطوة غير مسبوقه. وكانت تتضمن، من زاوية معينة، إيذاء الحاسيات العربية على نحو ما آذاها امتهان الربات الوثنية. لقد كان نظام «التحالف» قائماً على الدوام، وكان يعنى أن يصبح فرد من الأفراد أو تصبح عشيرة بأكملها «أعضاء شرفيين» في قبيلة أخرى، بحيث يقبلون حمايتها لهم، ولكن ذلك لم يكن يعنى في يوم من الأيام قطع الوشائج إلى الأبد، فروابط الدم كانت تمثل قيمة مقدسة في بلاد العرب، كما كانت من أسس المجتمع. وتدل كلمة «الهجرة» في ذاتها على أن ذلك الانفصال الأليم كان يشغل مكان الصدر في أذهان الذين قرروا الهجرة إلى المدينة. ومادة الكلمة «هجر» والفعل المشتق منها «هَجَرَهُ» ترجمه بعضهم إلى «قَطَعَ صلوات أو أحاديث الود أو الحب... كَفَّ...» عن الارتباط به^(٢٨) وكان على مسلمي المدينة أن يَعدُوا بأن يصبحوا أولياء (أى حُماة) وأنصاراً بصفة متديمة لأناس من غير أقربائهم. ومنذ ذلك الحين أصبحوا يعرفون باسم الأنصار أى الذين قدموا «النصر» أى العون إلى الرسول وأصحابه. وعادة ما تترجم كلمة «الأنصار» إلى الإنجليزية بما يعنى «المعتين» ولكن هذه الترجمة لا تقدم إلا صورة ضعيفة لمعنى النصر فهو لا يقتصر على تقديم العون، بل يعنى الاستعداد لتدعيم «العون» والموازرة بالقوة إذا اقتضت الضرورة. وكان هذا هو سبب بيعة الحرب من جانب مسلمي المدينة.

وقد تمت البيعة سراً، فلم يكن الأمر يقتصر على قيام محمد عما قريب باتخاذ قرار غريب، لنفسه ولأصحابه المكين، ولكنه كان يتعرض لخطر

داهم. ويؤكد ابن إسحق الجوانب الإيجابية للهجرة ويجعل قرار الهجرة يبدو قراراً طوعياً. ولكن القرآن يقول إن المسلمين «أخرجوا» من ديارهم، ويقول عن مكة «قريتك التي أخرجتك» (و«أخرجه الذين كفروا»)(٢٩). ويبدو أن محمداً كان يدرك أن الناس يتآمرون على قتله(٣٠) وقد يكون مُطعم قد أجاره عند عودته من الطائف، شريطة أن يكف عن الدعوة إلى دينه. ولا يشير القرآن مطلقاً إلى مزايا الهجرة، ولكنه يوحي فقط بأن المسلمين كانوا مضطرين إلى الرحيل ومرغمين عليه. وقد ساد الاجتماع الذي عقد في موسم الحج عام ٦٢٢ إحساس بالخطر وبأن الجسور قد تقطعت دون أمل في إعادة بنائها، وكان لابد من الحفاظ على سرية الاجتماع، بل إن الأنصار لم يذكروه حتى لأصحابهم الوثنيين أثناء الحج، حتى لا يتحدثوا عن الهجرة المعتزلة في أرجاء مكة ويحيث لا تتبّه قريش إلى ما كان يجري آنذاك.

وفي ليلة البيعة، ترك الأنصار أصحابهم الوثنيين نياماً في خيامهم، وتسللوا «تسل القطا متخفين» إلى الشعب عند العقبة، حيث قابلوا محمداً ويصحبته العباس(٣١). ولم يكن العباس قد اعتنق الإسلام بعد، ولكنه كان يحب ابن أخيه، وكان يريد أن يطمئن، وفقاً للمصادر الأولى للسيرة، على أن محمداً سوف يتمتع بالأمن والسلامة الكاملة في المدينة. وبدأت وقائع الاجتماع بأن حذر الأنصار قائلاً إن عليهم أن يفكروا ملياً قبل أن يتعهدوا بنصرة وحماية مسلمي قريش: «فإن كتتم ترون أنكم وافون بما دعوتموه إليه وما نعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كتتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه»(٣٢). ولكن الأنصار كانوا على استعداد للشباب على قرارهم، إذ أخذ البراء بن معرور بيد النبي، ممثلاً للأوس والخزرج، وأقسم إن المسلمين سوف يحمون النبي حمايتهم لأنهم وأطفالهم، ولكن رجلاً من الأنصار قاطع البراء أثناء حديثه قائلاً: إن أهل المدينة قد عقدوا أحلفاً ومعاهدات أخرى وإنهم قد يضطرون إلى نقض

بعضها في غضون حمايتهم لمسلمي مكة. ماذا يكون عليه الحال إذا هجر محمد المدينة بعد ذلك وترك أهلها عرضة للانتقام حلفائهم السابقين؟ فبسم محمد وأجاب: «أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتهم وأسالم من سالمهم» (٣٣). ولما رضى الجانبان بذلك عقد الأتصار ببيعة الحرب.

وبعد عودة الأنصار إلى المدينة، شرع محمد في إقناع مسلمي مكة بالهجرة إليها. لقد كانت خطوة رهبة ولا رجوع عنها، إذ لم يكن أحد يعرف مدى نجاحها، لأنها لم تكن مسبقة في بلاد العرب. ولم يأمر محمد المسلمين بالهجرة، فمن رفض أو رأى أنه لا يقدر عليها، سُمح له بالبقاء. ولقد ظل بعض كبار المسلمين في مكة ولم توجه لهم إطلاقاً تهمة الردة أو الجبن. ولكن نحواً من سبعين مسلماً انطلقوا خلال شهرى يوليو وأغسطس عام ٦٢٢ مع أفراد أسرهم إلى المدينة، حيث استضافهم الأنصار ريثما يتمكنون من الاستقلال بمنزلهم. ولا يبدو أن قریشاً بذلت جهداً كبيراً لمنعهم من الهجرة، وإن كان بعض النساء والأطفال قد احتجزوا بالقوة، وأعيد أحد الرجال مربوطاً إلى جملته فاحتلت بذلك قریش. ولكن المسلمين كانوا يحرصون على عدم لفت انتباه الناس إليهم، وكثيراً ما كانوا يتخفون على اللقاء خارج مكة، وكانوا يسافرون في جماعات صغيرة لا تثير الانتباه. وكان من السابقين عمر وأسرته، وعثمان بن عفان وزوجته رقية، وغيرهم من أفراد أسرة النبي، مع زيد وحزمة. وظل محمد وأبو بكر في مكة حتى غادرها الجميع، ولكن تلك الهجرة على ذلك النطاق الواسع سرعان ما أحدثت فجوات بعثت على قلق أهل البلدة، وهي التي كانت ترمز إلى الجرح السبال الذي أحدثه محمد في جسد قبيلة قریش، وهي التي كانت تنعم بالوحدة والازدهار من عشر سنوات فحسب. وكان عبد الله بن جحش (ابن عمه محمد) قد هاجر من قبل مع أسرته وأخواته، وبعد رحيلهم أصبح المنزل الكبير الخاص بأل جحش في وسط مكة خاوياً تماماً. ونظر إليه عتبة بن ربيعة

فراه مهجوراً ونذير سوء إذ كانت الدار «تخفق أبوابها يباباً ليس فيها ساكن» (٣٤).

وفي أغسطس توفي مطعم الذي كان يجير محمداً، فأصبحت حياة الرسول معرضة للخطر من جديد. واتخذ اجتماع خاص لمناقشة أمر محمد في دار الندوة (مجلس الشيوخ) وحرص أبو لهب على عدم حضوره، وكان بعض الرؤساء لا يريدون إلا إبعاد محمد عن مكة، ولكن الآخرين كانوا يدركون أن السماح لمحمد باللحاق بالمهاجرين الآخرين فيه خطر شديد عليهم. وقالوا إن كل الذين هاجروا يعتبرون خوثة قتلوا الأمل وانتهكوا المبادئ وقطعوا أواصر النب المقدسة، ولن يرحبوا الآن عن اقتراح أي جرم، فإذا ظفروا برئاسة محمد وزعامته لهم سوف يمثلون خطراً يتهدد مكة. وطرح أبو جهل، آخر الأمر، خطة تكفل التخلص من محمد دون أن تؤدي إلى الأخذ بثأره وهي أن يأخذوا من كل قبيلة «فتى شاباً جليداً وسيطاً فينا... فيضربوه ضربة رجل واحد... فيتفرق معه في القبائل جميعاً» وهكذا يكون على بنى هاشم أن «ترضى بالعقل» أي يأخذ الدية، لأنهم لن يستطيعوا أن يحاربوا قريشاً كلها.

وسرعان ما تم اختيار الفتيان، واجتمعوا خارج منزل محمد، ولكنهم انزعجوا عندما سمعوا أصوات سودة وبنات النبي من خلال النوافذ، ولما كان من العار أن يقدموا على قتل رجل يحضرة نساء بيته، قرروا أن يتظروه حتى يخرج في الصباح. وتظر أحد المتأمرين من النافذة فشهد محمداً نائماً وقد تدثر ببردته، ولم يفتنوا إلى أن محمداً كان قد قيهه جبريل، فيما يروي الرواة، إلى المؤامرة فخرج متخفياً من باب خلفي وترك علياً، الذي كان قد تأخر في الهجرة حتى يؤدي عن النبي الودائع التي كانت عنده للناس، وأقلاً في فراشه ونائماً فيما يبدو مستدثراً ببردته. وعندما خرج عليٌّ في الصباح من المنزل، أدرك الشبان أنهم قد خُدعوا، ومن ثم أعلنت قريش عن مكافأة

قدرها مائة من النوق لمن يعود بمحمد حياً أو ميتاً.

وكان محمد وأبو بكر في هذه الأثناء يختبئان في غار بأحد الجبال خارج المدينة. ومكنا في الغار ثلاثة أيام، وكان متاصروهما يتسللون من مكة بين الفينة والفينة لتزويدهما بالمؤن والأطباء. وجاء في الأثر أن فريقاً من الباحثين عن محمد مر بالغار فعلاً، ولكن أفرادهم لم يهتموا بالنظر في داخله، إذ كانت عنكبوت قد نسجت بيتاً كبيراً تغطي المدخل خيوطه، ونبتت شجرة سنط أمامه بين عشية وضحاها بما يشبه المعجزة، أما في الموقع الذي لا بد للمرء أن يضع قدمه فيه حتى يصعد إلى الغار فكانت توجد فيه حمامة ترقد على بيضها في العش، وكان الواضح أنه قد مضى عليها وقت طويل. وشعر محمد في هذه الأيام الثلاثة بسلام نفسه عميق، وأحس إحساساً قوياً بوجود الله معه. ويصف القرآن هذا الشعور بأنه السكينة، والتي تعنى حرفياً لونا من الكون ولكنها تعنى في هذا السياق معنى يقترب من معنى السكينة بالعبرية، وهو المصطلح الذي يشير إلى وجود الله على الأرض، ويقول القرآن: ﴿فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها﴾ (التوبة - ٤٠).

وعندما بدا لمحمد وأبي بكر أنهما يستطيعان مغادرة الغار في أمان، حرصا وهما خارجان على عدم الاقتراب من الحمامة الراقدة، وركبا الراجلتين اللتين كان أبو بكر قد جهزهما. وأراد أبو بكر أن يقدم الراحلة الأقوى إلى محمد، ولكن محمداً أصر على أن يدفع ثمنها، فقد كانت هذه هجرته الشخصية، وقربانه إلى الله، ولذلك فكان من المهم له أن يشعر بأنه صاحب الرحلة كلها. وأطلق على الناقة اسم «قوة» وظلت راحلته المفضلة إلى آخر عمره. وكانت الرحلة التي شرعاً فيها تحمُّها أخطار بالغة، إذ يقال إن محمداً لم يكن وهو على ظهر الطريق يتمتع بحماية أحد. واصطحبهما الدليل في

طريق بالغة الالتواء، وكانا يتقدمان ويتأخران لتضليل من يتعقبهما. وكان مسلمو المدينة في تلك الأثناء يترقبون وصولهما بلهفة كبيرة. وكان عدد كبير من المهاجرين يقيمون في قباء، وهي منطقة في أقصى جنوب الواحة، وكانوا يقومون كل يوم بعد صلاة الصبح بتسليق الصخور البركانية القريبة ويتطلعون إلى كل شبر في الأفق. وفي صبيحة يوم ٤ سبتمبر ٦٢٢ لمح القادمين رجل من اليهود فصاح بالانصار «يا بنى قيلة! هذا جدكم قد جاء!» (٣٦) وعلى الفور أهرع الرجال والنساء والأطفال للملاقة المسافرين فوجدوهما يستريحان عند جذع نخلة.

ومكث محمد وأبو بكر في قباء ثلاثة أيام، ثم لحق بهما علي. ولكن المسلمين في «المدينة» (وكان ذلك الاسم يطلق على أكثر مناطق الواحة ازدحاماً بالسكان) كانوا يتطلعون إلى لقاء النبي بصبر نافذ، ومن ثم انطلق لمقابلتهم واختيار المكان الذي سيقم فيه. كان يركب راحلته «قسوة» التي قيل إنها «مأمورة» ومن ثم ترك النبي لها حرية الذهاب أتى تشاء. وتوسل إليه الكثيرون وهو في الطريق أن ينزل عن راحلته ويقم في منازلهم ولكن محمداً يرفض بأدب جم حتى بركت عند مرید (وهو المكان الذي يجفف فيه التمر) ورفضت أن تنهض من جديد. وكان المرید ملكاً لأخوين من يتامى المدينة، فنزل محمد عن ظهرها وسمح بحمل متاعه إلى أقرب منزل، ثم بدأ التفاوض مع الأخوين حول شراء أرضهما. وعندما تم الاتفاق على سعر مناسب، أمر الرسول بأن يبدأ العمل فوراً على بناء مسجد، على أن يتخذه النبي منزلاً له ولاسرته أيضاً. وشرع الجميع في العمل، وكان المهاجرون يعملون جنباً إلى جنب مع الأنصار. ولم يكن أبناء قريش جميعاً عن اعتادوا العمل اليدوي، وكان عثمان بن عفان، زوج ابنة النبي، أنيقاً مهتماً، وقد وجد ذلك العمل، فيما يبدو، مرهقاً ومنهكاً له، وفي أثناء العمل كانوا أحياناً ينشدون أراجيز ألفها المنشدون خصيصاً لهذه المناسبة منها:

لا عيش إلا عيش الآخرة

اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة (٣٧) (٥)

وكان محمد يغير الشطر الثاني إلى «اللهم ارحم المهاجرين والأنصار، وهو التعديل الذي يتعد بالكلام عن الوزن والقافية، مما يبين أن محمداً كان «أمياً»، فلم يكن شاعراً بالفطرة، والواقع أن نقص مهارته اللغوية يثبت مدى إعجاز القرآن.

ولكن المهاجرين والأنصار كانوا في حاجة إلى رابطة «رسمية» أقوى من الأراجيز والمشاركة في العمل. ومن ثم وُضعت معاهدة آنذاك، ومن حسن حظنا أن المصادر الأولى قد حفظتها لنا حتى نطلع على التخطيط الأول لأقدم مجتمع إسلامي. وهي تقول إن محمداً وادَّعَ القبائل العربية واليهودية بالمدينة وعاهدهم، على أن تنسى جميع قبائل الواحة، على اختلافها، عداها القديمة وأن تشكل فيما بينها «قبيلة عظمى» إن صح هذا التعبير، وعلى أن يسود السلام بين المسلمين واليهود من ناحية وبين مشركي المدينة من ناحية أخرى، بشرط ألا يعقدوا معاهدة منفصلة مع مكة للتخلص من النبي. وتقول المادة العشرون من العهد: «لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن» (٣٨) وإن مرجع أمر المجتمع كله إلى الله، وإن ذمة الله واحدة (٣٩). أما المسلمون فهم يشكلون فيما بينهم مجموعة ذات طابع جديد تماماً، فالقبائل جميعاً «أمة واحدة من دون الناس» (٤٠). وكانت القبيلة حتى الآن تمثل الوحدة الأساسية للمجتمع، أما الأمة فهي مجتمع يقوم على الدين لا على صلات القرابة والنسب. وكان ذلك غير مسبوق في بلاد العرب. لم تكن ولاية محمد الأصلية تتضمن إنشاء حكومة دينية، والأرجح أنه لم يكن يدرى ما هي الحكومة الدينية، ولكن تطور الأحداث دفعه إلى تجاوز مفهوماته

(٥) قال ابن هشام: هنا كلام وليس برجز. (ص ٤٤٢). (لترجم)

المسبقة الاصلية إلى إيجاد حل جديد تماماً. كان الإسلام يمثل، على امتداد سنوات عديدة، قوة تفصم عرى المجتمع، وكان محمد يتهم بأنه يرق الاطفال من أبويهم. ولكنه لم يدربخلد أحد، حتى حدثت الهجرة، أن يترك قبيلة قريش. أما الآن فقد ألغيت الروابط القبلية القديمة، وأصبحت قريش والاموس والخزرج أمة واحدة، وبدأ الإسلام يمثل قوة توحيد لا تفريق. ولكن مفهوم القبيلة كان له تأثيره المحتوم في نظرة المسلمين الاوائل إلى الأمة. وكانت نظرتهم إلى المجتمع الجديد ما تزال تخضع للمفاهيم القبلية، وفي هذا يقول القرآن:

﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ (١١) (الانفال - ٧٢).

إذا أردت الانضمام فعليك أن تهاجر وتترك قبيلتك وتلتحق بالأمة. كانت الأمة، مثل القبيلة، عالماً قائماً برأيه: «أمة واحدة من دون الناس» (١٢). ولكن بإمكانها التحالف مع القبائل الأخرى بالطريقة التقليدية. وكان على وحدة الأمة أن تمثل وحدة الخالق، وقد أمر المسلمون أيضاً أن يقيموا الحياة الشخصية على أسس هذه الوحدة، فلا يسمحوا لرابطة الدم أو للإخلاص القديم للقبيلة، أن يعوق وحدة الأمة أو أن يُشتت الأمة ويحيلها إلى فرق متناحرة، فيجب ألا يحارب مسلم مسلماً مهما تكن قبيلته. ولم يكن محمد قد أصبح بعد رأس هذه الأمة، فكانت منزلته باللغة التواضع في المدينة، وكانت في البداية أقل كثيراً من منزلة رؤساء المدينة مثل سعد بن معاذ أو ابن أبي. وكانت الوظيفة الخاصة الوحيدة التي يقوم بها هي النهوض بدور الحكم المحايد في المنازعات الناشئة بين المسلمين.

كان ذلك حلاً ثورياً، ولكن الجميع كانوا على استعداد في البداية لتجربة ذلك الحل، فقد كانت الأحوال في المدينة من المحال أن تستمر، وكان التغيير - مهما يكن - أفضل من دائرة الحروب القديم التي لا بُرَّ منها. ولم يعارض المشركون ذلك - وقد حدث أن فرَّ أحد زُهَّاد العرب واسمه أبو عامر (ويشار إليه أحياناً باسم الراهب) إلى مكة بعد وصول النبي إلى المدينة. ولكن المشركين الذين لم يعتنقوا الإسلام كانوا يعمدون إلى عدم الظهور بعد تلك الحادثة. وكان اليهود على استعداد في البداية لقبول النظام الجديد، وقرر بعضهم أن يتحول إلى اعتناق هذا الشكل الجديد من دين التوحيد العربي. ولكن محمداً لم يطلب منهم مطلقاً أن يقبلوا دين الله الذي جاء به، إلا إذا أبدوا هم الرغبة في اعتناقه. ويقول القرآن ما يمكن تفسيره بأن اليهود الذين لم يعتنقوا الإسلام كانوا يشكلون نوعاً من المجتمع «الموازي» وكانوا يعتبرون أنفسهم يهوداً أولاً وأخيراً (٤٣:٥). فقد أنزل عليهم كتاب صادق، وكانما يوحي القرآن بأنه لم يكن بهم حاجة إلى قبول الإسلام في ذلك الوقت، وهكذا كان كل شيء ينطق بالأمل أول الأمر بل لقد أعتق الإسلام رجل لم يكن يتسمى إلى العرب على الإطلاق. إذ حدث أثناء بناء المسجد أن قام عبد فارسي يدعى سلمان، وكان مملوكاً ليهودي من بني قريظة، بعرض نفسه على النبي، وقص قصته عليه فقال إنه ولد بالقرب من أصفهان واعتنق المسيحية، وسافر إلى سوريا حيث سمع روايات عن النبي الذي يوشك على الظهور في بلاد العرب. وقال إنه وقع في الأسر وهو في طريقه إلى الحجاز، وشاءت العناية الإلهية أن يتسمى به المظالم في المدينة، وقد كتب لسلمان الفارسي أن

(٥) الإشارة إلى الآية ٩-١٠ من سورة آل عمران غير دقيقة، والأرجح فيها الآية ١١٣ وما بعدها: فمن لعل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله أناء الليل وهم يسجدون، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأخرون بالمعروف وينهون عن المنكر. ويسارعون في الخيرات، وأولئك من الصالحين، وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين. (الترجم).

يصبح من الشخصيات المبهجة في الإسلام، إذ عادة ما ينظر إليه باعتباره رمزاً لدخول جميع الشعوب الشرقية غير العربية في الإسلام، وهي الشعوب التي سخرت جميع مواهبها لإعلاء شأن الإسلام.

وفي أبريل ٦٢٣، أي بعد الهجرة بسبعة أشهر، اكتمل المسجد. كان مبنياً من الطوب (القرميد)، وكان بالحائط الشمالي المواجه للقدس محراب تحيطه الأحجار، ويدل على وجهة القبلة، وقد ألحق بالمسجد فناء كبير لأداء صلاة الجماعة. وكان الناس في البداية يأتون للصلاة دون دعوة وكان من الواضح أن ذلك لم يكن مستحباً لأنهم كانوا يأتون في أوقات مختلفة. ونظر محمد في إمكان استخدام بوق من قرون الكباش لدعوة المسلمين إلى الصلاة، مثلما كان اليهود يفعلون، كما نظر في إمكان استخدام ناقوس خشبي (لثلافة) مثل المسيحيين الشرقيين، ولكن أحد المهاجرين رأى في منامه أن رجلاً يرتدى بردة خضراء جاءه وقال له إن أفضل طريقة لدعوة الناس إلى الصلاة هي تعيين رجل له صوت جهوريّ رنان، تكون مهمته هذه الدعوة بأن يقول «الله أكبر» أربع مرات لتذكير الناس بأن الله أكبر من أي متاع دنيوي. ويستمر الأذان على النحو التالي: «أشهد ألا إله إلا الله - وأشهد أن محمداً رسول الله (مرتين)، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله». وتقبل الرسول الفكرة وعين بلالاً، العبد الذي اعتقه أبو بكر، ليقوم بتلك المهمة. وكان بلال يصعد في كل سحرٍ إلى قمة أعلى منزل قريب من المسجد، ويجلس على السقف في انتظار بزوغ الفجر. فإذا رآه تغطى وقبل أن يؤذن دعياً لله قائلاً: «اللهم إني أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا على دينك» (٤٤).

ولم يتخذ محمد مسكناً خاصاً به في المسجد، ولكن الحائط الشرقي كان قد ألحق به بيتان صغيران، أحدهما لسودة، والآخر لعائشة. وقد بنيت فيما بعد غرف مستقلة لكل زوجة من زوجاته، وكان محمد يقيم مع كل منهن في

اليوم المخصص لها. وعندما اكتمل بناء المسجد أرسل زيداً لإحضار زوجته ونساء المنزل، واللائي كن ما يزلن في مكة، إلى المنزل الجديد. وعاد زيد مع سودة، وأم كلثوم وفاطمة، ابنتي محمد، (بينما ظلت زينب تقيم مع زوجها المشرك، وهو أبو العاص) ومع زوجة زيد (أم أيمن). كما جاء معه آخر من هاجر من أفراد أسرة أبي بكر، وهم عبد الله، ابنه، وأم رومان، زوجته، وابنتاه أسماء وعائشة.

وعندما جاءت النساء أقيمت بعض حفلات الزفاف، إذ قرر محمد أن على زيد أن يتزوج زوجة أخرى أقرب إليه في عمرها من زوجته أم أيمن، وتقدم نيابة عنه لخطبة زينب بنت جحش، التي كانت جميلة، من أخيها عبد الله، ولكن زينب لم تكن سعيدة على الإطلاق بذلك، إذ كان زيد قصيراً أسمر وذا أنف أخشن، ومن ثم لم يكن شاباً وسيماً على الإطلاق، بينما كانت لزينب آمال وطموحات أكبر، على نحو ما سوف نرى. ولكنها وافقت عندما أدركت أن ذلك كان ما يريده النبي حقاً. كما قام أبو بكر بتزويج ابنته أسماء إلى الزبير بن العوام، وهو من أقرباء النبي، لزيادة توثيق الرابطة بينه وبين أسرة النبي.

وأخيراً، وبعد نحو شهر من وصول عائشة إلى مكة، تقرر أن الوقت قد حان لزفافها إلى محمد. كانت ما تزال في التاسعة من عمرها، ومن ثم فلم يعقد حفل الزفاف بل اكتفت الأسرة بالحد الأدنى من الإجراءات الرسمية. والحق أن الاحتفال كان محدوداً لدرجة أن عائشة نفسها لم تكن تدرى يوم زفافها أنها سوف تتزوج وكانت تلعب بأرجوحة مع صديقاتها. وكان أبو بكر قد اشترى قماشاً بديع النسج ذا خطوط حمراء من البحرين، صنع لها منه ثوب الزفاف. ثم اصطحبوها إلى مسكنها الصغير المجاور للمسجد. وكان محمد هناك في انتظارها، وكان يضحك ويبتسم أثناء تزيينها بالحليّ والجواهر وتمشيط شعرها الطويل. وأحضر أهل الدار إناء مليئاً باللبن شرب منه محمد

وعائشة ولكن الزواج لم يدخل تغييراً يذكر في حياة عائشة. ويقول الطبرى إنها ظلت تقيم في منزل أهلها، ولم يدخل بها النبي إلا بعد أن بلغت مبلغ النساء. وظلت عائشة تلعب مع صديقاتها وتلهو بعرائسها الصغيرة، وكان محمد يأتي أحياناً لزيارتها، وتقول عائشة إن الفتيات كن يتلنن خارجات من المنزل ولكن محمداً كان يسعى إليهن ويأتي بهن ثانية فقد كان يسه أن تظل الفتيات معها يشاركنها اللعب. وكان محمد يستمتع بمشاركة بناته اللعب وهن صغيرات، وكان أحياناً يشارك عائشة في لهوها. وذكرت عائشة أنه دخل عليها ذات يوم وهى تلعب بالدمى والعرائس وسألها عن نوع اللعبة فقالت إن اسمها «خيول سليمان» فضحك النبي (٤٥).

ولكن عائشة أحست بحزن يغشى الأمة، وشاهدت ذات يوم أباهما والعبدین اللذين اعتقهما - عامراً وبلالاً - راقدين على الأرض، مريضين بالحمى التي أصابت كثيراً من المهاجرين عندما وصلوا إلى يثرب في البداية. كان الثلاثة يعانون من هذيان الحمى، وكان بلال يضطجع وحده بفناء البيت ثم رفع عقيرته ينشد أغنية تعبر عن حينه إلى مكة قائلاً:

ألا ليت شعري هل أبيتَ ليلةً بفتحٍ وحولى أذخرٌ وجيلٌ
وهل أردنُ يوماً مياهٍ مجتةٍ وهل يبدون لي شامةً وطفيلٌ (٤٦)

وذهبت عائشة إلى محمد، وكان يدرى مدى الألم وعذاب الفرقة الذي يعانيه المهاجرون، فيث الطمأنينة في قلب عائشة وإن كان قد دعا الله قائلاً: «اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشده» (٤٧)، كما بدأ يدرك مشكلة أخطر تتعلق بالانصار، فلم يكن جميع الذين اعتنقوا الدين الجديد في المدينة من المتتزمين به حقاً، إذ كان بعضهم قد أسلم استجابة للأوضاع القائمة، لا عن عقيدة واقتناع، وكان يبدو لهؤلاء أن اعتناق الإسلام هو التيار الجارف الذي لا راد له، وكرهوا أن يتخلفوا عن المسيرة. والواقع أن هؤلاء كانوا في تلك الآونة «يجلسون على السور» يتظرون ما تتحول إليه الحركة

الجديدة. وقد تجمع هؤلاء المنافقون حول عبد الله بن أبي الذي كان على الأرجح سيّوج ملكاً على المدينة لو لم يصل محمد. وكان ابن أبي قد اعتنق الإسلام، ولكنه كان أبعد ما يكون عن التحمس له، وكان يأمل في «اختطاف» الحركة لو تعثرت. وقد نزلت السورة الثانية من القرآن، وهي أطول سورة، خلال الشهور القليلة الأولى التي قضاها محمد في المدينة، وهي تلقى الضوء على إدراك محمد للصعوبة التي كان يواجهها المسلمون (٤٨). وأبدى محمد الصبر على ابن أبي مؤثماً، فكان ينزله في المسجد منزلة التكريم، ويسمح له بإلقاء خطبة الجمعة. وكان ابن أبي يقابل ذلك بالتأديب عادة في التعامل مع محمد، ولو أن عداوته كانت أحياناً ما تبرز بوضوح. وفي أعقاب حادثة سمع فيها الرسول ما يكره من ابن أبي، تغير وجهه فانتحى به أحد الأنصار وقال له: «يا رسول الله أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، ولنا لتنظيم له الخرز لتسوجه، فوالله إنه ليرى أن قد سلبته ملكاً» (٤٩).

وكان اليهود في البداية، مثل المنافقين من العرب، على استعداد لمسيرة النبي، خصوصاً بسبب ما كان يبدو لديه من ميل إلى اليهودية، ولكنهم لحقوا بابن أبي آخر الأمر وانقلبوا على الإسلام، وبدعوا يجتمعون في المسجد في أوقات الصلاة «فيستمعون أحاديث المسلمين ويسخرون ويستهنئون بدينهم» (٥٠). لقد وجدوا من أسير اليسير عليهم، بسبب إحاطتهم الفائقة بالكتاب المقدس، أن يسخروا من بعض قصص القرآن عن شتى الأنبياء بسبب اختلافها الواضح عن الصورة التي وردت بها في صحفهم. ولقد تعالت أصواتهم يرفض الاعتراف بصدق نبوة محمد وسخروا منه قائلين ما أغرب أن يعجز رجل يقول إنه تنزل عليه الآيات من عند الله عن العثور على ناقته الضالة (٥١). وكان المسلمون يضيقون ضيقاً شديداً بهذا الغمز واللمز حتى إنه كثيراً ما كان يتسبب في التشاجر، كما وقعت اشتباكات قبيحة طرد اليهود

على أثرها بالقوة من المسجد بعد أن سخروا من المسلمين سخرة خيثة. كان اليهود يستندون في رفضهم إلى أسس دينية صلبة، إذ كانوا ينتظرون مسيحاً وهم يعتقدون أن عصر النبوة قد انتهى. وكانوا يقولون إن أحداً من اليهود أو الميحيين ليس له في ذلك الزمن أن يزعم أنه نبي، مثلما كان من المحال على أحد أن يزعم أنه ملاك أو بطرك. ولكن تاريخ اليهود في المدينة كان يسمح لهم بقبول محمد، لأن اليهودية تتمتع بتقاليد عريقة تنص على الترحيب «بالمُتقين» في كنف معبدهم. ولم يكن هؤلاء المتقنون يلتزمون بشرعة موسى كلها، ولكن اليهود كانوا يعتبرونهم من أصدقائهم وخاصائهم، وكان المسلمون، فيما يبدو، ممن تنطبق عليهم صفات هؤلاء الحلفاء بوضوح. ولكن اليهود أدركوا أن أوضاعهم في المدينة تدهورت تدهوراً شديداً منذ وصول محمد، ومن ثم أعلنوا رفضهم له بقوة وعنف.

وربما كان رفض اليهود لمحمد بمثابة أكبر خيبة أمل تعرض لها في حياته، وبمثابة تحدٍّ لموقفه الديني برمته. ومع ذلك فقد كان في المدينة بعض اليهود الذين يضمرون الود له، والذين ساعدوه في الرد على زملائهم بأساليبهم نفسها، بتقديم معلومات مهمة إليه عن كتبهم المقدسة. والحجة التي يقيمها القرآن على اليهود حجة كاملة الأبعاد وهي تدل على مدى قلق المسلمين من انتقادات اليهود لهم، ولكن محمداً تمكن بفضل ازدياد معرفته من دحض مزاعمهم. فكتبهم المقدسة نفسها تقول إنهم شعب لا يؤمن، انتهكوا عهد الله بانتكاسهم إلى الوثنية وعبادة العجل الذهبي^(٥٢)، كما ابتدعوا «بدعة» لا مبرر لها عندما وضعوا «شريعة القول»^(٥٣)، كما دأبوا على عصيان الأنبياء، مراراً وتكراراً^(٥٤). وعرف محمد التسلسل الزمني للتاريخ اليهودي واكتشف أن اليهود والميحيين، الذين كان يعتقد أنهم يتمون إلى دين واحد، يختلفون فيما بينهم اختلافات خطيرة. وكان يبدو لمن لا يتمون إلى أي من الطائفتين أن مساحة الاختيار بينهما محدودة، وهكذا كان من الطبيعي أن يتصوروا أن

كل طائفة من أهل الكتاب قد أضافت حتماً بعض العناصر الجديدة الدخيلة إلى التزويل النقيّ الأصلي. ولكن خلاف محمد مع اليهود لم يؤثر في علاقاته بالمسيحية. بل إن القرآن أحياناً ما ينحاز إلى المسيحيين ضد اليهود، على نحو ما يفعل عند الرد على زعم اليهود بأنهم قد صلبوا المسيح، إذ يقبل حجة أصحاب مذهب «الاشتباه» قائلاً إن عيسى لم يمّت حقاً على الصليب، ولكن الذي بدا أنه قد مات شبيه له^(٥٥). ومع ذلك فالقرآن يرفض تماماً زعم المسيحيين بأن الله قد اتخذ ولدأ، ولم يكن من الأرجح أن محمداً الذي عانى مر المعاناة بسبب رفضه قبول اتخاذ الله بنات، سوف يبدى التعاطف مع هذا المبدأ. ومراراً وتكراراً يؤكد القرآن أن هذه العقيدة مثال على «الظن»، أى ذلك اللون من التخرص الذي لا غناء فيه والذي يحدث الفرقة، إزاء أمور من المحال أن يعرفها أحد، والذي أدى إلى انقسام أهل الكتاب إلى معسكرين متناحرين^(٥٦).

ومع ذلك فقد استمر محمد يقول بأن ما أنزل إليه يتفق مع ما أنزل إلى من قبله من الأنبياء. ولم يكن جميع اليهود يتخذون موقفاً معادياً، وكان محمد يصر على أن واجب المسلمين، مهما تكن متاعبهم الراهنة، هو تأكيد الأشياء التي يشتركون فيها مع أهل الكتاب. والأرجح أيضاً أن محمداً كان يعتقد أن بعض المسيحيين لا يوافقون على الفكرة المشيئة التي تقول بأن الله قد اتخذ ولدأ. ولذلك فعلى المسلمين ألا يتأهضوا من اليهود والمسيحيين إلا من يعادون القرآن أو من أتوا بالبدع غير المقبولة في الدين الخنيف:

﴿وَلَا تُجَادُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(٥٧) (العنكبوت - ٤٦).

ورغم تفاقم النزاع مع القبائل اليهودية الرئيسية الثلاث في يثرب فيما بعد، فقد ظلت هذه هي السياسة الإسلامية الرسمية.

وقد كُتِبَ لمحمد أن يعلم المزيد في المدينة عن إبراهيم، كما تمكن بفضل معرفته بالتسلسل الزمني لتاريخ الهداية الإلهية أن يدرك أهمية سبق إبراهيم لموسى وعيسى. ولذلك فمن المنطقي الافتراض أن أتباع موسى وعيسى الذين كانوا، فيما يبدو، مشبكين في مناظرة عقيمة، قد أدخلوا بدعاً معوقة في الدين الحنيف الذي أتى به إبراهيم والذي نزل قبل التوراة والإنجيل:

﴿ ما كان إبراهيم يهودياً، ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين؛ إن أولى الناس بإبراهيم للذين أتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾ (٥٨) (آل عمران ٦٧ و٦٨).

كان المسلمون في مكة يُفَضِّلُونَ النبي موسى، ولكن إبراهيم شغل المكانة الذي كان يتمتع بها في المدينة، ووجد محمد الإجابة الكاملة على سخرية اليهود وتهكمهم. كان النبي ومن تبعه من المسلمين يرجعون إلى روح دين إبراهيم الحنيف (الخالص) الذي كان أول المسلمين. ولا ندرى إلى أي مدى حقق النبي محمد رغبة بعض العزب، في بلدان الاستقرار، في العودة إلى دين إبراهيم، ولا يشير القرآن إلى طائفة الحنيفية الصغيرة في مكة، كما لا يتضمن القرآن الإشارة إلى إبراهيم قبل نزول السور المدنية. ويبدو على أي حال أن المسلمين كانوا يطلقون على دينهم في تلك الفترة «الحنيفية» أي الدين النقي الخالص الذي كان إبراهيم يتبعه.

وهكذا فإن وسيلة محمد في الردّ ما تزال قائمة على العقيدة الأساسية القائلة بأن الإيمان يعني الإسلام لله لا لأي صورة دنيوية معينة من صور ذلك الإيمان. والواقع أن الاتجاه إلى تقدير أهمية إبراهيم مكّنه من تعميق ذلك الإدراك. فاليهود والمسيحيون الذين كانوا يحثون الناس على قبول ما أنزل إليهم وطرح ما عدا ذلك كانوا يتعبدون عما أنزل على إبراهيم أولاً وعن الرسالة النقية لقدامى الأنبياء والذين كان كل منهم يؤكد صحة ما أنزل على غيره:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٥٩) (البقرة - ١٣٦).

ولا شك أن من «الوثنية» تفضيل التعبير البشرى عن الإيمان على الله ذاته. والكتب المنزلة لا تُلغى أى رسالة مما أتى به الأنبياء الأوائل، بل هى بمثابة تأكيد ومواصلة لها.

وورود ذكر إسماعيل، الابن الأكبر لإبراهيم، ذو أهمية أساسية فى هذه القائمة من الأنبياء العظام. فأصدقاء محمد من يهود العرب أضافوا بعض الأساطير المحلية الخاصة بهم، وفقاً لما يقوله أحد الباحثين^(٦٠)، إلى ما ذكره للنبي عن إسماعيل لأول مرة، وكان محمد يعلم أن سفر التكوين يقول إن إبراهيم أنجب ولداً من جاريته هاجر اسمه إسماعيل (ومعنى الاسم اشتقاقاً «سمع الله») وعندما حملت سارة وليدها إسحاق، تملكها الغيرة من هاجر وابنتها إسماعيل وأصرت على أن يتخلص إبراهيم منهما. وحزن إبراهيم لفراق ابنه إسماعيل، ولكن الله وعده بأن يصبح إسماعيل هو الآخر أباً لأمة عظيمة. وهكذا قام إبراهيم الذى يعصره الأسى بترك هاجر وابنتها فى وادٍ غير ذى زرع، أى فى البرية، فتما وترعرع طليقاً «رامى قوس» أى محارباً عظيماً^(٦١) وكان يهود العرب يعتقدون أن إسماعيل أصبح جدَّ العرب، وقيل إن إبراهيم قد أتى بهاجر وابنتها إلى وادى مكة حيث تركهما وإن الله هو الذى رعاهما. وبعد فترةٍ ما زار إبراهيمُ إسماعيل فى مكة وتعاونوا معاً فى بناء الكعبة، أول بيت وضعه الله للناس فى بلاد العرب. وهكذا فإن العرب كانوا من نسل إبراهيم مثل اليهود.

ولابد أن محمداً سعد سعادة غامرة بالعلم الذى أتاه، إذ اكتسبت الكعبة دلالة وأهمية جديدة، وكانت القصة تدل على أن الله لم ينس العرب، وأن الله كان يكلؤهم برعايته منذ أقدم العصور. ويصور القرآن إبراهيم وإسماعيل

وهما يدعوان الله أن يرسل نبياً إلى العرب بعد أن فرغوا من بناء بيت الله (١٢٢).
لقد أتى محمد العرب بكتاب، ومن ثم فهو يأتيهم اليوم بعقيدة عربية
متميزة، تضرب بجنورها في مقدسات أسلافه.

وما إن اتضح أن عداوة معظم اليهود عداوة مقيمة ودائمة، أعلن دين الله
الجديد رسمياً استقلاله عن الدين القديم. وفي أواخر يناير عام ٦٢٤، الذي
صادف شهر شعبان، وكان ذلك بعد الهجرة بنحو ثمانية عشر شهراً، قام
محمد يوم المصلين في صلاة الجمعة في مسجد بني في أرض عشيرة البراء بن
معمر (الذي كان قد توفى) وكان ذلك من التفاصيل التي لها دلالتها.
وفجأة، نزل عليه الوحي وألهمه أن يتحول بالمصلين جميعاً إلى الناحية
الأخرى بحيث يولون أوجههم شطر مكة بدلاً من القدس. لقد أعطى الله
للمسلمين بؤرة اهتمام جديدة وقبلة جديدة في صلاتهم:

﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول
وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن
الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما
يعملون﴾ (البقرة - ١٤٤).

وقد وصف بعضهم تحويل القبلة بأنه الخطوة الدينية التي تفوق كل ما
عداها إبداعاً وإلهاماً، فتحوّل المسلمون إلى القبلة المكية كان يعنى أنهم يعلنون
ضمناً أنهم لا يتمنون إلى أى مجتمع من المجتمعات الراسخة، بل يولون
وجوههم شطر الله ذاته فحسب. وكان معنى ركوعهم وسجودهم في اتجاه
الكعبة، وهى التى تتسم باستقلالها عن عقيدتى التوحيد القديمتين اللتين
تتحملان مسؤولية «تفريق» أبناء الدين الواحد الذى أنزله الله، إلى شيع
وأحزاب متناحرة، أنهم يعودون اليوم إلى العقيدة الخالصة النقية التى كان
يتمتع بها الرجل الذى بنى الكعبة:

﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شيء إنما أمرهم
إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾ (الأنعام - ٥٩)

﴿ قل إننى هدانى ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً
وبما كان من المشركين، قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب
العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين. قل غير الله أبغى
رباً وهو رب كل شيء ﴾ (الأنعام: ١٦٠ - ١٦٤).

كان تفضيل أى نظام بشرى على الله ذاته بمثابة الشرك به، وكان على
المسلمين أن يتوجهوا إلى الله نفسه، لا إلى مؤسسة دينية أو تقاليد دينية،
مدركين أنه المحور الذى تركز عليه حياتهم.

ولا شك أن القرآن قد جاء بالحق إذ كان المسلمون يُفضلون هذه القبلة
على قبلة القلمس. وكان المهاجرون والأنصار جميعاً يُخلصون للكعبة كل
الإخلاص، ولم يكن من قبيل المصادفة أن يكون أول لقاء بين محمد
والأنصار قد حدث فى أثناء الحج. لم يعد المسلمون يشعرون بعد تحويل
القبلة أنهم من «فقراء أقارب» الدينين القديمين أو أنهم يقتفون، واهنين،
خطاهم. لقد أصبح لهم توجههم الخاص، وكان ذلك التوجه مستقلاً عن
الاديان التى ارتبطت للأسف فى أذهان العرب بالإمبريالية. وكان حماسهم
لكة عاملاً جديداً من عوامل صهر المهاجرين والأنصار فى أمة واحدة، كما
وجد المهاجرون فى تحويل القبلة عاملاً يخفف من ألم التزوج الذى أحدثته
الهجرة.

كان تحويل القبلة آية على هوية إسلامية جديدة تعتر بنفها، وكان
المسلمون قد بدؤوا يكتسبون، تدريجياً، هوية مشتركة تشد بعضهم إلى
بعض، رغم انتمائهم إلى ثلاث قبائل منفصلة. فكانوا يستيقظون جميعاً فى
نفس الوقت عندما يعلو صوت بلال بأذان الفجر، وكانوا يتوقفون عند العمل
جميعاً فى موعد صلاة الظهر وموعد صلاة المغرب. وكانت الزكاة تذكرهم
بأنهم يتحملون مسئولية مشتركة عن الفقراء. وهم الآن يركعون ويسجدون،
حيثما كانوا، ثلاث مرات فى اليوم باتجاه مكة، وهو اتجاه كان الجميع

يشعرون بالارتباط به ارتباطاً وثيقاً مشيولاً. ولكن هذا الاستقلال الجديد قد تحقّق في الوقت الذي كان المسلمون فيه يقفون موقف جهاد ودفاع بعد أن أحاط الأعداء بهم من كل جانب. وسُرّعان ما فسّر يهود المدينة تحويل القبلة بأنه يمثل تحدياً لهم، فقوى عزمهم واشتد على التخلص من محمد، كما كان مجتمع المدينة يتوقع آنذاك أيضاً هجوماً من البلدية ذات الشوكة القوية مكة.

الفصل الثامن

الحرب المقدسة

كان محمد قد استمر شخصية مألوفة حتى هذه اللحظة. وبعد أن تحمل سنوات من الاضطهاد والهزيمة - وتلك صورة يتفهمها ويحترمها أولئك الذين شيوا في ظل الإرث المسيحي - استمر نبياً غير معترف به في داره. غير أن محمداً أصاب نجاحاً سياسياً وروحياً مفعلاً بعد الهجرة، وقد دفع ذلك النجاح المسيحيين الغربيين للارتياح في ذلك الشق من حياته. ولأن محمداً أصبح قائداً سياسياً نابهاً كاريزمياً، ونجح في تغيير بلاد العرب، وتاريخ العالم، فقد رفضه متقدوه في الغرب كمدح استغل الدين وسيلة للقوة. ونحن نميل إلى أن نرى القشل والهوان سمات القائد الديني، وذلك لأن العالم المسيحي تسوده صورة عيسى المصلوب الذي قال إن مملكته ليست في هذا العالم. لكننا نتوقع من القادة السياسيين أن يحرزوا انتصارات مبهرة بلغة دنيوية⁽¹⁾.

ونحن، على وجه الخصوص، نرى ما قيل عن أن محمداً حارب طريقه إلى السلام والقوة والنصر أمراً مخزياً. وهكذا، لُقّب الإسلام بدين السيف كعقيدة تخلت عن الروحانية الحقة وكرّمت للعنف وعدم التسامح. وقد طاردت تلك الصورة الإسلام في الغرب المسيحي منذ العصور الوسطى، رغم أن المسيحيين كانوا يشنون حروبهم المقدمة الخاصة في الشرق الأوسط في ذلك الوقت. وفي يومنا هذا تلهو الكتب وبرامج التليفزيون بإبراز عناوين مثل: «حق الإسلام»، و«سيف الإسلام»، و«الحق المقدس»، و«الرعب المقدس». لكن هذا تشويه للحقيقة. فلكل دين عبقرية خاصة، أو بصيرة خاصة تُميّز بحثه عن معنى أو عن قيمة كلية. فمثلاً نجد المسيحية ديانة المعاناة

والمحن بامتيار. وكانت في أحسن أحوالها - على الأقل في الغرب - في أوقات المحن. وقد دعمت قرون الاضطهاد في الأيام الأولى للكنيسة صورة المسيح مصلوباً، وتركت أثراً عميقاً على الروح المسيحية. وهكذا شعر المسيحيون منذ البداية أن عليهم العزوف عن «الدنيا»^(٢).

فمن الطبيعي إذاً أن أصبح تحدى المؤسسة السياسية أو الانفصال عنها فضيلة. وفي عصر الشهداء أصبحت التجربة الدينية العظمى هي المعاناة والموت في سبيل المسيح. فقد كان ذلك برهاناً حياً على رفض القوى الدنيوية للمسيحيين. وأصبحت الفكرة المسيحية القائلة بأن المعاناة تعظيم لشأن البشر، وتغيير لهم، مصدر إلهام ومواساة للملايين التعماء. لكن تلك الفكرة أيضاً أسء استخدامها، إذ شعر المسيحيون أن من واجبهم احتمال الاضطهاد والظلم، إذ إن الله يُساند نظاماً هرمياً يجلس الغنى فيه في قصره بينما يتنظر الفقير عند الباب، حيث إن المعاناة والاضطهاد في الدنيا سيكون لهما أجرهما في الآخرة. وحتى في وقتنا الحاضر يتم تشجيع الأصوليين المسيحيين من قبل قطاعات معينة في المؤسسة الأمريكية أن يشرروا بتلك المبادئ ذاتها في بلدان وسط وجنوب أمريكا. غير أن هناك أيضاً مسيحيين في تلك البلدان يشعرون أن من واجبهم العيش بجانب المضطهدين واليؤساء والاشترار معهم في معارك من أجل مجتمع عادل كريم. وهذا المنظور الأخير هو الذي يجب أن نتبناه كي نفهم «الجهاد الإسلامي»، ذلك التعبير الذي عادة ما يُترجمه الغرب إلى «الحرب المقدسة».

إذاً، هناك ميل حاد قسوى في الغرب المسيحي للنظر إلى النشاط السياسي كشيء خارج نطاق الحياة الدينية. وعموماً فلم يكن المسيحيون يرون النجاح الدنيوى انتصاراً روحياً^(٣). غير أن فكرة الفصل بين الكنيسة والدولة تطورت تدريجياً في أوروبا. ولهذا، فعادة ما تلوم الإسلام لخلطه مجالين هما بطبيعتها متمايزان. لكن الاعراف المسيحية لا يجب أن تكون سبباً في تحيزنا

ضد أعراق حضارية ودينية أخرى تمت في ظل أوضاع مختلفة. فحينما أتى محمد برسالته إلى قومه كانت بلاد العرب خارج نطاق العالم المتمدين، وكان نظامها السياسي والاجتماعي في حالة انحطاط. أما المسيحية فقد ولدت إبان زمن الإمبراطورية الرومانية التي كانت تفرض نوعاً من السلام والأمن الاجتماعي ولو بطرق وحشية، فلم يكن لعيسى والقديس بولس أن يقلقا بشأن النظام السياسي والاجتماعي، لأنه كان مؤسسا بالفعل. وفي الواقع فما كان لرحلات القديس بولس التبشيرية الطويلة أن تتم دون السلام الذي كانت توفره الإمبراطورية. أما في بلاد العرب، فكان دم الشخص الذي لم تكن تتوفر له الحماية (القبلية) مُحللاً في الطريق. غير أنه في نهاية الأمر، أصبحت المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية في أوائل القرن الرابع الميلادي، لكن المؤسسة المسيحية الجديدة لم تشعر أن عليها إيجاد نظام سياسي جديد كلية. فما فعلوه هو «تعميد» القانون والمؤسسات الرومانية القديمة، لذا بقيت السياسة مجالاً منفصلاً.

وخلافاً لعيسى، فلم يتمتع محمد برفاهية الميلاد في «عالم يسوده السلام»^(٤). فقد ولد إبان حمامات الدم التي وجدت في بلاد العرب، حيث كان يجري تقويض القيم القديمة جذرياً دون إبدالها بما هو سوات. وفي البداية، كان محمد يُصرّ على أنه غير ذي دور سياسي، رغم أنه - مثله مثل الأنبياء اليهود - كان يبشر برضالة للعدالة الاجتماعية، لكنه حينما دعى للهجرة إلى المدينة وقعت أحداث لم يكن يتوقعها، ودفعته إلى أن يقبل تحدياً جديداً. وربما أنه كان قد بدأ بالفعل يكون فكرة عن مثال لوحدة عربية لا تتحارب في ظلها القبائل بل تتوحد في شكل مجتمعى جديد. أى أنه في تلك الأونة كانت هناك حاجة ملحة لحل سياسي جديد. وفي القرن السابع الميلادي، كان الحل الديني هو الخيار الختمى. أما في ظروف الهجرة فلم يكن لدى محمد تصور محدد أو سياسة متسقة يأمل من خلالها إنجاز هدف

بالإمكان التعبير عنه بنوع من الاكتمال. كما أنه لم يحدث له قط أن تكونت لديه أنواع من المشاريع الكلية، لكنه كان يستجيب لكل حادث جديد لدى حدوثه، الأمر الذي كان ضرورياً. فإن حركته التدرجية كانت تجاه المجهول وغير المسبوق، ولنا فإن أى أفكار أو سياسات ذات تعريفات واضحة كانت لا بد وأن تنتمى بشكل ما إلى النظم القديمة المتفخخة. غير أن الأفضلية الأولى لديه، وفوق كل شيء، كانت لله.

وبعد الهجرة إلى المدينة، وحينما بدأ محمد فى اتخاذ قرارات أكثر، ذات طبيعة اجتماعية أو سياسية، نلاحظ أيضاً تغيراً فى سور القرآن، فيحل محل السور ذات الشعرية عدم الترابط المنطقى، والسور التى تتمم بما لا تعبر عنه الكلمات عن قدس الأقداس، سور ذات طبيعة أخلاقية عملية، تضع تشريعات جديدة، أو تعلق على وضع سياسى قائم. لكن هذا لا يعنى ما يقوله الدارسون الغربيون بأن رؤية محمد الخالصة قد لوثتها شهوة السلطة. فإن أى موضوع يناقشه القرآن يركز بوضوح على نقطة المرجعية الإلهية. حتى قيل إنه لا يوجد مفهوم قرآنى واحد غير ذى مركزية إلهية. ويواجه القرآن المسلمين فى كل موضع بالتحدى الأكبر وهو: هل سيستلمون مؤمنين لمشيئة الله أم أنهم سيركثون إلى آرائهم المحدودة؟ ورغم ما تظهر به بعض العبارات من ذنوبية فى الترجمات، فإن الأسلوب القرآنى يتسم بالجلال فى الأصل العربى. وتحافظ موسيقى الألفاظ وترتيب الكلمات على ذلك السمو فى المواضع الحالية من الشعرية، مثل الصور عن معاملات السوق حين يتحدث القرآن مثلاً عن إقراض الله قرضاً حسناً فيضفى على الصورة المستعملة قدسية النص. ويظل التكامل هو التجربة الرئيسية. فالمسلمون حينما يستمعون إلى جزء قصير من القرآن يتذكرون القرآن ككل. فتستحضر العبارات الدائمة التكرار (والتي تبدو مضجرة فى الترجمات) إلى ذهن القارئ مقاطع أخرى وتعمل على أن يتركز الذهن على النقطة الجوهرية. وهكذا، ومع تزايد دور

محمد كرجل دولة، ظل يوحى إليه بكل ما فى الكلمة من عمق، بالإضافة إلى أنه كان فى طريقه إلى إيجاد حلٍ يعم السلام بمقتضاه بين العرب.

غير أنه، وبالرغم من الدور السياسى الذى اضطلع به محمد مؤخراً فى حياته فقد ظلت رسالته الاجتماعية مرتبطة ارتباطاً عضوياً برويته الدينية، أى أنها لم تكن عملاً مضافاً أو فكرة لاحقة. فحينما يبحث القرآن المسلمين على تأمل آيات الله فى الطبيعة يكون ذلك من أجل أن يطور المؤمنون حساً بالتنظيم الإلهى. فالأسماك والطيور والحيوانات والجبال لا خيار لها فى الانصياع أو عدمه للخطة الإلهية. أى أنها تعبر فى كل لحظة من تواجدها عن إرادة الخالق لها. وعلى هذا، فالمسلمون - دون أن يكون لهم خيار شخصى - هم مسلمون بالطبيعة، يخضعون لإرادة الله، وهم بذلك يتمكنون من تحقيق إمكاناتهم. فإن البشر وحدهم هم الذين منحوا للمسئولية الرهية للاختيار الحر.

ويصور موضع رائع من القرآن الله وهو يعرض الأمانة (الحرية) على كل مخلوقاته الأخرى التى ترفضها، أما الإنسان فقد كان من التهور بدرجة جعلته يقبلها:

﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾^(٥) (الاحزاب: ٧٢).

غير أن الله لم يترك البشر دون هداية. فقد أرسل رسلاً لا يحصون لكل الشعوب على وجه الأرض كي يعلموهم ما أراده لهم. لكن ومنذ آدم، أول الأنبياء، رفض البشر الإنصات إلى تجليات الإرادة الإلهية. فهم إما فشلوا فى استيعاب الرسالة، أو لم يطبقوها فى حياتهم اليومية. وبدلاً من ذلك استغلوا العالم الطبيعى استغلالاً مشيناً. كما يبين القرآن كيف رفضت الأتوام، واحدة بعد الأخرى، إطاعة حتى أبسط أوامر أنبيائهم^(٦). وهكذا تصدعت تلك

المجتمعات التي لم تُشَدِّد كما يجب، بل عمدت إلى تحقيق أهدافها الانانية، وجعلت من نفسها مركزاً للكون. ولأن تلك الأقوام لم تتقبل الخطة الإلهية لتصرفات الإنسان، فقد أفسدت النظام الطبيعي، كالبحار، تُحدث الدمار والفوضى، إن هي طغت فجأة على حدودها. وبما أن قريشاً رفضت الإنصات إلى نبيها، فإن مجتمعها هالك. ولقد أنذرهم محمد بكارثة وشيكة الوقوع، وذلك لا يرجع لتخليه أن الله سينزل الصواعق على مكة في نوبة غضب إلهية ولكن لأن قريشاً كانت تُصر على إفساد النظام الحق.

غير أن الأمور لم تكن قد وصلت إلى نهايتها. فقد منح الله أهل المدينة فرصة الاستماع إلى قرآنهم العربي، كما أن محمداً سيتمكن من إقامة مجتمع طبقاً للخطة الإلهية في تلك الواحة. وبالمثل، فقد حقق بعض الأنبياء السابقين نجاحاً أكثر من غيرهم. فقد تمكن إبراهيم من إقناع عددٍ لا بأس به من الناس بأن هناك إلهاً واحداً، وكذلك تمكن موسى وعيسى من إقناع أهل الكتاب بتكريسهم للتوارة والإنجيل. وسيتمكن محمد أيضاً أن يقنع، ليس فقط أهل المدينة، بل معظم القوم في بلاد العرب، بالحقاق بآمته. وفيما بعد، سيُعتبره المسلمون أكثر الأنبياء تحقيقاً للنجاح. وهم أيضاً يؤرخون للفترة الإسلامية، لا بميلاد محمد أو باليوم الأول لتلقيه الوحي (فلم تكن تلك أحداثاً فريدة)، لكن بسنة الهجرة حيث بدأ المسلمون الخطة الإلهية في التاريخ الإنساني.

وسيوذي ذلك بالمسلمين إلى الدخول في أكثر المعارك خطورة وإجهاداً. فقد وصل محمد إلى المدينة في سبتمبر ٦٢٢م كلاجئٍ نجاً من الموت بأعجوبة، واستمر ذلك الخطر على حياته لسنوات خمس قادمة واجهت خلالها الأمة احتمال الإبادة. وفي الغرب، غالباً ما تتخيل محمداً قائد حرب ماضياً يلوح بسيفه ليفرض الإسلام على مجتمع كاره له بقوة السلاح. أما الحقيقة فكانت جد مختلفة. فقد كان محمد والمسلمون الأوائل يكافحون في

سبيل الإبقاء على حياتهم، كما أنهم كانوا قد أخذوا على عاتقهم مسئولية كان العنف معها حتمياً. فلم يحدث أبداً أن أنجز تغيير اجتماعي أو سياسي جذري دون إسالة دماء، ولأن محمداً كان يعيش في فترة اضطراب وانحطاط، فلم يكن هناك سبيل سوى السيف لتحقيق السلام. والمسلمون ينظرون إلى سنوات محمد في المدينة على أنها عصر ذهبي. غير أنها كانت أيضاً سنوات أسي ورعب، فلم تتمكن «الأمة» من إنهاء حالة العنف والخطر في بلاد العرب إلا بجهد قاس.

وبدأ القرآن يحث مسلمي المدينة على المشاركة في الجهاد، وهذا يتطلب ضمن ما يتطلب، القتال وإسالة الدماء. غير أن جنر اللفظ «جهاد» يعني أكثر من مجرد حرب مقدسة. فهو فال على مجهود جسماني وأخلاقي وروحاني وعقلي. كما أن هناك أفضاظاً عربية كثيرة تعني الاشتباك الحربي بالأسلحة، ومنها «الحرب والقتال والصراع والمعارك والقتل»، وكان يمكن للقرآن استعمالها لو أن الحرب كانت هي الوسيلة الأساسية للقيام بهذا الجهد. وبدلاً من ذلك، يختار القرآن لفظاً أقل تحديداً وأكثر ثراء، ذا مجالات متشعبة من ظلال المعنى.

والجهاد ليس أحد أركان الإسلام الخمسة. وخلافاً للرأي السائد في الغرب فهو أيضاً ليس دعامة الإسلام المحورية. لكن، يظل من واجب المسلمين أن يلتزموا بالنضال على جميع الجبهات، الأخلاقية منها والسياسية والروحية من أجل خلق مجتمع عادل كريم جدير بالاحترام، يعيش فيه الإنسان وفقاً لإرادة الله، ولا يُستغل في ظله الفقراء وغير المحصنين. وقد يكون الحرب والقتال ضرورة في بعض الأحيان، لكن ذلك جزء ثانوي من الجهاد أو النضال. وهناك حديث مروى عن محمد لدى رجوعه من إحدى المعارك حيث قال ما معناه: «لقد عدنا من الجهاد الأصغر، إلى الجهاد الأكبر»، أي أن الجهاد الأكبر صعوبة وحسماً هو هزيمة قوى الشر في نفس الإنسان، وفي مجتمع الإنسان، في جميع تفاصيل الحياة اليومية.

وحالما اضطلع المسلمون بالهجرة كانوا يعلمون أن عليهم الاستعداد للقتال. وكان الأتصار قد عقدوا ميثاق حرب عند العقبة، ثم حدث بعد وصول محمد بفترة وجيزة أن تلقى وحياً يسمح للمهاجرين أن يحاربوا هم الآخرون:

﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾ (٧٦) (الحج: ٣٩ و ٤٠).

وبدا القرآن يطور تشريعات للحرب العادلة، إذ إن الحرب تكون أحياناً ضرورية للحفاظ على القيم الفاضلة. ولولا استعداد بعض المتدينين من الناس لدفع الهجوم لخطمت، مثلاً، جميع أماكن عبادتهم. والله سينصر المسلمين فقط إن هم أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ووضعوا قوانين عادلة شريفة وأوجدوا مجتمعاً كريماً.

وتشير الآيات فقط إلى المهاجرين الذين وقع عليهم ظلم تريش حينما طردوا من منازلهم في مكة، فلم يكن الأتصار قد منموا بعد إدناً بالمشاركة في القتال، لأنه لم يكن بينهم وبين أهل مكة نزاع ذو صبغة رسمية. غير أنه لا يجب علينا أن نفسر تلك الآيات على أنها توحى أن محمداً كان لديه تصور لحرب شاملة مع مكة في ذلك الوقت المبكر. لأن ذلك كان يعنى ضرباً من الجنون. إذ إن ما كان يدور بخلده هو هجوم أكثر تواضعاً بكثير، أى: غزوة أو غارة، الأمر الذى كان، ونوقت طويل، ضرباً من ممارسات التسلية العنيفة في بلاد العرب، كما أنها كانت وسيلة مقبولة للكسب فى أوقات الشدة. فلم يكن لدى المهاجرين سوى الضئيل من القرص لكسب العيش فى المدينة. وكان معظمهم ممن اشتغلوا بالعاملات المالية، ولذا كانوا لا يعلمون

شيثاً عن زراعة التمر، حتى لو أنه توفرت لهم أراضٍ ليبدؤوا فيها مشروعات زراعية. لذا اعتمدوا على الانتصار في معيشتهم، بذلك كان بالإمكان أن يُصبحوا عائلة تستنزف موارد الأمة. ولم يكن باستطاعة الجميع فعل ما فعله ذلك التاجر الشاب التابع عبد الرحمن حال وصوله إلى المدينة، والذي سأل ببساطة عن الطريق إلى السوق وسرعان ما ضمن لثمنه دخلاً بفضل براعته في البيع والشراء. لكن فرصة التجارة في المدينة كانت ضئيلة. أما المضاربات التجارية واسعة النطاق فكانت قد احتكرتها مكة لنفسها.

أما الغزو فقد كان طريقاً جاهزاً وِعراً يضمن تداولاً لا بأس به للثروة المتاحة في عصر البداوة. فقد كان من عادة الغازين أن يهاجموا أراضي القبيلة المعادية ويستولوا على بعيرها وماشيئها وغيرها من المتاع. ورغم هذا، فقد كانوا يحرصون على تحاشي سفك الدماء لما يترتب على ذلك من أفعال ثأرية. أما موقع المدينة، فكان مكاناً مثالياً لمهاجمة قوافل مكة في طريقها من الشام وإليها، حيث لم يكن يحرسها سوى تجار قلائل. وبناء على ذلك، أرسل محمد عام ٦٢٣م مجموعتين من المهاجرين للغزو ومهاجمة القوافل، ولم ينعب هو. بيد أنه أوكل أمر الحملات إلى رجال مثل حمزة، وعبد الله ابن الحارث المحارب المتمرس، ولم يتوقع أحد أن تلغى تلك الحملات عقائد أحد، ولا بد أن القوم قد أدهشتهم جرأة المسلمين على مهاجمة ذويهم الاقوياء. غير أن غزوات عام ٦٢٣م لم تنجح نجاحاً كبيراً، فإن الحصول على معلومات دقيقة عن تحرك القوافل كان من الصعوبة بمكان. ورغم أن المسلمين لم يتمكنوا من الاستيلاء على أية بضائع، وأنه لم يحدث أي اشتباك قتالي، فقد تضايق أهل مكة وانزعجوا، إذ أصبح عليهم أن يأخذوا حذرهم - الأمر الذي لم يكن من قبل ضرورياً - كما أن القبائل البدوية على طول الساحل المفضل للتجارة، أي ساحل البحر الأحمر، لا بد أنها أعجبت بإقدام المسلمين. ورغم فشل هؤلاء الغزاة المبكرين في الهجوم على القوافل، فقد

عقدوا معاهدات مع بعض القبائل التي كانت تحتل مواقع استراتيجية في نقاط متنوعة على طول الطريق. وفي سبتمبر من عام ٦٢٣م قرر محمد أن يقود بنفسه غزوة ضد قافلة كبيرة يقودها أمية من عشيرة جمح، والذي كان قد سام أبا بكر العذاب من قبل. وكانت تلك القافلة تتكون من ٢٥٠٠ من البعير. ونظراً لأن الغنائم كانت تبدو واعدة، فقد تطوع حوالي مائتي مسلم للذهاب معه. غير أنه حدث مرة أخرى أن راوغت القافلة المسلمين، ولم يحدث قتال.

أما في أشهر الشتاء، فكانت قريش ترسل قوافلها إلى اليمن فقط، وعلى هذا، فلم تكن تلك القوافل تمر بالمدينة. لكن محمداً، ومن أجل أن يبرهن لقريش عن جدية نواياه، فقد أرسل فريقاً صغيراً من الغزاة يتكون من تسعة رجال بقيادة ابن عمته عبد الله بن جمح لمهاجمة إحدى القوافل المتجهة جنوباً. وكان ذلك في نهاية شهر رجب «الحرام» (يناير ٦٢٤م) حيث كان يحرم القتال في أنحاء الجزيرة. وأعطى محمد عبد الله بعض التعليمات في رسالة مغلقة لا تفتح إلا بعد يومين من رحيل الحملة، وأخذ منه عهداً ألا يمارس أي ضغوط على دفاقه، فقد كانوا في سيلبوم للاقتراب من مكة بدرجة أكبر من أي وقت مضى، وكان احتمال الخطورة أمراً وارداً.

وفتح عبد الله الرسالة بعد يومين. وتمدنا المصادر بروايات مختلفة عن نص الرسالة. فبينما يذكر ابن إسحق أن المسلمين أمروا بالذهاب إلى نخلة، بين مكة والطائف، وأن يقوموا فقط بالتجسس على القافلة، يروي محمد بن عمر الواقدي مؤرخ القرن التاسع الميلادي أن فحوى الرسالة كان أمراً للمسلمين أن يذهبوا إلى وادي مكة وقيموا كميناً لقريش^(٨). ويخبر ذلك أنه كان على المسلمين أن يتفكروا حرمة الشهر الحرام. وفي حالة تصديق الرواية الثانية، فيمكن القول إنه لم يكن لدى محمد الكثير من المحاذير في ذلك الوقت. فقد كانت تلك الأشهر الحرم مازالت جزءاً من النظام الوثني الذي

كان يحاول هو التغلب عليه، وربما بدا انتهاكه لها مساوياً للتقليل من شأن تلك الآلهة الوثنية. ويبدو أن اثنين من الغزاة رغبوا في أن يستبعدا أنفسهما من الحملة، وذلك لأنهما قدما بغيرهما حينما توقفت الحملة بعد ذلك، وطلباً من السبعة الباقين المواصلة دونهما. وحينما وصل عبد الله وصحبه إلى نخلة، وجدوا قافلة صغيرة قد توقفت قرب الموقع. وكان اليوم هو الأخير من شهر رجب. فإن هم انتظروا حتى اليوم التالي حين يسمح بالقتال، فتكون القافلة قد وصلت إلى الحدود الآمنة لمكة. وهكذا قرروا أن يهاجموها. وقتل السهم الأول واحداً من التجار الثلاثة، واستسلم الآخران فوراً. واصطحب عبد الله الغنيمة والرجلين عائداً إلى المدينة.

لكن، بدلاً من الترحيب بهما أبطالاً فاتحين، فقد هال أهل المدينة الأمر، عندما سمعوا أن الغزوة قد انتهكت الشهر الحرام. وكما رأينا، فلم يُقلق عرب المدينة إلغاء محمد عبادة الآلهة الوثنية، فقد كان اليهود قد أعدوهم للرؤية التوحيدية، وكانوا مستعدين تماماً لتبذ ذلك الجزء من الديانة الوثنية. غير أنهم، وبدون شك، كان إحساسهم قوياً جداً تجاه الأشهر الحرم ولم يكونوا مستعدين للتخلي عن هذه القيمة الدينية. وقام محمد بالتبرؤ من الحملة ورفض تقبل الغنيمة. وكان ذلك تصرفاً برجماتياً عملياً، رغم أنه يبدو وكأنه يحيطه الشك كعمل ذرائعي، فإن محمداً لم يكن يطبق تقديم أي تنازلات في الأساسيات، فقد حدث أن عرض حياة المسلمين للخطر حينما رفض حلاً من قريش يسمح بأحادية العبادة مع الاعتراف بوجود آلهة أخرى. أما في ذلك الوقت، فقد كان بسبيله لإرساء دين الله تدريجياً، خطوة خطوة، وكما تتكشف الأحداث. ولم يكن لديه أي تصور تفصيلي كلي واضح عن الدين في البداية، وكان يعمل منفرداً في غياب موروث راسخ. لذا، فقد كان عليه أن يتحسس طريقه للأمام عن طريق المحاولة والخطأ. وربما كان على استعداد تام للتخلي عن الأشهر الحرم، فلم تكن تبدو حيثتذ ذات

قيمة دينية رئيسية. وعلينا أيضاً أن ندرك أن الممارسات الوثنية كانت تتفاوت تفاوتاً كبيراً في أنحاء الجزيرة المختلفة. ومن غير المحتمل أن محمداً كانت لديه أدنى فكرة عن أنه كان للمدنيين ذلك الشعور القوي إزاء تلك الممارسة التي كانت حينها مرتبطة بالوثنية. ولكنه، حينما عادت الغزوة ورأى استياء الأنصار، تأكد أنه قد داس على أحاسيسهم الدينية دون قصد منه، ولم تكن أيضاً هناك فائدة من التمسك بالموقف بعناد. وعلى ذلك فقد رأى أنه إذا كان القوم يرغبون في الإبقاء على الأشهر الحرم فليسمح لهم بذلك، لأنه ليس في تلك الممارسة ما يضير دين الله.

وحزن عبد الله ورفاقه حزناً شديداً حينما تبرأ محمد من الغزوة. فقد بدا لهم وكأنهم اتخذوا قراراً خاطئاً، وأن خلاصهم نفعه مُحاطاً بالخطر. وكان واجب محمد أن يقدم لهم السلوان، وأيضاً أن يتحسس طريقه للأمام مرة أخرى. وكانت تلك مناسبة لتأسيس أقوى لفته الحرب. نعم، لقد كان من الخطأ الاقتال في الأشهر الحرم، لكن هناك جرائم أسوأ من ذلك. فالأشد خطورة هو أن يضطهد الناس، كما اضطهدت قريش المسلمين، متهكاً بذلك أقدس قيمة عربية، وذلك بطردهم من القبيلة، وأحياناً يكون على مبعوث الإله أن يقابل ظلماً يتنا كهنا ونزلت الآية التي حددت الأمور:

﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل﴾ (٩) (البقرة: ٢١٥).

وكان لتلك الآية أثرها في حل أزمة الموقف. أما اليهود فقد استمروا في الشجب بعنف، لكن الأنصار، ومعهم فريق الغزوة، اطمأنوا. وتمكن محمد من تقسيم الغنائم بين المهاجرين، كما بدأ المفاوضات مع قريش لتبادل الأسرى، أي أنه عرض أن يطلق سراح التاجرين الأسيرين ويبادلها بمسلمين كانا في مكة، ويريدان الهجرة. غير أن أحد الأسيرين، وهو حكم بن

كَيَان(٥)، تأثر بما رآه في المدينة، وقرر البقاء هناك واعتناق الإسلام. وذلك الحدث مثل جيد لأسلوب محمد في العمل. فقد كان على استعداد للموت في سبيل عقيدته، لكنه أيضاً كان على استعداد للمقايسة بشأن ما هو غير أساسى. وكان، في غياب نظام أخلاقى راسخ، يدرس الأحداث جيداً، ويرى فيها تجلياً لمشيئة الله (وهذا مبدأ راسخ في تاريخ الديانات التوحيدية) فلم يكن محمد يتوقع أن تثير الغزوة ذلك القدر من الاعتراضات، ولكن عندما حدث ذلك، اعتقد أن الله أراد توضيح أمر مهم له. وتلك الحادثة ساعدت على تأسيس مبدأ مهم في الإسلام، فالمسلمون يحترمون رسالة عيسى السلمية (رغم أن القرآن يشير إلى أن المسيحين قد يولعون أحياناً بالقتال)(١٠). ولكن المسلمين يقبلون باستعمال القوة أحياناً فلو أن الطغاة والأنظمة الكريهة لم يتم قمعها بالسطوة العسكرية، لغمر الشر العالم أجمع. وكذلك، فقد أجبر الأنبياء السابقون أحياناً على الحرب والقتال، فلقد قتل جالوت بعون من الله.

﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ (البقرة: ٢٥١).

ويتفق مسيحيون كثيرون على مفهوم الحرب العادلة لأنهم يعلمون أن المعركة المسلحة ضد أمثال هتلر وميسيكو هي الطريقة الوحيدة المؤثرة. ولهذا، فبدلاً من أن يكون الإسلام ديناً سلبياً يدير الخد الآخر، فهو دين يقاتل الطغيان والظلم.

وقد يشعر المسلم أن عليه واجباً مقدساً في مناصرة الضعيف والمقهور. وحينما يتحدى المسلمون اليوم القتال ضد أعدائهم فهم يلبون ذلك المثل القرآنى (١٢).

(٥) ورد خطأ في النص الإنجليزي "kaysar". (انحرور)

وتوقع المسلمون معركة دامية لأن قريشاً كان لابد لها أن تتقم لمن قتل في نخلة، غير أن المسلمين كانوا قد أصبحوا أكثر ثقة في أنفسهم. وبعد ذلك بأسابيع قليلة، وخلال شهر رمضان (مارس عام ٦٢٤م) قاد محمد جيشاً إلى الساحل ليقطع الطريق على قافلة لأهل مكة كان أبو سفيان يقودها عائداً من الشام. وكانت تلك إحدى أهم قوافل ذلك العام. وتطوع ثلاثمائة وخمسون مسلماً بينهم سبعون مهاجراً والباقيون كانوا من الأنصار. وسارت الحملة تجاه بئر بدر قرب البحر الأحمر حيث كان يعقد سوق تجارى عربى كبير كل عام. وهناك كانوا يأملون في قطع الطريق على القافلة. وكان لغزوة بدر أن تصبح أحد أهم الأحداث الحاسمة والفعالة في تاريخ الإسلام المبكر، لكن أحداً لم يكن يتوقع في حينها أن تكون ذات أهمية. فقد كانت مجرد غزوة أخرى. واختار بعض المسلمين من ذوى الالتزام العميق مثل عثمان بن عفان، والذي كانت زوجته رقية قد مرضت مرضاً خطيراً، ألا يذهبوا.

وبدا وكأن القافلة ستهرب كالمعتاد. فقد كان أبو سفيان شديد الدهاء والمقدرة. وسرعان ما اشتتم أخيار مغامرة المسلمين بسؤاله الناس في الطريق. وبدلاً من أن يسلك الطريق المعتاد عبر الحجاز إلى مكة، أخذ منحني حاداً يميناً تجاه الساحل. ثم بعث ضمضم، من قبيلة غفار المحلية لطلب المساعدة على وجه السرعة، ودخل ضمضم مكة بطريقة درامية مشيرة. وفي هذا الصدد، يتذكر العباس عم النبي، كيف أن المدينة بأكملها تجمدت من الرعب وهي تتسع إلى «صوت ضمضم وهو يصرخ يبطن الروادى واقفاً على بعيره قد جدع بعيره وحول رحله وشق قميصه وهو يقول يا معشر قريش، اللطيمة.. اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث» (١٣).

واستشاطت قريش غضباً. وتساءلوا إن كان محمد يعتقد أن بإمكانه الامتلاء على أكبر قافلة في ذلك العام بنفس السهولة التي نجح بها كمينه

لقافلة نخلة الصغيرة. واستعد كل قادة قريش للقتال حتى إن أمية بن خلف، الشيخ البدين، قام بحشر جسده في درعه. وسُحح لابي لهب أن يتخلف، لكن العباس سار ليواجه ابن أخيه مع طالب وعقيل (ولدى أبي طالب اللذين لم يعتنقا الإسلام)، وكذلك حكيم بن حزام ابن أخى خديجة. وفي ذلك المساء، سار نحو ألف من الرجال إلى خارج مكة متوجهين نحو بدر.

وحيثما سمع محمد تلك الأخبار المخيفة قام بعقد مجلس حرب، ولما لم يكن محمد القائد الحربي للأمة، لذا لم يكن بوسعه إقرار أفضل الوسائل لمواجهة تلك الأزمة الطارئة دون التشاور مع الرؤساء الآخرين. وكان المتطوعون المسلمون قد أتوا ليشاركوا في الغزو لا في معركة ضارية. وتساءلوا: هل لهم أن ينسحبوا مادام هناك وقت لذلك، أم يكثروا ويقاتلوا قريشاً؟ ثم هل هناك أمل في الاستيلاء على القافلة قبل وصول الجيش؟ وقام أبو بكر وعمر بإلقاء خطب حماسية، وأقسم سبعون من المهاجرين على البقاء في بدر مهما كلفهم الأمر، ويرغم أنهم سيجدون أنفسهم في مواجهة مع أقرباء حميين، وأصدقاء سابقين، وشكر لهم محمد ذلك، ثم اتجه إلى الأنصار، وكانوا قد وعدوا في العقبة الثانية بالدفاع عنه إن هو هُوجم في المدينة، وتكلم سعد بن معاذ نيابة عنهم قائلاً: «فقد آمننا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامضي يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا ذلك البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد. وما نكره أن نلقى عدونا غداً! إنا لصبرٌ في الحرب، صدقٌ في اللقاء» (١٤).

وتلك كانت كلمات شجاعة. لكن أيضاً من الطبيعي أن المسلمين كانوا يأملون في عدم القتال. وأيضاً أن يُسلم الله إليهم أبا سفيان قبل وصول قريش، وبذلك يمكنهم الانسحاب انسحاباً شريفاً. ثم قام المسلمون بأسر اثنين

من السقاة عند بئر بدر، وأخبر الرجلان المسلمين أنهما ليسا ضمن القافلة بل هما من جيش مكة. وأخاف ذلك الأمر الأسيرين لدرجة أنهم أخذوا يضربون الأسيرين اعتقاداً منهم أنهما يكذبان. وأنهى محمد الموقف، ثم استجوب الرجلين بنفسه، وحينما أخبراه أن قريشاً قد سيرت جيوشها ضده، أخبر هو رجاله أن القتال قد بدأ.

وفي تلك الأثناء، تمكن أبو سفيان أن يروغ من محمد. وحالما ابتعد بالقافلة عن منطقة خطر المسلمين أرسل إلى المقاتلين مبلغاً يياهم بسلامة القافلة وأن عليهم جميعاً العودة إلى مكة. ولعل أبا سفيان كان يخشى الكعب الشخصى لأبى جهل وصعود نجمه بين القوم من جراء تلك الحملة. وكان أبو سفيان مخططاً داهية، ولعله كان يأمل مثل محمد فى مصالحته نهائية. لكن أبا جهل رفض فكرة التفهقر، وقال: «والله لا نرجع حتى نرد بدرأ... فنقيم عليهم ثلاثاً فتحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرتنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها. فامضوا»^(١٥). لكن لم يكن الجميع، وخاصة بعد أن اطمأنوا على القافلة، بمثل هذا الحماس. فقد انسحبت قبائل بنى زهرة وعدى فوراً؛ قلقاً وتخوفاً من الطوة التى سيمنحها لأبى جهل الانتصار العسكرى والمعنوى على محمد. ولحق طالب، ولد أبى طالب، بنى هاشم، لأنهم لم يكونوا ليتجاسروا على محاربة رجال عشيرتهم. لكن العباس وحكيماً استمرا مع الجيش المكى.

وحال وصولهم إلى بدر واستقرارهم فى مخيماتهم بعث المكيون عمير بن وهب الجمحى ليلقى نظرة على جنود محمد. وهاله التصميم الضارى الذى ارتسم على وجوه المسلمين، ونصح قريشاً بعدم القتال رغم تفوق عدد جنودهم على جنود المسلمين بما يبلغ الضعف. وقال لهم: «ما وجدت شيئاً، ولكنى رأيت يا معشر قريش المتايا نواضح يثرب تحمل الموت الناقع». وقد

كان المكيون يتوقون إلى الاشتباك كنوع من رياضة الفروسية، لكن مجرد نظرة إلى وجوه المسلمين، أفنعت عميراً أنه لن يموت أحد منهم قبل أن يقتل واحداً على الأقل من قريش. وتساءل عمير بياس: «فإن أصابوا متكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟»^(١٦)، ولم يكن العرب ليخاطروا في الحرب بما ليس ضرورياً. فقد كانوا دائماً يتحاشون الأعداد الكبيرة من الإصابات، إذ إن الحروب القبلية لا تنتهي، وطبيعة الحياة المحفوفة بالمخاطر في بلاد العرب جعلتهم يحرصون على الحفاظ قدر الإمكان على القوى البشرية. وكان هناك من قريش من هم غير مرتاحين لقتال أفراد من قبيلتهم وعائلاتهم. فمثلاً، تأثر حكيم بن حزام بكلمات عمير للدرجة أنه ذهب فوراً إلى عتبة بن ربيعة راجئاً إياه أن يحاول منع القتال. وكان عتبة ولى الرجل الذي قتله المسلمون في نخلة، وأقنعه حكيم أن يتولى أمر الثأر له بنفسه حتى يرضى شرفه. ورأى عتبة حكمة ما قاله حكيم، ونهض فخطب الجنود قائلاً: «يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً: والله لئن أصبموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته»^(١٧). ولم يكن أهل قريش بالمحاربين. ولم يكونوا مؤثرين أو متمرسين في ميدان القتال. وكانوا دائماً يفضلون التفاوض المخادع على الحل العنيف. لكن أبا جهل لم يكن يستمع إلى صوت العقل. فأجاب مُتَّهماً عتبة بالجبن وأنه كان يخشى أن يُقتل ابنه الذي كان قد ذهب إلى محمد. ولم يكن هناك عريبي يتحمل تهمة الجبن. ويقول ابن إسحق إنه عقب ذلك «حميت الحرب، وحقب أمر الناس، واستوثقوا على ما هم عليه من الشر، وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة»^(١٨).

ولم يكن المسلمون أيضاً يرغبون في القتال. لكن الآن قد حسم الأمر وارتفعت أرواحهم المعنوية. ولم يكن محمد قد رأى الجيش المكي، ولم تكن لديه فكرة عن عدده. وربما لو كان الأمر كذلك لعدل عن رأيه بشأن القتال.

وكان قد مَوَّضَع رجاله جانب الأبار، الأمر الذي حرمت قريش معه من المياه، وكان يعنى ذلك أيضاً لقريش أن يواجهوا الشرق والشمس فى أعينهم . وكان زخ الأمطار قد ييسّر الرمل وسهّل حركة المسلمين، بينما صعّب حركة المكين الذين كان عليهم أن يجاهدوا كى يتسلقوا التل .

وكما كانت عليه الممارسات فى بلاد العرب، بدأت معركة بدر بمبارزة فردية، بارز فيها ثلاثة من قادة المسلمين وهم: حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث ثلاثة قرشيين: هم عتبة، وشيبة والوليد بن عتبة، والذين كانوا يتأرون لقتل الرجل فى نخلة . وقتل القرشيون الثلاثة بينما تلقى عبيدة بن الحارث المسلم طعنة خطيرة، ونقل من ساحة المعركة، وبدأ القتال بحماس . وللدعشة قريش، فقد وجدوا أنهم - رغم تفوق عددهم - كانوا ييلون بلاء سيئاً . فقيد كانوا يقاتلون بالأسلوب العربى القديم حيث يقود كل زعيم رجاله بشيء من عدم الاكتراث والتظاهر بالشجاعة، ولذا فقد كانت تعوز جيشهم القيادة الموحدة، أما جيش المسلمين، فقد كان يخضع للتنظيم الشديد، كما أنهم كانوا فى حالة استبسال دفاعى، وكانوا قد تم تدريبهم بعناية من قبل محمد . وفجأة ظهر محمد مخططاً حربياً تكتيكياً بارعاً . فقد وضعهم فى تنظيمات متلاصقة بدأت يامطار العدو بالسهام، ولم يسحبوا جيوشهم للقتال وجهاً لوجه إلا فى اللحظات الاخيرة . وعند منتصف النهار، كان الخوف والرعب قد سيطرا على قريش، الذين كانوا قد ظنوا أن عليهم فقط استعراض قوتهم، وفروا فى فوضى تاركين وراءهم خمسين قتيلاً من قادتهم، بينهم أبو جهل نفسه .

وغمر الفرح المسلمين . وأخذوا يحيطون بالأسرى طبقاً للأسلوب العربى المعتاد . وشرعوا فى قتلهم . لكن محمداً أمرهم بالتوقف . ونزلت آية مفادها إعتاق الأسرى بالفدية . وأيضاً أوقف محمداً تنازع المسلمين حول الغنائم . وقسمت الإبل المائة والخمسون، والخيول العشرة والدروع والمعدات بالتساوى .

وبدأ الجيش المتصر يأخذ طريقه ومعهم سبعون أسيراً، بينهم سهيل كبير عمير، وعباس، وابنا عم النبي عقيل ونوفل. وفي طريق عودته أوحى إلى محمد بآية خاصة بالأسرى أنفسهم:

﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويفقر لكم والله غفور رحيم﴾ (١٩)
(الأنفال: ٧١).

وهكذا تطلع محمد إلى الوفاق النهائي وهو في غمرة السعادة بالنصر. ولقى المقاتلون ترحيباً حاراً لدى دخولهم المدينة. وتسبب ذلك في شعور قبائل اليهود الثلاث وفريق ابن أبي (هـ) بالخيبة.

ومن الصعب المبالغة في وصف الأثر المعنوي لفرزوة بدر، فقد كان محمد لسنوات موضع الاحتقار والإهانات. لكن بعد هذا النجاح المذهل غير المنشود كان على الجميع في بلاد العرب أن يأخذوه مأخذ الجد. كما أن النصر غير المتوقع، أو التغير المفاجئ في الأقدار في تاريخ الحروب المقدسة في الديانات التوحيدية الثلاث، يبدو أنه فعل إلهي يملأ القوم دوماً بالشقة والافتتاع (٢٠). ومثلهم مثل الصليبيين في موقف مشابه، تعرض المسلمون لما يشبه ما قد يطلق عليه في الغرب الهلوسة الجماعية، ووأوا جحافل من الملائكة تقدم لساعتهم. ومن منظور لهم متأخر عن الحدث، بدا لهم كل شيء من ترتيب الله. فقد قادم الله للنصر رغماً عنهم تقريباً. فلم يكونوا يتوقعون أن يخوضوا معركة، كما أنهم كانوا غير متحمسين للقتال، وحتى جهلهم بالفوق العدى لعدوهم بدا لهم جزءاً من خطة إلهية (٢١). وحدث في لحظة ما، أثناء القتال، أن ألقى محمد بحفنة من الجمرات على العدو، فيما بدا وكأنه فعل طقوسى تقليدى؛ لكن بعد النصر صور القرآن ذلك الفعل

(هـ) لعنه عبد الله بن أبي بن سلوة، وجماعته من المنافقين. (المعمر).

ومحمداً وصحبه على أنهم مجرد وسيلة لتنفيذ إرادة الخالق:

﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى
وليلى المؤمنين منه بلاء حسناً إن الله سميع عليم ﴾ (الأنفال: ١٧).

وكانت قضية المسلمين، حتى بدر، تبدو وكأنها أمر ميثوس منه، لكن بعد ذلك النصر تملكتم المسلمين الثقة والبهجة، وبدا كأن شيئاً لن يقف في سبيلهم:

﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألقاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون، الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين ﴾. (الأنفال: ٦٥ و٦٦).

غير التأكيد كان على الصبر، ودائماً يؤكد المؤرخون الأوائل على الرصانة والجدية التي كانت تميز الجهاد. ولم يكن هذا تعصباً هستيرياً، لكنه كان اختصاراً صارماً لقوة التحمل. وكان محمد وصحبه الأكثرون حنكة، يعلمون جيداً أن ذلك النصر قد وضعهم على طريق وعر قد يدمر الأمة. فلكى يستعيدوا شرفهم ومنزلتهم التي يعتمد عليها نجاحهم كان على قريش أن تثار. ورغم أن المسلمين لم يكونوا قد اعتزموا ذلك، فليته بدا وكأن الله قد دفع بالأمة إلى حرب كاملة ضد أقوى قبيلة في بلاد العرب.

وقد تبدو فكرة تدخل الله في مسار التاريخ وفي المعركة غريبة وغير محببة (للقارئ الغربي المعاصر). لكن مثل تلك الأفعال الإلهية عامل حاسم في التفاليد الدينية التوحيدية. ففي اليهودية والمسيحية أيضاً، فسرت أحداث جارية على أنها تجليات إلهية، واعتُقد أن الله قد تجلّى في تلك المعارك، والتقلبات السياسية والإنجازات. وأصبحت بعض الأحداث لحظات صدق وتمت أسطرتها (تحويلها إلى أساطير)، حتى أصبحت محملة بأهمية رمزية

غيرت تماماً من طبيعة ما حدث. ويمكن أيضاً النظر إلى الفكرة، وتحليل المعنى الأكثر عمقاً للتاريخ من ذلك المنطلق، أى من محاولة تخيلية (خارج نطاق العقل) لإيجاد نمط تنظيمي لتدفق أحداث الحياة غير ذى معنى، وكانت إحدى تلك الأحداث الأكثر تأثيراً، والتي أعيدت صياغتها، حادثة غرق فرعون وجيشه فى البحر الأحمر. وقد رأى كاتبو الزامير، والأنبياء، والحكماء جميعاً تلك الحادثة على أنها اقتحام إلهي للتاريخ، أصبح نوعاً من الخلاص. وقد جرى تأمل لتلك الواقعة من جانب المسيحيين ورأوا فيها رمزاً ينيرُ بخروج المسيح من الموت إلى الحياة، كما أصبحت أيضاً نمطاً لعملية التعميد الذى يسجل انتقال المسيحي من حالة اليأس والضياع إلى حالة أمل وحياة جديدة. ويسمى عبور البحر الأحمر فى القرآن بالفرقان وهو لفظ دال على الخلاص وفصل ما هو عادل عما هو ظالم. وقد سُمى القرآن نفسه بالفرقان، لأنه بدل حياة المؤمنين حيث فصلهم بطريقة فجائية عن أهلهم:

﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين. الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون. وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفانتم له منكرون ﴾ (الأنبياء: ٤٨ - ٥٠).

كما أن تنزيل القرآن وحضوره بصورة مواكبة للحدث، بحيث كان مرشداً للأمة ومؤولاً للأحداث، تذكراً بالحضور الإلهي الغامض وتدخله فى الأمور الدنيوية بأسلوب فاصل.

وكذلك أصبحت معركة بدر «فرقانا»، أى آية على الخلاص. فقد فصل الله بين العدل والظلم بانتصار المسلمين، كما ميّز بين الإسرائيليين والمصريين عند البحر الأحمر.

وجاء فى الوصف الإنجيلي:

«فقال المصريون نهروا من إسرائيل. لأن الرب يقاتل المصريين عنهم. فقال الرب لموسى مَدِّ يَدَكَ عَلَى الْبَحْرِ لِيَرْجِعَ الْمَاءُ عَلَى الْمَصْرِيِّينَ عَلَى

مركباتهم وفرسانهم. فمدَّ موسى يده على البحر فرجع البحر عند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة، والمصريون هاربون إلى لقاته. فدفع الرب المصريين في وسط البحر، فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر لم يُبق منهم ولا واحد. وأما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة وسط البحر والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم. فخلص الرب في ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين. ونظر إسرائيل المصريين أمواتاً على شاطئ البحر. ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذي صنعه الرب بالمصريين. فخاف الشعب الرب وآمنوا بالرب وبعبدته موسى (سفر الخروج: ٢٥ / ٣١).

ولم يحدث قط أن قرأ محمد الوصف الإنجيلي للواقعة. لكنه لا بد وأنه تفهّم أهميتها جيداً (كما نزلت في القرآن) لأن رؤيته الدينية الخاصة كانت ذات دينامية ماثلة. فقد أنقذ الله الأمة يوم بدر من قريش، وشاهد المسلمون كبراء قريش يرقدون أمواتاً في ساحة المعركة. وشهدت الأمة ذلك الفعل العظيم الذي أتاه الله ضد المكيين، فبجّل القومُ الله وعبده محمداً. والفرق بين الموقنين هو أن الأمر، وكما كان يحدث دائماً في حياة محمد، حدث بالفعل أمام أعين المسلمين، ولم تكن صياغته لهم مجرد صياغة أسطورية، أو تفسير لحدث تاريخي على غرار حدث آخر. وما يجذب الاهتمام في هذا الصدد (ويبين أن محمداً رأى فرقان اليهود) هو أن اليهود كانوا يحتفلون بذكرى «الفرقان» في عيد الفصح. غير أن محمداً اعتقد أن صوم الكيبور (عيد الشكر) هو الذي يكرس لذكرى اتصال البحر الأحمر. وكما يقول الطبري:

«وكان النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة، رأى يهود تصوم يوم عاشوراء، فسألهم وأخبروه أنه اليوم الذي أغرق فيه الله قوم فرعون ونجى موسى ومن معه منهم، فقال: نحن أحق بموسى منهم، فصام وأمر الناس

بصومه (٢٦).

ويبدو أن محمداً في تلك الفترة كان يحاول أن يتخذ من حياة اليهود الدينية نموذجاً لحياة المسلمين. غيز أنه قبل بدر بأيام قليلة حرر الإسلام من عادات العقيدة القديمة حينما غير موضع القبلة. وعقب الانتصار بأيام قليلة، أى في يوم التاسع من رمضان، أعلن محمد أن صوم عاشوراء ليس إجبارياً. وأنه بدلاً من ذلك سيصوم المسلمون رمضان ليُحيوا ذكرى فرقانهم الخاص في بدر. وأصبح صوم رمضان، والتي بدأت مراعاة أدائه لأول مرة في مارس عام ٦٢٥ أحد الممارسات الخمس الأساسية في الإسلام.

ولاحظ محمد أن هناك جانباً أكثر إعتاماً في الموقف الجديد، لأن الأمة قد ألزمت نفسها بحرب شاملة ضد قريش، وكانت قريش تعتمد على مكانتها، إذا فلا بد أن عليها أن تثار لمتزلها في بدر إن هي رغبت في البقاء قوة عربية عظمى. وكانت الأمة، مرة أخرى، ورغماً عنها، قد بدأت مرحلة جديدة من الجهاد. وخلافاً لليهود، الذين ألزموا أنفسهم بحرب مقدسة لإبادة الآخرين بعد البحر الأحمر، لم تكن لدى محمد رغبة في الخصاص من قريش. فقد شعر أن عليه أن يكسبهم بشكل ما إلى جانبه وبهذا الهدف، وحتى إبان نشوة الانتصار الأولى، عامل محمد الأسرى القرشيين معاملة عادلة، فبعد المعركة مباشرة أمر بقتل أسيرين كانا قد شنا هجوماً فكرياً هائلاً ضده قبل الهجرة. فلقد رأينا كيف أن محمداً وجد ذلك النوع من التحدى النقدي منثوراً. غير أن بقية الأسرى، أحضروا إلى المدينة آمينين، ومُنحوا إقامة إنسانية في منازل الأشخاص الذين أسروهم. وبعد ذلك مباشرة أتى القرآن بسياسة إنسانية تجاه أسرى الحرب. فأمر الأتساء معاملتهم بأى شكل. فإما أن يطلق سراحهم، وإما أن يقتلوا. وإذا لم تتوفر الدية لآسير، فبإمكانه العمل وكسب المال لشراء حريته. كما حث أسريهم على معاونة سجنائهم بدفع الفدية من مالهم الخاص. كما أن إعتاق الأسرى امتدح كعمل خيرٍ فاضل (٢٧). وفي حديث

نبوى لاحق يأمر الرسول المسلمين أن يعاملوا أسراهم كأفراد فى أسرهم ويقول الحديث ما معناه: «فلتطعموهم مما تطعمون أنفسكم، ولتلبسوهم مما تلبسون أنفسكم، ولا تؤكلوا إليهم المشاق، وعاونوهم فيما تؤكلونه إليهم» (٢٨).

وإن ذلك التشريع القرآنى، والنبوى، لتقابل مؤسف للمعاملة التى يلقاها الرهائن على يد مسلمى عصرنا. وفى الواقع فليس هناك ما هو إسلامى فى أمر احتجاز الرهائن، فى المعركة الراهنة اليوم. فإن المسلمين الشيعة الذين يقومون بسجن الرهائن وإساءة معاملتهم فى بيروت اليوم، لا يفعلون ذلك من منطلق إسلامى، والواقع، أن سلوكهم هذا خرق للمفاهيم المقدسة الجوهريّة لديّتهم.

ولم يكن أسرى بدر أعداء غير معروفين، بل كانوا أقرباء لصقاء وأصدقاء للمهاجرين. فحينما رأت سودة، زوجة الرسول، ابن عمها ونسيها أبا يزيد سهيل بن عمرو جالساً ذليلاً فى ركن من الغرفة ويده مقيدتان خلفه، لم تتمالك نفسها وطغت عليها المشاعر القبليّة، وتناست الأيديولوجية الإسلامية للحظة وقالت: «أى أبا يزيد، أعطيتكم بأيديكم، ألا تم كراماً». لكنها سرعان ما تذكرت حاضرها الإسلامى حينما أنّبها زوجها الذى كان قد ولج الغرفة وقال: «يا سودة، أعلى الله ورسوله محرضين؟» (٢٩) وكانت أيضاً مشاعر القرى قوية لدى محمد. فلم يستطع النوم تلك الليلة وهو يفكر فى عمه وأبناء عمومته وهم يرددون فى بأس وعناء فى الأسر. فأعطى الأوامر بإطلاق سراحهم. واثمرت تلك المعاملة الإنسانية العادلة. وتأثر بعض الأسرى بأسلوب المعاملة فى الأمة فاعتنقوا الإسلام. وربما كانت أكثر تلك التحولات إثارة هى اعتناق عمير بن وهب (الذى حاول أن يُثنى قريشاً عن الحرب فى بدر) الإسلام. فبعد أن أعيد إلى مكة، أقتعه ابن عشيرته صفوان

ابن أمية أن يعود إلى يثرب ويغتال محمداً. وهناك اكتشف محمد سره. غير أن عميراً تاب واعتنق الإسلام.

وكان من بين الأسرى أبو العاص زوج زينب ابنة محمد، وأحد الذين تمسكوا بالوثنية. وأرسلت زينب أخاه عمر ببيعة الفدية، التي جمعتها بنفسها، ومعها سوار كان لحديجة. وتعرف عليه محمد من فوره وشحب وجهه من فرط انفعاله. ثم ترجى المسلمين الذين كان بحوزتهم أبو العاص أن يطلقوا سراحه دون تناقض الفدية، ووافقوا على ذلك بسرور. وكان محمد يأمل أن يتحول أبو العاص إلى الإسلام، غير أن ذلك لم يحدث. فطلب منه محمد أن يرسل زينب وابنتها أمامة إلى المدينة. وكان قد تبين في تلك المرحلة الطبيعة غير العملية لزواج الوثنيين والمسلمين. ووافق أبو العاص بأسى، وهو يعلم أنه برغم عدم رغبة زينب في تركه، فقد أصبح وضعها في مكة محالاً. وفي ذلك الوقت، كانت فكرة لقائه بزينب تعزية لمحمد الذي كان قد علم بوفاة ابنته الجميلة رقية لدى غيابه في بدر. وحزن عثمان حزناً يصعب مواساته، غير أنه سرّ حينما عرض عليه محمد الزواج من ابنته أم كلثوم. وزار محمد قبر رقية مع صغرى بنته فاطمة، حيث كان يجفف دمه بطرف عباءته. وكانت فاطمة حينئذ في العشرين من العمر وقد حان وقت تزويجها. وكان أبو بكر وعمر قد طلباها للزواج، لكن محمداً كان يودّ أن يزوجها من ربيبه الشاب عليّ. والذي نشأ مع فاطمة كاخ لها. وتردد عليّ أول الأمر نظراً لفقره الشديد فلم يكن قد ورث شيئاً عن أبيه أبي طالب. لكن محمداً شجعه على التقدم وتم الزواج بعد أسابيع قليلة.

وفي الفترة نفسها تقريباً، كان محمد قد قرر أن يتزوج مرة أخرى، وكانت حفصة بنت عمر قد تزلت حديثاً حيث توفي زوجها خنيس بن حذافة، والذي كان قد تزوجها بعد عودته من الحبشة وتوفي عقب غزوة بدر. وكانت حفصة في ذلك الوقت في الثامنة عشرة وتتميز بالجمال والكياسة، مثل أبيها

وقد كانت تحيد القراءة والكتابة، لكنها - وكأيها أيضاً - كانت سريعة الانفعال، مما قلل من جاذبيتها لدى الرجال. وحينما انتهت فترة حلماتها، عرض عمر أن يزوجها من عثمان ولم يكن يعلم أن محمداً قد قرر أن يزوجه من أم كلثوم. وبعد ذلك عرض زواجها من أبي بكر الذي التزم الصمت إزاء ذلك العرض المريب. وحينما ذهب عمر إلى محمد يشكو الجفوة الواضحة التي أبدتها صحابته المقربون برفضهم حفصة، هدأ محمد من روعه فوراً بعرضه الزواج منها. وأصلح أبو بكر التغطية العارضة مع عمر بقوله: إنه كان يدرى بعزم محمد اختيار حفصة لنفسه. واحتفل بالزواج في وقت مبكر من عام ٦٢٥م. وهكذا توثق التحالف بين محمد وصحابته المقربين وأصبح نسيهما.

وكانت عائشة سعيلاً لدى ترحيبها بحفصة. فرغم أن عائشة كانت تغار من الزيجات اللاحقة لمحمد، إلا أن الصلة الوثيقة بين أبيهما جعلت من الفتاتين صديقتين. ومن المحتمل أن حفصة أصبحت مرشدة لعائشة التي كانت مازالت حديثة السن، في تلك السنوات المبكرة. وكانت فيما بعد تناصران سودة. أما في البداية، فكان من الطبيعي أن تحاولا مضايقة المرأة الأكبر سناً. وذات يوم قررتا مداعبتها فأخبرتاها أن المسيح الدجال قد وصل. وتملك الخوف من سودة لدرجة أنها اندفعت إلى خيمة المطبخ كي تختبئ من ذلك المخلوق المرعب. واندفعت الفتاتان الضاحكتان من فورهما لإخبار محمد بالفكاهة، وأسرع هو لإنقاذ سودة التي خرجت من مخبئها مترية. لكن ارتياحها لعدم وصول الدجال جعلها لا تبالى أن توبخ شقيقتيها الصغيرتين كما كانت زوجات النبي يدعون بعضهم البعض.

لكن الحياة لم تكن دائماً ملبية بالنسبة للزوجات الصغيرات. فذات يوم، وحين كانت عائشة في أوائل عشرينها الثانية طلب منها محمد أن ترافق أحد أسرى الحرب. غير أن عائشة غفلت وهرب الرجل. وحينما عاد الرسول واكتشف ما حدث ثار غضبه وصاح داعياً الله أن يقطع يدها، واندفع خارجاً

من مسكنها ليتبع الرجل . وبعد الإمساك بالأسير عاد محمد ووجد عائشة جالسة وهى تنظر إلى يدها فى حزن، فسألها عما دهاها وإن كان قد غمك منها جان . فأجابته عائشة بقولها إنها لا تدرى أى يد سوف يقطعها الله . حينئذ استشعر محمد اللوم، وخجل واعتذر للفتاة الصغيرة على الفور، وقال لها إنه سيدعو الله أن يبارك أى شخص قد سبق له أن دعا عليه .

وكان مركز محمد قد تحسن بعد بدر، لكن لم يكن جميع الانتصار متحمين لتساعد مكانته . ورغم السعادة الطاغية وهو الانتصار، فإن معظم الحكماء من المسلمين كانوا يعلمون جيداً أنه لن يكون من السهل هزيمة قريش مرة أخرى . ولذلك، كان العام الذى تلا بدر عام قلق شديد، وزاد هذا القلق بطبيعة الحال، عندما علم القوم أن المكين قد دعوا قبائل البدو لمؤازرتهم فى صراعهم مع محمد . وتلاعب ابن أبى والمعارضون بتلك المخاوف زاعمين أن الإسلام قد عرض المدينة لخطر مهلك . إذ لو كانت تلك الواحة على شفا الهلاك قبل محمد، فإن جميع العرب الآن قد بدءوا فى الوقوف ضدها . ومن الممكن تفهم مثل تلك المخاوف . ثم أعلن ابن أبى أنه على استعداد أن يطيع التنزيل لكنه لن يطيع محمداً شخصياً لأنه على وشك الزج بالمدينة فى حرب مهلكة . غير أنه، وكما يشير القرآن، فحينما نزلت الآيات التى تقر قرارات محمد وتؤكد ضرورة الجهاد، استمر تمرد المعارضة، رغم أن هؤلاء القوم كانوا أحياناً يملكهم الرعب الشديد من محمد (٣٠) .

وكانت القبائل اليهودية تساند ابن أبى، لأنها قد روعها مركز محمد الجديد فى المدينة . ولنا أيضاً، فإنها وجدت فى مكة حليفاً طبيعياً . فبعد النصر مباشرة، مثلاً، ذهب كعب بن الأشرف شاعر بنى نضير اليهودى إلى مكة، وبدأ ينظم الأشعار الملتهية التى يحث فيها قريشاً على السير ضد محمد للثأر من قتلهم . فقال فيما قال :

صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا
ظلت تسوخ بأهلها وتصدع

صار الذي أثر الحديث بطعنه أو عاش أعمى مرعشاً لا يسمع (٣١) وأوضحت أشعار كعب لقريش أن هناك من أهل المدينة من لا يؤازرون محمداً. وكانت قبائل اليهود مهابة. فقد كانت لها جيوش كبيرة العدد، وكانوا على قوة قتالية مؤثرة. وقد كان بالإمكان إقناعهم بالانضمام إلى قريش للخلاص عن قالوا عنه إنه مدع، وذلك في حالة هجوم مكى على المدينة. وكان للشعر مركزية في الحياة السياسية العربية. ولذلك، ساعدت أشعار كعب على إيقاظ قريش من حالة الخمول والاكئاب التي أصابتها بعد الهزيمة.

وبعد الكارثة، أصبح أبو سفيان أهم شخصية في مكة. وكان معظم كبراء قريش قد قتلوا، وتوفى أبو لهب، عدو محمد، بعد بئر بوقت قصير. وكان لأبي سفيان منذ ذلك الحين أن يقود الصراع ضد محمد. وفي اجتماع لمجلس العشائر، تقرر أن تكرم عائدات القافلة التي أنقذها أبو سفيان للحرب ضد المدينة. وبعد بئر بحوالي عشرة أسابيع قاد أبو سفيان بنفسه غزوة، كإشارة وتحذير مما هو قادم. فقام على رأس سرية قوامها مائتا رجل وتوجهوا إلى المناطق خارج أرض بني النضير اليهودية، أى قبيلة كعب، واحتفى به سلام ابن مشكّم، سيد بني النضير، وبحث معه الموقف. وكما يقول ابن إسحق: «بطن له من خبير الناس» أى أمده بمعلومات سرية عنهم. وفي اليوم التالي قام أبو سفيان بتدمير بعض الحقول، وحرق بعض أشجار النخيل (وكانت تلك فعلة مضادة لمبادئ العرب، وكانت ترتكب تمهيداً للحرب)، ثم قتلوا اثنين من الصحابة اللذين كانوا يقلحان الأرض. وفور سماعه الأثباء، قاد محمد سرية من المسلمين للحاق بهم، وفرت قريش فوراً ملقية بكل زادها للتخفف أثناء الفرار.

وأصبح من الواضح أن القبائل اليهودية صارت مخاطرة أمنية. فلو حدث أن عسكر جيش من مكة جنوب المدينة حيث رمام أقوى قبيلتين، يصبح

بالإمكان انضمام القبائل اليهودية إلى قريش حيث كانوا يرون فيهم حلفاء. وإن هاجمت قريش المدينة من الشمال، وكان ذلك هو الخيار الأفضل لها، يصبح بإمكان القبائل اليهودية الهجوم على المسلمين من الخلف وتطويقهم تطويقاً كاملاً. وتحقق محمد أن عليه أن ينهى حالة الفرقة تلك. وأخبره من أسلم من اليهود أن بنى قينقاع، أصغر القبائل الثلاثة، هم الأشد عداء للأمة، وكانوا حلفاء ابن أبي قبل الهجرة. كما أنهم قرروا أن يخرقوا عهدهم مع محمد بعد بدر، ويحيوا التحالف القديم لتقوية المعارضة، وهزيمة الرسول. وكان زمامهم أكثر قرباً من المدينة على عكس القيلتين الآخرين، واللذين لم تكونا من المزارعين، بل كانوا حدادين وأصحاب حرف. وبعد بدر، وهروب كعب إلى مكة، زارهم محمد في منازلهم، وطلب منهم أن يقبلوا به نبياً بحق إرثهم الديني المشترك. واستمع يهود قينقاع في صمت متهمرد، ثم أخبروه أنهم لا ينوون البقاء في الأمة. وقالوا له «يا محمد، إنك ترى أننا قومك؟ لا يغرثك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبحت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أننا نحن الناس»^(٢٢٢) وبعد ذلك الإنذار، انسحب محمد انتظاراً للتطورات.

وبعد أيام قليلة وقعت حادثة في سوق قينقاع. وقام صائغ يهودى بخداع امرأة مسلمة كانت تتاجر هناك. إذ عمد خلسة إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها فصاحت. فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم على اليهودى، فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع.

وكانت الحنائر في الأرواح متساوية. ودعى محمد بصفته الرسمية كقاضٍ للمنازعات لكي يعيد السلام. لكن اليهود رفضوا قبول حكمه وحصنوا أنفسهم في حصنهم ودعوا حلفاءهم من العرب لمساعدتهم. وكان لدى بنى

قینقاع سبعمائه محارب مُعدُّون، فلو أن حلفاءهم العرب استجابوا لندائهم وأتوا بقواتهم للقاء محمد، ما كان باستطاعته هزيمتهم. وكان ابن أبيّ متلهفاً على مساعدة قینقاع، وتشاور مع حليفه الآخر عبادة بن الصامت. لكن عبادة كان مسلماً ملتزماً وأوضح له أن ذلك التحالف القديم مع اليهود قد أُلغى منذ أن وقَّعوا المعاهدة مع محمد. وعرف أبيّ أنه لا حيلة له في المساعدة، إذ إن باقى العرب استمروا صامدين خلف محمد. وكانت قینقاع قد توقعت ثورة ضد محمد والمهاجرين، لكن بدلاً من ذلك وجدوا أنفسهم محاصرين من كل العرب في المدينة، وانتظروا أن يُوقى ابن أبيّ بوعده لمدة أسبوعين، لكنهم أُجبروا على التسليم أخيراً دون شروط.

وذهب ابن أبيّ بعد ذلك إلى محمد وطلب منه الرحمة، ولما لم يُجب النبي قبض على ياقته. وأبيض وجه محمد غضباً، واستمر ابن أبيّ سادراً وهو يتساءل، كيف له أن يتخلى عن أعوانه القلعاء الذين ظلما قدموا له العون في الماضي.

وكان يعلم أنه من حق محمد طبقاً للتقاليد العربية القديمة أن يقتل كل أفراد القبيلة، لكن محمداً أبقى على حياتهم شريطة أن يغادروا الواحة. وطلب من ابن أبيّ أن يرافقهم إلى خارج المدينة وحينما علمت قینقاع أن ابن أبيّ لا يملك لهم عوناً استعدوا للرحيل. فقد قاموا بمقاومة لم تنجح لأنهم أساءوا وتقدير القوة التي كان محمد قد اكتسبها، وكانوا بعدُ لم يتحققوا أن النظام البائد قد انتهى إلى غير رجعة، وكانوا يعتقدون أن حلفاءهم العرب القدامى كانوا ينتظرون الفرصة لإعادة ذلك النظام. وتركوا الواحة على ما يبدو دون احتجاج لأنهم كانوا يعلمون أنهم محظوظون أن نجوا بحياتهم. وكان من المعتاد أن تُطرد القبائل خارج الواحة في فترة ما قبل الإسلام. وكان جميع المدنيين على علم بهذه العقوبة، ولا بد أن قینقاع قد توقعت أن عليها الرحيل. والتجئوا إلى جماعة يهودية أخرى في وادي القرى، وبعد ذلك توطنوا على حدود سوريا.

ومن الأمور شديدة الصعوبة علينا في الغرب فهم علاقات محمد بيهود المدينة، ذلك لأن الموضوع يبعث أشباحاً مخزنية عديدة من ماضينا. لكن صراع محمد مع القبائل اليهودية الرئيسية الثلاث كان مختلفاً تماماً عن الكراهية الدينية والعرقية التي أدت إلى أن يشعل ميخيو أوربا المذابح لمدة تقرب من ألف عام. ثم وجد إرهاب المسيحيين اللاعقلاني تعبيره النهائي في حملة هتلر الصليبية العلمانية ضد اليهود. لكن لم يكن لدى محمد تلك المخاوف والأوهام. كما لم تكن لديه أية رغبة في رفع شعار «الإبادة لليهود» في المدينة. فقد كان نزاعه مع قينقاع ذا طابع سياسى محض، ولم يمتد ذلك النزاع ليشمل العشائر اليهودية الأخرى في المدينة، الذين حفظوا العهد وعاشوا جنباً إلى جنب مع مسلمى المدينة في سلام.

وكان ذلك وقتاً خطراً بالنسبة للأمة التي كان يتوقع أفرادها هجوماً عارماً من مكة، ولم يكن بوسعهم ببساطة أن يُثبوا عدواً لهم بينهم. وكان طرد قينقاع تحذيراً للخوارج المحتملين مثل ابن أبي وبنى النضير. وأوضح ذلك أيضاً أن محمداً لم يكن بالشخص الذي يُستهان به. وبعد شهور قليلة، وحينما عاد الشاعر كعب للمدينة وأخذ في صياغة أشعار تشهيرية ليشعل بها فتنة أمر محمد بقتله. وكان محمد ينزعج دائماً من الشعراء المعادين. فقد كان يعتقد أن مقولاتهم لها وقع يشبه وقع السحر كما رأينا. وكان من الممكن للشعراء في بلاد العرب أن يُصبحوا أسلحة فتاكة، ومرة أخرى لم يكن محمد يسمح لكعب أن يشعل عداوة الجماعات المحايدة في المدينة أو أن يلهم البدو الذين قد يستمعون إلى القصائد أن يلحقوا بتحالف أبي سفيان ضد المدينة. وكان بنو النضير قد هذبتهم هزيمة قينقاع، وحينما قتل كعب ذهبوا إلى محمد شاكين أحد كبرائهم، وكان محمد يعلم أن عداوتهم هو بنفس درجة عداة كعب له، لكنهم كانوا يلتزمون الصمت حتى تحين الفرصة فقط. وقال لهم محمد: «إنه بإمكانه أن يتامح مع فكر ورأى مخالفين،

لكن ليس مع فعل فتنة». وكان قد تقدم مراراً لعقد معاهدة خاصة مع النضير، هذا بالإضافة إلى العهد، لضمان سلامتهم، وصحتهم. ووافق بنو النضير على ذلك سرور. وهكذا، وبينما كان يتظر هجوم مكة، الجح محمد المعارضة.

وزادت معالجة محمد الماهرة للأزمة من مكانته في المدينة، ولكنه لم يكن بعد ينظر إليه رئيساً للأمة. فلم يكن له أن يحتوى خطر قينقاع وابن أبي دون مائدة عبادة بن الصامت. ومُنح محمد خمس المتاع الذي خلفته قينقاع. وكان المعتاد للرئيس أن يأخذ ربع مثل تلك المغنم ليوظفها من أجل قومه: فقد كان يُتوقع منه أن يورع العطايا ويعتنى بالفقراء ويحتفى بالضيوف. وهكذا ميّز الخمس محمداً قليلاً عن الرؤساء الآخرين، ولكن كان دليلاً على أنه الآن يحتل مكانة مشابهة. وبينما كان يتظر محمد هجوم المكيين بقلق، انشغل بتدعيم المنزلة التي اكتسبها. فكان حينما يسمع عن قبيلة من البدو الرُّحْل تخطط لغزو زمام المدينة تحت تأثير دعاية مكة، كان يُسَيّر سرية كي يحبط الهجوم المتوقع. وكانت المعارضة تتلاشى بمجرد وصول السرية المسلحة واستطاع محمد آخر الصيف أن يتسبب في خزي جديد لقريش، فقد كانت القوافل منذ بدر لا تستطيع استعمال طريق البحر الأحمر إلى الشام، وقرر صفوان بن أمية أن يسير في طريق نجد إلى العراق مسافراً شرق المدينة. وكان ذلك الطريق غير مناسب لبعْد أماكن السقى عن بعضها البعض، لكن صفوان أرسل بعيراً إضافية محملة بالماء، بالإضافة إلى تلك التي كانت تحمل بضائع من القضة بلغ قدرها ١٠٠,٠٠٠ درهم. ووصلت لمحمد أخبار عن تلك القافلة، وأرسل زيداً ليعترض طريقها. وتمكن زيد ورجاله من أن يفاجئها في غفلة منهم بينما كانت القافلة تستريح عند بشر قَرَوَة. ومنذ بدر، كان الجنود المسلمون قد اكتسبوا صيتاً يبعث على الرهبة، ولذا، فحالما رآهم المكيون يقتربون هربوا تاركين القافلة بأكملها وراءهم.

وكتفت قريش استعدادها للهجوم على المدينة، غير أنهم انتظروا حلول فصل الشتاء. وفي النهاية، وفي يوم ١١ مارس عام ٦٢٥م ترك مكة ثلاثة آلاف رجل مع عدد مماثل من البعير وحوالي مائتي حصان، وبدءوا رحلتهم متهادين تجاه المدينة. وكان قد لحق بقريش حلفاؤها من البدو من مجموعة القبائل التي تدعى الأحابيش أي ثقيف الطائف وقبيلة عبد مناة. ووصل العسكر إلى مشارف المدينة يوم الحادى والعشرين من مارس، وعسكروا على السهل المواجهة لجبل أحد شمال الواحة. وكان محمد وأهل المدينة قد سمعوا أن الجيش فى طريقه قبل أسبوع واحد. ولم يكن هناك وقت لجمع المحاصيل من الحقول. غير أنهم تمكنوا من جمع كل القوم فى المناطق الواقعة خارج المستوطنة وحصنهم مع بعيدهم وماشيتهم وأغنمهم ومعيزهم داخل المدينة. وبجرد وصول الجيش جمع كبراء المدينة مجلس حرب. ونصح أكثرهم خبرة بالخذل الشديد: أى أن على الجميع أن يمشوا داخل المدينة ويرفضوا الخروج للقاء العدو. وكان من الصعب جداً الإبقاء على أى حصار فى بلاد العرب. وحين كانت تلك الخطة تتبع سابقاً، كان العدو يجبر على الرحيل دون قتال. لكن بعض من هم أحدث سناً كانوا يريدون الأداء الفاعل. وقالوا إن محمداً هزم جيشاً كبيراً فى بلر ومعه ٣٥٠ رجلاً فقط، وإن الله لا بد أن يساعدهم مرة أخرى. وساندتهم فى ذلك بعض المساعدين الذين لم يحتملوا فكرة رجال قريش وهم يأكلون محاصيلهم التى تركوها خارج المدينة. وتملكت مشاعر حب القتال تلك الفئة حتى إنهم انتصروا فى النهاية وبدأت الاستعدادات للمعركة.

لكن هؤلاء الصقور تملك منهم الخوف، وخاصة حينما أخبرهم سعد بن معاذ أنهم يمشون إلى الهلاك بأرجلهم. فأخبروا محمداً أنهم على استعداد للبقاء داخل المدينة. لكن محمداً، وكما ينبغى، التزم بقرار القتال. وقال: «ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل» (٣٣). فقد كان أى تردد

عند ذلك المنعطف سيؤدى إلى نتائج وخيمة، وبناء على ذلك، امتطى محمد جواده المفضل فى مساء ١٢ مارس الموافق السادس من شوال، وقاد ما يقرب من ألف رجل تجاه أحد، على بعد عشرين ميلاً تقريباً ليلقى جيشاً عدده ثلاثة أضعاف عدد جيشه. ورفض اليهود القتال لأن ذلك كان يوم السبت، لكن المسلمين كانوا يعلمون جيداً أنهم يتمنون انتصار المكين. وعسكر الجند تلك الليلة فى منتصف الطريق بين المدينة وأحد، وفى الصباح فر ابن أبى إلى المدينة مصطحباً ثلاثمائة رجل. ولم يهتم حتى بإبلاغ محمد قراره، لكنه أوضح لبعض الأنصار أنه أراد الانفصال عن تلك الحملة العبيثة الانتحارية، وقال: «أطاعهم وعصاني ما ندرى علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس» (٣٤).

ورغم أنه كان قراراً يعوزه الشرف، فبالإمكان فهم دوافعه. لكن قد يكون ابن أبى قد استهدف ما هو أعمق. ففى عام ٦١٧م، كان قد انسحب من غزوة بواط لأنه كان قد تحقق من استحالة النصر الكامل. وكانت تلك خطوة فى صالحه، وأوشك أن يصبح بسببها ملكاً للمدينة. وفى هذه الحالة، فإن هزم محمد فى أحد، كما كان محتملاً، فإن ابن أبى يكون قد فصل نفسه عن الكارثة، ويشرع بعد ذلك فى إنقاذ الموقف.

وواجه المسلمون القرشيين فى الصباح التالى بجيش كان قد تناقص لدرجة خطيرة. وكان أبو سفيان يقف فى وسط الخط الأمامى، ويحيط به عن اليمين خالد بن الوليد المخزومى، وعن اليسار عكرمة بن أبى جهل، وقبل بدء القتال وقف أبو سفيان وطلب من الأوس والخزرج أن يهجروا محمداً ويرجعوا لأدراجهم، لأنه لم يكن بينهم وبين مكة عداوة حقيقية. لكن الأنصار صاحوا فيهم متحدين بأنهم لن يتركوا نبيهم أبداً. ثم تقدم أبو عامر، وكان مدنياً من الموحدين وفر إلى مكة عقب وصول محمد وخاطب قومه وقبيلته قائلاً: «يا معشر الأوس، أنا أبو عامر» قالوا: «فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق». وصدمت الدهشة أبا عامر، فقد كان يتفاخر فى مكة أن كلمة

واحدة منه كقبيلة بأن تكسب الأوس في مصاف قريش. ولكن الآن عاد متمتماً: «لقد أصاب قومي بعدى شراء» (٣٥).

وبدا الجند في التقدم تجاه بعضهم البعض. وكانت هند، زوجة أبي سفيان تسير خلف الجند مع كبريات نساء مكة يضربن الدفوف مغنيات:
 إن تقبلوا بغنائق ونفرش النمارق
 أو تدبروا نفارق فراق غير وامق (٣٦)

وكانت هند تبغض محمداً، لكنها أيضاً كانت قد فقدت والدها عتبة بن ربيعة وابنين لها في بدر، وأقسمت أن تأكل كبِد حمزة الذي قتل عتبة في مبارزة. وبدأ القتال.

ومن الصعب تبين ما حدث بالتفصيل لأن المصادر مشوشة. ففي البداية صمد المسلمون. وكان محمد قد صف جنوده في تشكيلات متراصة كتلك التي نجحت في بدر. وبدا لوهلة وكأنهم قد أجبروا العدو على الفرار، لكن رماة الأسهم من المسلمين عصوا الآراء وتراجعوا وهاجمهم خالد من الخلف. ثم اندفع إلى الأمام في هجوم رائع بالحيل، وفر المسلمون في خزي. وحاول محمد وقف فرارهم لكنه وقع على الأرض فاقد الوعي بعد أن تلقى ضربة على الرأس، وانتشرت شائعة أنه توفي.

لكنه كان قد فقد وعيه فقط، وتم حمله إلى بستان حيث أفاق سريعاً، لكن قريشاً لم تصبر للتأكد من النبأ. ويبدو أنهم حينما سمعوا نبأ وفاته توقفوا عن القتال ولم يتابعوا انتصارهم.

لذا تمكن المسلمون من التراجع تراجعاً منظماً. كان اثنان وعشرون من المكين قد قتلوا وجرح خمس وستون، ولم يكن نصراً عظيماً لقريش. فقد فشلوا في قتل محمد والقضاء على الأمة، وكان من بين موتى المسلمين ثلاثة فقط من المهاجرين، وهم حمزة، وعبد الله بن جحش، ومصعب، والباقي من الأنصار. ولم تكن قريش حريصة على حرب مع الأنصار حيث لم تكن

لها معهم عداوة. وبعد المعركة، عملت قريش على اغتراب بعض قبائل البدو عنها لأنها شوهت جثث القتلى. فقد شق قرشى بطن حمزة وانترع كبده وأتى به هنداً التي مضغت شريحة منه وقاء لعهد كانت قطعته على نفسها، ثم قامت بقطع أنف حمزة وأذنيه وأعضائه التناسلية وحثت النساء الأخريات أن يفعلن مثلها بجثث القتلى الآخرين. وتركن ساحة الحرب وهن يرتدين أساور وأقراطاً وقلائد من جثث الموتى الدامية مما أثار اشمزاز البدو وبعض من رجالهن، الذين شعروا أن ذلك قد أقسد قضيتهم.

وسمع أبو سفيان أخبار عدم موت محمد قبل رحيل الجيش: إذا فلم تنته المتاعب مع المدينة. وصاح أبو سفيان: «العام القادم في بدر» كتحذير آخر، وصاح أحد الصحابة قائلاً: «إن ذلك لموعد بينهم» (٣٧). وكان المسلمون في وضع حسن، رغم هزيمتهم الكبيرة، لدرجة تمكنوا معها من القيام بمطاردة عدوهم مطاردة رمزية وتبعوا جيش مكة لمدة ثلاثة أيام، وفي الليل، كان محمد يوزع رجاله بعيداً عن بعضهم البعض قدر المستطاع، ثم يشعل كل منهم ناراً، حتى يبدو وكأن جيشاً عارماً يعسكر في المكان. وتسيبت تلك الحيلة في عرقلة بعض رجال قريش الذين أرادوا الرجوع إلى المدينة ليدمروا الأمة.

لكن ذلك العزاء كان غير مجد. فقد كان معظم المسلمين في حالة كآبة شديدة بعد أحد، وتساءلوا: إن كانت بدر آية للخلاص فهل تعنى هزيمة أحد أن الله قد تخلى عن محمد؟ ورد القرآن على ذلك التساؤل في سورة آل عمران، موضحاً أنه ليس لدى المسلمين من يلومونه سوى أنفسهم، فقد كانوا مشاكسين، عصاة، غير منظمين طوال الحملة. غير أن أحد كانت «آية» في حد ذاتها. فقد ميزت بين المسلمين حقاً والجبناة الذين فروا مع ابن أبي.

وكما كان متوقعاً، فقد ابتهج ابن أبي واليهود، وأصر ابن أبي ومؤازروه على أن عدم اتباع سياسته هو الذي أدى إلى تلك الإصابات. أما اليهود فقالوا

إن محمداً ما هو إلا شخص طموح وليس لديه ما يثبت نبوته. فمن سمع عن نبي أصيب بمثل تلك التكبية؟ وأراد عمر قتل أولئك المتقسين من حق النبي. لكن محمداً هداً من ثورته ووعده ألا تنزل قريش بالأمة مثل ذلك الخزي مرة أخرى، كما أنهم سوف يقومون بتأدية الفرائض في الكعبة يوماً ما.

ولكن، ورغم ثقته الهادئة، فقد هدمت أحد مكانته وتسيبت في قطعة مع ابن أبي. فحتى ذلك الحين، كان المعارضون غير ذى فعالية. لكن بعد أحد، تعمّد ابن أبي استغلال كل مناسبة كي يدمر محمداً. وفي يوم الجمعة التالي تم إحراج وخزي ابن أبي في العلن. فحينما قام ليخطب أمسك به اثنان من الانصار قائلين إن عليه أن يصمت بعد خيائته. فخطا خارج المسجد مهتاجاً غاضباً ورفض أن يسأل محمداً الدعوات والعفو. وبعد أحد، أعطى القرآن لابن أبي وصحبه اسماً جديداً وهو المنافقون، والتي عادة ما تترجم إلى Hypocrites. غير أن و. مونتجومري واط يرى أن التأويل الأكثر صحة هو «الزواحف»، أو «الفئران»، لأن ابن أبي وصحبه زحفوا متسللين إلى جحورهم إبان أحد مثل حيوانات ضئيلة منزعة (٣٨).

كانت هناك أيضاً مشاكل عاجلة عملية يجب حلها. وقد ترك الخيمة والستون مسلماً الذين قتلوا في أحد وراءهم زوجات وعوائل كان على المسلمين إعالتهم. ويبدو أن الآية التي تبيح للمسلمين الزواج من أربع نساء قد نزلت بعد أحد:

﴿وَأْتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدِلُوهَا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوهَا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا. وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنِي وَثَلَاثَ وَرِبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ (٣٩). (النساء: ٢ و ٣).

ويميل نقاد محمد الغرييون إلى أن يروا ذلك السماح بتعدد الزوجات شوفونية ذكورية. كما تروج الأفلام الشعبية مثل فيلم "Harem" «الحريم»

صورة مبالغاً فيها عن الحياة الجنسية لمشايخ المسلمين، ويعكس هذا الأمر هوى الغربيين وجنوح خيالهم أكثر مما يعكس الواقع. وإذا نظرنا للأمر في سياقه، نجد أنه لم يقصد بتعدد الزوجات إباحة نوع من الممارسة الجنسية للرجال. فقد كان ذلك نوعاً من التشريع الاجتماعي. وكانت مشكلة الأيتام محل اهتمام محمد منذ بداية رسالته. ثم تفاقمت المشكلة بعد وفيات أحد، فلم يترك الرجال الذين استشهدوا زوجات فقط، لكنهم أيضاً تركوا بنات وأخوات وقريبات وأقرباء في حاجة لمن يكفلهم من جديد. وكان هناك احتمال ألا يكون الأوصياء الجدد على درجة كبيرة من الحرص والورع في توزيعهم وإدارتهم لممتلكات هؤلاء الأيتام. وربما عمل بعضهم على عدم تزويج بعض هؤلاء النساء من أجل أن يسيطروا على ممتلكاتهن. ولم يكن زواج الرجل من رباته، كوسيلة لضم ممتلكاتهن إلى ما بيده، أمراً غير معتاد.

ومن المحتمل أيضاً أنه كان هناك نقص في عدد الذكور في بلاد العرب، الأمر الذي أدى إلى وجود فائض من النساء غير المتزوجات واللاتى كن يستغلن استغلالاً سيئاً. وقد أولى القرآن تلك المشكلة اهتماماً شديداً، ومن هنا لجأ إلى إباحة تعدد الزوجات أسلوباً لمعالجتها، وبذلك تتمكن الفتيات اللاتى تيسمن، من الزواج. لكن القرآن نص على أنه باستطاعة الرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة فقط إذا هو وعد بالإدارة العادلة والتوزيع العادل للممتلكات. كما أنه نص على ألا تزوج يتيمة ممن يرعاها ضد رغبتها وكأنها متاع منقول^(٤٠). كما ينص القرآن أيضاً على شروط الطلاق. ففي عصر ما قبل الإسلام، وحينما كانت الزوجات يعشن فى بيوتهن الأبوية، كان باستطاعة الزوجة، أو أحد من أقاربها الذكور، إنهاء العلاقة الزوجية. أما فى القرآن، فقد منح الرجل سلطة رفض الزوجة الطلاق. غير أن هناك فقرة فى صالح الزوجة. فقد كان من المعتاد فى بلاد العرب أن يدفع الرجل مهراً لعروسه. وكان أقرباء المرأة من الرجال عادة ما يتملكون ذلك المهر. لكن

الإسلام أوجب أن تعطى المرأة المهر مباشرة. وإلى يومنا هذا، يسمح للمرأة أن تفعل ما تشاء بتلك النقود، أى أنه يمكنها أن تتبرع بها، أو أن تبني حماماً للسياحة، أو تبدأ مشروعاً تجارياً. ولا يسمح للرجل باسترداد المهر فى حالة الطلاق. وهذا ضمان لامن المرأة^(٤١).

ويلوم النقاد الغربيون الطريقة التى يعالج بها القرآن شؤون النساء ويرونها غير عادلة. غير أن الحقيقة هى أن تحرير المرأة كان من الأمور المحيية إلى قلب الرسول. ويدعى النقاد الغربيون أن القرآن يكيل بمكيالين. فمشلاً، تنص قوانين الإرث على منح المرأة نصف ما يمنح لإخوانها من الرجال (والذين عليهم أن يوفروا مهوراً لبيدها أسراً جديداً). كذلك يسمح للنساء بالشهادة فى المنازعات القضائية لكن قيمة شهادة المرأة هى نصف قيمة شهادة الرجل. ويبدو ذلك التشريع القرآنى فى سياق القرن العشرين (حيث مازلنا فى الغرب نقود الحملات من أجل حقوق متساوية للنساء) كأن يحرم النساء من حقوقهن. غير أنه فى القرن السابع كان ذلك التشريع تشريعاً ثورياً. وعينا أن نتذكر ما كانت عليه حياة المرأة فى عصور ما قبل الإسلام حيث كان وأد الأطفال البنات هو القاعدة وحيث لم تكن للمرأة أية حقوق على الإطلاق. وفى مثل ذلك العالم البدائى، فإن ما أنجزه محمد للمرأة غير عادى. فمجرد أن يصبح للمرأة حق أداء الشهادة، وأن توث لنفسها كامرأة أى شىء على الإطلاق هو أمر مشير للدهشة. ويجب أن نتذكر أن فى أوروبا المسيحية كان على النساء أن يتظرن حتى القرن التاسع عشر حتى يحصلن على ما هو مشابه من الحقوق لأن القانون ظل فى صف الرجال.

ومرة أخرى علينا أن نرى قاعدة تعدد الزوجات فى سياقها. ففى بلاد العرب فى القرن السابع، وحينما كان متاحاً للرجل أن يتزوج أى عدد من النساء، كان التقيد بأربع بمثابة حد لتلك الممارسة، وليس ترخيصاً باضطهاد جديد. وأكثر من هذا، فالقرآن يتبع الآيات التى تمنح المسلمين الحق فى

الزواج بأربع بشرط يجب مراعاته بمتهى الدقة. فإن لم يكن الرجل واثقاً فى مقدرته على العدل بشدة بين جميع زوجاته فعليه الاكتفاء بواحدة^(٤٢). وقد أسس التشريع الإسلامى على هذا. فعلى الرجل أن يقسم وقته بالتساوى بين زوجاته، وعليه ألا يفضل إحداهن، ولو تفضيلاً طفيفاً على الأخريات. وأن يجيهن ويحترمن بنفس القدر.

وهناك اتفاق واسع فى العالم الإسلامى على عدم استطاعة البشر قضاء ذلك الشرط القرآنى. فإن عدم التفرقة هنا مستحيل. وهذا يعنى أنه من غير المسموح للمسلم أن يتزوج بأكثر من واحدة. ولم تلجأ السلطات فى الدول الإسلامية التى منع فيها تعدد الزوجات إلى مبررات علمانية لذلك المنع، بل إلى مبررات دينية.

وعلى هذا، فلم يشجع القرآن الرجال فى المدينة بعد أحد على تكوين حريمهم الخاص. فهو فقط لم يحدد عدد الزوجات اللاتى يستطيع المسلم تزويجهم، لكنه يطلب من المسلمين أيضاً التزاماً مستقبلياً. ويكرر القرآن أيضاً تحريمه لواد البنات، كما أصبح ذلك التحريم أيضاً من الوصايا التى كان على معتق الإسلام القبول بها. وبدلاً من تلك الممارسة الوحشية لتحديد النسل، فإن القرآن يحث المسلمين على الوثوق به فى مجتمع كان يجب منح غير المحصنين فيه مثل المسنين واليتامى والأطفال حقوقاً إنسانية كاملة، ومعاملتهم معاملة عادلة^(٤٣). كذلك، ففى أحد أجمل المقاطع فى الكتاب المقدس لمجد المسيح بحث حواريه على أن يتأملوا الطيور فى الجو، وأزهار السوسن فى الحقول ولا يقلقوا بشأن المستقبل، فإن الله سيكفل لهم احتياجاتهم^(٤٤). وبطريقة شبه ماثلة. يحث القرآن المسلمين أن يبصروا رحمة الله وكرمه فى آياته الطبيعية. فعليهم أن يتوكلوا على الله دون الالتجاء إلى أساليب الجاهلية الاستغلالية القاسية، وأن ينموا الثقة المبهجة فى أنفسهم بأنه هو رازقهم. كما أن عليهم أن يتزوجوا المحتاجات من النساء ويقيموا أسراً متعددة الأفراد وهم على ثقة أن الله سِير لهم الحياة:

﴿وَأَنْكَحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٤٥) (سور النور: ٣١).

ويعتبر ذلك فعلاً إيمانياً يتطلب قدراً غير يسير من الشجاعة وقدم محمد للمسلمين المثل باهتمامه بغير المحصنات في الأمة، فقد تزوج برابعة بعد أحد وهيا سكتاً لزينب بنت خزيمة أرملة عبيدة بن الحارث شهيد بدر. وكانت أيضاً ابنة كبير قبيلة عمير. وهكذا، شكلت هذه الزيجة أيضاً تحالفاً سياسياً وأقيم لها سكن إلى جانب المسجد ولحقت بأخواتها سودة وعائشة وحفصة.

وكان محمد يحث المسلمين على الوثوق بمستقبلهم. إن هم آمنوا أن باستطاعتهم الإتيان بالسلوك المنصف، وتحمل مسئوليات جديدة، في الوقت نفسه الذي كان يحاول أبو سفيان فيه أن يقيم تحالفاً عملاقاً لهدم الأمة. لكن محمداً كالمعتاد كان يلتزم الحيلة. فقد تحقق أن عليه أن يضمن مساندة قبائل البدو شرق المدينة وشمالها الشرقي لنعمهم من الانضمام إلى الحلف المكي. وأرسل محمد فرق غزو كي يلفت اهتمام البدو. لكن وقعت حادثتان في صيف عام ٦٢٥م برهتا على درجة عدم الحصانة التي كانت عليها المدينة.

فقد طلبت قبيلتان بدويتان نجديتان من محمد أن يدمها بمن يفقههما في الإسلام، وكان بعض أفراد تلك القبائل قد اعتنقوا الإسلام وكانوا يودون تعلم قراءة القرآن. فأرسل إليهم محمد ستة من أكثر رجاله كفاءة من أجل تلك المهمة. وفي أثناء رحلتهم عكفوا إلى الراحة عند بئر رَجِيع بالقرب من مكة وهناك هاجمهم أحد كبار هذيل وقتل ثلاثة من المسلمين وتم أسر الثلاثة الآخرين. وحينما حاول أحدهم الهرب تم رجمه حتى الموت. أما الآخرون فأخذوا إلى مكة كي يباعا إلى أعدائهما القرشيين. وابتاع صفوان بن أمية أحدهما ليقتله ناراً لأبيه كبير جمع الذي كان قد قتل في بدر. وبعد ذلك أخذ المسلمان إلى خارج الحرم وتم صلبهما.

وفي الفترة نفسها تقريباً طلب أبو براء كيبير بنى عامر وصهر محمد الجديد، طلب أيضاً مبعوثين لتفقيه قومه في الإسلام. وكان ذلك أيضاً طلباً للمساعدة ضد بعض المنشقين من قبيلته. وتم على الفور إرسال أربعين مسلماً لكن معظمهم قتلوا في مذبحة قرب بئر معونة على حدود أرض بنى عامر، فقد قام منافس لأبى براء من قبيلته بإقناعه بقيام أفراد من بنى سليم المجاورة بارتكاب الفعلة. وكان اثنان من المسلمين يقومون برعى البعير عن قرب، وعرفا بالفاجعة فقط حينما رأيا الجوارح تحوم حول المعسكر. فاندفعا عائدين ليجدا رفاقهما أمواتاً، وتم أسر أحدهما بينما تمكن الآخر من العودة إلى المدينة. غير أنه أثناء عودته لقي اثنين من بنى عامر نائمين تحت شجرة، واعتقاداً منه بمسئولية بنى عامر عن المذبحة، استل سيفه وقتلها وأسرع ليخبر محمداً بما فعل، لكن لدعشته أخبره محمد بخطأ ما فعله، وقال إن على الأمة أن تدفع دية الدم الذي أهدر خطأ، وكان ذلك أمراً أصبح مقبولاً لدى بعض القبائل بدلاً من الانتصاف بالقتل. واعتقد محمد أنه ما كان يجب قتل العامريين، فرغم أن بعضاً من عامر كان وراء المذبحة إلا أن من ارتكبتها كان من بنى سليم، وكان محمد أيضاً يأمل من دفع الدية إلى أبى براء، الذي ارتاع لما حدث، أن تتحول القبيلة إلى الإسلام. وبدأ الشعراء المسلمون ينظمون الأشعار الدعائية يرثون فيها ضحايا بئر رجيع ومعونة. ونتج أيضاً عن سلوك محمد المهذب إزاء أبى براء أن بدأ بعض أعداء الأمة السابقين ينظرون إليها بأعين أكثر تعاطفاً. وفي الواقع، فقد قيل إن إيمان وشجاعة المسلمين عند لقائهم الموت قد ترك أثراً عميقاً في بعض بنى سليم لدرجة أنهم اعتنقوا الإسلام.

ثم بدأ محمد في رفع قيمة الدية في المدينة. وكانت قبيلة بنى نضير اليهودية ضمن من فوتحوا في الأمر، وكانت أيضاً حليفة لأبى براء. وتقدم محمد ويرفقتة أبو بكر وعمر وعلى ونفر من أصحابه بطلبه في اجتماع

لمجلسهم. ويدا اليهود مرحبين متعاونين. وطلبوا من المسلمين الانتظار في الخارج حين النظر في طلبهم. لكن الرسول قام راجعاً إلى المدينة وانسحب فجأة من بين مرافقيه. وفيما بعد أخبرهم أن جبريل قد حذره من أن بنى نضير كانوا يخططون لقتله. وفي الواقع، لم يكن تحذير الوحي ضرورة قصوى. فقد كان بعض أفراد القبيلة مازالوا يريدون الثأر لمقتل الشاعر كعب ابن الأشرف، وتذكر المصادر المسلمة بالتحديد الشخص الذي كان على وشك إلقاء جلمود على محمد من سطح قريب.

ثم أرسل محمد أحد الأنصار نائباً عنه ليبلغهم إنذاراً. وأخبرهم الأنصاري، محمد بن مسلمة، أحد أفراد قبيلة الأوس الذين كانوا حلفاء بنى نضير قبل الهجرة ما معناه أن رسول الله أرسله إليهم يبلغهم أنهم قد نقضوا العهد بينهم وبينه بتخطيطهم لقتله. ولهذا، فإنهم ليس بوسعهم البقاء في المدينة بعد تلك الخيانة. ودهش اليهود من أن يقوم أحد أفراد الأوس بتبليغهم رسالة كذلك. فمثلهم مثل قينقاع في العام الفاسد، لم يكن بنى نضير بمستطيعين تقبل فكرة زوال النظام القديم بغير رجعة. وكان على ابن مسلمة أن يبلغهم دون مواراة بأن القلوب قد تغيرت، وأن الإسلام قد محا التحالفات القديمة (٤٦).

وحاول اليهود التفاوض مع محمد ليروا ما إذا كان بإمكانهم الوصول إلى حل وسط. لكن ابن أبي رأى في الموقف فرصة ممتازة ليحاول مرة أخرى الخلاص من محمد. فأتى بنى النضير أنهم سينضمون إليهم إن كانوا مستعدين للانفصال عن الأمة. ومثل بنى قينقاع من قبل، انسحب يهود بنى النضير إلى حصنهم، وراقبوا المسلمين وهم يحاصرونهم، وانتظروا أن يأتي ابن أبي وجماعته لعونهم على رفع الحصار. لكن شيئاً لم يحدث، ومرة أخرى أساء ابن أبي تقدير قوة منزلة محمد واعتقد أن ما أصابه من هزيمة نتيجة أحد يفوق الواقع. وبعد أسبوعين، وحينما علمت بنى النضير أنهم لم يمكنهم المثابرة أكثر

من ذلك، أصدر محمد أمره بتطعيم نخيلهم والتحريق فيها. وألقت تلك العلامة على الحرب بالرعب في قلوب اليهود، واستسلموا وهم يرجون محمداً أن يمنحهم الحياة فقط. ووافق محمد على أن يغادورا الواحة حاملين معهم من متاعهم القدر الذي يمكن لبعيرهم أن تحمله فقط. وحمل بنو نضير كل ممتلكاتهم، حتى إنهم قاموا بخلع «نخاف» بيوتهم (العبات العليا) وحملوها ظناً منهم أن يتركوها لمحمد. وغادورا الواحة بزهر وفخر وكأنما قد انتصروا. وارتدت نساؤهم جواهرهن وزيتهن وأخذن يضرين دفوفهن ويغنين في صحبة المزامر والطبول. وبعد أن اخترقوا المدينة سافروا شمالاً على طريق سوريا الشمالي. وأقام بعضهم مستوطنة خير اليهودية، ومن هناك، عاونوا أبا سفيان على تكوين تحالفه وقاموا بعمل حملات لتأييده بين القبائل الشمالية.

وتمكن محمد في العام التالي لأحد من استعادة قدر من المنزلة التي كان قد فقدها، وكان شأن بنى النضير هزيمة أخرى لابن أبي. واستمر محمد في القيام بإخماد بوادر الغزوات من أعدائه. وفي أبريل عام ٦٢٦ م كسب نصراً معنوياً حاسماً. فقد كان أبو سفيان لدى مغادرته ساحة القتال في أحد، قد تحدى المسلمين أن يلاقوه في بدر إبان السوق السنوية. وعلى هذا، خرج محمد في أبريل من عام ٦٢٦ م مع ألف وخمسمائة من الرجال وعسكروا خارج بدر، لمدة أسبوع كامل. لكن أبا سفيان لم يظهر إذ إنه لم يتوقع أن يوفى محمد بالوعد، ثم خرج بجيشه لمجرد التظاهر وهو يخطط للعودة بمجرد أن يسمع أن المسلمين لم يغادروا المدينة. وكان ذلك عام جفاف شديد، ولم يكن هناك عشب لإطعام البعير أثناء الرحلة. وبعد يومين عاد أبو سفيان بجيشه إلى مكة، وهناك قوبل بالشجب واللوم الشديد من قومه لفشله في الوفاء بالوعد، وخاصة أن البلو كانوا قد ملثوا إعجاباً بشجاعة المسلمين واستعدادهم لمواجهة جيش من المكين أكثر عدداً منهم بكثير عند بدر مرة أخرى، وعلى ذلك، فلم يتحسن مركز محمد في المدينة فقط، لكن الناح بدأ ينقلب في صالحه في بقية أنحاء البلاد.

وكان محمد مازال يأمل في تسوية سلمية رغم أن المسلمين كانوا يعلمون أنه بعد مهانة المكين في بدر الثانية، فإنهم قد أخذوا يكثفون استعداداتهم لهجوم جديد على الأمة. وفي يناير من عام ٦٢٦م توفيت روجة محمد الجديدة زينب بعد ثمانية أشهر فقط من زفافها. وبعد شهر قلائل تقدم لهند بنت المغيرة أرملة ابن عمته أبى سلمة وطلب منها الزواج. وكانت أم سلمة - وهو الاسم الذي تعرف به - شقيقة أحد قادة مخزوم المكية، الأمر الذي كان يحمل معه أملاً في فائدة تلك الصلة، وكانت أم سلمة في التاسعة والعشرين من عمرها وذات جمال مرموق. ويبدو أيضاً أنها كانت ذكية ورفيقة جيدة لمحمد. وكان محمد يفضل أن يصحبها في الغزوات المهمة، وحدث في مناسبة واحدة على الأقل أن قدمت له نصيحة ثمينة. لكنها في البداية أبدت تردداً في الزواج من محمد قائلة: «إنها ليست شابة وإن لها طبيعة غيرة ولا تعلم إن كانت تتحمل الحياة مع شريكات لها». وطمانها محمد مبتسماً أنه بعد أكبر منها وأن الله سيتولى أمر غيرتها.

وكانت أم سلمة مصيبة في خشيتها مناقسة الزوجات الأخريات. فقد تبب زواجه منها في انقسام بين زوجاته انعكست آثاره على أطراف متعددة داخل الأمة والتي كانت تتنافس على القوة السياسية. فأم سلمة كمخزومية كانت تمثل المجموعة الأكثر أرسقراطية بين المهاجرين، بينما كانت عائشة وحفصة، بنات أكر صحابة محمد حميمية، تمثلان المجموعة السياسية الشعبية. وكانت كلما انضمت روجة جديدة إلى من سبقتها انضمت إلى إحدى تلك المجموعتين المتنافستين. وكثيراً ما كانت أم سلمة تبحث عن الموازنة بين مجموعة أقلية نائلة، وهي أهل البيت، واللاتى كن أفراد عائلة محمد الأصلية. وكانت تنظر إلى فاطمة الخجولة كامل رئيسى لها. وعكست تلك التقسيمات بين زوجات محمد تقسيمات أخرى حاسمة في الأمة، والتي سوف تصبح بعد وفاة محمد شديدة الخطورة، كما أنها مازالت، إلى حد ما،

تقسم المسلمين إلى يومنا هذا، فإن أهل البيت، والذين كانوا يريدون أن تقود فاطمة وعلى وسلالتهم العالم الإسلامى سيصبحون الشيعة. ويعد زفاف أم سلمة بفترة ليست بالطويلة، أخذ محمد زوجة جديدة ازداد بها عدد تلك المجموعة الأرستقراطية التى تحالفت معها. وكانت الزوجة الجديدة زينب بنت جحش بنت عم الرسول، قد طلقت من زيد وتزوجها محمد. وتيسرت تلك الزيجة فى دهشة البعض كما وظفت من قبل متقدى محمد للتقليل من شأنه.

فيرى كتاب مثل فولتير ويريدو الحادث برهاناً على شهوة محمد للنساء وعن استغلاله الوحى من أجل تحقيق ما يشتهيه!! كما أنهم يقدمون رواية أكثر إثارة عن الحادثة عن تلك التى يقدمها المسلمون. فقد ذهب محمد عصر يوم لزيارة زيد وكان بالخارج. وفتحت زينب لمحمد. وبدا أنها لم تكن تتوقع زائرين فقد كانت ترتدى ملابس غير ساترة. وكانت زينب حينذاك فى أواخر الثلاثينيات لكنها كانت مازالت رائعة الجمال. فوقع محمد فى حبها لانه استدار على عجل وهو يتمتم بكلمات كأنما يقول: «سبحان الله العظيم، سبحان مقلب القلوب»^(٤٧). وكانت زينب غير راغبة فى الزواج من زيد وبدأت تستغل إعجاب محمد بها كمخرج من ذلك الزواج وأخذت تردد على مسمع زيد عن ذلك الأثر الشديد الصارم الذى تركته فى محمد لدرجة أصبحت معها الحياة محالة. وذهب زيد إلى محمد وعرض عليه أن يطلق زينب إن كان هو راغباً فى الزواج منها. لكن محمداً صرفه طالباً منه أن يتقى الله ويمسك عليه روجه، غير أنه لم يكن هناك أمل فى استقرار الزواج. فقد أدى تدمر زينب المستمر إلى تعاسة زيد لدرجة دفعته إلى تطلقها. وقرر محمد فى النهاية أن يتزوجها

وظهرت انتقادات لذلك الزواج المزمع. فقد قال البعض إنه لا يصح، حيث إن زينب كانت متزوجة من ربيب محمد أى ابنه بالتبنى. غير أن

محمداً تلقى وحياً مفاداً أن مثل ذلك الزواج غير محرم. فعلاقة النبي ليست علاقة-بنوة طبيعية، ولذا فإن زواج محمد من زينب لا يتهك درجات المحارم المنصوص عليها. وحيث إن محمداً كان مع عائشة عند نزول الآية وعلقت عائشة بصورة غير لائقة قائلة ما معناه: إن الله يسرع في تلبية رغبات محمد. ولكن مجرد حفظ قول عائشة هذا المتقد يرهن على أن معارضى محمد كانت لهم نظرة أكثر واقعية. فقد كانوا ينظرون إليه على أنه بشر له رغباته، وأنه ليس من حقهم الانتقاد إذا رأى الله أن يمنح رسوله بعض المزايا. وينكر المسلمون اليوم أن محمداً تزوج زينب عن شهوة. وينون اعتراضهم على أنه من غير المحتمل أن امرأة في التاسعة والثلاثين كانت طوال حياتها تعيش على حافة سوء التغذية وتعرضت للهبيب شمس بلاد العرب المحرقة كان لها أن تثير مثل تلك العاصفة في صدر أي رجل، دعنا من إثارتها عاصفة في صدر ابن عم لها كان قد عرفها منذ أن كانت طفلة. كما أن محمداً كان دائماً وثيق الصلة بأسرة جحش، وزينب من بينهم. ويفسر المسلمون ما حدث على أن محمداً شعر بالمسئولية تجاهها بعد أن طلقت، وكان - وكما نعلم - يولى اهتماماً بالنساء غير المحصنات من الأمة. فلو أنه ابتغى زينب لجاذبيتها الجنسية لتزوجها قبل ذلك بسنوات عديدة. كما أن الحادثة تبرهن أيضاً على أن العلاقة بالنبي تختلف عن صلة الدم وليس لها أن تمنع الزواج.

وبعد زواج زينب بفترة قصيرة، وربما لعلاقة بذلك الحادث، نزلت آية الحجاب والتي نصت على أن تُفصل زوجات النبي عن بقية الأمة. ويعالج المأثور الإسلامي إدخال الحجاب بطرق مختلفة: فالبعض يقول إن عمر، والذي كانت لديه آراء شوقوتية عدوانية هو الذي حث محمداً على حجب زوجاته عن الأنظار بواسطة ستار. فقد كانت قد حدثت بعض الوقائع حيث أهان المنافقون زوجات النبي حينما خرجن لقضاء حاجتهن. بينما يقول آخرون إنه مع ارتفاع مكانة محمد وزيادة درايته بالحياة في البلاد المنعدية،

فقد كان يود أن يتبنى بعض العادات الفارسية والبيزنطية والتي تفصل نساء الطبقات العليا للمجتمعات لمترلتين. وعلى أية حال، فالدلائل تشير إلى أنه كان هناك توجس شديد نحو الأحاديث غير اللاتقة والتلميحات وكثير من الغزل والمرودة. ويمكن للفضائح الجنسية في المجتمعات التقليدية أن تكون شديدة الخطورة وأن ينجم عنها كثير من المشاعر العنيفة. ومن المحتمل أيضاً أن محمداً كان على علم أن ابن أبي ومؤازريه كان يسهرون أن يقوضوا قضية الإسلام بترويجهم لما هو شائن على عائلته.

ويقال، إن بعض المدعوين لحفل زفاف زينب تعمدوا أن يمكثوا فترة طويلة وإنهم أساءوا التصرف، وكان ذلك سبب نزول الآية التي نصت على ضرورة فصل زوجات النبي عن بقية الأمة:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا، فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أبهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً. إن ذلكم كان عند الله عظيماً﴾ (١٩)

(الأحزاب: ٥٣).

ولم يكن لمحمد، كما ذكرنا، غرفة خاصة به في المسجد، فقد كان ينام في بيوت زوجاته. لكن بعد أن ازداد شأنه في المدينة أصبح منزله مكاناً عاماً، حيث كان من يقدمون لاستشارته في ازدياد مطرد، وكانوا يستشيرونه في شئونهم الشخصية والدينية أو يطلبون إليه أن يحكم في منازعات. وكان بعض المسلمين يلجئون لزوجاته على أمل أن يجدوا آذاناً صاغية. فكان مثلاً يعرف عن عائشة أنها تتجاذب أطراف الحديث مع أحد الشباب، الأمر الذي

تذكره القوم فيما بعد عندما انفجرت فضيحة هددت بانقسام الأمة. ولم يكن المقصود من الستار أو الحجاب أن يكون أمراً قمعياً. لكنه قصد به عدم تطور موقف بنجم عنه فضيحة يمكن أن يستغلها أعداء محمد للإساءة إليه.

هنا نتوقف لبحث مسألة الحجاب في الإسلام. فغالباً ما ينظر إليه في الغرب على أنه رمز للقمع الذكوري. أما في القرآن فلم يكن سوى جزئية إجرائية تطبق على نساء النبي. فإلناء المسلمات مطالبات، كالرجال، بمراعاة الاحتشام في ملابسهن. لكن لا يطلب من النساء أن يحجبن أنفسهن أو يعزلن أنفسهن في جزء منفصل من المنزل. فقد كانت تلك تطورات لاحقة، ولم تنتشر في أرجاء العالم الإسلامي سوى بعد ثلاثة أو أربعة أجيال لاحقة، على وفاة محمد. ويبدو أن تقليد حجب النساء وعزلهن أتى إلى العالم الإسلامي عن طريق فارس وبيزنطة، حيث كان ذلك أسلوب التعامل مع المرأة لزم من طويل.

وفي الواقع فلم يقصد بالحجاب الخط من شأن نساء محمد، بل كان رمزاً على رفعة منزلتهن. واكتسبت نساء النبي بعد وفاته قوة كبيرة. فقد كن مصادر لها احترامها في الشؤون الدينية كما كن يستشرن بشأن ممارسات النبي (السنة) وآرائه. وأصبحت عائشة ذات أهمية سياسية قصوى وقادت ثورة ضد عليّ رابع الخلفاء عام ٦٥٦م. وفيما يبدو أنه، فيما بعد، تملك الغيرة من النساء إزاء منزلة نساء النبي، وهكذا طالبن بالسماح لهن بارتداء الحجاب أيضاً. فالحضارة الإسلامية حضارة مساواة، ولذا كان من التناقض أن تتميز نساء النبي وتشرفن بذلك الأسلوب. وهكذا رأت النساء اللاتي ارتدين الحجاب في البداية فيه رمزاً للقوة وحسن الأثر، وليس شارة تدل على اضهاد الذكور لهن. وقد أخذت نساء الصليبيين فيما بعد في ارتداء الحجاب على أمل أن يعلمن ذويهن من الرجال أن يحسنوا معاملتين حينما رأين الاحترام الذي كانت تلقاه النساء المسلمات. إنه لمن الصعب فهم رموز وممارسات

إحضارات المخالفة. وقد بدأنا نعى في أوروبا أننا قد أسأنا فهمها، وقمنا بتقويض حضارات تقليدية في مستعمراتنا ومحمياتنا السابقة. كما أن نساء مسلمات كثيرات اليوم، بينهن من نشأن في الغرب، يجدن شجب التسويات الغربية لحضارتهم كحضارة معادية للنساء أمراً كريهاً. إن معظم الديانات كانت شأنًا ذكورياً وكان لها تميزات أبوية patriarchal، لكن من الخطأ أن نرى الإسلام معيياً في هذا الصدد أكثر من الديانات الأخرى. وكان الأمر مغايراً تماماً في العصور الوسطى. فقد تملك المسلمين العرب حينما رأوا الأسلوب الذي كان المسيحيون في دول الصليبيين يعاملون به نساءهم، كما هاجم المفكرون المسيحيون الإسلام على أساس أنه يمنح الوضعاء من العبيد والنساء قوة كبيرة. واليوم، تعود بعض النساء المسلمات إلى زيهن التقليدي، وهذا لا يحدث، كما يقول الغربيون، نتيجة لإخضاعهن لعملية «غسيل مخ» من قبل ديانة شوفونية، لكنهن يفعلن ذلك لأنهن يجدن العودة إلى جذورهم الحضارية عملية فيها إرضاء كبير. وغالباً ما يكون ذلك رفضاً لمواقف الحضارة الغربية الإمبريالية التي تدعى أنها تفهم مآثوراتهم أكثر منهن أنفسهن.

ووقعت حادثة في يناير من عام ٦٢٧م، وبعد فترة وجيزة من إدخال الحجاب في حياة زوجات النبي. وقد برهنت تلك الحادثة على أن أى قدح ضد عائلة محمد يمكنه قلقلة مركزه. فكان قد قاد غزوة ضد بنى المصطلق أحد فروع خزاعة والتي كانت تعد لغزو المدينة، وقاجأهم عند بئر يقال لها المربيع على شاطئ البحر الأحمر، شمال غربي المدينة وأجبرهم على الفرار، واغتتم ألفين من بعييرهم، وخمسة آلاف من أغنامهم، وماتت امرأة من بينهن جويرية بنت الحارث، كبيرهم. وكان قد سمح لعائشة بمرافقة الغزوة. وارتعد قلبها عندما رأت جويرية وهي تساوم محمداً على فديتها لأنها كانت شديدة الجمال، حتى قيل عن عائشة إنها قالت عنها «فوالله ما هو إلا أن رأيتنا على باب حجرتي فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها صلى الله

عليه وسلم ما رأيت» (٥٠). وحدث فعلاً أن تقدم محمد للزواج منها وبذلك حول قبيلة معادية إلى قبيلة حليفة.

وعسكر المسلمون عند بئر المريسيع ليومين آخرين. وهنا تقدم عدد أكثر من المنافقين ليلحقوا بالغزوة لأنها كانت تبشر بغنائم كبيرة. وفجأة كشفت حادثة مفاجئة عن التوتر التحتي للأمة. فقد نشبت مشاجرة بين رجلين من قبائل محلية، وكانا قد استؤجرا لُقياً الخيل، واستدعى كل منهما الحلفاء التقليديين لقبيلته: أي أن أحدهما استدعى القرشيين واستدعى الآخر الخزرج. وفي لحظة استجاب المهاجرون والأنصار لذلك التحدي القبلي وأمسكوا برقاب بعضهم البعض في دقائق، مما يدل على قوة الولاء القبلي القديم وكيف أنه في لحظة انتصر على الأيديولوجية الإسلامية في غفلة من المسلمين. وهنا تقدم عمر وبعض صحابة الرسول المقربين وأوقفوا القتال. غير أن ابن أبي استشاط غضباً وتساءل عما إذا كان الهوان قد بلغ بأهل المدينة مبلغاً يسمح معه أن يأتمروا بأمر الأجانب. وقال: «أو قد فعلوها؟ فقد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدنا وجلايب قریش إلا كما قال الأول، سمّن كلبك ياكلك. أما والله وإن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» (٥١). وحينما أخبر أحد الأنصار محمداً بما حدث استل عمر من فوره سيفه. وهنا سأله النبي بهدوء: «كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا» ولكنه أذن بالرحيل رغم أن ذلك كان يعني أن يرتحلوا في أشد أوقات النهار قيضاً، وهو أمر لم يكن يحدث من قبل، فارتحل الناس، وفي أثناء رحلة العودة نزلت سورة المنافقون، لكن محمداً احتفظ بها لنفسه حتى عاد إلى المدينة.

وفي أثناء التوقف للامتراحة، تسللت عائشة لقضاء حاجتها، وحين عادت للمعسكر، وكانت القافلة على وشك الرحيل، اكتشفت أنها فقدت عقدها، فرجعت للبحث عنه، وبينما هي في تلك المهمة جاء القوم الذين

يرحلون لها البعير، فأخذوا الهودج وهم يظنون أنها فيه، فرفعوها، وشدوا على البعير. وانطلق الناس. ولم يقلقها ذلك كثيراً، فقد كانت تعلم أنهم سيققدونها سريعاً ويرجعون إليها. ووقدت في انتظارهم. وبعد ذلك حضر صفوان بن المعطل ذلك الشاب الذى كان يعرف عائشة جيداً قبل فرض الحجاب، والذى كان أيضاً يقضى حاجته. فتعرف عليها، وكان غيابها لم يُكتشف، وحينما وصلت فجأة مع صفوان بدأت الألسنة تلوك سيرتها. ولم يتوان المنافقون عن نشر الفضيحة على وجه السرعة مشيرين بذلك العداوات القديمة القبلية تجاه المهاجرين الذين تسبوا في تلك الحروب. حتى إن حسان ابن ثابت الشاعر الذى امتدح انتصارات النبی بإخلاص منذ الهجرة واحتفى به، نظم قصيدة ينمى هجران الألهة القديمة ووصف نفسه وكأنه محاصر ببحر من اللاجئين في المدينة. كما بدأ بعض المهاجرين أنفسهم يتشككون في براءة عائشة ومن بينهم ابن عمها مطح وحُمنة بنت جحش شقيقة زینب والتي كانت تغار بالنيابة عن شقيقتها من تفضيل النبی لعائشة. أما زینب نفسها، فقد صمدت في دفاعها عن عائشة.

وكانت عائشة قد مرضت بعد عودة الجماعة إلى المدينة ولم تعلم بالشائعات إلا تدريجياً. وكانت قد لاحظت فتور محمد وتباعده وطلبت الذهاب إلى منزل والديها لتلقى الرعاية. وكان محمد في حيرة. كما أنه كان متزعجاً لتوقف الوحي فجأة. ولم يكن له إلا أن يتوجه إلى الصحابة طالباً العون. ولم يكن له أن يستشير أبا بكر في أمر ابنته، ولم يطلب رأى عمر، ربما لما عرف عنه من شدته تجاه النساء. واتجه بدلاً من ذلك إلى الجليل الأحدث سناً، فسأل ولد زيد أسامة عن رأيه في عائشة، ودافع عنها أسامة بحرارة. وكذلك فعلت جاريتها بريرة التي قالت لمحمد: «والله ما أعلم عنها إلا خيراً، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً، إلا أنى كنت أعجن العجين فأمرها أن تحفظه، فتنام عنه، فتأتى الشاة فتأكله». لكن علياً كان معادياً

ومتشككاً،^(٥٢) وقال: «يا رسول الله إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تتخلف». ولم تغفر له عائشة ذلك قط.

غير أن ابن أبي استمر في إثارة المتاعب، وسرته تلك الفرصة للإساءة إلى الرسول. واضطر محمد أن يدعو كبار المدينة إلى اجتماع يطلب منهم مؤازرته إن هو اضطر إلى اتخاذ خطوات ضد واحد منهم يحاول الإضرار بعائلته. وكان يعلم أن بعض رجال الخزرج سيحزنهم اتخاذه خطوات ضد ابن أبي دون إذن منهم. وبرهن اللقاء على أن وحدة المسلمين كانت ما زالت هشة. وأظهرت القضية الصدع الذي كان ما زال موجوداً بين الأوس والخزرج. فقد حث بعض كبار الأوس، الذين كانوا يعلمون جيداً أن معظم أعداء عائشة كانوا من الخزرج، على قطع رقاب مشيرى الفتنة. وإزاء ذلك، اتهم الخزارجة بالتفاق ووصل الأمر إلى أن القبيلتين أوشكتا على الاشتباك بالأيدي. وتطلب حسم ذلك المأزق بقاء الأمة متوحدة.

وفي النهاية ذهب محمد ليواجه عائشة نفسها، وكان قد تم شفاؤها وبدت متزعجة للدرجة كان من الصعب معها تهدئتها، وكانت قد انتحبت لمدة يومين ولم يستطع أبواها تقديم العون لها. وكانت والدتها أم رومان قد قالت لها: «أى بنية، خفصى عليك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلا كثرن وكثر الناس عليها». ولم يدر أبو بكر كيف يفكر، فكان أن نصحها أن تعود إلى بيتها بجوار المسجد. وحينما وصل محمد كان والدهما بصحبتها، وكان ثلاثهم سيكون بحرارة. لكن حينما ظهر النبي جفت دموع عائشة كأنما بفعل السحر. وسألها محمد إن كانت مذنبه، أن تعترف بما قارفت من سوء وتوب إلى الله، فإن الله يقبل التوبة من عباده. ونظرت ابنة الرابعة عشرة بكبرياء عظيم وأجابت قائلة: إنها لن تتوب عما لم ترتكبه. وإنها أيضاً تعرف أنها إن أقرت بما يقول الناس، والذي يعلم الله أنها منه بريئة، فإنها تقول ما لم يكن. وإن هي أنكرت ما يقولون فلن يصدقوها.

ثم التمت اسم يعقوب فلم تذكره. فأضافت أنها ستقول ما قاله أبو يوسف «فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون». ثم ذهبت صامتة إلى سريرها فرقدت عليه.

ولابد أن محمداً قد اقتنع، وبعد أن فرغت من كلامها اتنابه غشية مثل تلك التي توأكب الوحي، غاب في أثنائها عن وعيه. ورغم أن اليوم كان بارداً فقد عرق عرقاً شديداً. ووضع أبو بكر وسادة جلدية تحت رأسه وغطاه بمعطفه، بينما انتظر هو وأم رومان الوحي الإلهي. وكانت عائشة التي كان يحيطها خطر كبير باردة كالصقيع. وفجأة أفاق محمد وقال: «أبشرى يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك». وبعد أن غلبتهم الطمأنينة طلب منها والدها أن تنهض وتذهب إلى محمد. فأجابت قائلة ببساطة إنها لن تذهب إليه، وإنها لن تشكر أيًا منهما لأنها أصغيا إلى الافتراء. لكنها ستنهض وتشكر الله وحده^(٥٣). وقبل محمد ذلك العتاب، ثم خرج إلى الحشد الذي كان قد تجمع وتلا الآيات التي برأت ساحة عائشة وأدانت الإنك على أنه افتراء واضح^(٥٤).

وأوضحت الحادثة أن عائشة قد أصبحت امرأة ذات كبرياء وشجاعة، وتمكنت من كسب مكانتها في قلب الرسول. أما معالجتها للموقف فذليل على الثقة التي يمنحها الإسلام للمرأة. فلم يحدث أن ارتعبت أي من نساء النبي من زوجها. بل كنَّ يُواجهنه وكان يُنصتُ باستمرار إليهن جيداً. وكان يحدث كثيراً أن تشكو الزوجات تفضيله لعائشة. لكن محمداً كان يحاول أن يُقيم نظاماً غير متحيز. فكان يقضى ليليه مع زوجاته بالتتابع، وكان يجري القرعة ليقرر أيًا منهن ترافقه في أسفاره. ولكنه كان مجرد بشر، وكان من الواضح للامة جميعاً أيهن يفضل. وكان المسلمون الذين يودون إرسال هدايا يرسلونها إلى المسجد في اليوم الذي يكون فيه مع عائشة لاعتقادهم أن ذلك سيره. ووجدت زوجاته الاخريات ذلك مهيناً. وذهبت أم سلمة تطلب منه

أن يخبرهم أن يرسلوا الهدايا لمساكنهن جميعاً. لكن محمداً طلب منها أن تتوقف عن مضايقته المستمرة بشأن عائشة، إذ إنها الوحيدة بين زوجاته الحاليات التي كان يأتيه الوحي وهو في معيتها. وهنا أرسلت أم سلمة إلى فاطمة على أمل أن تنجح مع والدها. فسألها النبي إن كانت لا تحب من يجب؟ الأمر الذي ارتبكت معه فاطمة ارتباكاً شديداً. وأخيراً جاءت زينب معترضة، وقدت تحكمها بنفسها وكالت الإهانة لعائشة. فاستدار محمد لعائشة وطلب منها أن تدافع عن نفسها، وفعلت عائشة ذلك بحمية وطلاقة صمت معها زينب، وراق ذلك لمحمد الذي رأى وجه الشبه بينها وبين والدها أبي بكر. لكن عائشة لم تكن دائماً تحقق كل ما تريد. ففي يوم ما، وبدافع غيرتها من المكانة التي كانت خديجة مازالت تحتلها في نفس محمد، دَعَتْهَا المرأة الدرداء العجوز. وأغضب هذا محمداً أشد الغضب، فلم يكن هناك من هو أعزّ إليه من خديجة التي آزرته في وقت رفضته الدنيا جمعاء.

وفي مارس عام ٦٢٧م، وبعد أسابيع قليلة، كان اللغظ حول عائشة خلالها قد خمد، سير الكيون وحلفاؤهم جيشاً قوامه عشرة آلاف محارب ضد المدينة. وكان كل ما يجمعه محمد من المدينة ومن حلفائه من البدو هو ثلاثة آلاف محارب. وهكذا لم يكن هناك إمكانية السير لمقاتلة العدو، وهو الأمر الذي أجبر عليه في أحد. ولهذا، حصّن المسلمون أنفسهم في المدينة التي لم تكن هناك صعوبة في الدفاع عنها. فقد كان يحيطها من جهات ثلاث صخور ووديان من الأحجار البركانية، ولذا كان من الميسر حراسة الطرق التي تخترق تلك المنطقة الصعبة في اتجاه المدينة ولم تكن هناك تحصينات في الشمال، وفكر محمد في حيلة وجدّها معاصروه غير عادية. غير أنه يبدو أن قريشاً وحلفاءها لم يكونوا في عجلة من أمرهم، فقد كانوا يشقون طريقهم إلى المدينة بأسلوب استعراضى وعلى مراحل متمهلة. وهكذا وجد المسلمون متسعاً من الوقت ليستعدوا. فتمكنوا من جمع المحاصيل المزروعة في المناطق

خارج المدينة لكي لا يجد الجند المحاصرون علقاً لماشيتهم كما حدث في المرة السابقة. وبعد ذلك اشتركت الامة جمعاء في حفر خندق هائل حول الحدود الشمالية للمدينة. ويقال إن الخطة قد اقترحها سلمان الفارسي الذي كان قد اعتنق الإسلام وأعتق مؤخراً. ولم تكن هناك ايضاً حاجة أن تحفر كل المساحة بطولها حيث كانت توجد حصون في بعض المواقع توفر حماية كافية. وتطلب الانتهاء من الحفر في الوقت المناسب جهداً هائلاً متناسقاً. وأصبحت كل مجموعة عائلية مسئولة عن جزء من الخندق، وعمل محمد إلى جانب الآخرين وتغنى بالأراجيز التي كانوا يرددونها في أثناء بنائهم المسجد بعد الهجرة. وكانت الروح المعنوية مرتفعة. ويتذكر الصحابة أن محمداً بدأ فائق الجمال والقوة وهو يعمل، وكان يفاكه ويستضحك مع الرجال الآخرين. وقادهم وهم يغنون أرجوزة تقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا^(٥٥)

ووصلت قريش بجيشها يوم الحادي والثلاثين من مارس عام ٦٢٧م وحملقوا مشدوهين في الخندق. وكان المسلمون قد استعملوا الأتربة التي حفرت ليقيموا منحدرأ ضخماً كان وقاية فعالة للمسلمين في معكرهم أسفل جبل سلع ومكثهم من احتلال موقع عال يصوبون منه قذائفهم. وفي الواقع، فبينما كان المكيون يحدقون في الخندق مشدوهين، حذرهم سيل من السهام أنهم كانوا هدفاً سهلاً في جلستهم تلك، فأسرعوا بالابتعاد خارج نطاق مرمى السهام. وهكذا أحبط خندق سلمان فاعلية الهجوم الضخم برمته. ولم يعرف قادة قريش كيف يتعاملون مع الموقف، وكان يقود جيشهم أبو سفيان، وعكرمة بن أبي جهل، بينما كان خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، القرشيين اللذين كانت عداوتهما لمحمد طويلة الراس، على رأس فرقة الفرسان. لكن فرقة الفرسان، والتي كان القرشيون يعولون عليها تعويلاً

كبيراً، أصبحت غير ذات نفع لأنه ما كان للجياذ أن تعبر الخندق. وفي المرات القليلة التي تمكن فيها واحد أو اثنان من القفز للجهة المقابلة، كانت أجسادهم تمزق إرباً. وكان عبور المشاة سيبتج عنه إصابات فادحة، كما لم يكن لديهم آليات حصار، أو سلالم من الممكن استعمالها. وعلى أية حال، فقد كانت قريش تحتقر العمل اليدوي، ومن الواضح أنها رأت في حفر الخندق عملاً دونياً، أى أنها رأت عملاً منافعاً للروح القتالية والعربية، ومناقضاً لروح الفروسية. وحاول أفراد مثل عكرمة الهجمات الجريئة بين الحين والآخر، لكن كان تقدمهم يُعرض ويقابلون بالصد.

وكان بعض القرشيين قد ارتدواً دروعهم واندفعوا على صهوات جياذهم إلى مواقع بنى كنانة وهم يصيحون: «تهيئوا يا بنى كنانة للحرب، فتعلمون من الفرسان اليوم». ثم انطلقوا إلى الأمام تُسرع بهم خيلهم، حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا: «والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها»^(٥٦). ثم قرروا اللجوء إلى وسيلة أكثر حيلة يُمكن بمقتضاها الولوج إلى المدينة من الجنوب عن طريق الاتفاق مع قبيلة قريظة. وكان حُصي بن أخطب، رئيس قبيلة بنى نضير اليهودية، والتي كانت تقطن خيبر في ذلك الحين، قد زار أبا سفيان في مكة واعدأ إياه أن يعاضده في صراعه ضد محمد. وكان قد ذهب مع صفوان وآخرين إلى الكعبة ليقسموا بالله أنهم لن يخذلوا بعضهم البعض حتى يدمروا الأمة. وفكر أبو سفيان في أن يتتهد الفرصة ليسألهم عن رأيهم في دعوة محمد الدينية. وقالت لهم قريش: «يا معشر اليهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نخلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟» قالوا: «بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق». فانزعج المسلمون حين سمعوا أن حُصيًّا دافع عن الوثنية^(٥٧). وكان يهود خيبر قد أرسلوا جيشاً كبيراً إلى المدينة، كما تمكنوا من أن يُثيروا القبائل في الشمال ضد المدينة بوعدهم إياهم بنصف محصولهم من التمر. وهكذا أرسلت قبائل أسد وغطفان وسليم سرايا لينضموا إلى تحالف بنى سفيان. ثم

حاول حُيَّ إقناع بنى قريظة بأن يُهاجموا المسلمين من الخلف أو أن يسمحوا لحوالى ألفين من نضير وغطفان بالدخول إلى المستوطنة حيث يصير بإمكانهم بدء الهجوم بذبح النساء والأطفال المتحصنين بالحصون المتناثرة فى أنحاء المستوطنة. وتردّد اليهود لانهم كانوا يعلمون أن البعض كان قد بدأ يتساءل عما إذا كان محمد هو النبي الذى طال انتظاره بالفعل. لكنهم حينما رأوا الجيش الهائل الذى أتت به قريش والذى كان يملأ السهل أمام المدينة وحتى الاقح، وافق كعب بن أسد كبير قريظة على مؤامرة التحالف.

وكان عمر أول من علم بخيانة قريظة وأبلغها محمداً من فوره، الذى أحزنه ذلك حزناً واضحاً. فقد كان يخشى ذلك الاحتمال. وكان يعلم أن جيش المسلمين لن يمكنه أن يقاوم مثل هذا الهجوم من جميع الجهات. فأرسل سعد بن معاذ، والذى كان حليف قريظة الأول قبل الهجرة ليُجرى تحريماً فى ناحيتهم. فعاد سعد من هناك وأبلغ النبي أن اليهود بدؤوا متحدّين، وأنهم تساءلوا: «من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقده»^(٥٨). ويبدو أيضاً أن هاجم نفر منهم أحد الحصون التى يحتمى بها الأطفال والنساء من المسلمين. ثم بدأ محمد هجومه «الدبلوماسى» الخاص مع قريظة، والذى هدف من ورائه إلى إخافة اليهود ودفعهم إلى فقدان الثقة فى قريش. غير أنه، ولمدة أسابيع ثلاثة، لم يكن من الواضح أى اتجاه سيسلكه اليهود. وبدأ جيش المسلمين يتنهك. ويبدو أن المنافقين أيضاً كانوا ينشرون الذعر والامتناء ويحثون الأتصار أن يسلموا محمداً لقبيلته. وأيضاً حاول بعضهم أن يتسللوا من المدينة وينضموا إلى أبى سفيان. ويُبين القرآن أن اليأس كاد يتسلل إلى قلوب المسلمين لدرجة أن بعضهم كان على وشك أن يفقد إيمانه:

﴿إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً﴾. (الأحزاب: ١٠ و ١١).

ولكنهم أنقذوا من ليلة الخوف المظلمة تلك. أما ما حدث على وجه التحديد فغير واضح، لكن يبدو أن يهود قريظة بدءوا يفقدون الثقة في أهل مكة وأصروا على أخذ رهائن من بين القرشيين حتى يُسبوا صدقهم إذ خشوا أن يفر المكّيون ويتركوهم تحت رحمة محمد. وكانت قريش أيضاً قد بدأت تشعر بالإنهك. فقد كان من الصعب الإبقاء على حصار في بلاد العرب حيث لا توجد إمدادات ووجوع الرجال والخيل. كما أن القرشيين لم يكونوا محاربين مهرة أو ذوى خبرة، وكانوا يفقدون العزيمة بسرعة عند الانتكاسات الفجائية. ويبدو أن عزمهم وهن حين تغيّر الجو فجأة. ويتحدث القرآن عن انخفاض درجة الحرارة والزوايع والأمطار كفعل إلهي. واتخذ أبو سفيان قراره، فخطب فيهم قائلاً: «يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام. لقد هلك الكراع، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره وألفينا من شدة الريح ما ترون، ما تظمن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل» (٦٠).

ويقوله هذا، امتطى بعيره وضره دون أن يتبه أنه مازال معقولاً. وتبعه قبيلته والبدو الذين كانوا قد اعتراهم القلق من فترة. وسرعان ما تفرقوا. وحينما تراجع التحالف تراجعاً خاذلاً قال خالد لأبي سفيان إن أي رجل عاقل يعلم الآن أن محمداً لم يكذب (٦١). وحينما أطل المسلمون في الصباح التالي من أعلى المنحدر على التل، كان السهل خالياً.

بقي إذاً أن يقرر محمد ما هو فاعل بيهود قريظة الذين دفعوا الأمة إلى شفا الهلاك. ولم يترك رجاله ليستريحوا في الصباح التالي. بل، ويوحى جبريل كما يقال، توجه جيش المسلمين إلى مكان قريظة. وتكتب قصة ما حدث لقريظة في الغرب معاني إضافية من الكآبة والرعب. فقد كان حياً قد انضم إلى قريظة في حينهم بعد أن رجعت قريش وحلفاؤها عن المدينة. وحينما سمعت قريش أن محمداً يتقدم نحو أراضيها، تحصن القوم في

قلاعهم وأمكنهم أن يصمدوا أمام المسلمين خمسة وعشرين يوماً. كما أنهم كانوا يعلمون أنهم كحلفاء نقضوا العهد وخانوه، فليس لهم أن يتوقعوا أى رحمة بهم. ويبدو أيضاً أن حياً وكعباً قد قاما بحثهم على قبول ما هو محتوم، ووضع كعب بن أسد أمامهم ثلاثة خيارات: إما أن يستلموا دون شرط (وخاصة أن نجاح محمد غير المعتاد يُحتمل معه كونه نبياً صادقاً)، أو أن يقوموا بقتل نساءهم وأطفالهم ثم يهاجموا جيش المسلمين، وذلك لأنهم إن ماتوا فلن يصبح هناك من يقلقون عليه ممن يعولون، وإن هم انتصروا فمن السهل حينذاك أن يجدوا زوجات جديدات، أو أن يفاجئوا محمداً ويهاجموه يوم سبتهم، حيث لا يتوقع منهم ذلك الصنيع.

ورفض اليهود كل تلك الخيارات، وطلبوا من محمد أن يسمح لهم بمغادرة الواحة بنفس شروط بنى نضير. لكن محمداً رفض. فقد برهن بنو نضير أنهم أكثر خطراً على الأمة بعد مغادرتهم المدينة، لذا، أصرّ في هذه الحالة على التسليم الكامل. وسمح لقريش بمشاوره أحد حلفائهم السابقين وهو أبو لبابة بن عبد المنذر، من كبراء عوف. وهذا الجزء من القصة يبدو غامضاً. ويقال إن اليهود سألوا أبا لبابة عما ينوى محمد فعله معهم. ولمس أبو لبابة رقبته موحياً أنه قد حكم بذبحهم. وفيما بعد، غلبه شعور بالذنب حتى إنه ربط نفسه إلى عمود من أعمدة المسجد حتى حله رسول الله. وإن كان ذلك هو ما أبلغه أبو لبابة لليهود عن مصيرهم، فلا يبدو أن ذلك قد أثر في قرارهم. ولذا، فقد قال البعض إن أبا لبابة قد ألح للقرظيين أنه على استعداد للوفاء بعهده القديم معهم. وفي اليوم التالي، وافق القرظيون على قبول حكم محمد وفتحوا أبوابهم أمام جيوش المسلمين، ولعلمهم فعلوا ذلك لأنهم كانوا يأملون في مؤازرة حلفائهم السابقين من قبيلة الأوس.

وفي الواقع، فإن الأوس رجواً محمداً استعمال الرحمة، وذكره أنه اعتق بنى قينقاع بناء على طلب ابن أبي الخزرجي. وسألهم محمد إن كانوا يقبلون

قرار رؤسائهم، فوافقوا. وكان سعد بن معاذ قد تلقى طعنة قاتلة أثناء الحصار ونقل إلى ناحية قريبة على حمار. وحس وملاؤه على أن يبقى على حياة حلفائه السابقين، لكن سعداً أدرك أن ذلك سيؤدي إلى إثارة الفوضى مرة أخرى في المدينة، ورفض أن يتغلب ولاؤه السابق على التزامه نحو الأمة. وأصدر سعد حكمه بقتل الرجال السبعمائة، وسب نساءهم وأطفالهم، وقال محمد لسعد «لقد حكمت بحكم الله من فوق سبع أرقعة» (١٢).

وفي اليوم التالي أمر محمد بحفر خندق في سوق المدينة. وتم أيضاً العفو عن بعض الأفراد كطلب المسلمين. ثم تم تقييد الباقين في مجموعات، وأطيح بروعوسهم. ولم يتم قتل سوى امرأة واحدة لإلقائها بحجر رحي على المسلمين في أثناء حصارهم قبيلتها. وتذكرت عائشة فيما بعد الموقف بوضوح فقالت: «والله إنها لعندي تحدث معي، ونضحك ظهراً ويطناً، ورسول الله يقتل رجالها في السوق، إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله. قلت لها: ويحك ما لك؟ قالت: أقتل. قلت: ولم؟ قالت: لحدث أحدثته. فانتطقت بها، فضرب عنقها». فكانت عائشة تقول: «فوالله ما أنسى عجباً منها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تقتل».

ومن غير المحتمل بالنسبة لنا نحن الغربيين أن نفضل تلك القصة عن أفعال النازي الشنعاء. ولا شك أنها ستؤدي إلى اغتراب كثير من الناس عن الإسلام اغتراباً أبدياً. لكن بعض المفكرين الغربيين، مثل ماكسيم رودينسون، و. و. متجومري واط، يقولون إنه من الخطأ الحكم على تلك الحادثة بمعايير القرن العشرين. فقد كان ذلك المجتمع بدائياً وأكثر بدائية بكثير من المجتمع اليهودي الذي عاش فيه المسيح ودعا فيه إلى رسالة الرحمة والحب قبل ذلك بستمائة عام. ففي تلك المرحلة لم يكن لدى العرب مفهوم عن قانون طبيعي، والذي من الصعب، إن لم يكن من المحال، أن يصل إليه قوم في غياب حتى السير من النظام العام، كذلك الذي كانت تفرضه الإمبراطوريات

القديمة فى العالم القديم. أما فى زمن محمد، فيبدو أن الحالة فى المدينة كانت تشبه الحالة فى القدس فى عصر داود، والذي كان قاتلاً أعظم لأعداء الله. وقد قام فى إحدى المناسبات بذبح مائتين من الفلسطينيين Philistines القدماء، وتم خصيهم وإرسال كومة قلفهم foreskins الدامية إلى ملكتهم. أما كثير من المزامير التى نسبت لداود فقد تم تأليفها بعد عدة قرون - بعضها كتب عام ٥٥٠ ق. م - لكنها تورد تفاصيل دموية لأفعال بشعة كان الإسرائيليون يأملون أن يرتكبوها فى حق أعدائهم. وهكذا، لم يكن يُتوقع فى أوائل القرن السابع الميلادى أن يظهر قائد عربى أية رحمة تجاه خونة مثل القرظيين.

وكانت الأمة الإسلامية قد نجت من الإبادة بأعجوبة وقت الحصار. وبطبيعة الحال، كانت العواطف متقدة. كما أن القرظيين أوشكوا أن يُدمروا المدينة. ولو أن محمداً أطلق سراحهم لعملوا على زيادة معارضة اليهود فى خيبر، ولنظموا هجوماً آخر ضد المدينة حيث لم يكن هناك ضمان لأن يحالف الحظ المسلمين مرة أخرى. كما أن المعركة الدموية من أجل البقاء كانت ستستمر إلى ما لا نهاية، ويستمر معها المعاناة والموت. ولا بد أن أحكام الإعدام تلك قد تركت أثرها المظلوم فى نفوس أعداء محمد. كما أنه لا يبدو أن أحداً قد صدمته المذبحة، بالإضافة إلى أن القرظيين أنفسهم يبدو أنهم كانوا قد ارتقبوا حتميتها. وبعثت تلك الإعدامات رسالة قميئة إلى يهود خيبر. كما أن القبائل العربية لا بد وأنها لاحظت أن محمداً لم يكن يخشى من ثار أصدقاء وحلفاء قريظة ثاراً دموياً. وكان ذلك رمزاً للقوة غير العادية التى اكتسبها محمد بعد الحصار، حينما أصبح قائد أقوى مجموعة فى بلاد العرب.

إن مذبحة قريظة لتذكرة بالأحوال البائسة فى بلاد العرب فى أثناء حياة محمد. وبالطبع، فمن حقنا أن نستنكر تلك المذبحة دون تحفظات، لكنها لم

تكن في ذلك الوقت جريمة كبيرة كما تبدو اليوم. فلم يكن محمد يعمل من خلال إمبراطورية عالمية كانت قد فرضت نظاماً شاملاً، ولا من خلال مآثورات دينية متأصلة. فلم تكن هناك «وصايا عشر» (بالرغم مما يقال عن أن موسى أمر الإسرائيليين بقتل جميع سكان كنعان بعد فترة وجيزة من أمره إياهم «لا تقتل»). ولم يكن لدى محمد في تلك اللحظة سوى الأخلاقيات القبلية التي كانت تبيح مثل ذلك الإجراء. وكانت المشكلة قد تعقدت أيضاً، لأن محمداً بعد انتصاره كان قد أصبح أكثر الزعماء قوة في بلاد العرب، وعلى رأس مجموعة تختلف عن المجموعة القبلية المعروفة. فكان قد بدأ لتوه التامى على القبيلة، وكان في المنطقة المشاع بين مرحلتين من التطور الاجتماعي.

غير أنه من الأهمية بمكان أن نسجل هنا أن تلك البداية المأساوية لم تؤثر بصفة دائمة في موقف المسلمين من اليهود. فبمجرد أن أقام المسلمون إمبراطوريتهم العالمية الخاصة وطوروا نظاماً متقدماً في شريعتهم، أسسوا نظاماً تسامح ظل يسود الأجزاء المتمدينة في الشرق الأوسط لمدة طويلة حيث تعايشت مجموعات دينية في ظله جنباً إلى جنب. إن المعادة للسامية خطيئة مسيحية غريبة، وليست خطيئة إسلامية، ويجب أن يكون ذلك حاضراً في أذهاننا كي لا نخضع لإغراء التعميمات بناء على ذلك الحادث المرعب الذي وقع في المدينة. وحتى في أثناء حياة محمد، بقيت مجموعات يهودية صغيرة في المدينة بعد عام ٦٢٧م، وسُمح لها بالعيش في سلام دون أدنى قمع. ويبدو أن الجزء الثاني من «عهد المدينة» والذي يُعنى بالكان اليهود في المستوطنة، وضع في زمن لاحق على ذلك التاريخ. ففي ظل الإمبراطورية الإسلامية تمتع اليهود، مثلهم مثل المسيحيين، بحرية دينية كاملة. ونعاش اليهود في المنطقة في سلام حتى إقامة دولة إسرائيل في قرنتنا الحالي. ولم يُعانِ اليهود في ظل الإسلام قط ما عانوه في ظل المسيحية. أما الأساطير

الأوربية المعادية للسامية فقد قدمت إلى الشرق الأوسط في نهاية القرن الماضي على يد البعثات التبشيرية المسيحية، وكانت الجماهير عادة ما تقابلها بالازدراء. لكن في السنوات الأخيرة لجأ بعض المسلمين إلى أجزاء من القرآن تشير إلى القبائل اليهودية التي تمردت في المدينة، وتجاهلوا الآيات الأكثر عدداً بكثير، والتي تتحدث بإيجابية عن اليهود وأنبياهم العظام. ويُعتبر هذا تطوراً جديداً كلية في تاريخ المائتين وألف عام من العلاقات الحسنة بين المسلمين واليهود^(٦٤).

ويعلمنا القرآن أن الحرب دائماً أمر بغيض. وأنه لا يجب على المسلمين أن يبدأوا بالعداوات، لأن الحرب العادلة هي التي تشن للدفاع عن النفس فقط. غير أنه، متى دخلوا الحرب، فعلى المسلمين أن يقاتلوا بالتزام مطلق لكي ينتهى القتال في أسرع وقت ممكن^(٦٥). وإذا اقتصر العدو هدنة، أو أبدى استعداداً للسلام، فإن القرآن يأمر المسلمين ألا تكون شروط السلام غير أخلاقية أو مخزية. لكن القرآن يؤكد أيضاً على أن إنهاء الصراع الحربى أمر مقدس، على أن تتم مواجهة العدو بحزم، وأنه يجب تحاشي أى تردد لأن ذلك يعنى أن يستمر الصراع لأجل غير مسمى.

إن هدف أى حرب في الإسلام هو لإحلال السلام والوفاق في أسرع وقت. ورغم أننا قد نرتعد لما حدث في سوق المدينة عام ٦٢٧م، فقد قيل عنه إنه كفعل سياسى محض، كان هو القرار المناسب. فقد كان ما حدث هو آخر الأعمال الفظيعة، لأنه كان بداية النهاية لأسوأ مراحل الجهاد، فقد تم لمحمد هزيمة أكبر جيوش العرب التي لم يسبق لها أن اتحدت بهذا الشكل ضد عدو منفرد في معركة الخندق. كما أنه سحق ثلاث قبائل يهودية قوية وأثبت أنه لن يصبر بعد ذلك على خيانات أو مؤامرات أكثر ضد الأمة. كما أنه برهن على أنه أقوى شخصية في بلاد العرب، ووضع نهاية سريعة وحاسمة لصراع دموى استمر سنوات.

إن لفظ «إسلام» مشتق من جذر يعنى «السلام» والصلح وسنرى بعد معركة قريظة تغييراً واضحاً فى سياسة الجهاد. فالآن، ولأنه لم يكن عليه أن يقاتل من أجل الحياة، أصبح بإمكان محمد أن يبدأ فى فرض «السلام الإسلامى» Pax Islamica على بلاد العرب. وهكذا، يُصرّ محمد فى العام التالى على سياسة سلام ووفاق كادت تتسبب فى اغتصاب أكثر صحابته قرناً وولاءاً.

obeikandi.com

الفصل التاسع السلّم المقدّس

كان انتصار محمد على قريش في حصار المدينة فوزاً مبيّناً، إذ كان، عندما وصل إلى الواحة قبل خمس سنوات، لاجئاً لاغباً هذه الفر وأرضه وعشاء الرحلة، وفي أثره أهل مكة يطلبونه ويريدون هلاكه، ولكنه نجح اليوم في قلب هذه الأوضاع، وأثبت لبلاد العرب كلها أن شمس مكة قد غربت، فلقد أخفق أهل مكة إخفاقاً ذريعاً في التخلص من محمد ومن أمة الإسلام، وكان من المحال أن يستعيدوا هيتهم السابقة، وهي التي كانوا يستمدون منها قوتهم، بل كان أسلوب حياتهم برمته يعتمد عليها. لقد أصبح سقوط مكة أمراً محتوماً، كما اعترف الجميع عندما رفعت قريش الحصار، حتى خالد بن الوليد نفسه، بأن محمداً هو الزعيم القادم. لقد قهرت قوة الإسلام المعنوية والسياسية النظام القبلي القديم، وأيديولوجيا الحلم، والرأسمالية القوية التي كانت تطبقها قريش. وانطوت الآن صفحة إراقة الدماء التي اتسمت بها مرحلة الجهاد، إذ كان محمد يسعى على الدوام إلى أن تنضم قريش إلى صفّه لا إلى استئصال شأفتها، وهكذا كان عليه بعد رفع الحصار أن يشرع في جهود المصالحة ولكن، وهو ما يعتبر شرطاً أساسياً، دون إظهار أي دليل على الضعف أو التردد.

ويبدو أن تصور محمد لرسائله قد تغير في هذا الوقت مرة أخرى. وكان قد بدأ يدرك منذ انتصاره في غزوة بدر أن الوحدة العربية لم تعد حلاً محال التحقيق، وكان انتصاره اليوم على قريش وتخلصه الحاسم من بني قريظة، من الأحداث التي بهرت القبائل البدوية فغدا الكثير منها على استعداد لإلغاء

تحالفها مع قريش وعقد حلف مع أمة المسلمين في المدينة. وكان محمد يمدُّ بصره إلى ما هو أبعد من مكة، صحيح أنه كان يريد أن يظفر بتلك البلدة لأنها أصبحت تشغل مكاناً أساسياً في روثته الدينية، ولكنه بدأ أيضاً في النظر إلى المنطقة التي تقع شمالي المدينة باعتبارها من المناطق التي يمكن أن يمتد إليها الإسلام. ولا يعني ذلك أنه كان يحلم بفتح العالم بل كان معناه فحسب هو أنه كان يريد إيلاغ رسالة القرآن العربي إلى قبائل الشمال، وربما أيضاً إلى العرب في سوريا والعراق الذين يعيشون في كنف الدولة البيزنطية ونظامها الديني. ويرود الرواة رواية لم توردها أقدم المصادر، مفادها أن محمداً قام في نحو تلك الآونة بإرسال رسائل وهدايا ثمينة إلى إمبراطوري بيزنطة وفازس، وإلى النجاشي ملك الحبشة، وإلى المقوقس عظيم القبط في مصر يدعوهم إلى الدخول في الإسلام. ونكاد نقطع بأن هذه الرواية مدسوسة لأننا لا نملك الدليل على أن محمداً كان يرى أن الإسلام دين عالمي وأنه سوف يلقى ما أنزل على أهل الكتاب. كان الإسلام حتى تلك الفترة ديناً لأبناء إسماعيل، مثلما كانت اليهودية دين أبناء يعقوب. واستمر المسلمون، إلى ما بعد وفاة نبيهم بنحو مائة عام، يعتبرون أن الإسلام دين منزل على العرب وحسب، وإذا صدقت رواية سفراء النبي إلى حكام البلدان المجاورة، فقد كانت تعبيراً عن الثقة الجديدة التي اكتسبها محمد وعن اتساع نطاق روثته. لم يعد محمد مجرد قائد لطائفة مضطهدة، أو زعيم من بين زعماء المدينة الكثيرين، بل أصبح سيداً من أهم سادة بلاد العرب. وربما كان القصد من الرسائل قطع الطريق على أي محاولة من مكة لطلب العون الخارجي، في تلك المرحلة الأخيرة من الكفاح. ولم يطلب محمد من هؤلاء الحكام، في الرسائل التي وصلت إلينا، إلا بقبوله نبياً، وكان محمد يؤمن في تلك الأيام بأن الله قد أرسله إلى العرب كافة، وفي الوقت نفسه الذي كتب فيه إلى الإمبراطورين والنجاشي والمقوقس، قيل إنه كتب أيضاً رسائل

إلى قبيلتين من قبائل عرب الشمال وهما غسان وحنيفة، وكان معظم أفرادها يدينون بالنصرانية، لكنه لم يكن يتوقع من هؤلاء التخلي عن النصرانية بل الانضمام إلى الأمة فحسب، وذلك على نفس الأسس تقريباً التي قام عليها انضمام العشائر اليهودية المتبقية في المدينة.

وفي عامي ٦٢٧ و٦٢٨ بدأ محمد في بناء تحالفه الخاص، داعياً القبائل إلى أن تصبح من حلفائه، بنفس الصورة التي أصبح الأحابيش بها حلفاء لغريش. وكان بعض الأفراد من البدو قد اعتنقوا الإسلام بل وهاجر بعضهم فعلاً إلى المدينة. وإذا كانت الأحلاف التي بدأ بناءها في ذلك العام ذات طابع سياسي محض في معظم الأحوال، فقد كان يأمل أن ذلك سوف يؤدي آخر الأمر إلى التزام ديني. وكان من الضروري أن يواصل إرسال صورة القوة والحزم. كما قام في غضون هذا العام أيضاً بغزوات شتى على القبائل التي كانت أعضاء في التحالف المكي مثل بني أسد وبني ثعلبة، وربما تكون مواقعها قد أصبحت أقرب قليلاً من المعتاد من المدينة في هذه السنة التي اتسمت بالجفاف البالغ الشدة. وقد يكون المقصود بالغزو أن يقول لها إن «ترفع أيديها» عن المدينة. كما قام بغزوة على قبيلة بني سعد التي كانت تفكر في عقد تحالف مع يهود خيبر. وبدأ البدو يدركون أنه من الخطر عليهم مصادقة أعداء الأمة، ولاشك أن قوتها سوف تزيد من احترامهم لمحمد ولدينه.

لم يكن محمد يعترم الهجوم على مكة في ذلك العام، ولكنه كان يحاول إضعاف الاحتكار المكي للتجارة. ولما كان عدد المؤمنين المهاجرين في ازدياد، وكان عدد سكان المدينة يزداد كذلك، أصبح من الضروري للأمة أن تقيم علاقات تجارية مع سوريا وأن تأتي بالواردات إلى الواحة. وأرسل النبي حملات إلى الشمال، ربما كان الهدف منها اجتذاب جانب من التجارة السورية إلى المدينة، إلى جانب نشر رسالته الدينية. فقام عبد الرحمن، على

سبيل المثال، بالسير بقافلة إلى دومة الجندل التي تقع على الطريق الموصل إلى سوريا، وكان يعتقد فيها سرق عظيم مرة في العام. كانت المدينة قد بدأت عملياً في ضرب حصار اقتصادي تدريجي على مكة منذ غزوة بدر، وعندها أصبح طريق البحر الأحمر مغلقاً تماماً في وجه قريش. وقد حاول محمد في العام التالي لحصار المدينة أن يُحكم الحصار الاقتصادي ويضمن في الوقت نفسه إتاحة الفرص التجارية للمسلمين، فأرسل زيدا للتجارة مع سوريا ولكن قافلته تعرضت للهجوم، فتركها وقد ظن الناس قد مات، ولكنه تمكن من العودة بصعوبة إلى المدينة. وقام زيد، بعد ذلك بقليل، بغزوة أخرى صادف فيها حظاً أنفل، حين هاجم قافلة مكية في طريق عودتها من سوريا. وكان أحد التجار القرشيين في تلك القافلة هو صهر محمد، أبو العاص، الذي كان ما يزال مشركاً. وقد نجح أبو العاص في الفرار وتسلل إلى المدينة ليلاً لزيارة زوجته السابقة زينب بنت محمد. وأعلنت زينب في صلاة الفجر في صيحة اليوم التالي في المسجد أنها قد أجارت أبا العاص بن الربيع، ولم يكن محمد قد علم بما جرى فقال إنه يؤيد حق ابته في إجارة ذلك الرجل، ولو أنه حذرهما من مضاجعته.

وأخبرت زينب أباها أن أبا العاص كان كاسفاً حزينا لضياح البضائع التي اشتراها لحساب شتى الأفراد في مكة ممن استامنوه على أموالهم. وأمر محمد على الفور برد الغنائم التي ظفر بها الغزاة من القافلة إلى أبي العاص، فأطاعوا أمره بدقة، حتى أنهم ردوا عليه بعض قرب الماء القديمة والزجاجات وقطع الخشب التي لا قيمة لها. وأتى ذلك أكمله، فعاد أبو العاص إلى مكة ووزع البضائع على أصحابها ثم هاجر وأسلم وعاد إلى زينب. كان على استعداد يوماً ما للتخلي عن زوجته التي يحبها وعن ابته في غمرة حماسه لدين الشرك، ولكنه كان يدرك أن قومه لم يعد لهم أمل، وأن عليه أن يتقبل ما أصبح محتوماً. كان بعض الناس في مكة قد بدءوا في الإحساس بذلك

أيضاً، ولا بد أن محمداً كان يدرك ذلك. كانوا قد شنوا الحرب على المدينة تكريماً للآلهة القديمة، وكانت صيحة الحرب في غزوة أحد هي «يا عزي يا هيل» ولكن هذه الآلهة كانت قد أصبحت لا حول لها ولا طول في مواجهة دين الله الذي أتى به محمد. ومع ذلك فقد ظل البعض الآخر مثل صفوان وعكرمة وسهيل، رئيس بنى عامر، ملتزمين بالكفاح ضد محمد.

ولا بد أن محمداً قد سمع عن ذلك التغيير في المشاعر من الذين اعتنقوا الإسلام، مثل أبى العاص، ومن جواسيسه (وكان قد أصبح له الآن جهاز استخبارات بالغ الإحكام) ولكنه وجد صعوبة في الاقتراب إلى وسيلة «التعامل» مع مكة إذ إنه، كما سوف نرى، لم يكن يعترم قيادة حملة عسكرية للهجوم بها على البلدة المقدسة. ولم تكن لديه، كالعادة، خطة محددة واضحة المعالم، ولكن لا بد أنه كان يكابد المشكلة على مستوى العقل الباطن، إذ حدث في مارس عام ٦٢٨، أثناء الشهر التقليدي لرحلة الحج، أن رأى فيما يرى النائم حلاً أو رؤيا للمصالحة والنصر. فقد رأى نفسه وقد حلق شعر رأسه كما يفعل الحجاج، وارتدى ملابس الإحرام، واقفاً في الكعبة وعمكاً بفتحها في يده. وبدا أن تلك الرؤيا قد أقمته بالثقة في النصر الذي عبرت عنها كلمات الله فيما بعد، في الآية التالية من القرآن:

﴿لَتَدْخُلَنَّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون﴾ (الفتح: ٢٧).

وأعلن في صباح اليوم التالي أنه سوف يقوم بزيارة الكعبة، ودعا الصحابة إلى مرافقته. ومن اليسير أن نتصور ما انتاب المسلمين من خوف ودهشة وسرور وقلق عندما سمعوا هذه الدعوة الغريبة. وأوضح محمد لهم أنها لن تكون حملة عسكرية، فسوف يرتدى المسلمون ملابس الإحرام البيضاء التي يرتديها المعتمرون ولن يحملوا أسحلة في أيديهم. وكان في ذلك خطر بالغ بطبيعة الحال، ورفض حلفاء المسلمين من البدو تلبية هذه الدعوة، ولكن نحواً

من ألت من المهاجرين والأنصار وافقوا على اصطحاب محمد. بل إن ابن أبي نفسه وبعض مؤيديه وافقوا على الذهاب معه، مما يدل على أنهم لُقنوا درساً شديداً نتيجة لانتصار المسلمين في ظروف لم تكن ترجح وقوعه على الإطلاق في العام السابق، وللمصير الذي انتهى إليه بنو قريظة. وقرر محمد أن يصطحب زوجته أم سلمة معه، كما سمح للمرأتين اللتين شهدتا بيعة العقبة الثانية بالمشاركة في العمرة.

وشرع المتعمرون في تجهيز أنفسهم على وجه السرعة، وجمعوا سبعين جملاً تقرر ذبحها، وفقاً للشعائر القديمة، في بيت الله الحرام. وارتدى محمد لباس الإحرام، الذي كان يتكون من قطعتين من النسيج غير المرتق بالخيط، وكانت إحدهما تلتف حول الخاصرة والثانية حول الكتفين، ولا يزال المتعمرون يرتدون ملابس الإحرام نفسها عندما يزورون مكة في هذه الأيام. وقال عمر إن قريشاً سوف تعتدى حقاً على المعتمرين المسلمين، ودعا إلى أن يحمل المتعمرون أسلحتهم حتى يردوا العدوان إن وقع. ولكن محمداً أصر على رأيه ولم يتزحزح عنه، قائلاً إنه لن يحمل السلاح وإنه لا مقصد له إلا زيارة بيت الله الحرام^(١). كان قلبه لا يزال مفعماً بالثقة والاطمئنان بعد الرؤيا التي رآها في منامه، وبأنه سوف يعود إلى الكعبة بطريقة ما، دون خوف (ولا تخافون!) ولو أنه لم يكن قد حدد أسلوب تنفيذ ذلك بالتفصيل. ولكنه أصر على عدم القتال هذه المرة، ومن ثم اقتصر السلاح الذي يحمله المعتمر على سيف قصير لا يصلح إلا للصيد، وأمر كل واحد بالاحتفاظ بسيف من غمده.

وعندما توقف الركب في أول مرحلة، قام محمد بمباركة أحد الجمال بالأسلوب التقليدي، (وهو من الهدى)، فوسمه وسماً خاصاً وعلق زهور الرسم حول رقبته، وجعله يتحول لمواجهة مكة. وبعد ذلك ردد النداء القديم الذي كان الحجاج ينشدونه عند اقترابهم من الكعبة وهو «ليك اللهم ليك».

وحذا بعض المعتمرين حذوه، ولكن البعض الآخر قرر تأجيل «المباركة» إلى وقت لاحق، بسبب القيود التي تنص عليها شعائر العمرة فيما يتعلق بالصيد في أثناء موسم الزيارة.

كان محمد يعلم حق العلم أنه قد وضع قریشاً في موقف بالغ الصعوبة: كانت قريش تتولى الوصاية على مكة، وكان من العار أن تحاول منع ألف معتمر عربي، يراعون الشعائر القديمة مراعاة صارمة، من دخول بيت الله الحرام في مكة، ولكن دخولهم كان معناه أن يحرز محمد نصراً معنوياً هائلاً، خصوصاً حين يدخل الحجاج المدينة المقدسة بهذا الأسلوب، وأن يتأكد إذلالهم على يديه. كان سيل وعكرمة وصفوان ومؤيدوهم قد صمموا على منعه من دخول مكة، حتى ولو أدى ذلك إلى غضب القبائل البدوية وفرعها. أما أبو سفيان فقد التزم الصمت، فيما يبدو، وكان ذلك مدعاة للدهشة. لقد كان رجلاً يتمتع بذكاء بالغ، وقد يكون قد أدرك أن تدبيره قد أخفق، وأنه لم يعد من الممكن التعامل مع محمد بالأساليب التقليدية.

لكنه يبدو أن أبا سفيان كان الوحيد من أعضاء مجلس الشيوخ (دار الندوة) الذي اتجه إلى هذا الرأي، إذ أرسلت قريش خالد بن الوليد ومعه مائتا فارس لمنع المسلمين من دخول مكة، وعندما وصل المعتمرون إلى بئر عُفان، التي تقع إلى الشمال الشرقي من مكة، على بعد خمسة وعشرين ميلاً تقريباً، أبلغهم الدليل أن خالداً لم يكن يعد عنهم إلا بنحو ثمانية أميال. وردّ محمد رداً يتم عن الشقة، إذ قال: «يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خَلّوا بيني وبين سائر العرب... فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه الساقفة»^(٣) (ابن هشام: ج ٣/ ص ٢٠٠) وطُلب من الحجاج أن يتعينوا بدليل من أبناء المنطقة يستطيع أن يهديهم إلى البقعة الحرام، وهي المكان المقدس الذي يحيط بمكة والذي حُرّم فيه القتال وارتكاب أعمال العنف. وتطوع رجل من بني

أسلم فلك بالمعتمرين طريقاً وعرأ أجدل، بين شعاب، لا يستطيع خالد أن يصل إليه. وعندما وصلوا إلى السهل، وبلغوا مشارف الأرض الحرام، قام محمد بتذكير المعتمرين بالطابع الديني للرحلة. وقال لهم إنهم يهيمون بدخول مكان مقدس وحثهم على أن يتجهوا بروحهم إلى الله ويتوبوا إليه، قائلاً: «قولوا نتغفر الله ونتوب إليه»^(٤). ثم أمرهم أن يسلكوا الطريق إلى الحديبية على مشارف بيت الله الحرام، وأن يجعلوا أظلاف جمالهم تثير الغبار حتى يدرك خالد ومن معه أن المسلمين قد تجاوزوا الخطر.

من المحتمل أن رؤيا محمد جعلته يتوقع من قريش أن ترضخ للضغط فتسمح للمعتمرين المسلمين بدخول مكة، ولكن القوة المسلحة التي كان خالد يقودها أثبتت له أن قريشاً كانت على استعداد لقتل أصحابه العزل من السلاح ولا تسمح لهم بدخول الكعبة. وكعادته، أظهر محمد براعة ذهه في ردود فعله على تطورات الموقف، مع أنه لم يكن يعلم ما سوف يثول إليه ذلك الموقف. وعندما وصلوا إلى الحديبية بركت راحلة النبي محمد فجأة ورفضت القيام، مثلما سبق ليا أن فعلت في المدينة. وتجمع المعتمرون حولها وقالوا «خلأت الناقة» وصاحوا بها أن تنهض ولكنها أصرت على عدم القيام، فكرهوا عنادها ولكن محمداً قال إن ذلك ليس من طبيعها، وذكرهم بهزيمة جيش الحبشة في عام الفيل، عندما برك ذلك الحيوان الضخم وركع أمام الكعبة، وقال النبي عندها: «حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها»^(٥) (ابن هشام: ج ٣/ص ٢٠١) كان قد قرر أن تكون المصالحة، لا الحرب، هي طابع تلك الرحلة، ثم أمر المعتمرين أن يترجلوا. وعندما اشتكوا من عدم وجود ماء، قيل إن محمداً أخرج سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل به في قليب من تلك القليب (أى آبار الماء الجافة) فغرسه في جوفه فجاش بالرواء (أى بالماء) على القور.

وشريت الإبل عللاً بعد نهل ثم رقدت، وخلد المعتمرون إلى الراحة وربما خاب أمهم في أن يُطلب إليهم القيام بأعمال «بطولية»، فكان المشهد أشبه بما يطلق عليه اليوم تعبير «الاعتصام»، أو أشبه شيء بمظاهرة بليغة المعنى بليغة التأثير في الأعراب. كانت جميع العيون معلقة بمحمد في ذلك الوقت، وانتقلت الأنبياء بسرعة من قبيلة إلى قبيلة، ولا شك أن البدو الرُّحَّل قد أزعجهم أن يسمعون أن قريشاً كانت على استعداد لمهاجمة جماعة من المعتمرين العرب المسالمين، ومنعهم من الوصول إلى الكعبة، وهو حق مقدس للعرب كافة. وكان محمد يجلس صابراً على مشارف بيت الله الحرام، مرتدياً ملابس الإحرام الكاملة، ومثبِتاً أن المسلمين كانوا في هذا الشأن أقرب إلى الاتفاق مع التقاليد العربية من الأوصياء على الكعبة. وبعد وصولهم بقليل، جاءهم وفد من قبيلة خزاعة، على رأسه بُدَيْل بن ورقاء، وكان من رؤساء تلك القبيلة وسمع بهذه الأنباء في أثناء زيارته لمكة. وعندما سأل بُدَيْل محمداً عن سبب قدومه، أجابه بأنه لم يأت لقتال بل جاء زائراً لهذا البيت، ولكن المسلمين سوف يقاتلون، إذا اقتضى الأمر، ورغم ضعف سلاحهم، في سبيل حقهم في زيارة الكعبة، وإن كانوا يريدون من قريش أن تصل إلى قرار بشأن ما تريد أن تفعله. واتزعج بديل عندما علم أن الحجاج المسالمين قد منعوا من دخول الكعبة على هذا النحو، ووعده بأن تقدم خزاعة إلى المسلمين الطعام والمعلومات ماداموا قد مكثوا في الحديبية.

وعاد بُدَيْل فوراً إلى مكة وأعلن في غضب معارضته لسياسة قريش، التي تمثل انتهاكاً لجميع التقاليد التي يعتبرها العرب بالغة القداسة. ورفض عكرمة حتى أن يسمع ما قاله محمد، ولكن صفوان طلب أن يسمع الرسالة. وعندما أكد بُدَيْل نوايا محمد السلمية، لم يصدق بعض أبناء قريش، وقالوا: «وإن كان جاء ولا يريد قتالاً، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً، ولا تحدث بذلك عنا العرب»^(٦). وأقسموا ألا يسمحوا له بالدخول، وأن يحولوا بين محمد

وبين الكعبة وأن يقاتلوا حتى يسقط آخر رجل منهم. وحاولوا بعد ذلك إحداث الفرقة في صفوف المسلمين فأرسلوا إلى ابن أبيّ ودعوه إلى إقامة الشعائر في الكعبة، لأنهم كانوا يعرفون الود الذي يحمله مكة. ولكنهم دهشوا عندما رد عليهم ابن أبيّ قائلاً إنه لا يستطيع الطواف أمام محمد، ومهما يكن من أمر آرائه السابقة، ورغم أنه عاد لمعارضة محمد من جديد في المستقبل، فقد أثبت ابن أبيّ في الحديبية أنه مسلم صالح.

واتجه رأى آخرين من أبناء قريش، وكان من بينهم صفوان وسهيل، إلى محاولة التفاوض مع محمد. وعرض أحد رجال الطائف الذي كان من الأحلاف، وكان في زيارة آنذاك لمكة، وهو عروة بن مسعود، أن يقوم بدور الوساطة، قائلاً إن رفض الطلب المعقول الذي تقدم به محمد ستكون له آثاره العكسية، وخصوصاً أن محمداً قد أعلن على الملأ استعداده لتقديم بعض التنازلات. وقبلت قريش عرض عروة. ولكنهم أرسلوا إلى محمد أولاً أحد حلفائهم من الأعراب، واسمه الحُليّس بن علقمة، رئيس قبيلة بني الحارث، وكان أحد سادة الأحابيش كلهم. فلما رآه محمد قادماً قال لمن معه: «إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه». وعندما رأى الهدى يبيل عليه من عرض الوادي في قلائده، وعلى كل من الجمال العلامات المميزة للهدى، لم يشأ أن يرى المزيد وكرّ راجعاً إلى قريش. لم ير ما يدعوه حتى إلى سؤال محمد عن أي شيء، وقال لقريش عندما عاد إن هؤلاء حقاً معتمرون ونواياهم حسنة، ولا بد من السماح لهم بدخول الكعبة فهذا حقهم. ولكن صفوان وزملاءه غضبوا غضباً شديداً مما سمعوا، وقالوا له: «اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك». وكان ذلك خطأ جسيماً، على نحو ما بين لهم حليّس على الفور إذ نهض بوقار وقال:

«يا معشر قريش! والله ما على هذا حالناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أَيْصَدُّ عن بيت الله من جاء معظماً له؟ والذي نفس الحليّس بيده، لَتُخَلَّنَ بين

محمد وبين ما جاء له، أو لَأَنْفِرَنَّ بِالْأَحَابِيثِ نَفْرَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ» (٧). (ابن هشام: ج٣/ص ٢٠٣).

وسرعان ما اعتذرت قريش وطلبت من حليس أن يصبر عليهم حتى يتمكنوا من الوصول إلى حل وسط يرضى عنه الجميع.

وأرسلت قريش بعد ذلك عروة بن مسعود إلى الخديبية، فجلس مع محمد وحذره من قريش قائلاً إنها قد خرجت إليه بأسلحتها «وقد لبسوا جلود النمر» ويؤكد له أنه لن يستطيع مقاومة قريش استناداً إلى الذين معه، فهم خليط غير متجانس ويتمون إلى قبائل مختلفة، بل إن بعضهم قد حارب البعض الآخر حرباً شعواء في الماضي، وغضب أبو بكر لسماع ذلك وصاح قائلاً: «امصص بظر اللات!» فقال عروة لا بأس لأنه مدين لأبي بكر ولولا ذلك لاضطر إلى رد إهانة أبي بكر. وعمد عروة أثناء الحديث إلى لفت نظر محمد بأن جعل يجذب لحية، وهي من علامات رفع الكلفة التقليدية، ولكن مسلماً آخر قرع يده وأبعدها، وعندما غادر عروة المخيم كان قد بهره تعظيم المسلمين وإخلاصهم لمحمد. ويقول ابن إسحق إنه رأى ما يصنع أصحابه به، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يصبق البصاق إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه» (ابن هشام: ج٣/ص ٢٠٤). وكان عروة تاجراً طبق الآفاق في أسفاره، ومن ثم عاد إلى قريش ليخبرها أن التبجيل الذي يحظى به محمد لم يتمتع به حتى أباطرة بيزنطة والفرس، قائلاً: «لقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً قروا رأيكم».

وقرر محمد إرسال مبعوث خاص من لديه إلى مكة. فأرسل أولاً أحد الانصار، إذ تصور أن ذلك سيكون أقل إثارة لهم من إرسال أحد المهاجرين، ولكن قريشاً عقرت بعيره وكادت تقتله لولا أن حالت قوات حليس بينهم وبين الرجل. ثم طلب محمد من عمر أن يذهب إليهم، ولكن عمر أبدي الحذر والتردد، إذ لم يكن بين أبناء عشيرته من يقوى على حمايته، ومن ثم

اقترح أن يذهب عثمان بن عفان بدلاً منه. وكان لعثمان معارف كثيرون من أرستقراطية مكة، فأصغت قريش لما قاله ولكنهم لم يستجيبوا له. وقالوا له إن شئت أن تطوف البيت فطف، ولكن عثمان رفض مثل ابن أبي، وقال ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله، وهكذا احتبسته قريش عندها وأرسلت إلى مخيم محمد من أبلغهم أنه قد قتل.

وعندما بلغ محمداً أن عثمان قد قتل قال: «لا نبرح حتى نناجز القوم». وأقسم ألا يغادر الحديبية دون مواجهة العدو، فكانت اللحظة التي بلغت الأزمة فيها مداها، إذ بدا أن الرحلة التي كانت وليدة فكرة ملهمة قد أخفقت. وفي تلك اللحظة العصية قيل إنه أصابه غيبوبة دون أن يفقد الوعي، وكانت تشبه حاله عندما كان الوحي يتزل عليه، ولا بد أنه كان يبحث في أعماق نفسه جاهداً عن حل للأزمة. ثم طلب من المسلمين أن يابعوه بأن يقسموا له قسماً خاصاً، فتقدم المعتمرون واحداً بعد الآخر منه وأقسموا على يديه القسم، فيما أصبح يسمى ببيعة الرضوان. وتختلف مصادر السيرة حول مضمون هذه البيعة، فبعضها يقول إن المسلمين أقسموا على قتال قريش حتى الموت، ولكن القائلين بذلك أقلية. أما الأكثرية فتقول إن المسلمين أقسموا «على أن لا يفروا»، وإن كان الواقدي يذكر أن كل مسلم أمسك بيد الرسول وأقسم أن يتبع «ما في نفسه»، وأن يطيع محمداً ضمناً في أثناء هذه الأزمة^(٩). وأقسم الجميع هذا القسم، ومن بينهم ابن أبي والمنافقون الذين كانوا بين المعتمرين.

وهناك من الأسباب ما يغرى بقبول قول الواقدي. فعندما انتابت محمداً حالة التركيز الشديد، لا بد أنه قرر على مستوى عميق (وربما بالفطرة) أن يتهج نهجاً عملياً كان يعرف أنه سوف يبدو شديد الوطأة بل ربما أدى إلى التمرد بين أتباعه. وكان من شأنه أن يبدو مناقضاً كل التناقض لسياسته السابقة تجاه قريش. وكان ذلك النهج حتى تلك اللحظة أقرب إلى الحدس منه

إلى الساسة العقلانية الواضحة التفاصيل. كان يصفى إلى المنطق العميق للأحداث التي كانت تنطور فى الحديسية بطريقة لم يكن يتوقعها حين قاد مسيرة المعتمرين خارجين من المدينة. ولم تكذ تنهى المبايعه حتى جاءت الأنباء بأن عثمان لم يقتل. وبعد ذلك رأى محمد سهيلاً وهو يقترب من المخيم مع اثنين من أصحابه فعرف أن وصول هذا المبعوث معناه أن قريشاً قد قررت التفاوض. وقضى مع سهيل وقتاً طويلاً، وبعد المناقشة الحامية الوطيس، اتفق الجانبان على شروط الصلح، وهى التي أفحمت قلوب أصحابه غمًا وهماً.

وعد محمد بالعودة إلى المدينة دون زيارة الكعبة هذه المرة، وكان معنى هذا أنه لن تتمكن قبيلة من القبائل العربية من القول بأنه أجبر قريشاً على الرضوخ لمطلبه، ولكن المسلمين سوف يعودون فى العام التالي، فى نفس الوقت، إلى مكة، وسوف تجلو قريش عن المدينة لمدة ثلاثة أيام حتى يتمكنوا من أداء شعائر العمرة حول الكعبة فى سلام. كما نصت شروط الصلح على أن تقوم هدنة بين مكة والمدينة لمدة عشر سنوات، بشرط أن يعد محمد بإعادة أى فرد من قريش إلى مكة إذا أسلم وهاجر دون موافقة من يكفله. ولكن قريشاً ليست ملزمة بإعادة أى مسلم يفر إليها. وأخيراً نص الصلح على أن تحل قبائل الأعراب من التزاماتها السابقة بحيث يكون من حقها التحالف مع مكة أو المدينة حسبما تشاء. وكان القرآن قد نص على أن يوافق المسلمون على أى شروط يقترحها العدو، مادامت الفرصة قائمة لعقد الهدنة. ولكن هذه الشروط بدت مهينة للمسلمين. إذ بدا أن محمداً قد أضاع المزايا التي اكتسبها خلال الرحلة حين وافق على الانسحاب دون أن يفرض قضية العمرة. وكان معنى الهدنة مع مكة أن المسلمين لم يعودوا قادرين على مهاجمة قوافل قريش: كيف يتسنى للمهاجرين إذن أن يكسبوا رزقهم، ولماذا قرر محمد رفع الحصار الاقتصادى الذى كان قد بدأ ينجح فى خنق الاحتكار

التجارى الذى كانت مكة تتمتع به؟ وأهم من ذلك كله كان السؤال الذى سأله هو: لماذا وافق محمد على إعادة من يدخلون الإسلام إلى مكة إذا كانت قريش ترفض المعاملة بالمثل، أى إعادة المرتدين والقارين من المسلمين إلى المدينة؟ بدأ لهم أن محمداً قد أفلح عن الجهاد، الذى ضحى فى سبيله الكثيرون بأرواحهم وخاطر فيه غيرهم بكل شيء، ثم سلم بهدوء لمكة ما كان لديه من مزايا. ويقول ابن إسحاق: «وقد كان أصحاب رسول الله (ص) خرجوا وهم لا يشكون من القسح، لرؤيا رأها رسول الله (ص) فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل عليه رسول الله (ص) فى نفسه دخل على الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا يهلكون» (١٠).

والأسوأ من ذلك أن روح التمرد قد ظهرت، فكانت المعاهدة أكبر من طاقة عمر على الاحتمال فانطلق على الفور إلى أبي بكر وسأله: «ألسنا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين؟ فعلام نعطى الدية فى ديننا؟» (١١) وكان أبو بكر قلقاً كذلك ولكنه أخبر عمر أنه لا يزال يتق فى محمد. وقال عمر فيما بعد إنه لو وجد مائة صاحب يتبعونه لترك الأمة ومضى. ولكن نظر محمد كان أبعد من نظر الجميع فى الحديبية، فإذا كانت الرحلة لم تنجح النجاح الذى توقعه لها، فقد كانت من قبيل الإلهام الذى مكته من فتح طريق السلام. كان يوشك على محاولة القيام بعمل جديد كل الجدة، مما استعصى فهمه حتى على أوثق وأخلص أصحابه، ناهيك بالقاعدة العريضة من المسلمين الذين كانوا يجلسون فى ذهول عقد ألسنتهم وهم يحاولون استيعاب ذلك التحول المفاجئ. ولكن محمداً كان يدرك، على مستوى بالغ العمق، إدراكاً كاملاً ما كان بعده، حتى ولو كان يتحس طريقه إليه فى الظلام. كان حذر دخوله الكعبة معناه أن قبائل الأعراب سوف تبتدى التردد فى الانضمام إليه، وكان عليه أن يقنع أتباعه من المسلمين الذين لا يقل إخلاصهم لآقدس مكان فى بلاد العرب عن إخلاص تلك القبائل، وكان

السلام مع مكة معناه النجاح في الوصول إلى الكعبة، وهو سلاح حيوى فى حرب الدعوة، كما أنه انتزع من قريش اعترافاً مهماً بأن مكة والمدينة أصبحتا متساويتين. وقد اتضح ذلك بصورة خاصة فى النص فى شروط الصلح على السماح لقبائل الاعراب بأن تترك تحالفها القديم مع قريش وأن تتحالف مع الأمة، ولم تلبث قبيلة خزاعة التى أصبح للنبي نسب فيها بعد زواجه من جويرة الخزاعية^(١٢)، حتى اغتتمت الفرصة التى يتيحها لها الصلح وانضمت إلى محمد. كانت الخطوة الواضحة أمام محمد بعد هزيمة قريش فى المدينة هى أن يواصل كفاحه فيقضى عليها عسكرياً، ولكن محمداً لم يكن يريد ذلك أبداً. بل كان يأمل من رفع الحصار الاقتصادي أن يخاطب ود قريش ويكسبها إلى صفه بالطرق السلمية. كان محمد يقترب من تحقيق حل سياسى ودينى لم يسبق له مثيل لدى العرب، وكان معنى ذلك ألا يفعل ما كان متوقفاً وواضحاً، لأن ذلك كان من شأنه أن يقيده إلى الوضع الراهن المؤسف.

وعندما جلس محمد مع سهيل لتوقيع المعاهدة، كان يعلم أنه قد وضع على كاهل المسلمين عبئاً لا يكاد إخلاصهم يقوى على النهوض به. ترى هل يستمرون فى التزامهم ببيعة الرضوان أم يتمردون؟ وقد ازداد التوتر عندما سمع المسلمون الصياغة الفعلية للمعاهدة، إذ نادى محمد علماً ليكتب ما يليه عليه، وعندما بدأ بقوله «بسم الله الرحمن الرحيم» وهى صيغة الافتتاح الإسلامية الخاصة، اعترض سهيل على الفور، إذ كانت قريش دائماً تبغض هذه الألقاب القدسية ولم تكن على استعداد لتوقيع معاهدة تبدأ بهذه الصيغة الدينية بعد ما بدأ من استعداد محمد للتنازل، فقال سهيل «لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم». وذهل المسلمون عندما سمعوا محمداً يوافق دون تردد ويطلب من على تغيير الصيغة. وزاد الطين بلة ما تلا ذلك، إذ استمر محمد قائلاً: «اكتب: هذا ما صالح عليه رسول الله سهيل بن عمرو»،

فاعترض سهيل قائلاً: «لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك»، وكان ذلك أمراً منطقياً لاشك، ثم أردف: «ولكن اكتب اسمك واسم أبيك». ولما كان على قد كتب بالفعل عبارة «رسول الله» فقد قال إنه لا يستطيع أن يحمل نفسه على شطب هذه الكلمات، فطلب منه محمد أن يريه موضع الكلمات على اللوح وقام بشطبها بنفسه، ثم واصل إملاءه قائلاً: «هنا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو» (١٣).

وكانما لم يكن الموقف عسيراً بما فيه الكفاية، إذ وصل أبو جندل، وهو ابن سهيل، فجأة في أثناء توقيع المعاهدة. كان أبو جندل قد اعتنق الإسلام، وكان أبوه قد حبسه في بيته حتى يمنعه من اللحاق بمحمد، ولكنه نجح في الهرب وجاء يرسف في قيوده الحديدية وقد بدت عليه آيات الظفر، فهب سهيل واقفاً، ولكمه في وجهه، وجره من قيوده، وصاح بمحمد «يا محمدا! قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا». وتطلع المسلمون غير مصدقين: ترى هل يخون محمد أبا جندل ويسلمه وادعاً إلى أبيه حتى يواجه حياة من الذلة والمهانة؟ وكان محمد مصراً في صرامة على الوفاء بالعهد، ورفض أن يسمح لأبي جندل بالهجرة دون موافقة والده. وبينما كان سهيل «يجره بتلييه» عائدتين إلى مكة، جعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: «يا معشر المسلمين! أرددوا إلى المشركين يفتنونني في ديني؟» وتعليق ابن إسحق على ذلك يعتبر مثلاً على التعبير بالفاظ أدنى من الواقع إذ قال: «فزاد ذلك الناس إلى ما بهم» ولم يجدوا العزاء في قول محمد: «يا أبا جندل! اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً؛ إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم» (ابن هشام: ج ٣/ ص ٢٠٧ و ٢٠٨).

أما بالنسبة لعمر بن الخطاب، فقد كانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير، إذ نهض ووجد في نفسه الجرأة على مناقشة الرجل الذي ظل يطعمه

ضمناً على امتداد اثني عشر عاماً. أليس رسول الله؟ أليس المسلمون على حق وأليس أعداؤهم على باطل؟ فلماذا يقبل المسلمون إقرار هذا السلام المشين؟ ألم يقدمهم محمد عندما غادروا المدينة قبل أيام معدودة أنهم سوف يصلون مرة أخرى في الكعبة؟ وأقر محمد بأنه كان وعدهم بذلك، ثم أضاف قائلاً: «أفقلت لكم من عامي هذا؟» (ابن هشام ٣/٢١٥) واضطر عمر إلى التسليم بأنه لم يقل ذلك، ومن ثم قال محمد: «إنتي رسول الله، ولن أعصى ما أمرني ولن يجعلني من الآخرين» (١٥). وانفث غضب عمر، وإن كان لا يزال حزيناً حائراً، فوافق على إمضاء المعاهدة مع علي، وأبى بكر، وعبد الرحمن، وعبد الله بن سهيل (وهو أخو أبي جندل) ومحمود ابن مسلمة.

ولكن المعتمرين كانوا غاضبين، وحلت لحظة الخطر، عندما كانوا فيما يبدو على وشك التمرد. فبعد أن وقّع اليهود على المعاهدة، أعلن محمد على المسلمين أنهم سوف يقومون الآن بمناسبة العمرة في الحديبية نفسها، حتى دون أن يصلوا إلى الكعبة، وعلى كل رجل أن يحلق رأسه وأن ينحروا الهدى (أي الجمال السبعين) وساد الصمت المطلق. ولم يتحرك الرجال بل تطلعوا في مرارة إلى محمد. وقام في رأسه إلى خيمته مدركاً أنهم إذا لم يطيعوه ويؤازروه في هذه اللحظة الحاسمة فسوف يضيع كل شيء. ماذا عليه أن يفعل؟ وطرح هذا السؤال على زوجته أم سلمة التي كانت تراقب ما يجري من خيمتها الجلدية الحمراء، وكان حكمها على الموقف صائباً إلى أقصى حد، فقالت له إن عليه أن يعود إلى الناس مرة أخرى ويعلن أنه لن يكلم أحداً منهم حتى يذبح جملة أمام جميع المعتمرين. وكان ذلك هو القرار الصائب تماماً. كان مشهد الذبح رائعاً مهيباً وأدى إلى تفريغ التوتر على الفور، إذ خرج محمد من خيمته، لا ينظر إلى يمينه ولا إلى شماله، واتجه مباشرة إلى الجمل الذي خصصه للهدى، وأدى الشعيرة كاملة. كانت تلك من المناسك القديمة، المألوفة لجميع الحجاج من العرب، ولكنها كانت أيضاً

عملاً يوحى بالتحلى والاستقلال لأن محمداً كان يخرج به عن التقاليد الموروثة، فهو يذبح الجمل خارج مكة نفسها. وأدى ذلك إلى تفجير نبع من الإدراك في نفوس الجمهور الصامت، وإلى انقشاع سحابة الخمول التي أنزلها الاكثاب، ومسيبها الحيرة، فكان بمثابة تفريج وتطهير. ووثب الرجال يتسابقون إلى جمالهم، وربما فرّج من بأسائهم أنهم سوف يقومون بعمل ما بعد لآى. وذبحوا الهدى وهم يصيحون بصوت عال «باسمك اللهم»، وهي الصيغة العربية القديمة، ثم أضافوا إليها شعار المسلمين «الله أكبر!» وعندما نادى محمد على أحد الأنصار وطلب منه أن يحلق شعر رأسه، توثب الناس وتسابقوا حتى اضطربوا في حرصهم على ذلك، وشرعوا يحلقون رهوس بعضهم بعضاً بحماس بلغ حد اللوثة، حتى خشيت أم سلمة، وفقاً لما روته في وقت لاحق، أن يصيبوا أنفسهم بجراح قاتلة في غمرة حميتهم. وجاء في الأثر أنهم كانوا على وشك الرحيل من الحديبية حين هبت الريح فجأة فحملت كومة الشعر الأسود إلى مكة، آية من الله على أنه قبل أضحياتهم.

وبدأ المعتزمون رحلة العودة وقد خفّت وطأة ما حل بهم، ولو أن بعض المرارة ظلت قائمة، وكان محمد يعرف أنه لا بد أن يعرضهم عما حدث، عن طريق حملة جديدة لا تعرض المعاهدة للخطر. وربما كانت لا تزال لديه بعض شكوكه الخاصة، إذ يكاد يكون من المؤكد أنه كان يتوقع دخول مكة ظافراً دون توقيع ذلك الميثاق العسير. وكان أثناء رحلة العودة يسدو عليه الشرود والانشغال، وكان عمر يخشى أن يكون ما أبداه من تمرد أو من تحدٍ قد أضر بصداقتهما ضرراً لا يزول. كان يخاف أن ينزل الله آيات تدين جنّه، وعندما وجد أن محمداً لم يزد على رد مقتضب على إحدى الملاحظات التي أبداه، خشى أن تتحقق مخاوفه، وفجأة وصل رسول يدعو عمر إلى تقدم الركب للحاق بمحمد، ففاص قلبه في جوفه قرأً. ولكن همه زال عندما رأى محمداً منفرج الأسارير كأنما انزاح عن كاهله عبء رازح من القلق، وقال

له: «لقد أنزلت علىّ سورة أعزُّ لدىّ من كل ما فى الأرض» (١٦). وقد كشفت سورة الفتح التى نزلت آنذاك عن الدلالة الكاملة لأحداث الحديدية، وتعتبر استكمالاً وإيضاحاً ضرورياً للأسس اللاهوتية للحرب العادلة. وعلى النقاد الغربيين الذين يتهمون الإسلام بأنه دين يتسم بروح العدوان المتأصلة فيه، بسبب مبدأ الجهاد، أن يأخذوا فى اعتبارهم الأسس اللاهوتية للسلام عند محمد، وهى التى أنزلت عليه بعد أن حارب حتى وصل إلى المرحلة التى يستطيع أن يفرض فيها السلم الإسلامى على بلاد العرب التى مزقتها الحرب.

لم تكن الصور البلاغية فى حديث محمد، على نحو ما رأينا فى الفصول السابقة، يسيرة الفهم فى جميع الأحوال كالصور التى يستخدمها المسيح، ولكن رسالة محمد لم تكن تختلف عن رسالة المسيح إلى الحد الذى يتخيله المسيحيون. والفرق أن محمداً كان يحاول تنفيذ تعاليمه بأسلوب ذى طابع عملى ويرتبط ارتباطاً مباشراً بوضع سياسى أو اجتماعى معين. والواقع أننا لا نعرف إلا أقل القليل عن الموقف السياسى للمسيح. ولقد ذكر البعض فى السنوات الأخيرة أن الرومان صلبوه عقاباً على محاولة التمرد، إذ يرى بعض علماء الكتاب المقدس أن قصة قلب مناضد المرابين فى المعبد تمثل صورة ناقصة للانقلاب الذى قام به والذى مكنته هو وأتباعه من احتلال المعبد لمدة ثلاثة أيام. ومهما يكن من أمر ذلك، فالمؤكد أن المسيح كان يدعو فيما يبدو إلى رسالة السلم أيضاً، فأدار خدّه الآخر، ورفض الدفاع عن نفسه حتى بالقول، وأدان الذين يعيشون بحد السيف. وما ظهر من هزيمته وإذلاله تسبب فى حيرة حواريه، بل إن معظمهم قد تخلى عنه فى ساعة الشدة. أما فى الحديدية فقد اتسم رد فعل محمد بلمسة حصافة عبقرية إزاء وضع غير متوقع، كما أدار خده الآخر أيضاً لقريش، فتقبل الإذلال الظاهرى الذى كاد يدفع أقرب أصحابه إلى التخلّى عنه. ولكن سورة الفتح تشرح للملمين

المعنى الاعمق لذلك التحول الظاهري، مثلما قام بعض الكتاب، كالقديس بولس، بعد موت المسيح، بشرح الدلالة الباطنة لفضيحة الصليب. وتبدأ السورة بتأكيد مشرق وضء يقول إن محمداً لم يهزم في الحديبية، رغم الظواهر التي تقول بعكس ذلك:

﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً، وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾
(الفتح: ١ - ٣).

كان الله قد أفصح عن وجوده منذ بدر على صعيد المعركة نفسها، فكان ذلك آية وإنقاذاً، ولكن الله كان موجوباً أيضاً في الحديبية فيما بدا من الإذلال الظاهر، إذ إنه أنزل هنا سكيتته، وهي روح السلام والاطمئنان:

﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾ (الفتح: ٤).

وكان الله قد أنزل سكيتته من قبل أيضاً، عندما كان محمد وأبو بكر يختبئان في الغار خارج مكة لمدة ثلاثة أيام، بعد أن نبذهما الأهل وتكرت لهما العشيبة، وأصبحا يواجهان خطر موت وشيك لا معنى له. ولا شك أن القارئ يذكر أن السكينة ذات صلة، فيما يبدو، بكلمة شكينة العبرية، وهي الكلمة التي تعني وجود الله على الأرض. كانت بدر والحديبية إذن «آيات» على الخلاص، وأفصح كل منهما عن وجود الله بطريقة تدق على الأذهان في الأحداث التاريخية الجارية. وقد تجلّت قدرته في زمن السلم مثلما تجلّت في وقت الحرب، إذ استطاع تحويل ما بدا للناس من هزيمة إلى نصر مبين.

وتمضى السورة فائتة إن قيام المعتمرين بركوب مخاطرة الزيارة دون سلاح إلى مكة كان يدل على إيمان عميق، ولم يكن الاعراب الذين رفضوا اصطحاب محمد مهيين للتمتع بذلك الإيمان حتى تلك اللحظة^(١٩). كما أظهروا مدى إيمانهم أيضاً ومدى ثقتهم في الله عندما بايعوا محمداً تحت

الشجرة. كان بإمكان قريش أن تقضى عليهم تماماً، ولكنهم تعهدوا بطاعة محمد رغم أنه سار بهم إلى ظل المهانة والذل، وكان الصلح الذي تلا ذلك من الآيات التي كان على المسلمين أن يقوموا بتفسيرها، متجاوزين المظاهر الخارجية إلى المعنى الباطن^(٢٠). كان النصر في بدر بمثابة الفرقان الذي يفرق بين العادل والظالم على صعيد المعركة، أما فتح الحديبية فقد فرق بين المؤمن والكافر، استناداً إلى روح السلام:

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ، حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ (الفتح: ٢٦).

كان الالتزام الذي تمكن من محمد بمثابة عامل سياسي خلاق، إذ استطاع أن ينفذ بحدسه من خلال الظواهر فيصل إلى تفهم عميق لطبيعة التغير في بلاد العرب، وقد أكدت الأحداث صدق بصيرته. فمنذ هذه اللحظة التي استطاع فيها إنقاذ الأمة من خطر الهلاك، تحول الجهاد إلى جهد سلمي يتطلب كل ما لديه من صبر وعبقرية. وهكذا فإن بدرًا والحديبية وجهان لعملة واحدة، وكلاهما من العناصر الجوهرية في الرؤيا القرآنية. فأحياناً ما يصبح القتال لازماً للحفاظ على القيم الشريفة، ومادامت الحرب قد نشبت فلا بد أن يحارب المسلمون بروح التفانى المطلق، وألا يظهرُوا أى دليل على الضعف، وإلا استمر التآحر بلا نهاية، فأراق المزيد من الدماء، وتسبب في مزيد من القتال الذي لا معنى له. ولكن السلام لا بد أن يحل أيضاً، حتى ولو كان ذلك يعني إراقة ماء الوجه مؤقتاً، لأنه الحل الأمثل في الأجل الطويل. ويخطئ من يظن أن الإسلام يدعو إلى التصلب الكامل في الرأي أو أنه يلهم أصحابه التعصب الأعمى، فالواقع أن القرآن نظرية دينية متكاملة للحرب والسلام، ولن يكون من العسير على معظم المسيحيين أن يتقبلوها.

ولكن الحديبية كانت تتطلب الإيمان بلا شك، على نحو ما أوضح القرآن،

ولو لم تكن رؤيا محمد الدينية لها اليد الطولى لما استطاع أن يُقنع أصحابه باتباعه. ولو كانت الاغلبية تريد نصراً سياسياً سريعاً لما أبدوا استعدادهم لمبايعته بقتلهم. وختام سورة الفتح يقدم رؤيا كريمة لمجتمع يتميز اسماً بالروح الدينية، وهي الروح التي تتجلى بوضوح في الدينين السماويين السابقين - وهما اليهودية والمسيحية:

﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوارة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا﴾ (٢٢)

(الفتح: ٢٩).

وقد يعترض معترض قائلًا إن هذه التقوى لها جانب عدواني، وقد يكون الهدف منها، فيما يبدو، هو «إغاظة» الكفار، ولكن تقاليد أديان التوحيد التاريخية الثلاثة تشترك في هذا التصلب في الرأي وفي رفض أى حل وسط فيما يتعلق بأصول الدين. بل إن المسيح المسالم نفسه قد قال إنه لم يأت بالسلام بل بالسيف^(٢٣)، وسوف نجد في الأناجيل صوراً أشد ضراوة و«حمية» بكثير عما نجد أحياناً في صورة التقوى الشائعة.

كان على الأمة، إذا شاءت أن تواصل ازدهارها وتثبيت وجودها جنباً إلى جنب مع ما سبقها من الأديان السماوية، أن تزيد من عدد أبنائها وتجذب المؤمنين الجدد. وقد اتضح في هذا الإطار فوراً أن سياسة التصالح الجديدة التي رسمها محمد قد آتت أكلها ضعفين، لأن الهدنة أشاعت مناخاً غاب عنه التوتر، وشجع على إجراء النقاش بين المسلمين والمشركين وعلى حرية تبادل الآراء. ويقول ابن إسحق عن «الفتح المين» في الحديبية ما يلي:

«فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه. إنما كان القتال

حيث التقى الناس. فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل تلك الستين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثره (ابن هشام: ج ٣/ ص ٢١١).

لقد بين محمد في الحديثية أن الإسلام كانت له جذوره الضاربة في أقدمس التقاليد العربية، وأثبت صعوده بسرعة مذهلة إلى موقع الصدارة في بلاد العرب أن الدين الذي أتى به قد نجح. لم يكن العرب متعصين، بل إن السنوات العسيرة التي كابدوها في الصحراء قد أكسبتهم نزعة عملية عميقة، ولذلك فعندما نظروا في النجاح العملي الذي حققته الأمة، بدءوا يقولون: ربما كان ذلك هو التغيير الذي طالما سعى إليه الناس.

ولكن صلح الحديبية كان يلزم محمداً بأن يُعيد إلى مكة كل من يعتنق الإسلام ويهاجر إلى المدينة. ومن ثم أخذ يحاول البحث عن طريقة للتحلل من ذلك الالتزام، فوجد، على سبيل المثال، أن المعاهدة لم تذكر شيئاً عن إعادة من يدخل الإسلام من النساء، وهكذا فعندما هاجرت أخت عثمان غير الشقيقة إلى المدينة يُعيد صلح الحديبية رفض محمد أن يعيدها إلى مكة. وكانت تلك الحادثة إيذاناً بالسماح للنساء بالهجرة، أما إذا جئن دون موافقة الأوصياء عليهن، فإن محمداً كان يعيد صداقهن إلى قريش. ونحو ذلك الوقت ظهر في المدينة رجل دخل الإسلام، وكان من ذوى العزم والحزم، واسمه أبو بصير بن أسيد. كان من المتحالفين مع عشيرة زهرة، ثم تمكن من مغالبة كافليه ومجبريه، فهاجر إلى المدينة. وأرسلت قريش مبعوثاً في أثره ومعه أحد الموالى، وكلفتها بإعادة أبى بصير إلى مكة. واشتكى أبو بصير للنبي ولكن محمداً أوضح له أنه لا يملك إلا أن يعيده من حيث أتى. ولكن أبا بصير لم يقبل الاستسلام بسهولة، فبينما كان المسافرون الثلاثة يترهبون في قرية تُدعى ذا الحليفة، تقع جنوبى المدينة على مبعده ثمانية أميال تقريباً،

تحمّل أبو بصير على المبعوث فأخذ سيفه وقتله به. ومن ثم أهرع المولى عائداً في فزع إلى المدينة وألقى بنفسه عند قدمي محمد، وهو يتمتم ويتلثم، قائلاً إن أبا بصير نفسه قد وصل إلى المسجد. وجاء أبو بصير إلى محمد وقال له إنه (أى النبي) أوفى بدمته عندما أسلمه إلى قريش، وما دام لم يتمكن من الهجرة فهو لا يعتبر رسمياً من المسلمين، ولذلك فإن محمداً ليس مسئولاً عن إراقة دم المبعوث. ولكن محمداً أصر على عدم قبوله في الأمة، وحاول تسليمه من جديد إلى المولى المسكين، ولكن الأخير لم يستطع أن يتصور كيف يسافر مع أبي بصير وحدهما مسافة ٢٠٠ ميل، فاعتذر بسرعة، وفر ناجياً بحياته. وعند ذلك قال محمد لأبي بصير إنه - وإن كان كان لا يستطيع البقاء في المدينة - حرٌّ في أن يقيم بأي مكان شاء. وعندما هم بالرحيل قال محمد كلمات لا تخلو من الغموض وهي «ويل أمة محش حرب لو كان معه رجال» (٢٥) (ابن هشام: ج ٣/ ص ٢١٢).

وفهم أبو بصير ما ألمح إليه النبي في الكلمات الأخيرة، فاتجه وضرب خيمته في العيص، وهي على ساحل البحر الأحمر بالقرب من الطريق التجاري الذي أصبحت قريش قادرة على استخدامه من جديد بعد الهدنة. وبلغت مكة أنباء هذه الحادثة، ومن بينها الحكمة التي قالها محمد تعليقاً عليها، وسرعان ما اغتتم الفرصة بعض الرجال الذين كانوا يتوقون إلى الهجرة مثل أبي جندل بن سهيل. كانت الرقابة التي يفرضها الأولياء على المستضعفين بمكة قد خفّت صرامتها وحدثها بعد صلح الحديبية، فتمكن نحو سبعين من الشباب بسهولة ويسر من مغادرة مكة، ولكنهم لم يقصدوا محمداً في المدينة، بل قصدوا أبا بصير في العيص. لم يكن في صلح الحديبية ما يحظر ذلك، ولم يكن أحد من هؤلاء الشبان ينتمى إلى الأمة. ومن ثم باتوا يقطعون الطريق على كل قافلة مكية تمر بالطريق التجاري إلى سوريا. لم يكن محمد مسئولاً عنهم، وكان من المحال اتهامه بانتهاك شروط المعاهدة، ولكن

قريشاً اكتشفت أن المقاطعة الاقتصادية القديمة قد فُرضت من جديد، من الناحية الفعلية، وإن كانت قد فُرضت جزئياً فحسب. وكانت هبة قريش قد تدهورت كثيراً منذ هزيمتها، إلى الحد الذي لم تعد تضمن معه تأييد الأعراب المقيمين في المنطقة إذا هي أرسلت جيشاً للقضاء على قطاع الطرق الشبان. وانتهى الأمر بقريش إلى أن اضطرت إلى أن تطلب من محمد أن يرفع عنها هذا الخطر ويقبل لحاق الشبان بالامة، وأسعد محمداً أن يرسل إليهم يستدعيهم، ولكن الدعوة فات موعدها لأبي بصير نفسه، إذ كانت قد وافته النية.

لقد تمكن محمد من الالتفاف حول شروط المعاهدة عن طريق مسألة شكلية، وكانت تلك من الحيل المعترف بها في بلاد العرب. وسوف نشهد قريشاً وهي تحاول استعمال حيلة مماثلة في صراعها مع محمد بعد ذلك بما يزيد قليلاً عن عام واحد. كان محمد سياسياً بارعاً يعرف كيف يستعمل قواعد النظام القبلي لصالحه، وقد يكون في هذا ما يصد ابن الغرب الحديث الذي يعتبر أن شرعة الأخلاق القبلية قاسية ومتعسفة، وهذا أمر مفهوم، ومن ثم فقد لا يقبل استعمال محمد أو استناده إلى هذه الشرعة القبلية. فلقد تخطينا منذ زمن بعيد وتجاوزنا الشرعة القبلية أو الجمعية، مع أنها كانت السيل الأواحد لضمان أدنى قدر من السلم والنظام في الأزمنة البدائية. لقد نجحت في بلاد العرب على امتداد قرون طويلة، ولكن عصرها قد انقضى اليوم. ومع ذلك فقد كان محمد يشارك جميع معاصريه جنورهم العميقة في النظام القبلي، وتقبل مبادئه الأساسية. لقد كان النوع الوحيد الذي يمكن تصوره للدولة ولنظام الضمان الجماعي، وكان من المحال إجراء تغيير جذري في تلك الفترة الانتقالية. ففي قضية أبي بصير، استند محمد إلى نقطة دقيقة من نقاط القانون القبلي لتدعيم الأمة وهي التي كانت تسعى لإصلاح النظام المتداعي وتصحيح بعض مظاهر الانتهاك الجسيمة له.

ولذلك فالتشريعات الاجتماعية الإسلامية لا تتعد عن الروح القبلية ابتعاداً

تأماً، فالقصاص فضيلة وهو واجب اجتماعي وديني. وعلى المسلمين أن يقتصروا قصاصاً عادلاً، فالعين بالعين والسن بالسن^(٢٦). وسوف يجد الذين درجوا على مبادئ موعظة الجبل أن في ذلك ما يصعب قوله، ونحن نستنكر أن يوصي كتاب مقدس يقطع يد السارق، ولا تفهم لماذا لم يحرم محمداً مبدأ الثأر ويدعو إلى الغفران، ولكن علينا أن نتذكر أن عيسى لم يكن رئيس دولة، على نحو ما أصبح عليه محمد بعد الحديبية، فلم يكن على عيسى أن يشغل نفسه بالحفاظ على النظام العام، وهي المهمة التي كانت تتولاها المؤسسة الدينية التي قيل إنه كان يندد بها، إلى جانب المسئولين الرومانيين. فلو كان مسئولاً عن التشريع الاجتماعي فالأرجح أنه كان سيلجأ رغماً عنه إلى أساليب قاسية مماثلة، لأن تنفيذ القانون في معظم المجتمعات التي سبقت المجتمع الحديث كان لا بد له من الأساليب القاسية والوحشية التي نعتبرها اليوم رهية. بل إننا كنا في بريطانيا، حتى عهد قريب نسبياً، لا نكفي بقطع أطراف السارق، بل كنا نعاقبه على الجنح الطفيفة إما بالقتل أو النفي إلى المستعمرات باعتبارها من العيود. وما يدعو إلى الأسف دون شك أن بعض البلدان الإسلامية، ونحن نؤكد تعبير «بعض» هنا، ما تزال تطبق هذه العقوبات القديمة، لكنه ليس من الإنصاف أن نصم القرآن والتقاليد الإسلامية بالوحشية. ولقد ذكر بعضهم أن الحكام المسلمين لم يستطيعوا الاقتصار على الأحكام القرآنية فيما بعد لأنها تتسم بدرجة من اللين تمنعها من إحداث تأثيرها المنشود في المجتمعات الكبيرة، واضطروا إلى تعضيدها بتشريعات جديدة تكفل الحد الأدنى من الأمن الاجتماعي^(٢٧).

كان محمد يعتبر أن الأمة ضرب من القبيلة الكبرى ومن ثم استمر في تطبيق الأساليب القديمة للحفاظ على النظام. لم يكن في المدينة أو في بلاد العرب شرطة، وكان أقرب أقرباء الجاني، منذ أقدم العصور، هو الذي يتحمل مسؤولية عقابه، وتوفير الرادع الذي يحد إلى أقصى درجة ممكنة من

ارتكاب العنف. وقد أبى القرآن على هذا النظام ويقول إن لولى القليل سلطاناً فى القصاص من الجانى (٢٨).

ولكن القصاص مُقيد بحدود صارمة؛ فالعين بعين واحدة فقط، والسن بالسن، أما إذا أنزلت بالجانى عقوبة أكبر من المنصوص عليها، فإن من حقه «النصر» أى إن على أقرب أقربائه أن ينصره فتبداً دورة جديدة من الاعتداءات، وحلقة مفرغة من أعمال العنف التى يتعذر إيقافها. والواقع أن القرآن يبين فضيلة الاكتفاء بقصاص ألفنى من المستوجب. وهو يذكرنا بالقواعد التى أنزلها الله على أنبياء العبرانيين فى التوراة والتى صادق عليها الحكماء ورجال الدين فى العصور اللاحقة، ثم يتخطاها إلى أن يقول:

﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له﴾ (٢٩) (المائدة: ٤٥).

وعندما أشار عيسى إلى هذه الكلمات الواردة فى التوراة، طلب من أتباعه أن يحبوا أعداءهم، ولما كان المسيح رجلاً ذا بديهة حاضرة، فإن المفارقة التى أتى بها تتضمن نظرة دينية عميقة ومعقدة ليس من اليسير تفسيرها فى جميع الأحوال. ولكن محملاً لم يصل إلى الحد الذى وصل إليه عيسى، فعندما حث المسلمين على أن يغفروا جرائم بعضهم البعض وأن يتنازلوا عن القصاص كان على الأرجح يحثهم على الرضا بالدية (القدية) بدلاً من إزهاق روح أخرى. وكان هذا المثل الأعلى للفقيران، مهما يكن محدوداً فى نطاقه، بمثابة التجديد الذى لم تعهده بلاد العرب، وبمثابة التحسين الأخلاقى للنظام القديم.

وكثيراً ما يقال إنه إذا كانت المسيحية دين الحب، فالإسلام دين العدالة الاجتماعية، ويرى المسيحيون أن معيار الدين الصادق هو حب الإنسان جاره، أما تعريف القرآن لروح الدين فقد يبدو أقل طموحاً ولكنه قد يتم بطابع

عملى أقرب إلى التطبيق:

﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين
وأتى المال على حبه ذرى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل
والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾ (٣٠) (البقرة: ١٧٧).

ويقوم تنظيم المجتمع فى الامة على أسس المساواة، فعلى الجميع القيام
بنفس الواجبات، وبحيث لا تكون هناك صفوة أو نخبة أو بناء هرمى من
القسس والرهبان. أما الزكاة فالقصد منها سد الفجوة بين الأغنياء والفقراء،
كما أصبح إعتاق العبيد من الأعمال الصالحة^(٣١). ولا بد، من ناحية المبدأ،
أن يلقى جميع أبناء الامة نفس المعاملة، فإذا تعذر أن يسود الحب أو أن يُدفع
الناس إليه دفعاً، فمن الممكن إصدار التشريعات التى تكفل إقامة العدالة
والمساواة. وتؤكد الظواهر أن القرآن، ثم الشريعة فى مرحلة لاحقة، قد
ساعدوا المسلمين فى الواقع على غرس روح المساواة العميقة^(٣٢). فبعيد وفاة
الرسول، أسلم أحد رؤساء البدو، واسمه جيلة بن الأيهم. وحدث ذات يوم
أن رجلاً لا يشغل مكانة سامية بين أبناء الامة لطمه على وجهه. ولم تكن
الشريعة تقضى بأن يدير له خده الآخر، وتوقع جيلة إنزال عقاب بالغ
الصرامة بالذنب بسبب المتزلة الرفيعة التى يتمتع بها جيلة. ولكن قيل له إنه
قد سمح له بأن يطم المعتدى لطمه واحدة فقط على وجهه، باعتبار ذلك
تصاصاً عادلاً ودقيقاً من الإهانة. ولكن جيلة غضب غضباً شديداً جعله يرتد
من الإسلام إلى المسيحية.

ويمكننا النظر إلى المثل الأعلى للمساواة فى الإسلام باعتباره الوسيلة
العملية لتنمية الحب الأخوى، بإخضاع جميع الناس لمستوى اجتماعى
وسياسى واحد. وقيل إن محمداً بدأ بعيد الهجرة بتطبيق مبدأ المؤاخاة وهو
المبدأ الذى ربط بين كل من المهاجرين والانصار، وقيل لكل منهما أن يعتبر
الآخر أخاً له. وكانت تلك محاولة لإدماج المجموعات القبلية الثلاث فى

مجتمع موحد، وبيانا عمليا لوشائج القرابة الدينية الجديدة التي تقرر أن تتجاوز روابط الدم. ويتمتع المثل الأعلى للتواصل والترابط الاجتماعي بقيمة مقدسة عليا في أديان التوحيد الثلاثة، فمن الأسس الجوهرية لليهودية والمسيحية أنه ما اجتمع اثنان أو ثلاثة إلا كان الله معهم، وكتب القديس بولس يقول إن المجتمع المسيحي يمثل جسد المسيح، وسوف نرى أن مفهوم الأمة قد اكتسب أهمية تكاد تكون مقدسة في إطار البر الإسلامى. كان محمد يرعى النزعة الفردية التي بدأت تظهر في بلاد العرب، وهكذا أنزل عليه في القرآن أن أقارب القتل من حقهم عقاب قاتله فقط، لا أى فرد آخر من أفراد قبيلة الجاني، على نحو ما كان الحال عليه في النظام القديم (٣٢). ولكن المثل الاجتماعي الأعلى ظل يشغل مكانته الأساسية أيضاً، وازداد ترسيخ الإحساس بأخوة جميع المسلمين وتعميقه في الإسلام.

كان محمد قد بنى نظامه الأخلاقي على المروءة، وهى النزعة الإنسانية القديمة لدى القبائل العربية، والتي كانت ترمى إلى تحقيق الصالح العام، وإلى التعاون، وإلى رعاية الفقراء والمستضعفين. أما أهم ما أتى به محمد فهو توسيع نطاق هذه المبادئ حتى تشمل المسلمين جميعاً، أى لتطبيق على الأمة كلها لا على أفراد قبيلة واحدة فحسب. وعندما ساعد أصحابه على تنمية الإحساس بأن جميع المسلمين - سواء كانوا من الأوس أو الخزرج أو قريش - قد أصبحوا الآن إخواناً، كان فى الحقيقة يرسى الأسس اللازمة لإقامة دولة إسلامية متميزة فى المستقبل. وكان ذلك من الأسباب التى جعلت من العبير على المسلمين أن يتكيفوا مع المثل الغربى «للدولة الأمة» حيث تنقسم فيها الأمة فى الواقع إلى «قبائل» أو مجموعات منفصلة يحتمل أن يعادى بعضها بعضاً (٣٣).

والواقع أن محمداً نفسه قدم نموذجاً رفيعاً للتآخى (أو «المؤاخاة») فى سلوكه الشخصى. فالرجل الذى كان أعداؤه يزدادون فرقا منه ووجلاً، كان يحظى بحب عميق بين أفراد الأمة، والتي كانت، رغم الخطر الدائم الذى

تواجهه، تمثل مجتمعاً ينعم بسعادة غامرة. كان محمد يرفض أن يقيم فجوة من الاعتبارات الشكلية أو الرسمية بينه وبين غيره من المسلمين، وكان يكره أن يخاطبه أحد باللقاب الشريفة الطنانة، وكثيراً ما كان يشاهد وهو جالس على سجيته ودون تكلف على الأرض في المسجد، وكثيراً ما كان يختار أن يجالس أفقر أفراد المجتمع. وكان يحظى بحب الأطفال بصفة خاصة، فكان دائماً ما يحملهم بين يديه ويعانقهم ويقبلهم. وعندما كان يخرج في إحدى الغزوات، كان من عادة أطفال الأمة أن يخرجوا لاستقباله عند عودة قوة الغزو، وكانوا يسيرون أمامه في موكب النصر حتى يصل إلى الواحة. وكان إذا سمع طفلاً يبكي في المسجد أثناء صلاة الجمعة، كان كثيراً ما يُنهي الصلاة قبل الموعد الذي كان يعترم انتهاءها فيه، لأنه لم يكن يطيق أن يتصور الحزن الذي تكابده أم الرضيع.

وإذا كانت القوانين التي جاء بها القرآن تبدو بالغة الصرامة لنا اليوم، فقد كان المعروف عن النبي نفسه أنه رحيم لئِن الجانب. وجاء في الاثر أن محمداً حكم على رجل فقير ارتكب جنحة طفيفة بأن يتصدق ببعض ما لديه تكفيراً عن ذنبه. ولكن الرجل أجابه بأنه لا يملك طعاماً أو بضائع حتى يتصدق بها. وفي تلك اللحظة جاءت إلى النبي في المسجد سلة كبيرة مليئة بالتمر، فقال محمد للرجل أن يأخذها ويقوم بتوزيع التمر على الفقراء. وقال المذنب إنه بصراحة لا يعرف من يزيد عنه فقراً في الحى. فضحك محمد وقال له إن كفارته هي أكل ذلك التمر.

كان غرس الشفقة والتراحم وتمية الإحساس بهما من العناصر الأساسية في الرسالة الإسلامية منذ البداية. وإذا كان القانون إبان تلك الفترة سلاحاً صارماً، على ما يبدو، فإن جهود التهذيب أو التزكى كانت قد بدأت في الارتقاء بنظرة المسلمين إلى بعضهم البعض. وكان محمد هنا أيضاً يمثل القدوة. وجاء في الاثر أنه شاهد ذات يوم أحد الموالى وهو يقوم بعمل شاق

عسير، فتسلل إليه من الخلف ووضع يديه على عيني الرجل، على نحو ما يفعل الأطفال. وأجاب المولى أنه لا بد أن يكون النبي، إذ لن يفكر غيره في تخفيف عناته بمثل هذه اللقطة الرحيمة.

لقد دأبنا في الغرب، على مر القرون، على أن نتصور محمداً في صورة الرجل الجهم، والمحارب القاسي، والسياسي البارد. ولكنه كان رجلاً يتميز بأقصى درجات الشفقة ورقة المشاعر. فكان، على سبيل المثال، مُحباً للحيوان، فإذا رأى قطة نائمة على برده تركها وكره أن يُقلقها. وقد قيل إن أحد معايير تقدم المجتمع هو موقفه من الحيوان، وجميع الأديان تحث الناس على حب العالم الطبيعي واحترامه، وكان محمد يحاول تعليم المسلمين هذا السلوك. كان العرب في الجاهلية يعاملون الحيوان معاملة بالغة القسوة، فكانوا مثلاً يقطعون قطعاً من لحمها ويأكلونها وهي ما تزال حية، ويضعون فلانداً مؤلمة حول أعناق الإبل. وقد حظر محمد وصم الحيوانات وصماً يتسبب في إيلاهما، وحظر تنظيم مسابقات اقتال الحيوان. وجاء في الأثر أنه قال إن رجلاً سقى كلباً يعاني من العطش فدخل الجنة، وإن امرأة حبست قطنها فماتت جوعاً فدخلت فيها النار. وهذه الأحاديث التي وصلت إلينا تدل على مدى الأهمية التي اكتسبتها تلك القيم في العالم الإسلامي، ومدى السرعة التي تقدم بها المجتمع نحو رؤية تتميز بمزيد من التراحم الإنساني والتعاطف والشفقة.

واتضح الآن أنه لا بد من ضم اليهود إلى بلاد العرب التي ازداد ترحمها الإنساني، فقام محمد بعيد صلح الحديبية بإرسال رسالة إلى الحبشة يدعو فيها المسلمين هناك إلى القدوم إليه في المدينة للمساعدة في الكفاح، ثم تحول اهتمامه إلى الشمال من جديد. كانت مستوطنة خيبر اليهودية، التي نهضت بدور خطير في أثناء حصار المدينة، قد تعلمت درساً مهماً من المصير الذي آلت إليه بنو قريظة، ولكنها كانت تعمل على إثارة العداء لمحمد بين قبائل

الشمال. وأراد محمد أن يضمن ألا تعود خيبر إلى تهديد أمن الأمة من جديد، وهكذا فلم يلبث بعد عودته من الحديبية أن انطلق إلى خيبر على رأس قوة من ٦٠٠ رجل. ولما كانت الغنائم المتوقعة تبشر بخير كثير، أبدى حلفاؤه من الأعراب الحرص على المشاركة في الحملة، ولكنه لم يسمح لهم بذلك، إذ كان يريد مكافأة المسلمين الذين كانوا يشعرون بالضيق والإحباط بعد الحديبية، وإتاحة الفرصة لهم للقيام بعمل ما، وهو ما كانوا يحتاجون إليه ولم يتسن لهم تحقيقه في الحديبية. ولكن خيبر كانت مستوطنة شديدة القوة وكان يُظن أنها تمتنع على الغزاة، إذ كانت تحيط بها، مثل المدينة، سهول من الصخور البركانية، وكانت حدائق نخيلها وبساتينها تحميها سبع قلاع ضخمة. ولم تكد قريش تصدق هذه الأنباء، إذ كيف يقدم محمد على هذه الغزوة المتهورة، وبدا لقريش أن محمداً كان يقود ذلك الجيش الصغير إلى كارثة محققة.

ولكن الخليف الأول لمحمد في هذه الغزوة أيضاً كان يتمثل في الفرقة والتناحر المزمع الذي كان، فيما يبدو، سمة دائمة من سمات تدهور النظام القبلي في بلاد العرب. كانت خيبر، على عكس الأمة، تعاني من انقسام داخلي عميق، فكانت كل قبيلة داخل المستوطنة تتمتع باستقلالها الذاتي، وكان من المحال عليها توحيد صفوفها لمواجهة العدو المشترك. وأرسلت قبائل خيبر رسالة إلى حلفائها من بني غطفان، وقيل إن غطفان سمعت صوتاً غامضاً يدعوها إلى العودة، فلم تكمل المسيرة لنجدتهم. وقد يكون محمد قد حث غطفان على عدم المسير بأن وعدها بقسط كبير من محصول التمر بالمدينة. ووصل الملمون إلى خيبر ليلاً، وفي الصباح خرج عمال خيبر، يحملون مساحيقهم (فتوسهم) ومكاتلهم (قففهم) فوجدوا أنفسهم في مواجهة جيش صامت متجههم، فصاحوا: «محمد والخميس

معها» (أى جاءنا محمد بجيشه) وفروا عائدين إلى المستوطنة. وهنا صاح محمد «الله أكبر! خربت خيبر!». . . .

ولكن حصار خيبر استمر في الواقع شهراً كاملاً. فكان المسلمون يقومون بحصار الحصون حصناً حصناً، ومطرونه بوابل من السهام حتى يستسلم، ثم يفوزون بالغنائم والسبايا. وأخيراً قام اليهود بعرض الصلح على محمد، بعد أن تيقنوا من استحالة النصر. ووفقاً للمبادئ القرآنية قبل محمد شروط الصلح التي لم تكن تتضمن إذلالاً كبيراً لخيبر. وكان عقد الصلح يماثل تماماً عقود الصلح التي كان العرب في المستوطنات كثيراً ما يعقدونها مع الأعراب الذين كانوا في العادة أقوى وأقدر على القتال. وكان الصلح ينص على تقديم يهود خيبر نصف محصولهم من التمر، في مقابل تقديم محمد الحماية العسكرية لهم، ومن ثم يصبحون تابعين للمدينة، بعد أن استبدلوا محمداً بحمايتهم القدماء من الأعراب. وعندما سمع يهود فُذُك، وهي واحة صغيرة غنية تقع في الشمال الشرقي من خيبر، بخبر هذه المعاهدة، قرروا أن يتفادوا احتمال غزو المسلمين لهم، ومن ثم استسلموا لمحمد بالشروط نفسها. وتوثيقاً للاتفاق، تزوج محمد أرملة جميلة في السابعة عشرة من عمرها هي صفية (بنت حبيبي، عدوه القديم) وكان زوجها قد قُتل أثناء الغزوة. وقيل إنها كانت قد تنبأت بهزيمة اليهود على أيدي أبناء المدينة في منام رآته، وكانت على استعداد كامل لاعتناق الإسلام. وتم الاحتفال بالزفاف في النصف الأول من رحلة العودة إلى المدينة.

وعندما رجع المسلمون إلى المدينة، كان بعض المسلمين الآخرين قد عادوا من الحبشة، ومن بينهم جعفر ابن عم النبي، وقد عانقه محمد بعد غيبة طويلة، إذ كان قد شاهده آخر مرة قبل ثلاثة عشر عاماً وهو بعدُ فتى في السابعة والعشرين. وقبله محمد في جيبه وقال له: «ما أدري بأيهما أنا أسر: بفتح خيبر أم بفتح جعفر؟» كما أبدى ترحيبه بوصول زوجة أخرى من

زوجاته. ففى وقت سابق من ذلك العام كان قد سمع أن قريبه وصهره عبيد الله بن جحش قد توفى فى الحبشة. وكان عيد الله، على نحو ما ذكرنا، من الموحدين بالله قبل بعثة محمد، ولكنه فجع الجالية الإسلامية فى الحبشة بارتداده عن الإسلام واعتناقه المسيحية. وقرر محمد أن يتزوج أرملة واسمها رملة، والتي يشار إليها عادة بكنيتها وهى أم حبية، وهكذا فما إن انتهت فترة الحداد حتى عُدَّ عَقْدُ الزواج عليها بالوكالة أمام النجاشى ملك الحبشة. والواضح أن ذلك الزواج لم يكن قائماً على الحب بل كان خطوة سياسية بارعة، لأن أم حبيبة كانت بنت أبى سفيان. وتم إعداد مِكن لها بجوار المسجد، وما إن وصلت إلى المدينة حتى استقرت فيه، بينما ظلت صفية تقيم فى منزل قريب حتى تم تجهيز كوخها الخاص بها.

وعندما سمعت عائشة بهذه الزوجة الجديدة شعرت بما يشبه القهر، فلم تكن أم حبيبة تمثل خطراً عليها، ولكن الفتاة اليهودية كانت رائعة الجمال. وعندما سأل محمد عائشة عن رأيها فى صفية لم تلجأ إلى المواراة أو تدبر ما تقول، فقالت له إنها لا تفهم سر الاهتمام الشديد بها، فاليهوديات متساويات، ولكن محمداً طلب منها ألا تقول ذلك لأنها أسلمت فحن إسلامها. ومرت صفية بفترة عصية أول الأمر فى علاقتها بزوجات النبی اللاتى لم يلبثن أن عايرنهما بأبيها حُيَّ. وذات يوم جاءت إلى محمد باكية فقام بتهدئة روعها وقال لها أن ترد عليهن قائلة إن أباهما هارون وعمها موسى^(٣٥). ولكن الصداقة ربطت بينها وبين عائشة آخر الأمر، وأصبحت الزوجات الثلاث - عائشة وحفصة وصفية - يشكلن «ثلاثية» تتميز عن الأخريات.

وقضى المسلمون بقية العام فى غزوات عادية، قاموا ببعضها بناءً على طلب الحلفاء اليهود الجدد فى الشمال. وعندما حل ذو القعدة وهو الشهر الحرام، الذى كان يوافق مارس ٦٢٩، حان موعد قيامهم مع محمد بالعمرة

إلى الكعبة، طبقاً لمعاهدة الحديبية. واصطحب محمد في هذه الرحلة : ٢٦٠ معتمر، وعندما اقتربوا من بيت الله في مكة، جَبَلَتْ قريش عن البلدة وقَاءَ بوعدها حتى يتمكن المسلمون من زيارة الأماكن المقدسة في سلام. واصطف رؤساء قريش على قمة جبل أبي قيس يشهدون هذا المشهد الغريب وقد عقد الخوف ألسنتهم. وبدأ تدفق الفوج الكبير من المعتمرين، يرتدون ملابس الإحرام البيضاء، إلى داخل البلدة المقدسة. وعلى رأسهم محمد واتباعه راحلة قسوة، وترددت في الوادي أصداه أصواتهم وهم يقولون: «لبيك اللهم ليك!» وعندما وصل محمد إلى الكعبة نزل محمد عن راحته وقبل الحجر الأسود، وعانقه ولامسه، ثم بدأ الطواف ومن خلفه جميع المعتمرين. واستكمالاً لمناسك العمرة، وهي التي تختلف عن الحج في أنها لا تتضمن الوقوف بعرفات ولا زيارة وادي منى، قام المسلمون بالسعى بين الصفا والمروة سبع مرات.

لا بد أن الإحساس بالغربة الشديدة كان يخامر محمداً والمهاجرين عندما عادوا إلى البلدة المهجورة، ولا بد أن قريشاً قد أفرغها أن ترى بلائاً، الحبشى الأسود الذي لم يكن سوى عبد في بلدتهم، وهو يصعد إلى سطح الكعبة ويؤذن للصلاة ثلاث مرات في اليوم. وقام العباس، عم النبي، بدخول البلدة لزيارة ابن أخيه وتزويجه من أخته ميمونة، التي كانت قد تزلت قبل فترة قصيرة. وقبل محمد الزواج منها، وقد يكون دانعه حث العباس على الدخول في الإسلام أخيراً، ثم دعا قريشاً لحضور حفل زفافه. ولكن ذلك كان لوناً من التعمادى الذي لم تقبله قريش، فتزل سهيل من قمة جبل أبي قيس وقال لمحمد إن الأيام الثلاثة قد انقضت وإن عليه مبارحة البلدة على الفور. وغضب سعد بن عباد، أحد المهاجرين الذين كانوا مع النبي آنذاك، واعترض على ما أبداه سنيل من فظاظة ولكن محمداً أسكته على الفور ونصحه بعدم إهانة من جاء لزيارتهم في مخيمهم^(٣٦). ودهشت قريش حين

شاهدت جموع المسلمين كلها وهي ترحل عن البلدة مع هبوط الظلام، وكان النظام الذي تسيّر به يبدو بعيداً عن تصور أبناء مكة، إذ كانت الفرقة والفوضى بينهم من العوامل التي أدت إلى سقوطهم.

وكانت تلك العمرة بمثابة إنذار لبعض شبان قريش، فلقد كانت نصراً معنوياً هائلاً للمسلمين وكان الناس يناقشون أبناءها بتلief في شتى بلاد العرب. كان مصير البلدة قد تحدد منذ تلك اللحظة، فازداد عدد الأعراب الذين تحالفوا مع محمد، وقام كثيرون من شباب مكة بالهجرة إلى المدينة. وكان لإسلام اثنين منهما دلالة خاصة، إذ كان عمرو بن العاص وخالد بن الوليد قد أصبحا أهم مقاتلي مكة بعد بدر، ولكنهما باتا يريان أنهما لم يعد لهما مستقبل في مكة. وقال خالد: «استقام النسم، وإن الرجل لئيب»، أذهب والله فأسلم» (٣٧) (ابن هشام ج ٣ - ١٧٤). وكان العون الإلهي، فيما يبدو، هو التفسير الأوحى للنجاح الفذ الذي حققه محمد. وقيل إن خالداً وعمراً قد هاجزا معاً ولقيا الترحيب في المدينة. وكان خالد قلقاً من أن يقف ماضيه في سبيل هدايته، إذ كان من كبار القواد في غزوة أحد وغزوة الخندق، وكان قد قتل كثيراً من المسلمين ويخاف الشار. ولكن محمداً أكد له أن الإسلام يجب ما قبله ويمثل بداية جديدة تماماً: وكان ذلك من المبادئ الأساسية للأمة، إذ لم يكن معناه يقتصر على بداية روحية جديدة فحسب، بل كان الأسلوب الوحيد الذي يمكن للإسلام به أن يفرض السلام في بلاد العرب.

- كان العام عام نصر مبین لمحمد، ولكنه كان عام حزن كذلك. فبعيد العمرة توفيت ابنته زينب، وبعد فترة من العام نفسه استشهد اثنان من أفراد أسرته في غزوة على الحدود السورية. وكان النبي يزيد من تركيز اهتمامه بالشمال في السنوات الأخيرة من حياته. ولنا واثقين كل الثقة من الأسباب التي دفعت إلى ذلك، ولو أن الأوضاع السياسية خارج بلاد العرب كانت قد شهدت تغيراً كبيراً. كانت بلاد فارس وبيزنطة تشبكان في حروب طاحنة لم

تتوقف على امتداد عقود طويلة، وكان نجم الفرس في صعود في بداية بعثة محمد فقاموا بغزو سوريا وحصار القسطنطينية. ولا بد أن ذلك قد أقلق قريشاً ودفعهم إلى التشكك في جدوى جيادهم. ولكن كفة الصراع كانت قد بدأت تميل لصالح بيزنطة فاستطاع هرقل في عام ٦٢٥، وهو العام الذي شهد غزوة أحد، من صد جحافل الفرس بل شرع في غزو أراضيهم نفسها. فلو تمكن محمد من إحلال عرب الشمال محل الإمبراطورية المسيحية، فربما استطاع الوقوف في وجه البيزنطيين والساسانيين جميعاً، ويبدو أنه كان يحاول في هذه السنوات الأخيرة أن يشعر الناس بوجوده على الحدود، وأن يجتذب القبائل المسيحية في الشمال إلى الانضمام إلى الأمة، على نفس الأسس التي انضمت بها المستوطنات اليهودية.

وعلى أي حال فقد أرسل محمد زيناً وجعفرأ إلى الحدود السورية على رأس جيش كبير يتكون من ثلاثة آلاف رجل. وما يزال الغموض يحيط بهذه الغزوة، ومازلنا نفتقر إلى الكثير من المعلومات الأساسية. ويبدو أن المسلمين علموا أثناء مسيرتهم بأن هرقل على مقربة منهم على رأس جيش يتكون من مائة ألف رجل. ولكنهم قرروا المضي في المسيرة، حتى تعرضوا للهجوم عند قرية مؤتة، على البحر الميت، فيما يعرف الآن بالأردن، من جانب إحدى فصائل البيزنطيين. وقُتل في هذا الهجوم زيد وجعفر. وعشرة آخرون من المسلمين، ومن ثم قرر خالد، الذي كان قد خرج مع الغزاة، العودة بالجيش إلى المدينة.

وعندما سمع محمد هذه الأنباء، انجبه من فوره إلى أسرته زيد وجعفر. وتذكر أسماء، زوجة جعفر، أنها كانت تخبز الخبز حين وصل النبي وحدست من التعبير المرتسم على وجهه أن شيئاً رهيباً قد وقع. وطلب محمد أن يرى ابني جعفر، وما لبث أن أقعى إلى جوارهما واحتضنهما وبكى. وبدأت أسماء في الصراخ والعيول والنواح بالأسلوب العربي التقليدي،

وأمرت إليها النساء. وقبل أن يخرج محمد طلب منهن التأكد من رعاية الأُسرة وأحضار الطعام إليها في الأيام القليلة التالية. وفي أثناء عودته إلى المشجدة خرجت إليه ابنة زيد الصغيرة من منزلها وألقت بنفسها بين ذراعيه، فحفلها فحمد ووقف في الطريق، وطقق ينهته رغماً عنه.

ونحن لا نعرف بدقة السبب الذي حدا بخالد إلى العودة بالجيش، مادامت الخسائر البشرية كانت طفيفة نسبياً، ولكن الصيَّان تلقوهم عند وصولهم إلى المدينة بالسخرية والضحك من فرارهم، فكان على محمد أن ييسط عليهم جناح حمايته القوي. وردت الكرامة بعد نحو شهر، عندما قام عمرو بن العاص بقيادة حملة أخرى لغزو قبائل الشمال التي كانت فيما يبدو قد احتشدت على الحدود، ونجح عمرو في حملها على الفرار.

ولكن ذلك العام شهد حدثاً كان مصدر سرور على المستوى الشخصي لمحمد، إذ قيل إن المقوقس حاكم مصر أرسل إليه جارية مصرية جميلة ذات شعر أجدد، وكانت قبطية مسيحية اسمها مارية، فاتخذها محمد سرية، وكان يزورها كل يوم ويقضى المزيد من وقته معها، وربما وجد في ذلك راحة له من جو الغيرة بين زوجاته. وكان من المستبعد أن يجد أحد في ذلك أي غرابة، فقد نصت التواراة على السراري عندما كانوا بنو إسرائيل يهرون بالمرحلة الانتقالية نفسها، من حياة الترحال إلى حياة الاستقرار. وكان إبراهيم الخليل نفسه قد اتخذ هاجر سوية، وكان إسماعيل أبو العرب ثمرة لارتباطهما. ومن ثم فلا بد أن حمل مارية قد بدا بشير خبير، وعندما ولد ابن محمد في العام التالي أسماه إبراهيم.

وعلى نحو ما يتوقع المرء، شعرت زوجاته بغيرة شديدة من تلك النكرة الصغيرة التي تحمل طفل النبي. وقامت عائشة وحفصة بتنظيم احتجاج وتمرد بين الزوجات. ومن الصعب أن نفهم الحادثة الغريبة التالية، وهي التي تيسبت في أزمة كبرى، وربما كانت لها دلالات أكبر مما توحى به الوقائع. والقصة

التي بين أيدينا تُنسب لعمر بن الخطاب، وكانت له في المرأة آراؤه الصارمة، فكان يقول بأن المرأة يجب أن تُشاهد ولا تُسمع، وكان يرى أن زوجات المهاجرين بدان في اكتساب عادات سيئة من نساء المدينة. ولكن محمداً كان أكثر رفقاً وليناً مع النساء، واتزعج عمر ذات يوم حين سمع ضجيجاً وصخباً شديداً صادراً من منزل النبي، وكانت الزوجات آنذاك يتشاجرن حول تقسيم بعض الغنائم ويطلبن محمداً في إصرار على أن يزيد من نصيب أسرته منها على نصيب سائر الأمة. ونادى عمر محمداً وطلب منه الإذن بالدخول، ولم يلبث أن ساد الصمت. وعندما دخل وجد النبي قد تملكه الضحك، إذ حالما سمعت النساء صوت عمر حتى أهرعن في رعب إلى الحجاب. وقال عمر بنيرات صارمة إن الأولى بزوجات النبي أن يُسدين احتراماً مائلاً للرسول، وصاح في النساء اللاتي كن يقبعن خلف الستار قائلاً إنهن يعادين أنفسهن، فهل يخفن من عمر ولا يخفن من رسول الله؟ وقالت إحدى الزوجات إن ذلك صحيح، فعمر يتميز بلغظة وشدة أكثر من رسول الله (ص).

وكان عمر قد ساوره القلق من قبل على سلوك ابنته حفصة التي تجاوزت الحدود، وقال لها إنها يجب أن توضع حداً لغيرتها وأن تستقبل الواقع الذي يقول مثلاً إنها ليست في جمال عائشة. ولكن حفصة أكثرت من الحديث عن مارية حتى وعد محمد، إرضاءً لها، ألا يرى مارية مرة ثانية، ولكنه اكتشف أن الأحوال لم تتحسن. وكانت عائشة وحفصة تحضنان زوجات النبي على التهكم من مارية ضاحكات، كما استمرت المشاحنات فيما بينهن. وبلغ الاستياء بمحمد من هذا الجو الكدر أن قرر هجر زوجاته جميعاً شهراً كاملاً.

ولكن الشجار المذكور بين الزوجات كان يشير فيما يبدو، وعلى نحو ما تشير إليه معظم حكايات الزوجات، إلى مشكلة نشبت بين سائر أبناء الأمة. إذ بدأ المسلمون بعد صلح خيبر يتمتعون برفاهية لم يعهدوها من قبل. وتقول عائشة إنها لم تكن تعرف قبل خيبر معنى الشبع من التمر. ولكن الثراء

الجديد جاء ومعه مشكلاته، فكان بعض المزارعين يتوقون إلى الراحة والاستمتاع بالثروة، بينما بدأ آخرون يديرون للحصول على قسط أكبر من الغنائم أو فيء الغزوات، ويبدو أن أسرة محمد بدأت تطلب بعض الهدايا الخاصة التي كان يعطيها للفقراء. وكان محمد في قلق بالغ إزاء الضعف المعنوي الذي تؤدي إليه الرفاهية، خصوصاً بين زوجاته، وهو القلق الذي يظهر فيما رواه عمر عن هجر محمد لزوجاته، إذ ساء المسلمين جميعاً أن يسمعوا أن محمداً قد انزل عن زوجاته، وأصبح ذلك حديث الجميع، حتى احتشد حشد خارج المسجد الصغير، وعيونهم معلقة في توتر بالغرفة الصغيرة على السطح حيث يعتكف محمد، ويذكر عمر أن شخصاً ما أهرع إليه في منزله ليبلغه الخبر، وجعل يطرق الباب بصورة عاجلة ملحة جهلته يتصور أن خطباً هائلاً ألم بالمسلمين، لا يقل عن قيام قبائل الشمال بحصار المدينة.

وقال له الزائر إن ما حدث أفدح وأعظم إذ إن محمداً سرح جميع زوجاته! لم تكن تلك أزمة عائلية محضة، فزيجات محمد كانت تمثل تحالفات سياسية تم التخطيط لها بعناية. ولو أنه طلق عائشة وحفصة لأضر ذلك بعلاقته بأبويهما أبي بكر وعمر. وهكذا تعرض كل شيء للخطر بسبب مهاترات حفنة من النساء. وقد تكون للأزمة أسباب تجهلها تتعلق بصراعات داخلية في المدينة امتد تأثيرها إلى زوجات النبي. وأسرع عمر إلى المسجد على الفور ليرى ما يمكنه أن يفعل، ولكن محمداً رفض مقابته أول الأمر. وعندما سمح له النبي بالدخول، نظر حوله، فيما يذكر، فلم يجد في الغرفة الصغيرة المتواضعة سوى ثلاثة جلود غير مدبوغة. وكان محمد يرقد مهموماً على حصير، دون غطاء، وكان أثر الأسل المنسوج في الحصير بادياً على خده. وانقشع قلق عمر عندما علم أن محمداً لن يطلق نساءه، واستطاع تدريجياً أن يدفع النبي إلى الابتسام عندما قص عليه طرفاً من الصعوبات التي يكابدها هو مع النساء منذ هاجر الجميع إلى المدينة، حيث تعذر على

الرجال، فيما يبدو، تطويع سلوك زوجاتهم. وعندما زال التوتر عن محمد آخر الأمر جلس عمر إلى جواره على الأرض وسأله عن عدم سماح الله لرسوله بإتاحة بعض المتع لزوجاته، مادام أباطرة بيزنطة وفارس يعيشون في رفاهية بالغة. ولكن متحمناً أبه قائلًا إن الأباطرة نالوا سعادتهم في هذه الدنيا.

قد نجد هذه القصة عسيرة الوقع على آذاننا اليوم بسبب عناصر تعصبها للرجال، ولكن تتعلق بمواجهة التزعة المادية المترايدة في الأمة أكثر مما تتعلق بالغيرة بين الرجل والمرأة. فلقد احتج محمد عن زوجاته شهراً ثم خيّرهن بين أمرين: إما قبول شروطه والحياة الإسلامية المتواضعة، وإما الطلاق والتسريح بالمعروف. والجدير بالذكر أن آيات التخيير، حسبما يطلق عليها المفسرون، لا تشير إلى مارية أو غيره النساء، بل إن الآيات تركز على الموقف من الترف والبضائع المادية:

﴿ أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْن أُمْتَعِكُنَّ وَأَسْرَحِكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا، وَإِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٣٩) (الأحزاب: ٢٨ و٢٩).

ووافقت النساء على هذه الشروط، وازدادت أهمية زوجات محمد منذ تلك اللحظة في الأمة، وأطلق عليهن القرآن صفة «أمهات المؤمنين» وقضى بالألا يتزوجن ثانياً بعد وفاة الرسول، ليس بسبب غيرة من أزواج المستقبل، ولكن مثل هذه الزيجات يمكن أن تنجب أسراً وقبائل تفصم عرى الأمة.

والواقع أن القرآن يقدم بعد آيات التخيير صورة تسم بالزهد من الإيجابية للعلاقة بين الجنسين في الأمة، إذ تبين أن الرجال والنساء يتقاسمون واجبات الإسلام ومزاياه، جنباً إلى جنب، في مجتمع العدل:

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ

والتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا ﴿١﴾ (الأحزاب: ٣٥).

وقد يكون المسلمون المتأخرون قد ابتعدوا أحياناً عن هذه الرؤية القرآنية للمساواة، ولكن الأثرى بدعاة نُصرة المرأة في الغرب، ممن يتهمون الإسلام بكرهية المرأة، أن يتأملوا مدى السلبية الشديدة في التكاليد المسيحية إزاء المرأة. فالعهد الجديد يقدم أساساً رسالة إيجابية للنساء، ولكن الواقع أن الإنجيل لم يكن على مر القرون يحمل أبناء طيبة «للجنس الثاني»^(١) وكانت الكراهية المسيحية للمرأة تسم بتزعة عَصَاية خاصة لأنها تقوم على أساس رفض الحياة الجنسية، وهو رفض تنفرد به المسيحية بين أديان العالم، وهو قطعاً لا يعيب اليهودية ولا الإسلام. وليس من الإنصاف أن نلوم محمداً أو الإسلام بتهمة كراهية المرأة، فإذا كانت النساء المسلمات اليوم يرفضن بعض الحريات التي نشعر أننا قدمناها إليهن، فلا يرجع سبب ذلك إلى العناد، بل إلى التخبط في النظرة الغربية إلى المرأة، وفي العلاقات بين الجنسين. فنحن ندعو إلى المساواة وإلى التحرر، ولكننا في الوقت نفسه نتغل المرأة ونمتنها في الإعلانات وفي الكتابات والفنون الإباحية، وفي كثير من أشكال الفرجة الشعبية بأسلوب يستهجه المسلمون ويتأذون منه.

والمحتوم أن يهتم الرواة بآباء التوتّر والتحزّب بين زوجات محمد أكثر من اهتمامهم بالحياة اليومية لهن، ولكننا نخطئ إذا تصورنا أن تلك الحياة كانت تفتقر إلى الحب أو إلى السعادة. وعندما قرأ محمد آيات التخيير على عائشة، طلب منها أن تُمعن النظر وأن تفكر ملياً قبل اتخاذ قرارها، وطلب منها أيضاً أن تستشير والديها. ولكن عائشة رفضت ذلك فوراً قائلة إن الأمر لا يحتمل التفكير، فهي قطعاً تختار الله ورسوله. كانت عائشة تسم بالفيرة الشديدة وأحياناً ما كانت تتحس الأخبار لتتأكد أن زوجها لا يقضى وقته مع غيرها.

ولابد أن حمل مارية قد آلمها ألماً شديداً، وكانت جميع الزوجات الأخريات قد حملن من أزواجهن السابقين، ولكن عائشة لم تنجب أطفالاً. وقد وصلتنا رواية تثير الأسى إذ تقول إنها طلبت من محمد أن يطلق عليها كنيةً مثل الأخريات، فأطلق عليها كنية أم عبد الله، لأنها كانت تحب ابن أخ لها حمل ذلك الاسم. ولكن من الخطأ الظن بأن حياتها كانت تفشقر إلى السعادة، لأن محمداً كان زوجاً متسامحاً وكان يفوق أباه في عطفه ورفقه تجاهها، فالمعروف أن أبا بكر كان يضرب بناته، أما محمد فكان، على إصراره على حياة التقشف لزوجاته، دائماً ما يساعدهن في الأعمال المنزلية، وكان يعتمد على نفسه في كل شئونه، فكان يصلح ويرقع ملابسه، ويصلح أحذيته، ويعتنى بالماعز، وكان يحاول تعليم المسلمين وتربيتهم على زيادة احترام المرأة. ومما يُثبت تقبل الناس لرسالته أنهم قد حفظوا التقاليد التي أرساها في وقت كان أغلبية البشر في أغلب الديانات يستنكرون اهتمام نبيّ عظيم بالأعمال المنزلية، ولو أن بعض المسلمين مثل أبي بكر وعمر قد استحال عليهم تبديل عاداتهم.

لم تستطع أي زوجة أن تملأ الفراغ الذي تركته خديجة، ولكن يبدو أن حياة محمد مع عائشة مكّنته من الاطمئنان والتبسط. فقد دعاها ذات يوم مثلاً إلى التسابق معه، وعندما فاز في السباق صاح برنة انتصار قائلاً إنهما قد تعادلا الآن، مشيراً بذلك إلى أنها انطلقت تجرى أمامه وهي طفلة في مكة ولم يستطع اللحاق بها. ولكن علاقتهما المنزلية كانت تتميز أيضاً بدفء كبير، فكانت عائشة تحب أن تضع الطيب الذي يفضله محمد على شعره، وأن تغتسل من الإناء الذي يغتسل منه وتشرب من الكأس نفسها. وكانت تحب أن ترعاه في مرضه، ولو أنها لم تكن تتردد في إغاظته إذا رأت أنه يدلل نفسه أكثر مما ينبغي. وذات يوم كان يجلسان معاً وقد سُفّل بإصلاح خُفّ له، فشاهدت وجهه وقد أشرق لفكرة عابرة خطرت له، فهنأته على القرحة

التى أضاعت ملامحه. فنهض محمد وقبلها فى جيئها ودعا الله أن يجزيها عنه خير الجزاء، قائلاً إنها تدخل من السرور على قلبه ما لا يستطيع إدخاله من السرور على قلبها^(٤٢).

ولكن عائشة كانت تتمتع بنظرة جِدْ وذكاءٍ وقَاد. وجاء فى الأثر أن محمداً كان يطلب من المسلمين، حين يضطر للغياب عن المدينة، أن يستشيروا عائشة فى أية مشكلات دينية قد تعنُّ لهم. وأصبحت من الثقات بعد موته فيما يتعلق بالسيرة والسنة، وهو أمر يدعو للدهشة أيضاً إذا تذكرنا أن الخلفاء أبا بكر وعمر وعليا لم يكونوا يشاركون النبى احترامه للمرأة. وقد نُسب عدد كبير من الأحاديث النبوية يبلغ ٢٢١٠ إلى عائشة، وإن كان البخارى ومسلم، اللذان جمعا الأحاديث الصحيحة فى القرن التاسع، لم يتمكنوا من إثبات معظمها، ولم يقبلوا إلا ١٧٤ حديثاً قيل إن عائشة قد أخذتها مباشرة عن النبى. كما كان لها دورٌ بالغ الأهمية إبان القلاقل الياسية التى شهدتها الإمبراطورية الإسلامية فى أيامها الأولى، وقامت بالشورى على على أثناء خلافته. لم يحق الإسلام المرأة على نحو ما يتخيله الناس فى الغرب. وقد انتهى بعض الباحثين إلى أن الإسلام قد مكّن المرأة من النهوض بدور كان من المحال عليها أن تنهض به فى الجاهلية.

وفى أواخر العام انتك أهل مكة صلح الحديبية، ومن ثم عرّضوا أنفسهم من جديد للهجوم. كانت قبيلة بكر قد ظلت حليفة لقريش ولكنها كانت على امتداد عقود طويلة من الأعداء الألداء لخزاعة التى انضمت إلى حلف محمد. وفى نوفمبر عام ٦٢٩ قامت إحدى عشائر بكر بمهاجمة خزاعة ليلاً فى مراتبها، وكان الهجوم مفاجئاً، ويبدو أن بعض رجال قريش قد ساعدوا فى هذا الهجوم وعضدوه، إذ أمدوا بكر بالسلاح، كما قيل إن صفوان شارك فى القتال. وثارت خزاعة على الفور لقتلها ونشب القتال بين القبيلتين فى بيت الله الحرام بمكة، فاستجدت خزاعة بمحمد فوافق على السير إليهم لنجدهم.

وما لبث بعض رجال قريش أن ترددوا في موقفهم من بكر، إذ أدركوا أنهم قد قدموا ذريعة صحيحة لمحمد للهجوم على مكة. واستمر صفوان وعكرمة يُبدیان العداء والتشدد والتحدى، ولكن الآخرين، حتى سهيل الذي كانت أمه من خزاعة، كانوا ينادون بالتنصل من بنى بكر. وكان محمد قد بثّ العيون وجاءته الأخبار، فقال ذات يوم لأصحابه إن لهم أن يتوقعوا أن يروا أبا سفيان عما قريب في المدينة. ومن المحتمل أن أبا سفيان كان قد بدأ يدرك، منذ هزيمته في غزوة الخندق، أنه من العبث مواصلة العداء مع محمد، خصوصاً بعد مصاهرته له بزواج محمد من ابنته أم حبيبة. وصدق محمد إذ لم يلبث أبو سفيان، بُعيد حرق الهدنة، أن وصل إلى المدينة يطلب الصلح - وهو ما لم يكن ليجول بخاطر أحد قبل عامين.

وقد وردتنا روايات مختلفة عن المبادرة السلمية التي قام بها أبو سفيان في المدينة. إذ قيل إنه زار ابنته أم حبيبة ليطلب منها التأثير على محمد، ولكنها لم تسمح له حتى بالجلوس على فراش النبي. ولكننا لا نرجح هذه الرواية، لأن محمداً لم يكن يستمتع بهذا اللون من التبجيل والتوقير في حياته. وتقول الرواية الثانية إنه طلب المشورة من أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وهي رواية نتشكك في صحتها بعض الشيء، لأنها تقول إنه زار وخاطب الخلفاء الراشدين الأربعة بترتيب توليهم الخلافة. ولكن المقطوع به هو أن أبا سفيان اضطلع بدور بالغ الأهمية في تلك الآونة، فإذا كان قد تعذر عليه الدخول في الإسلام آنذاك، فلقد كان يدرك أن نصر النبي محتوم في النهاية، وأن على قريش أن تعقد الصلح معه بأفضل شروط ممكنة. وكان يحاول هو وسهيل تخليص أهل مكة من المشاركة في التراع بطرح مسؤوليتهم عن بنى بكر، استناداً إلى نفس النقطة الفنية التي استند إليها محمد قبل ذلك بعام واحد في مسألة أبي بصير. ولكن قريشاً لم تكن تملك من القوة الآن ما يمكنها من النجاح في ذلك، فاقترح عليّ على أبي سفيان أن يطلب من

محمد الموافقة على أن «يجعل له شيئاً» يفخر به، باعتباره قادراً على إجارة أى مكى يريد الاستسلام لمحمد. وكان من شأن ذلك أن يحفظ ماء وجوههم وينجيهم من القتل إذا قام المسلمون بفتح مكة، لأن معناه عدم الاستسلام لمحمد مباشرة بل لرجل من رجالهم.

ووافق أبو سفيان على أن يفكر ملياً فى الأمر ورحل إلى مكة، ومن المحتمل أنه بذل جهداً كبيراً فى تهيئة رفاقه فى القيلة لتقبل المصير المحتوم. وبعد رحيله بدأ محمد فى الاستعداد لحملة جديدة، فدعا الأمة وحلفاءها للالتحاق بجيش المسلمين. أما مقصد الحملة فقد ظل سراً محوطاً بالكتمان الشديد، لأسباب أمنية، ولو أن الناس كانت تحاول أن تحمدس وجهتها وقد أثارت الأنباء حميتها. وفى العاشر من رمضان عام ٦٣٠م انطلق محمد على رأس أكبر جيش يغادر المدينة المنورة فى تاريخها، إذ تطوع للالتحاق به جميع رجال الأمة تقريباً، وانضم إليهم الأعراب من حلفائهم على طول الطريق حتى بلغ عدد أفراد الحملة عشرة آلاف رجل، ولكن أحداً لم يكن يعلم علم اليقين وجهتهم. كان من الممكن، بالتأكيد، أن يكونوا يقصدون مكة، لكنه كان من المحتمل أيضاً أنهم يقصدون مهاجمة بعض القبائل الجنوبية فى الطائف، وهى التى ظلت على عدائها للإسلام. وقد خطر ذلك الاحتمال لقليلة هوازن المقيمة جنوب المدينة عندما سمعوا أن جيش محمد كان متجهاً إليهم، ومن ثم شرعوا فى حشد جيشهم الكبير فى الطائف، مدينة اللات ومعقل الشرك. أما فى مكة فكانت قريش، بطبيعة الحال، تخشى أسوأ العواقب. وتوصل إليهم العباس أن يحاولوا درء الكارثة قائلاً: «واصبح قريش، والله لئن دخل رسول الله مكة عنوة قبل أن يأتوا فيتأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر»^(٤٣) (ابن هشام: ج٤ - ٢٧٦). وانطلق ليلاً للحاق بمحمد، وأدرك فى الطريق أبا سفيان ويديلاً، رئيس خزاعة، اللذين كانا متجهين أيضاً إلى معسكر المسلمين. وقضى الثلاثة ليثهم هناك، وفى

الصباح سأل محمد أبا سفيان إن كان على استعداد لدخول الإسلام. وقال أبو سفيان، إنه يقر بالجزء الأول، أى بشهادة ألا إله إلا الله، بعد أن أثبتت آلهة الشرك أنها لم «تُغْن عنه شيئاً»، ولكن كان ما يزال فى نفسه شيئاً إزاء الشهادة الثانية، وهى أن محمداً رسول الله. ولكنه عندما شاهد جميع أفراد الجيش الجرار يركعون ويسجدون فى صلاة الصبح وقد يمّموا وجوههم شطر مكة وعندما شاهد شتى القبائل وهى تمر به فى طريقها إلى مدينته، أيقن أن قريشاً لابد لها من الاستسلام.

وأهرع عائداً إلى مكة حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: «يا معشر قريش! هنا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به» (ابن هشام: ٢٧٩/٤) ثم عرض عليهم الخيار الذى اقترحه على بن أبى طالب وهو أنه سوف يجير كل من يريد الاستسلام، وأن محمداً سوف يفى بما تعهد به لأبى سفيان فى هذا الشأن، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، عندما يصل جيش المسلمين. ولكن هنذاً، زوجته، بلغ بها الغضب كل مبلغ، فأسكتْ بشاره وصاحت فى الناس «أقتلوا الحميث الدسم الأحمس! قُبِح من طليعة قوم!»^(٤٤) (ابن هشام: ٢٧٩/٤) ولكن أبا سفيان توسل إليهم ألا ينصتوا لها، فقد انقضى ومن ذلك التحدى والعناد، مؤكداً أنه شاهد جيشاً لا قبل لقريش به. وكانت قريش تؤمن بالذهب الواقعى حتى النهاية، ولم تكن بالتأكيد ترغب فى واقعة انتحار جماعية فى بلاد العرب، فذهب الناس إلى دورهم وأغلقوا أبوابهم عليهم رمزاً لاستسلامهم.

ولكن البعض كان يريد القتال، فاجتمع عكرمة وصفوان وسهيل، على رأس قوة صغيرة على جبل أبى قيس، وهاجموا اللواء الذى يقوده خالد أثناء دخوله مكة، ولكنهم سرعان ما انهزموا ففر عكرمة وصفوان من مكة، وقرر سهيل أن يتسلم فعماد إلى داره. ودخل سائر جيش المسلمين مكة دون قتال على الإطلاق. وكانت خيمة محمد الحمراء قد ضربت بالقرب من الكعبة،

فلحقت به أم سلمة وميمونة، الزوجتان اللتان صاحبتاه، مع علي وفاطمة. وبعد أن استقر بهم المقام بقليل وصلت أم هانئ، أخت علي بن أبي طالب، وكانت زوجة أحد المشركين ولم تهاجر مع مهاجري مكة، فتشفت عند النبي لاثنتين من أقاربهما كيانا قد اشتركا في القتال ضد خالد. وكان علي وفاطمة يريدان قتلهما ولكن محمداً وعد علي الفور بتأميمتهما وإجارتتهما. لم يكن النبي يريد الشروع في أعمال ثار دموية، ولم يفرض علي أحد قبول الإسلام، بل لم يشعر أحد أنه يتعرض لأى ضغط حتى يدخل في الإسلام. كان محمد لا يريد إرغام الناس بل مصالحتهم.

لم يكن هدفه من القدوم إلى مكة هو التكييل بقريش بل إلغاء دين الشرك الذى خذلهم. وبعد أن نام قليلاً نهض فتوضأ وصلى ثم طاف بالكعبة سبع مرات على ظهر راحلته قسوة، وكان يلمس الحجر الأسود فى كل مرة ويصيح «الله أكبر!» وكان يردد الصيحة خلفه جنوده، أى عشرة آلاف رجل، وسرعان ما رددت جنيات مكة أصدااء الكلمات التى كانت ترمز للنصر النهائى للإسلام. ثم توجه إلى الأصنام المقامة حول الكعبة، وعددها ٣٦٠، وقد ازدحمت بها الشرفات والأسقف، فحطمها واحداً واحداً وهو يقول: ﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾ (٤٥) (الإسراء - ٨١). وكانت الجدران داخل الكعبة مزينة بصور للآلهة الوثنية فأمر محمد بطمسها، ولو أنه سمح، فيما قيل، بترك النقوش الجدارية للمسيح والبتول، ولكن الإسلام حرم فيما بعد استعمال أى نوع من الصور فى العبادة لأنها تصرف الذهن عن الله من خلال التركيز على رموز بشرية محضة للمقدسات.

وكان بعض أهالى مكة قد خرجوا من دورهم واتجهوا إلى الكعبة ولبثوا ينتظرون مغادرة محمد للبيت الحرام. فوقف أمام بيت الله وطلب منهم أن يتقبلوا الأوضاع الجديدة، وعمادها وحدة الأمة، وأن يطرحوا ما أورثتهم الوثنية من فخر وخيلاء وإحساس بالاستغناء بالنفس عن الله، فليس من شأن

ذلك سوى إحداهن الفرقة والظلم. وأنهى حديثه بآية من القرآن، فسرها المسلمون فيما بعد بأنها تعتبر إداة للعنصرية، وهى من الرذائل التى لم يتسم بها الإسلام، إذ قال: «يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب»، ثم تلا هذه الآية:

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير﴾ (١٦)
(الحجرات: ١٣).

ثم أصدر محمدٌ عفواً عاماً، ولم يُدرج فى القائمة السوداء إلا عشرة أشخاص تقريباً كان من بينهم عكرمة (ولم يكن بينهم صفوان، لسبب ما) والذين قاموا بنشر الدعاية المناهضة للإسلام، والذين آذوا أسرة الرسول. ولكن من طلب العفو من بين هؤلاء أجيب فيما يبدو لطلبه.

كانت تلك سياسة حكيمة. فكان محمد يعرف مثلاً أن سهيلاً قد فرّ، وطلب من أصحابه أن يترفقوا فى معاملته قائلاً: «لا أريد أن يتهجم أحد فى وجه سهيل إذا رآه، فليأت طائعاً، فلعمري إنه لذو عقل راجح وشرف، ولن يغفل عن الحق الذى أتى به الإسلام» (١٧) وبعد أن ألقى محمد خطبته فى الكعبة ذهب إلى الصفا ودعا أهل مكة إلى مبايعته وقبول رئاسته السياسية. واصطفت قريش، وتقدم منه الناس واحداً تلو الآخر، وكان أبو بكر وعمر يقفان عن يمينه وشماله. وكانت إحدى النساء اللاتى وقفن أمامه منقبة، ولكن محمداً عرف من صوتها أنها هند، زوجة أبى سفيان، وكان اسمها فى قائمة المحكوم عليهم بالقتل لتمثيلها بجثة حمزة، وسألها النبى: «إنك لهند بنت عتبة؟» فقالت فى تحد: «أنا هند بنت عتبة فاعف عما سلف عفا الله عنك!» واستمر محمد فى استجوابه فسألها إن كانت تتعهد بالالتزنى أو سرقة، وبالإضافة لقتل أولادها، وأجابت هند على ذلك قائلة: «قد ربيتهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً، فأنت وهم أعلم» (١٨) (الطبرى ٣/٦٢).

وقررت هند أن تدخل في الإسلام، وقالت لمحمد: «يا رسول الله! ليس لك أن تؤاخذني اليوم بجريرة بعد إسلامي» وتبسم النبي وقال: «اذمى قانت من الطلقاء»^(٤٩). وسرعان ما رأت زوجها وأبناءها يشغلون مناصب مهمة في الأمة، جزاءً لأبي سفيان على تعاونه. وقد كُتب لسلالة أبي سفيان أن تؤسس دولة بنى أمية.

وتوسل أقارب صفوان وعكرمة للنبي أن يعفو عنهما، فوعدهما محمد أن يسمح لهما بحرية دخول مكة بشرط أن يقبلا زعامته. وقرر الاثنان العودة، وكان عكرمة أسبقهما إلى الإسلام. وكافأه محمد بأن حياه تحية مودة، ومنع الجميع من أن يذكروا والده (وهو أبو جهل) بسوء. ورغم مبايعة صفوان وسهيل للنبي محمد، فإنهما لم ينطقا حتى تلك اللحظة بشهادة الإسلام (بالشهادتين). وكان من بين الذين ضمتهم القائمة السوداء رجل صورته سلمان رشدى في كتابه «الآيات الشيطانية» وإن كانت الصورة الخيالية التي رسمها رشدى للرسول صورة رجل بارد المشاعر قاسى القلب يهوى النار، وهي أبعد ما تكون عن الحقيقة. كان ذلك الرجل، واسمه عبد الله بن سعيد، أخاً في الرضاعة لعثمان بن عفان، وكان قد هاجر إلى المدينة في عام ٦٢٢م، ولكنه، فيما يبدو، ارتد عن الإسلام. وكان قد عمل كاتباً يُعيله محمد ما يتزل عليه من الوحي، ثم عمد إلى إدخال تغييرات طفيفة في النص القرآني، قد يكون دافعها التفكك أو اختبار النبي محمد، فعندما قرأ الرسول «والله سميع عليم» كتب عبد الله «والله حكيم عليم»، ولم يفتن محمد إلى ما فعله عبد الله الذي هرب بعد فعلته إلى قريش مرتدلاً عن الإسلام، فاستغلت قريش القصة استغلالاً قبيحاً، وكان القرآن قد قال لمحمد نفسه إنه إذا حاول تغيير النص المقدس وفق هواه فسوف تكون لذلك عواقب قاتلة مدمرة، وإلحاح القرآن على هذه النقطة يؤكد وعى محمد بصعوبة الحفاظ على سلامة رسالته، فالسهو والخطأ من طبائع البشر. وعندما علم عبد الله

أنه قد حكم عليه بالإعدام فرّ مستجداً بعثمان الذي أجاره حتى تهدأ الأحداث التي أثارها الفتح، ومن ثم أتى به إلى محمد سائلاً العفو. وقيل إن محمداً ظل صامتاً فترة طويلة قبل إلغاء حكم الإعدام، كما قيل إنه لام صحابته فيما يعيد على عدم اغتنام فرصة صمته لقتل عبد الله. ولكن عبد الله عاد إلى الإسلام بعد أن رُفِع اسمه من القائمة السوداء وسطع نجمه في الدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول.

كان الانتصار على مكة بمثابة الفتح النهائي الذي مهد له الانتصاران السابقان في بدر والحديبية. وكلمة الفتح - كما يدل على معناها الحرفي بالعربية - تشير إلى فتح باب جديد للإسلام، ومن ثم أصبحت المصطلح الرسمي الذي يطلق على فتوح البلدان. وقد أثبت الرسول بفتح مكة صدق دعوى نبوته، ولو أن هذا الفتح قد تحقق دون إراقة دماء فأثبت نجاح سياسة محمد السلمية. ولم تقض سنوات قليلة حتى قُضِيَ على الوثنية في مكة قضاءً مبرماً، وأصبح بعض أعداء محمد الألداء مثل عكرمة وسهيل من المسلمين المخلصين المتحمسين للإسلام.

ولم يكتب لمحمد أن يستمتع طويلاً بالفتح إذ سمع أن جيش هوازن قد احتشد له في الطائف. وهكذا أرسل يُعيد الفتح خالداً إلى نخلة ليحطم صنم العزى، وبعد ذلك أرسل علياً ليحطم معبد مناة في هذيل. ولكن ثقيفاً وحلفاءهم عقدوا العزم على إنقاذ اللات، فحشدوا عشرين ألف رجل للدفاع عنها. كانت لحظة خطر تنذر بضياع كل شيء، ولكن قريشاً بعد الفتح كانت على استعداد للقتال جنباً إلى جنب مع محمد والمسلمين، إذ كانت الطائف وهوازن من أعدائهم القدماء. وهكذا تحول محمد بين عشية وضحاها من فاتح مكة إلى فائد عن حماها. والتقى الجيشان في وادي حنين في آخر يناير عام ٦٣٠م، ولما يتقضى أسبوعان على الفتح. وكاد المسلمون يهزمون ولكنهم شنوا هجوماً في اللحظة الأخيرة فأجبروا العدو على الفرار، فلجأ البعض إلى

الاختباء في التلال والبعض الآخر في مدينة الطائف ذات الأسوار. وحاول محمد حصار المدينة ولكنه سرعان ما تبين أنه لن يتمكن من فتحها هذه المرة فعاد أدراجه.

وكان تقسيم الفء بعد غزوة حنين مثار جدل كبير أفصح عنه بعض بواعث التوتر داخل الأمة. إذ إن محمداً كان يريد استمالة خصومه السابقين، مثل أبي سفيان وصفوان وسهيل، فمنحهم نصيب الأسد من الغنائم. وبلغ من تأثير ذلك في صفوان أن أسلم على القصور، وقال إنه يشهد أن النفس لا يمكن أن تُكِنَّ مثل هذا الخير لو لم تكن نفس نبي، وأضاف: «أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله»^(٥٠) واعتنق سهيل الإسلام كذلك. وكان قد عُرف عنه التدين دائماً، ثم أصبح أشد من دخلوا الإسلام حماساً له. ولكن أتباع محمد الخلفاء، بطبيعة الحال، لم يرضهم تفضيل هؤلاء عليهم، وخصوصاً الأنصار الذين رأوا في ذلك دليلاً على أن عودة محمد إلى قريش سوف تؤدي إلى هجره لهم، وإلى نسيانه أن الأوس والخزرج قد آووه عندما خرج من مكة لاجئاً إليهم. وأنقذ محمد الموقف بأنلقى خطاباً مؤثراً أقر فيه بما لأهل المدينة من أبادٍ يرضاه عليه، ووعدهم بأن يستقر في المدينة إلى آخر أيامه، فأنحدرت الدموع من مآقي الأنصار وهو يدعو الله دعاءه الأخير وقال:

«أَوْجَدْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِكُمْ فِي لِعَاةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيَسْلَمُوا وَوَكَلْتُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟ أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى رِحَالِكُمْ؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ أَمْرًا مِنَ الْأَنْصَارِ. وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكَتِ شِعْبَ الْأَنْصَارِ. اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ ابْنَاءِ الْأَنْصَارِ»^(٥١) (ابن هشام: ٣٥٤/٤).

ورضى الانصار، مؤقتاً على الأقل، ولكن محمداً قام - بعد تقسيم الفىء ومبايعة هوازن له، وحشد جيشه - بالعمرة إلى بيت الله الحرام فى مكة ثم عاد إلى المدينة . -

كان النظام القبلى القديم يعتمد على قيام كل مجموعة بالحفاظ على توازن القوى، وكانت شرعة الأخذ بالشار تنصّ على أنه إذا قُتل أحد أفراد القبيلة، فلا بد من إضعاف القبيلة المعتدية بنفس النسبة تماماً. ولكن محمداً كان قد اكتسب من القوة ما يجعله يتجاوز القيود التى يفرضها هذا النظام، مما فرض حداً معيناً من السلم فى بلاد العرب. وكان على قبائل الرُّحْل أن تختار أحد امرين، إما أن تحالف مع محمد، أو أن تصبح غنيمة مباحة للأمة التى كانت أعداؤها فى تزايد مستمر هى وحلفاؤها. وعلى مدى العامين التالين أخذت وفود القبائل تصل إلى المدينة بصورة متوالية. وكان على كل قبيلة أن تعد بتحطيم أصنامها، وتقديم المقاتلين إذا طلب منها ذلك، وأن تمتنع عن مهاجمة الأمة وحلفائها، وأن تدفع الزكاة. وأصبح بعض الأعراب يؤمنون بالإسلام إيمان الخالص، ولكن البعض الآخر ظلوا مخلصين للدين القديم فى أعماق قلوبهم، وكان محمد يدرك ذلك إدراكاً كاملاً. وهنا أيضاً لم يبذل الرسول أى جهد لفرض الصورة اللاهوتية الصحيحة، راجياً أن يودى الاستسلام السياسى آخر الأمر إلى التسليم الدينى الذى يتطلبه الإسلام. لقد نجح محمد، وحده تقريباً، فى فرض السلام الإسلامى.

كان القتال وشن الغارات من عناصر أسلوب الحياة العربية، وكانت عادة العدوان متأصلة فى النفوس. كما كان محمد يدرك أن عدم تمزيق أوصال السلام الذى تحقق أخيراً يتطلب محاولة الحفاظ على قوة دفع خارجية. ولذلك فعندما ارداد عدد القبائل التى انضمت إلى الأمة أو تحالفت معها - ومن ثم حُرِّمَ غزوها على المسلمين - حاول محمد توجيه طاقات المسلمين إلى غزو القبائل الشمالية التى ظلت على عدائتها للمسلمين وقد حدث ما يشبه

ذلك فى أوربا المسيحية فى القرن الحادى عشر عندما كانت الكنيسة تحاول منع الفرسان واللوردات من مهاجمة بعضهم البعض، وجهدت جهودها لتحقيق ما أسمته السلام الإلهى. وانتهى الأمر بأن قام البابا أوربان الثانى فى مجلس كليرمونت عام ١٠٩٥ ببحثٍ للمسيحيين على توحيد صفوفهم لدحر العدو المشترك فى الأرض المقدسة، ومن ثم دعا إلى شن الحملة الصليبية الأولى ضد «الكفار» المسلمين، بحيث يسود سلام الله فى الغرب، وتنشب حرب الله فى الشرق الأوسط.

وفى أكتوبر ٦٣٠م أعلن محمد عن غزوة جديدة، ولكنه أحاط الجميع علماً هذه المرة، خلافاً لما جرت عليه عادته، بأنهم سوف يقصدون الحدود البيزنطية حتى يتمكن الرجال من تجهيز أنفسهم بجهاز مناسب للرحلة الطويلة. ونحن لا نعلم علم اليقين الأسباب التى حدثت بمحمد للقيام بهذه الغزوة التى لم تلقَ الترحيب من المسلمين، فكان الجو حاراً، وكان البلح قد نضج وأن أوان جنى المحصول، وكان المسلمون يخافون بأس الجيش البيزنطى، وهو خوف رشيد له ما يبرره. لا نستبعد أن محمداً قد بدأ فعلاً فى التخطيط لفتح سوريا وفلسطين، وربما كان يريد الشار من هزيمة مؤتة وترسيخ أقدامه وتأمين مواقعه فى الطرف الشمالى من بلاد العرب. وبدأ معظم المسلمين يتجهزون للحملة، ولكن بعضهم أبدى تدمره أو تكاسل، بل إن بعضهم رفض الخروج. كان المنافقون، على نحو ما نتوقع منهم، عازفين عن الخروج، وطلب بعض الحلفاء الجدد من الأعراب إعفاءهم من المشاركة فى الغزوة، وكان بعض المسلمين الآخرين يريدون البقاء فى المدينة لجنى محصول البلح وكسب المال، ولكن بعض من اعترضوا كانوا من المسلمين الذين لا تشوب إسلامهم شائبة. بل إن علياً نفسه تخلف فى المدينة، ولو أن بعض المصادر تقول بروح الولاء إن محمداً طلب إليه البقاء لرعاية الأسرة أثناء غيابه. ثم انتهى الأمر بأن بدأ نحو ٣٠٠٠٠ رجل مسيرتهم الشاقة

العسيرة إلى الشمال. وتخلّف في المدينة نحو تسعين رجلاً، وقد يكونون قد تأمروا على النبي، فقد حَزَّ في نفوس الناس، وهذا أمر طبيعي، أن يشاهدوا أشخاصاً مثل أبي سفيان، وهم يتلقون التكريم والهدايا الثمينة، وأن أوائل المسلمين من الأنصار والمهاجرين لا يلقون، فيما يبدو، سوى التجاهل. وكثيراً ما يحدث في أي حزب أن يصبح الأوائل من مؤازريه مشكلة عويصة، فهم يتشبّهون بالمثالية الأولى للحركة، وينظرون شزراً إلى الذين اضطروا - وربما تكون دوافعهم انتهائية رخيصة - إلى أن يصبحوا من الحواريين المتأخرين. لقد استطاع محمد بعقله الراجح أن ينشئ مناخاً يساعد أعداءه القدامى على التعاطف مع الإسلام، ولكن ذلك أدى إلى نشوء مشكلة في المدينة. وقد برز الاستياء حتى بين من التحقوا بالحملة، فكان معسكر ابن أبي يَضْجَ بالتذمر دائماً، فتخلّف البعض عمداً، وغمغم الآخرون غمغماً غامضة تشكك في الحكمة من تعريض أنفسهم للجيش البيزنطي القوي، وعندما سألتهم الرسول عما يقولون ردوا بمرح قائلين: «كنا نتحدث ونضحك يا رسول الله» ولكن محمداً لم يتخذ بكلامهم، كما أثبت ذلك ما نزل من القرآن^(٥٦): ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾ (التوبة: ٦٥).

ووصل الجيش أخيراً إلى تبوك، التي تقع في الشمال الغربي من المدينة على مبعدة ٢٥٠ ميلاً تقريباً، ونجح محمد في البقاء نحو عشرة أيام فيها. لقد كان ذلك إنجازاً هائلاً، إذ كان الجيش كبيراً، والموقع متاخماً لبيزنطة، ولا شك أن هذا النجاح قد بهر الأعراب المقيمين في المنطقة. وعقد الرسول أثناء وجوده هناك بعض الموائيق مع الحكام المحليين، فقام الملك النصراني يُحَنَّةُ بن روية صاحب أيلة (وهي ميناء إيلات في إسرائيل الحديثة) بدفع الجزية له، وكذلك فعل رؤساء ثلاث مستوطنات يهودية في جَرْبَاءَ وفي أَذْرَجَ الواقعتين في الأردن الحديثة، وفي مَقْنَا على ساحل البحر الأحمر. كما أرسل خالد على رأس قوة صغيرة لإخضاع حاكم دومة الجندل، ومن ثم وصل هو الآخر لعقد صلح مع محمد.

كان النجاح متواضعاً ولكنه كان ذا دلالة كبيرة، وكان محمد مستبشراً وشعر بالثقة في طريق عودته إلى المدينة. كان قد عقد العزم على الانتهاء من المعارضة داخل معسكره بعد تلك البداية التي تبشر بالخير للدولة المدينة في العالم الخارجي. ولكن التذمر والانشقاق استمرا أثناء مسيرة العودة، ويبدو أن بعضهم دبّر مكيبة لدفع محمد من فوق صخرة عالية ولكنه وصل آخر الأمر سالماً إلى منطقة على مقربة من المدينة، إذ كان قد طلب منه قبل مغادرة الواحة انتساح مسجد جديد يبنى في قباء، وكان قد وعد بأن يفعل ذلك بعد عودته. ويبدو أنه قد توافر لديه ما يدعو له للاعتقاد بأن المسجد كان بؤرة التمرد، بل نزل القرآن بأن الذين بنوه كانوا قد عادوا لإقامة العلاقات مع عدد من أعداء محمد الذين كانوا ما يزالون يرفضون الاعتراف بنجاحه (٥٣). وهكذا فقبل أن يدخل المدينة أرسل رجلين إلى قباء لإضرام النار في المسجد. وفي صباح اليوم التالي قام بالتحقيق في سلوك الأشخاص الذين تخلفوا في المدينة، وأسرع معظمهم إلى الاعتذار وقدموا ذرائع مقبولة، ولكنه أمر بمقاطعة ثلاثة رجال لمدة تقرب من شهرين.

ويبدو أن ذلك قضى على المعارضة داخل صفوف المسلمين، وبعيداً عودته من تبوك قام محمد على قبر خصمه القديم ابن أبي، دليلاً على الاحترام والمصالحة. كما شهدت تلك الفترة أيضاً نهاية معارضة المشركين، ففي يناير ٦٣١م أرغمت مدينة الطائف على الاستسلام، وكانت آخر معقل للوثنية بعد ما لا يزيد عن عام من رفع الحصار الذي كان محمد قد ضربه حولها. كان أهل الطائف يكابدون ازدياد عزلتهم منذ أن أصبحت هوازن من حلفاء الرسول، بعد غزوة حنين، وكان من المحال مواصلة عنادهم، وتوسل وقد الطائف إلى محمد أن يمنحهم شروطاً خاصة، فقالوا إنهم تجار يقومون بأسفار كثيرة، وإنهم يريدون من ثم أن يأذن لهم بمضاجعة نساء أخريات غير زوجاتهم أثناء رحلات أعمالهم؛ كما طلبوا السماح بأن يشربوا النبيذ المصنوع

من أعتابهم، وأهم من ذلك كله أن يحتفظوا بهيكل اللات بضعة أعوام أخرى أو، وهذا هو الطلب الأخير، عاماً واحداً على الأقل. ولكن محمداً رفض كل طلباتهم. أما ما تنازل عنه فقط هو أنهم ليسوا ملزمين بأن يحطموا معبد اللات بأنفسهم فيغضب الناس منهم، ومن ثم أرسل محمد أبا سفيان نيابة عنه إلى الطائف لتدمير هيكل تلك الربة.

كانت لحظة ذات دلالة رمزية، إذ سبق لأبي سفيان أن حارب محمداً خمسة أعوام وكان يدخل إلى ساحة القتال واسم اللات على شفتيه. لقد كان ذلك دليلاً مؤكداً على أن الوثنية مقضىٌ عليها بالزوال. لقد كان لها يومها ولكنها عجزت عن مساعدة العرب على التكيف مع حياة الاستقرار ومتطلبات القرن السابع. لقد أصبحت عوامل الحركة الداخلية التي تحدث التغيير الاجتماعي توازر الآن محمداً. لقد ألهم محمد إنجازاً فذاً، فلم يستند فقط إلى الوحي الذي أنزله الله عليه، بل إنه طبق المبدأ الذي جاء به القرآن وهو التوصل بالأسباب، فاستخدم جميع موارده الطبيعية وعبقريته الشخصية الفائقة حتى تمكن من الظفر. ولكنه كان في عام ٦٣١م قد أصبح شيخاً وبدأت صحته تسهول: ترى هل يكتب للأمة البقاء بعد موته؟

obeikandi.com

الفصل العاشر

وفاة الرسول

خطا المجتمع الإسلامى الصغير أولى خطواته تجاه القوة السياسية عام ٦٢٢م حينما قام محمد بالهجرة. وبعد عشر سنوات تقريباً، كان محمد يسيطر على معظم بلاد العرب تقريباً. وأرسى قواعد نظام عربى جديد سيمكن المسلمين من حكم إمبراطورية هائلة لأكثر من ألف عام. وكان النجاح السياسى قد تطلب جهداً وتوتراً مستمراً، كما أن السنوات العاصفة فى المدينة أوضحت صعوبة وخطورة إعادة تأسيس مجتمع إنسانى طبقاً لخطة إلهية. وخبر محمد الجهد الذى تطلبه ترجمة كلمة الله - التى هى أقدس من أن ينطق بها - إلى لغة إنسانية، تلك اللغة التى بدت أحياناً وكأنها تتصدع وتنشظى من الأثر الإلهى. وكان النضال من أجل تجسيد كلمة الله فى مجتمع إنسانى قد أوصل المسلمين أحياناً إلى شفا اليأس. وأحياناً أخرى اقترب بهم من التخلّى عن محمد كلية. لكن نجاحه كان البرهان الأفضل على مصداقية سياساته غير العادية والخلاقية أيضاً. فحينما اتخذ محمد قرارات القتال فى بدر، أو طرد أو قتل القبائل اليهودية، أو عقد معاهدة الحديبية، لم يكن تحت التأثير المباشر للوحى الإلهى، لكن كان عليه أن يلجأ لمساعدة وإرشاد واستعمال مواهب الطبيعة. فالقرآن لا يتوقع من المسلمين أن يتخلوا عن عقلايتهم الفطرية، ولا أن يتقاعدوا انتظاراً لأن يتقدمهم الله بمعجزة. فقد كان الإسلام دائماً ديناً واقعياً وعملياً، يرى أن الذكاء الإنسانى والإيحاء الإلهى يعملان جنباً إلى جنب فى توافق. وفى عام ٦٣٢م، بدا وكان إرادة الله على وشك التحقق فى بلاد العرب. وخلافاً لأنبياء كثيرين سابقين فإن محمداً لم يات فقط بروية أمل جديدة للأفراد من الرجال والنساء، لكنه أيضاً اضطلع

بمهمة خلاص المجتمع الإنساني وإقامة مجتمع عادل يمكن البشر من الرجال والنساء من تحقيق إمكاناتهم الفعلية. وأصبح للانتصار السياسي، منزلة تشابه منزلة القربان المقدس عند المسيحيين، فقد كان آية للحضور الإلهي غير المرئي وسطهم. وهكذا، فقد كان على النشاطات السياسية أن تستقر كمسئولية مقدسة، وأصبح النجاح اللاحق للإمبراطورية الإسلامية «آية» على أنه بالإمكان خلاص البشرية جمعاء.

وبدلاً من أن يتجول بطريقة لا دنيوية بين تلال الجليل مبشراً وشافياً، كما فعل المسيح في تصوير الكتاب المقدس له، كان على محمد أن يشتبك في جهد سياسي ضار لإصلاح المجتمع. كما كان على تابعيه أن يتعهدوا بمواصلة النضال. وبدلاً من تكريس الجميع جهودهم لإعادة بناء حياتهم الشخصية الخاصة في سياق «السلم الروماني القائم» كما فعل المسيحيون الأوائل، اضطلع محمد وصحابته بمهمة تجديد مجتمعهم، الأمر الذي بدونه لم يكن ليتحقق أى تقدم أخلاقي أو روحي. والقرآن واضح في نصه على أن مصير الفرد الأبدي على درجة عالية من الأهمية وله أيضاً الأهمية على الواجبات الاجتماعية للمسلمين. والتاريخ والنشاط السياسي لدى المسلمين هدفان في حد ذاتهما، لكن يُظهِرُهما ويحكمهما النظام الإلهي الأسمى كما توضح باستمرار الرموز القرآنية المتعلقة بالحساب والحجيم والجنة. وفي هذا الصدد نجد تجاوزاً بين القرآن وروح الفردية الجديدة، وكانت قد بدأت تلمس في بلاد العرب. وتكس تشريعات القرآن الاجتماعية ذلك الاهتمام بالفرد. وكانت المثل الجماعية مازالت معيارية في بلاد العرب رغم ذواء النظام القبلي. ولذا، لم يكن بوسع محمد تجاهل ذلك الواقع والإتيان بفردية كاملة من أجل إرضاء مثلنا الغربية الليبرالية، لكنه خطا نحو ذلك. غير أن خلاص الفرد كان لا يمكن تحقيقه إن استمرت دائرة سفك الدماء اللامتهدية في بلاد العرب. إذ إن المجتمع الفاسد التحلل لا يولد سوى الانحلال والعلة واليأس في

جميع الافراد الذين يُستثنى منهم الأبطال الحقيقيون. وهكذا تطلبت الأحوال في بلاد العرب في القرن السابع في المدينة خطة للخلاص الفردى والجماعى أيضاً.

وتمكن محمد من إنشاء مجتمع قوى له استقلاله عن القوضى المحيطة.. وبدأت مجموعات قبلية أخرى فى الانضمام إليه رغم أنها لم تكن قد التزمت بعد برويته الدينية. ولكى يمكنها البقاء كان على الأمة أن تكون قوية، رغم أن هدف محمد الأساسى لم يكن القوة السياسية، بل إيجاد مجتمع خير. ويبدو أن نجاح محمد قد أثبت ما قاله القرآن من أن المجتمعات التى ترفض ذلك النظام الإلهى لا يبد وأنّها هالكة. لكن الصراع لم يته. فلدى عودة المسلمين من تبوك، ألقى بعضهم بسيوفهم جانباً. لكن يُقال إن محمداً أخبرهم أن القتال لم يته وأن عليهم الاستعداد لجهد جديد. إذ إن التحدى من أجل تحقيق المشيئة الإلهية فى التاريخ الإنسانى لن يتهى أبداً. فهناك بالضرورة أخطار ومشاكل لا بد من التغلب عليها. وأحياناً يصبح لزاماً على المسلمين أن يقاتلوا. وفى أحيان أخرى يكون فى مقدورهم العيش فى سلام. لكنهم كانوا قد بدءوا فى تحقيق خطة لخلاص التاريخ والفرد معاً، خطة من أجل جعل ما يجب حدوثه حقيقة معاشة فى الدنيا. وحتى يومنا هذا، يضطلع المسلمون بهذه المهمة بجدية تامة.

أما استسلام الطائف، والذي أرغمت عليه، فقد برهن على أن هناك عرباً كثيرين كانوا مترددين فى اعتناق النظام الجديد. وكان ولاء الحلفاء البدو لمحمد ولاءً سطحياً. لكنه كان لديه جمع جوهرى من المسلمين المتفانين، والذين قد لا يكونون الموالى تماماً بكل ما كان يحاول فعله، لكنهم كانوا متفهمين جوهر الرسالة تماماً كما سيثبتون فيما بعد. وكان أبو بكر وعمر وعثمان بن عفان قد أصبحوا أعضاء فى أسرة نيههم بالتزواج، الأمر الذى دعم صلتهم الروحية به. وكانوا يعلمون أن الدين يأتى فى المقام الأول وأن

على العرب أن يصلحوا من أنفسهم بممارسة الإسلام ومراعاة أركانه والتي كانت تعلمهم كيف يضعون الله في مركز حياتهم.

وكان الصحابي الرابع المقرب إلى محمد هو ربيبه علي، والذي كان يصغر الآخرين كما كان أحياناً يُدعى تدمراً من هؤلاء الأكبر سناً. غير أنه بحلول عام ٦٢٣ م لم يكن قد تبقى من عائلة محمد القرية سواه. فقد توفيت أم كلثوم أثناء حملة تبوك وأصبحت فاطمة زوجة علي الابنة الوحيدة المتبقية من خديجة. وكان محمد شديد الولع بابن علي، الحسن والحسين. غير أن محمداً ولد له ابن جديد من مارية القبطية، وكان محمد مولعاً بحمل إبراهيم في أنحاء المدينة، ورفضت عائشة أن يؤثر ذلك فيها. فحينما سأله محمد إن كان يشبه أجبته أنها لا ترى شيئاً. ولما لفت النبي نظرها متحمساً إلى بداته وجمال بشرته ردت عليه بتحد ومرح قائلة: إن من يُطعم حليب الغنم لأبد وأن يصبح بديناً وجميلاً. وربما كانت هنا تعبر عن ضيقها لأن قلدراً خاصاً من الحليب كان يُسلم إلى مرضعة إبراهيم كل صباح^(١). ورغم تلك العناية فقد مرض الرضيع في بداية عام ٦٢٢ م وأصبح من الواضح أنه لن يُعافي. وكان محمد مع ابنه حينما توفي وحمله بين ذراعيه في اللحظة الأخيرة وهو يكي بمرارة. غير أن عزاءه كان أنهما سيلقيان بعد فترة ليست بالطويلة.

وفي العام العاشر للهجرة كان محمد يشعر باقتراب المنية بشكل متزايد. وكان دائماً يُحب أن يختلي في رمضان إن هو استطاع أن يمضيه في المدينة. وفي تلك السنة، طلب من صحابته أن يُطيلوا في الخلوة عن المعتاد، وأسرَّ إلى فاطمة بأنه يشعر بدنو أجله. وهكذا، أعلن محمد في ذى الحجة أنه سيقود حج هذا العام بنفسه. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يُؤدى فيها تلك الشعائر القديمة حول الكعبة والمزارات. كما أن محمداً كان مُصرّاً على ترسيخ الدين الجديد في المأثورات المقدسة للعرب (الديانات التوحيدية القديمة). وبدأ رحلته للحج في نهاية فبراير عام ٦٢٢ م مع كل زوجاته وحشد

كبير من الحجيج. ووصلوا خارج مكة يوم الخامس من ذي الحجة أو اليوم الثالث من شهر مارس. وبدأ ينطق بالتداء القديم «أبيك اللهم ليك». ومن ثم قاد تأدية الشعائر القديمة العزيزة على قلوب العرب، مضمياً عليها أهمية جديدة، بينما هو يؤكد الاستمرارية الجوهرية للخلافة مع الماضي.

إن على كل مسلم أن يؤدي فريضة الحج مرة واحدة على الأقل في حياته شريطة أن تسمح له ظروفه بذلك. وقد تبدو تلك الشعائر غريبة للشخص الغربي، كما تبدو أى شعائر دينية أو اجتماعية أجنبية. غير أن تلك الشعائر مازالت مصدر إلهام للمسلمين بتجربة دينية شديدة العمق. وهم غالباً ما يجدون الحج ذروة حياتهم الروحية كأفراد وكأعضاء فى الأمة. فإن الحج يغلف المظاهر الجماعية والفردية للروحانية الإسلامية تغليفاً كاملاً، فليس كل الآلاف الذين يتجمعون كل عام لتأدية الحج فى مكة من العرب، ورغم ذلك فقد جعلوا من تلك الشعائر العربية القديمة شعائر لهم. فإنهم فى طوافهم حول الكعبة وهم يرتدون لباس الحج التقليدى الذى يلغى جميع الفوارق العرقية والطبقية يشعرون أنهم قد تحرروا خارج نطاق الحدود الانسانية لحياتهم اليومية وأصبحوا ضمن جماعة ذات بؤرة واحدة. وتوجه واحد. وقد ألهم الطواف حول الكعبة مؤخراً على شريعتى الفيلسوف الإيراني المتوفى أن يقول:

«يشعر المرء حينما يطوف حول الكعبة ويقرب منها أنه كقناة صغيرة تندمج فى نهر كبير. وتحملك الموجة، فتفقد الصلة بالأرض. وفجأة تطفو ويحملك الفيضان. وحينما تقترب من المركز يعتصرك ضغط الحشود بقوة تُمنح خلالها حياة جديدة. فإنك الآن جزء من الحشد، إنك الآن إنسان حى خالد... إن الكعبة لهى شمس العالم يجذبك وجهها فى مدارها. وتصبح جزءاً من النظام الكونى. ويطوافك حول (عرش) الله تنسى ذاتك... فقد تحولت إلى جزىء يذوب تدريجياً ويختفى... ذلك هو أوج الحب المطلق» (٢).

وقد أكد اليهود والمسيحيون أيضاً على روحانية الجماعة. فإن المجاز المرسل للقديس بولس عن جسد المسيح يقول بأن وحدة الكنيسة ومشاركة أعضائها هو تجلٍ للحب في أسمى مظاهره. ويعني الحج لكل مسلم تجربة اندماج في سياق الأمة حيث يكون الله هو المركز.

ويعنى ما يمنح الحج المسلمين صورة المجتمع الأمثل في المواقف والتوجهات. والسلام والوثام «تيمات» مهمة في معظم الأديان. وفي الإسلام، فإنه بمجرد دخول الحجيج الحرم يحرم العنف بجميع أشكاله. فإنه من غير المسموح به للحجيج قتل أى كائن ولو كان حشرة أو التلطف بكلمة تدل على ضيق الصدر. ومن هنا كان الغضب العارم في جميع أنحاء العالم الإسلامى إزاء انتهاك حج عام ١٩٨٧ من قبل الحجاج الإيرانيين الذين أشعلوا ترمداً قُتل خلاله ٤٠٢ فرد وأصيب ٦٤٩.

ويتحدث القرآن دوماً عن العودة إلى الله التى سيأتيها جميع المخلوقات. والحج تعبير قوى عن رحلة العودة الإرادية إلى الله من حيث أتى البشر. وهتاف الحجيج الذى يُردونه منجتمين يُذكّرهم كأفراد وكأمة بأنهم قد كرسوا أنفسهم كلية لعبادة الله وأنهم بإمكانهم أن يعيشوا ذلك الالتزام أيام الحج بتكثيف أكثر من المعتاد، حيث يديرون ظهورهم لجميع اهتماماتهم. وهكذا، فحينما قاد محمد جَمَعُهُ من الحجيج المهاجرين والأنصار والبدو إلى الكعبة عام ٦٣٢م، لا بد وأنهم قد شعروا بأن تلك رحلة عودة بالمعنى الأكثر عمقا. وتُرى جميع رحلات الحج إلى الأماكن المقدسة على أنها نوع من الاقتراب من جذور كيان الإنسان، ومن بداية العالم. ولا بد أن المهاجرين قد شعروا بإحساس خاص بالعودة إلى الوطن. لكن بمحمداً كان يُذكّر العرب بأنهم يعودون إلى جذورهم لأن إبراهيم وإسماعيل، أجداد العرب، قيل إنهما اللذان بنيا الصرح. واليوم يشعر المسلمون أيضاً بتجربة العودة لجذور هويتهم الإسلامية. وبالطبع فإنهم يتذكرون محمداً، لكن الحج أيضاً يعنى تذكر

إبراهيم وإسماعيل أبوي كل المؤمنين. وهكذا، فحينما يهرولون سبع مرات بين الصفا والمروة فإنهم يتذكرون كيف كانت هاجر تهرول غادية راتحة باهتياج شديد وهي تبحث عن الماء لإسماعيل بعد أن تركهما إبراهيم في الصحراء. وبعد ذلك، يعود المسلمون أيضاً إلى أصولهم المشتركة حينما يقفون بجبل عرفات على بعد ١٦ ميلاً خارج مكة، ويتذكرون العهد الأول لله مع آدم، أول الأنبياء ومؤسس الجنس البشري. وفي منى يقومون برمي الجمرات على أعمدة ثلاثة تذكراً للصراع الدائم ضد الغواية التي يطلبها الجهاد في عبادة الله. وبعد ذلك يضحون بقنمة أو ماعز كذكرى لأضحية إبراهيم بالحيوان بعد أن قدم ابنه لله. ويقوم المسلمون الذين لم يؤدوا الحج في عام ما في جميع أنحاء العالم بأداء تلك الأضحية في المعاد المحدد، لكي تبرهن الأمة جمعاء على استعدادها للتضحية بأي شيء ولو كان هو أعز ما لديها، في عبادة الله.

ومسجد نمرة أقيم قرب عرفات في البقعة التي يُعتقد أن محمداً ألقى فيها خطبة الوداع عام ٦٣٢م ووصاهم فيها أن يُقسطوا في التعاملات بينهم، وأن يُعاملوا النساء برفق قدر المستطاع، وأن يبذلوا كل الضغائن الشارية الدموية لانتهاكات ارتكبت أثناء الفترة الوثنية لأن الأمة وحدة واحدة: «اسمعوا قولي واعقلوه. تعلمن أن المسلم أخو المسلم. وأن المسلمين إخوة. فلا يحل لامرئٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس فلا تظلمن أنفسكم اللهم هل بلغت.. اللهم فاشهد» (٣).

وبعد رحلة الوداع وعقب عودته للمدينة بنا محمد يعانى من نوبات من الصداع المعجز. وتذكرت عيائشة بعد ذلك ما كان يحدث فقالت: «رجع رسول الله من البقيع، فوجدنى وأنا أجد صداعاً فى رأسى، وأنا أقول: واراها. فقال: بل أنا والله يا عائشة واراها. ثم قال: وما ضرك لو مت قبلى فممت عليك وكفتك وصليت عليك ودفنتك؟ قالت: قلت والله لكأنى

بك لو قد فعلت ذلك، لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نساءك .
قالت: قيسم رسول الله، وقام به وجهه . . . (٤).

ثم ازداد الألم سوءاً. ويبدو أيضاً أنه كان يعانى من نوبات إغماء. لكنه لم يلزم الفراش بصفة دائمة. فكان غالباً ما يلف رأسه بقطعة من القماش ويذهب إلى المسجد ليؤم الصلاة أو ليخطب في الناس. لكنه ذات صباح أطل في الصلاة بصفة خاصة وصلى على المسلمين الذين ماتوا في أحد وأضاف: «إن عبداً من عباد الله خيّر الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده فاختر ما عند الله». ولكن الوحيد الذى يبدو أنه فهم إشارة محمد إلى وفاته، هو أبو بكر فيكى، فقال له: «على رسلك يا أبا بكر» (٥). لكن في النهاية لتهار محمد في بيت ميمونة وأحاطت به زوجته بحب، فاستأذنه في أن يمرض في بيت عائشة، فأذن له.

ورقد محمد هناك في سكون ورأسه في حجر عائشة. ولكن يبدو أن الناس ظنوها وعكة وقتية، وأن الأمة وجدت فكرة وفاته غير محتملة ومخيفة، حتى أنهم لم يفهموا الأدلة رغم تحقير أبى بكر عائشة من أن محمداً لن يمكث طويلاً في الدنيا. فقد كان ما انجزه في بلاد العزب فريداً غير مسبوق، ولذا بدت الحياة بدونه في ظل النظام الجديد غير معقولة. وتعلق الناس بأى قشة للأمل. فمثلاً، ترنح محمد يوماً وذهب إلى المسجد ليطمئن الناس أن أسامة، ولد زيد الصغير، كان ذا خبرة وقلرة كافيتين لقيادة حملة إلى الشمال. وحينما اشتد عليه المرض، طلب من أبى بكر أن يؤم الصلاة نيابة عنه، وقارمت عائشة نفسها ذلك القرار. وكان على محمد أن ينهر الناس كي يطيعوه فيما قرر. وفيما بعد قالت عائشة إن اعتراضها لم يكن لشعورها أن أباه لا يستحق ذلك الشرف، ولكن لتخوفها أن يكرهه الناس لقيامه بما كان يقوم به محمد. واستمر في إعطائهم أسباباً للأمل، لأنه أحياناً كان يؤم الصلاة رغم أن مرضه كان يمنعه من التلاوة، فكان يجلس صامتاً إلى جوار أبى بكر.

وفي الثاني عشر من ربيع الأول الموافق الخامس من يونيو عام ٦٣٢م لاحظ أبو بكر أن انتباه المصلين مشتت وأنهم كانوا يوجهون أنظارهم صوب مدخل المسجد. وعرف لثوّه أن محمداً لا بد وأنه أتى، لأنه ما كان هناك شيء آخر يُشْتتُ جموع المصلين بتلك الطريقة. وبدا محمداً وقد تحسن كثيراً. وفي الواقع فقد قال البعض إنهم لم يروه بمثل ذلك التوهج من قبل. وسرت في أنحاء المسجد موجة فرح وارتياح. وفور ذلك استعد أبو بكر لإفراح مكان له. لكن محمداً وضع يديه على كتفيه ودفعه بلطف إلى مكانه على رأس المصلين وجلس بجانبه حتى انتهت الصلاة. وبعد ذلك توجه إلى مسكن عائشة ورقد في سكون ورأسه في حجرها. وبدا تحنُّه مرموقاً لدرجة جعلت أبا بكر يستأذنه في الذهاب لزيارة زوجته الجديدة التي كان قد تزوجها مؤخراً وكانت مازالت تقطن في الجانب الآخر من المدينة. وأثناء العصر زاره العباس وعليّ، وأذاعا أخبار تحسن صحة النبي، وحينما زاره عبد الرحمن بعد ذلك لاحظ محمداً أنه كان يحمل مسواكاً وأظهر رغبته في استعماله. وقامت عائشة بتليينه له ولاحظت أنه استعمل المسواك بنشاط أكثر من العادي. لكن سرعان ما لاحظت عائشة أن ثقله على حجرها قد ازداد وبدا وكأنه يفقد الوعي. ولكنها كانت بعد لا تترى ما حدث. وكما قالت فيما بعد: «مات الرسول بين سحري ونحري، وفي دولتي، لم أظلم فيه أحداً، فمن سفيهي وحدائي سني أن رسول الله قبض وهو في حجري». وسمعته يتمتم قائلاً: «بل الرفيق الأعلى من الجنة»^(٦). ثم اكتشفت أنه قد أسلم الروح. ووضعت رأسه بعناية على وسادة، وأخذت تضرب صدرها، وتلطم وجهها طبقاً للتقاليد العربية القديمة.

وحينما سمع القوم ولولة النساء أسرعوا شاحبي الوجوه إلى المسجد. وسرت الأنبياء سريعاً في الواحة. وأسرع أبو بكر عائداً إلى المدينة. ودخل عليه ونظر إلى وجهه وقبّله وودعه، وبعد ذلك خرج حيث وجد عمر يخطب

فى الجموع. ورفض عمر تصديق وفاة النبى رفقاً مطلقاً، وقال إن روحه قد تركت جسده مؤقتاً وأنه لا محالة عائد إلى قومه، وإنه أيضاً سيكون آخر من يموت منهم. ولا بد أنه كانت هناك مسحة هستيرية فى كلام عمر القرى، وذلك لأن أبى بكر تمت قائلأ: «على رسلك يا عمر، أنصت». وكان كل ما بوسع أبى بكر فعله هو أن يخطو إلى الامام. ولا بد أن تعبير وجهه وتماسكه أثرا فى الناس، لأنهم تركوا الاستماع لتقريع عمر والتفوا حوله. وذكرهم أبو بكر أن محمداً قد كرس كل حياته داعياً إلى الوحدة الإلهية. كما أن القرآن قد حذرهم تكراراً من إسباغ أى منزلة إلهية على مخلوق. وكان محمد أيضاً يحذرهم دائماً من إسباغ التبجيل عليه كذلك الذى يسبغه المسيحيون على عيسى، لأنه إنسان مثلهم. كما أن رفضهم الاعتراف بموت محمد هو إنكار للحقيقة الجوهرية لمحمد. لكن طالما بقى المسلمون مخلصين للاعتقاد بأن الله وحده هو الجدير بالعبادة، وأن محمداً سيقى. ثم اختتم قائلأ: «أيها الناس إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات. ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»^(٧). ثم تلا هذه الآية: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين﴾^(٨).

وتركت تلك الآيات أعمق الأثر فى الناس حتى كأنهم لم يسمعوها من قبل. وأصاب عمر الارتباك التام حتى إنه قال: «فوالله ما هو إلا أن سمعت أبى بكر تلاها، فعقرت حتى وقعت إلى الأرض ما تحملنى رجلاى، وعرفت أن رسول الله قد مات»^(٩).

وكانت صدمة وفاة محمد أحد أخطر المآزق التى تعرضت لها الأمة الإسلامية على الإطلاق. فحتى تلك اللحظة، كان محمد يقود خطواتهم، فكيف كان لهم أن يستمروا بدونها؟ وقد انفصلت بعض قبائل البدو، والذين

كان التزامهم سياسياً محضاً، عن الأمة، ظناً منهم أن موت محمد يعفيهم من عهدهم. وأصبح هناك خطر فعلى من ارتداد العرب إلى فرقتهم القبلية القديمة. وحتى بعض المسلمين الأكثر التزاماً فقد تساءلوا عما إذا كانت وفاة محمد تعنى انتهاء رسالته^(١٠). وانقسم هؤلاء الذين أرادوا اختيار خليفة إلى معسكرات متنافسة، وربما كانت تلك المعسكرات تعكس انقسامات داخل المجموع، وكانت تقلق محمداً خلال سنواته الأخيرة.

وأزر معظم المهاجرين أبا بكر، والذي كان صاحب محمد الحميم منذ بداية دعوته، في أحقيته بالخلافة. كما أيد عمر أيضاً تلك الأحقية. لكن الأنصار كانوا يريدون لسعد بن عبيدة، وهو واحد منهم، أن يكون خليفة لمحمد أو ممثلاً له. أما أفراد أسرة محمد نفسها فكانوا يعتقدون أن الرسول أراد لعليّ أن يخلفه. وانتصر أبو بكر في النهاية، ويرجع ذلك في المقام الأول إلى أن قبضته على زمام المأزق قد تركت أثرها الحسن في نفوس الأمة جمعاء. وبعد مبايعته خطب أبو بكر في القوم واضعاً المبادئ الرئيسية التي يجب أن تنطبق على كل الحكام المسلمين، فقال: «أما بعد، أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فاعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندي، حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله»^(١١).

وتواعد عليّ عن أبي بكر في أول الأمر، غير أنه أنصاع له فيما بعد. وتوفي أبو بكر بعد عامين فقط وخلفه عمر وبعده عثمان. وفي النهاية، وفي عام ٦٥٦م أصبح عليّ الخليفة الرابع. وعرف هؤلاء بالراشدين لأنهم حكموا

وفقاً لمبادئ الرسول. وأكد على خاصة أن الحاكم المسلم لا يجب أن يكون مستبلاً. فإنه، وتحت ولاية الله، على قدم المساواة مع رعيته. ولا بد أن يُراعى تخفيف العبء على الفقراء والمحرومين لأن ذلك هو الطريق الوحيد الذي يضمن استمرار النظام. وقد قال ما معناه أنه إن اشتكت الرعية من الأعباء أو الفاقة أو من قطع مياه الرواء، أو انعدام الغيث، أو تغير التربة نتيجة لفيضان، أو فسادها من أثر الجفاف، فيجب تخفيف أعبائها بالدرجة التي يود بها إصلاح شئونه الخاصة. كما أنه لا يجب أن يقف أى شىء حائلاً بين الراعى وبين تخفيف عبء الرعية، لأن ذلك مخزون سيرتد إلى الرعاة بازدهار الأرض وتقوية الحكم... فلإن خراب الأرض يتجم عن يؤس ساكنيها، ويصيب اليؤس السكان فقط حينما يهتم الحكام بجمع الثروة، وحينما يملكهم هاجس بقاء حكمهم، وحينما لا يستفيدون من أمثلة ما حدث لغيرهم من محن^(١٢).

وطبقاً لذلك، فيجب على الحاكم ألا يفصل نفسه عن رعيته عن طريق التفرد أو العزلة الأهلية. فلإن عليه أن يُقاسمهم أعباءهم، وأن يكون فى متاولهم لستمع إلى مشاكلهم ويأخذ مشورتهم.

ولم يراع كل الحكام المسلمين تلك المعايير السامية. وفى الواقع، فإنه حينما يتوجه المسلمون إلى فترة خلافة الراشدين وينظرون إليها على أنها العصر الذهبى، فإن ذلك يوضح أن الخلفاء والسلاطين اللاحقين لم يتمسكوا بمبادئ المساواة والعدالة بنفس القوة والإحساس.

غير أن بعض المسلمين استطاعوا أحياناً إقامة إمبراطورية بعد أن برهنوا على أنهم يعيشون ويحكمون وفقاً لتلك المبادئ. فكما رأينا، فإنه إيان الحرب الصليبية خرج نور الدين وصلاح الدين عن طريقهما ليعطيا الفقراء ويصلحا الضرايب على أسس إسلامية، كما أنهما كانا فى متاول رعيتهما. كما رأينا المسلمين فى زماننا يُنحون حكاماً مثل شاه إيران ورئيس مصر أنور السادات لأن حكوماتهم انحرفت عن سبيل الإسلام^(١٣)، فقد استمرت المبادئ التي

ألهمت محمداً والراشدين قوة ذات سطوة فى المجتمع الإسلامى إلى اليوم، ويعرض الحاكم الذى يتجاهلها نفسه للخطر.

وللمسيحية ولع بالمناقشات اللاهوتية، وقد نجمت الانشقاقات الرئيسية فى العالم المسيحى عن تلك النزاعات العقائدية، ومثل الحال فى الديانة اليهودية، فلا يوجد فى الإسلام مفهوم عن الهرطقة العقائدية. فقد تسببت الخلافات السياسية فى معظم المجادلات البناءة، وأيضاً فى معظم الانتقادات العنصرية. وهكذا، انقسمت وحدة الأمة التى كانت مهمة بالنسبة لمحمد حينما حدثت فرقة بين عنصري الأمة الرئيسيين واللذين يعرفان بالسنة وشيعة على أو جماعة على الذين اعتقدوا أن لنسل على فقط الحق فى حكم الأمة وكمجموعة أقلية، فإنهم أوجدوا معتقداً احتجاجياً يمثله حفيد الرسول الحين الذى رفض أن يعترف بخلافة الأمويين وتم قتله بقسوة مع جماعة صغيرة من رفاقه على يد الخليفة يزيد. وأصبحت الخلافات المكثفة بين جماعات السنة والشيعة تدور حول من له الحق فى إمارة الأمة الإسلامية، وحول نوع المجتمع الذى يجب أن يكون. وكانت تلك الخلافات مهمة، وذات أثر تكوينى بناء، تناظر تلك المناظرات الكريستولوجية Christological^(٥) فى المسيحية. وإن دل هذا على شىء، فإنه يدل على ما لواقع الأمة السياسى من قيمة مقدسة فى الإسلام. ورغم أن كلاً من الشيعة والسنة قد طوروا أتماطاً من المعتقدات التعبدية الخاصة، فإنه لا توجد خلافات عقائدية بينهم. وقد رأينا أن القرآن قد نظر لتلك الخلافات العقائدية على أنها غير مجدبة ولا تؤدى إلى نتيجة تفقيحية. غير أن للسياسة أهميتها فى الإسلام، وليس ذلك لمجرد أن الحكام المسلمين وظفوا الدين للإعلاء من قوتهم السياسية فقط، بل لأن المشروع الإسلامى هو محاولة لخلاص التاريخ من الانحطاط والفوضى

(٥) علم المسيح، ويهتم بالتعليل اللاهوتى لشخص المسيح وعمله. (المحرر)

الحمية التي تنجم عن غياب قوانين العدالة والمساواة. وعلى هذا، فالجهد السياسى ليس عرضياً فى حياة المسلم الروحية الشخصية إذ إن للأمة أهمية مقدسة. وبالإمكان استيعاب تلك الأهمية أكثر، إن نحن أخذنا فى الاعتبار أنها تحتل نفس المكانة التي تحتلها الخيارات اللاهوتية العقائدية (الكاثوليكية والبروتستانتية والميثودية والبابنتية) فى الحياة الروحية لكل فرد مسيحي فى الغرب.

وبعد وفاة محمد كان النجاح المستمر للمشروع الإسلامى مبرراً للجهد السياسى، وغداً برهاناً على الاعتقاد فى أن إعادة تنظيم المجتمع وفقاً لمشيئة الله تؤدى إلى سيادته. فما لبثت الجيوش العربية أن أسست إمبراطورية امتدت من جبال الهملايا حتى جبال البرانس. وفى البداية كان ذلك بسوحى رغبة العرب فى بناء إمبراطورية أكثر من كونه إيحاءً من القرآن. وهكذا، فلم يحاول العرب إجبار شعوب تلك البلاد على اعتناق الإسلام. واستمر يُنظر للإسلام على أنه دينٌ للعرب كما كانت اليهودية ديانة لبنى إسرائيل، حتى إنه كانت هناك فترة شديدة القصر فى حوالى عام ٧٠٠م حينما مُنع أهل الديانات الأخرى من اعتناق الإسلام. لكن بعد حوالى مائة عام من وفاة الرسول بدأ الخلفاء فى تشجيع اعتناق الآخرين للإسلام، وبدءوا يدخلونه أفواجا، مما يبرهن على أن القرآن أجاب احتياجات القوم الدينية فى الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. كما برهن أيضاً على أن الإسلام أمكنه استيعاب حكمة الحضارات القديمة الأخرى، وسرعان ما أقام إرثه الحضارى المتميز. كما أن الإسلام لم يكن قوة تهديد أو تفريق، لكنه أثبت قدرته على توحيد المجتمع، وأرسى المشرعون الإسلاميون فقه الجهاد ليوكب الأحوال الجديدة. وهكذا أفتوا بأنه نظراً لعدم وجود إله سوى الله فلا بد وأن يتوحد العالم فى أمة واحدة، وأنه على المسلمين أن يناضلوا نضالاً مستمراً كى يتقبل العالم المبادئ الإلهية ويوجد مجتمع عدل وكفاية. وعلى ذلك، فإن الأمة،

أو بيت الإسلام، هي المنطقة المقدسة والتي فرضت عليها مشيئة الله، أما بقية العالم، فهو المنطقة الكافرة أو «دار الحرب» والتي يجب أن تخضع لحكم الله. غير أن ذلك الفقه لم يُتَّفَقَ في الواقع، وأصبح حرفاً ميتاً حينما وضح أن الإمبراطورية الإسلامية قد بلغت حدود توسعها بعد مائة عام من وفاة الرسول.

بعد ذلك طور المسلمون علاقات دبلوماسية مع جيرانهم في «دار الحرب». كما أنه لم يكن هناك أي ضغط على اليهود أو المسيحيين أو الزرادشتيين لاعتناق الإسلام. واستمر المسلمون متمسكين بالتعددية الدينية القديمة في الشرق الأوسط، وتعلموا أن يتعايشوا مع أفراد الديانات الأخرى، والتي، طبقاً للقرآن، هي تجليات إلهية مبكرة صحيحة كل الصحة. ويمكن النظر إلى صعود وهبوط مختلف الممالك والإمبراطوريات وانتشار الإسلام في الهند وإندونيسيا، وتطور النظرة والأسلوب في تأويل القرآن على أنها ظواهر تدل على استمرار للحوار الإسلامي مع التاريخ. وقد استمر المسلمون في الاستجابة الخلاقة للتحديث حتى عصر متأخر نسبياً. كما كان بمقدورهم مجابهة المصائب والكوارث المدمرة مثل تلك التي نجت عما أحدثه المغول في القرن الثالث عشر، وأمكنهم بعدها التهوض، واستعادة قوة دولتهم، والإتيان بإنجازات جديدة. واستمر القرآن يمنح الشعوب من الأعراق المختلفة، وعلى مر العصور، سبل التغلب على الكوارث، وتوفير الشجاعة على الاستمرار. وهكذا أنجز الصوفي العظيم جلال الدين الرومي «المثنوي»، أعظم الأعمال الكلاسيكية في الموروث الصوفي، بعد سنوات قلائل من دمار بغداد عاصمة الإمبراطورية الإسلامية على يد الحشود المغولية. ويبرهن الصوفيون على عمق أثر العنصر السياسي والاجتماعي في روحانيات المسلمين. فإن التكريس للأمة أحد المكونات المهمة في حياة التصوف. وكما بين لوى ماصينيون، المتخصص العظيم في التصوف، قائلًا: إن دعوة المتصوف، كقاعدة، تنشأ نتيجة لتمرد

داخلي للضمير ضد أنواع الظلم الاجتماعي، ولا يكون ذلك فقط تمرداً ضد أخطام الآخرين، لكنه بشكل رئيسي وخاص ضد أخطاء الفرد نفسه، ويرافق ذلك رغبة متعاطفة للتطهر الداخلي كوسيلة للتلاقى مع الله مهما كلف ذلك^(١٤). فالمهمة الصوفية هي مهمة زهد في المقام الأول. فالصوفيون يتودون حملة جهد روحاني يدعونه «الجهاد الأكبر» (بالمقابلة مع الجهاد الأصغر الذي يتطلب التصارع الجسماني). وعلى أية حال، فإنه وحتى يومنا هذا يتداخل روحانية شديدة في النشاط السياسي في العالم الإسلامي. وقد كان الصوفيون دائماً على رأس حركات إصلاحية كثيرة، كما كانوا في ثلة المعارضة لأي شيء يهدد الأمة، سواء كان ذلك عدواً خارجياً مثل المغول، أو حاكماً قسرياً في أن يحكم وفقاً للمبادئ الإسلامية. ولا ينسحب الصوفيون من الحياة كما يفعل الرهبان المسيحيون، بل إن النقيض هو مسرح حملتهم في بحثهم عن الله.

وتلك الروحانية مؤسسة على مثال الرسول نفسه الذي لم يعتزل الحياة، بل عمل دون توقف كي يعيد تنظيم مجتمعه. وبدلاً من أن ينتظر لحين حلول عالم طوباوي، أو لحين تحقق نبوءة مesianية، حاول محمد إقامة مجتمعه الطوباوي في المدينة. ومنذ البداية احتذى المسلمون مثال حياة محمد نفسه، فقد كانت هجرته مقدمة استهلاكية لأحداث سياسية قامت على نمطها بدءاً من زمن الخوارج الذين خرجوا عن إجماع الأمة في القرن السابع، ووصولاً إلى أفعال ومواقف جماعة التكفير والهجرة في مصر الساعات. فينسحب المسلمون الذين يريدون إصلاح الأمة عما يرون أنه مجتمع فاسد ويعلنون الحرب على النظام. فقد قال أبو بكر للمسلمين إن عليهم تنحيته إن هو فشل في أن يحكم كما يجب. وبأخذ المسلمون تلك النقطة مأخذ الجد، فإن خير الأمة جزء لا يتجزأ من حياتهم الروحية. وعليهم أن يشتبكوا في جهاد مستمر، ليس بروح الارتداد إلى الماضي أو الغضب المتعصب، لكن بروح التضحية

بالنفس والشجاعة وقوة التحمل. وكما وضح على شريعتى لشعب إيران إبان حكم الشاه، فإن موت الذات ليس التدريب والتهديب الوحيد المرتبط بالرهبانية؛ لكنه التكريس للتضال من أجل الدفاع عن خلق الله، حتى ولو كان ذلك يعنى المعاناة والموت. ويضيف قائلاً: إن رهبانية المناضلين ليست رهبانية الأديرة، لكن موقعها هو المجتمع. إنها التضحية بالنفس، والإخلاص، وإنكار الذات، واحتمال العبودية والحرمان والتعذيب والأحزان وتقبل المخاطر فى ساحات الاصطدام ومن أجل القوم، فتلك هى الأمور التى توصل إلى الله. لأن الرسول قد قال ما معناه إن لكل دين نوعاً من الرهبانية ورهبانية دينى- هى الجهاد^(١٥).

فلكل دين مجالات يؤكد عليها، لكن ذلك الاهتمام الاجتماعى مهم لروحانية الديانات الثلاث التوحيدية. فإن وجد المسيحيون ذلك المفهوم عن المهمة السياسية الجوهرية غريباً، فعليهم أن يروا أيضاً اهتماماتهم العقائدية ولعلمهم بالتوصيفات اللاهوتية المهمة عن الحقائق الإلهية لابد وأنها تبدو غريبة فى عيون المسلمين واليهود.

وكان ولع المسلمين بمحمد هو أحد الطرق الرئيسية التى أسس بها المسلمون ذلك التكافل، وهذا الحس الأخوى. فمازال المسلمون يؤكدون أن محمداً ما هو إلا رجل عادى مثلهم، لكنهم حددوا ذلك المعنى على مرّ السنين. فقد أصبحوا يرونه رجلاً مثل كل الرجال لكن مثل «جوهرة نفيسة بين الحجارة»^(١٦). فبينما تكون الحجارة العادية معتمة وثقيلة فإن الجوهرة شفافة يخرقها عنصر ضوئى يغير من طبيعتها. وبذلك أصبحت حياة محمد «آية» مثل الآيات الأخرى فى العالم الطبيعى التى يحث القرآن المسلمين على تأويلها. فإن رسالته النبوية «رمز» أو «تجلى»، لا يبين فقط النشاط الإلهى فى العالم، بل إنها أيضاً تعكس الاستلام التام لله. ويمكن النظر إلى تطور مبدأ «قداسة» محمد على أنه محاولة تخيلية لتأمل مغزى حياته، وتطبيقها على

ظروف الحياة اليومية للأفراد. وبالمثل، فقد طور الميحيون صورة للمسيح الإنسان الذي هو أيضاً «كلمة الله»، و«صورة» لمشيئة الله للخليفة. وخلافاً لتكريس المسحوقين لعيسى، فإن حب المسلمين لمحمد لا يتصب على الشخصية الذاتية التاريخية لكن على الرمز أو السر المقدس، الذي تشبه رمزيته رمزية الأعمال القوية العظيمة، فهو بهذا يضيء الحياة ويضيف إليها معنى جديداً بتوجيهه إيانا نحو بعد جديد للحقيقة خارج نطاق ذاته (أي شخصيته الحقيقية كما وجدت في الواقع).

وهكذا يعتبر محمد على المستوى الرمزي الإنساني الكامل، أو النموذج الإنساني، وصورة التلقى receptivity الكامل لله. ومن هنا تأتي الأهمية التخيلية للاعتقاد في أمية محمد، لأنها تبيّن انفتاحه الكامل على الكلمة الإلهية، وكذلك، ينظر لمرحلة الإسراء على أنها المثال الكامل للقضاء في الله الذي يتحدث عنه المتصوفون. ومثل المسيحيين الذين طوروا ممارسة محاكاة المسيح، يعي المسلمون أيضاً إلى محاكاة الرسول في حياتهم اليومية من أجل أن يقتربوا بقدر الإمكان من هذا الكمال، وهذا يقربهم قدر الاستطاعة، من الله. وكما يتوقع، فقد كانت تلك المحاكاة دائماً على مستوى عملي ملموس، أكثر من محاكاة المسيحيين لعيسى. وهكذا بدأ العلماء للمسلمون في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين بحث وجمع أحاديث محمد (السنن القولية والفعلية) وقاموا بالتقلد في أنحاء الإمبراطورية الإسلامية ليكشفوا أكبر قدر مستطاع من الروايات الصادقة عن أشياء قالها أو فعلها في مناسبات معينة، وتكون الأحاديث مع القرآن أصول الشريعة الإسلامية. كما أصبحت أيضاً أساساً للحياة اليومية والروحية لكل مسلم. فقد علمت لثة المسلمين محاكاة أسلوب محمد في الكلام والأكل والحب والاعتقال والعبادة لدرجة يُعبدون معها إنتاج حياة النبي على الأرض في أدق تفاصيل حياتهم اليومية بأسلوب واقعي، أي أنهم، وعلى مستوى رمزي، يحيونه مرة أخرى.

وليس لدى المسيحيين ما يعادل التوراة والشريعة، وهم يميلون للاعتقاد أن تلك الشعائر الدينية لا بد وأنها عبء معوق. بالإضافة إلى كونها نوعاً من الروحانية هاجمها العهد الجديد حيث ندد بولس بالتوراة كجزء من هجومه على «المسيحيين اليهود» الذين رأوا في ديانة عيسى مذهباً متشداً من مذاهب اليهودية. غير أن اليهود والمسلمين لا ينظرون إلى التشريع الديني على أنه عبء. فالمسلمون ينظرون إلى السنة نظرة المسيحيين للقربان Sacrament أو الطقوس الروحانية، حيث تساعدهم في جهودهم لتطوير الوعي الإلهي الذي نصر عليه القرآن في تشعبات حياتهم اليومية. كما أنهم، وبمحاكاتهم للنموذج النبوي قدر جهودهم، فهم لا يستطونونه فقط على مستوى شديد العمق في وجدانهم، بل إنهم أيضاً يحاولون تنمية توجه كتوجه محمد الباطني من أجل التقرب إلى الله الذي يحتل أعماق أعماقهم. وهناك من الأحاديث ما هو قدسى وقد طرحه الله على لسان نبيه وهي تؤكد أن الله ليس كياناً ميثافيزيقياً (منعزلاً كلية)، لكنه، بمعنى ماء، حضور يتماهى مع جوهر كينونتهم. وهناك حديث قدسى شهير يوضح المراحل التي يمكن للمرء أن يعي بها ذلك الحضور الباطني. وتبدأ تلك المراحل باتباع أوامر الله، وتتقدم بعد ذلك نحو أفعال عبادية اختيارية:

«ما زال عبدي يتقرب إلى بالتوافل حتى أحبه. فإذا أحبته صرت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها وقدمه التي يمشي بها» (١٧).

أما الأفعال الخارجية، فمثلها مثل العنصر الفيزيائي في القربان المسيحي، أي أنها هي الآيات المحسوسة لتلك النعمة الإلهية، ولا بد من تأديتها ومراعاتها بكل تجيل. ومعنى ذلك الاهتمام، هو أن كل المسلمين في أنحاء العالم يتشاركون في أسلوب معين للحياة. ومهما كان بينهم من خلافات، فهناك هوية إسلامية واضحة تجمع بينهم فوراً. فهناك أسلوبهم المشترك في الاغتسال والصلاة، وسلوكهم على المائدة وعاداتهم الصحية المشتركة والتي

تتبع نموذجاً واحداً متميزاً. فيقوم المسلمون من الصين وإندونيسيا ومناطق الشرق الأوسط المتعددة مثلاً بالسجود في أثناء الصلاة بنفس الطريقة، ويستغرقون أيضاً نفس المدة الزمنية تقريباً.

والمسلمون الذين يُجَلِّون محمداً بأسلوب رمزي، لا يُهمهم بوجه خاص البحث وراء الشخص التاريخي لمحمد، وهم في ذلك مثل المسيحيين الذين التزموا بالمسيح بشكل متخيلٍ مماثل، والذين لا تقلقهم البحوث الحالية في حياة المسيح الأرضية. غير أن حادثة سلمان رشدي قد برهنت على أن ما اعتبره المسلمون هجوماً على الرسول قد انتهك حرمة منطقة مقدسة في نفوس المسلمين في جميع أنحاء الأرض. فقد كان أيّ تقليل من قدر النبي أو من شأن دينه يُنظر إليه على أنه إثم كبير. أما الآن، وبوجه خاص، فإن ذلك له من القوة ما يجرح مشاعر المسلمين، وذلك لما جرى من امتهان للأمة الإسلامية على يد العالم الغربي. فقد بدأت الإمبراطورية الإسلامية في الذواء أثناء القرن الثامن عشر. وفي هذه المرة، وبصفة خاصة، وجدت من الصعب النهوض ثانية. وتزامن ذواؤها وسقوطها مع صعود الغرب ومعه مجتمع لم يوجد له مثيل في العالم من قبل. ولذلك أصبح من الصعب مقارنته. ولم يكن هذا مجرد امتهان سياسي فقط، بل إنه لمس جوهر الهوية الإسلامية ذاتها. فإن كان الإسلام لم ينجح وللمرة الأولى في تاريخه، إذن، فما مدى صحة ما يقول به؟ فقد برهنت التوصيات الاجتماعية الإسلامية حتى ذلك الحين على صحتها المطلقة. لكن حدث أن انهار المجتمع الإسلامي رغم أن الأمة كانت تبذل جهودها لتنفيذ الخطة الإلهية. إذن فقد حدث خطأ جدي في التاريخ الإسلامي.

ومرة أخرى، يجب التأكيد على أن نجاح الأمة له أهمية شبه مقدسة (لها مثلها في القربان المسيحي) في الحياة الشخصية الدينية لكل مسلم. لذا أوجد ذلك القسوط مازقاً دينياً في العالم الإسلامي، له شبيهه من حيث جديته بذلك المازق الذي خبرته أوروبا لدى اكتشافات ليل وداروين والتي بدا أنها

قوضت أسس العقيدة المسيحية. فإن اليأس الذي يتجسد في قصيدة ماثيو آرتولد «شاطئ الدوفر Dover Beach» والاسى الذى يتجلى في مرثية تينسون لصديقه "In Memoriam"، يساعدنا على تبصر الرعب والاسى المعتمل فى صدور بعض المسلمين اليوم. فكيف لهم أن يفسروا حالة العقم الظاهرى للإسلام اليوم فى مواجهة الغرب وعلمانيته المتصصرة. فجوهر التعاليم المجتمعية فى القرآن هو الاعتقاد بأن المجتمع المؤسس على المبادئ الصحيحة لا يتهار، وذلك لأنه يتفق مع ما يجب أن تكون عليه الأمور. وقد أثبت نجاح الأمة فى ظل قيادة محمد وخلفائه فاعلية مثل ذلك المجتمع. وكان لذلك النجاح أهمية أيقونية. كما أن مشكلة الإسلام - وخلافاً للديانة المسيحية التى تزدهر دائماً فى أوقات الشدة - هى العكس.

وفى بداية هذا الكتاب، وحينما طرحنا نظرة الغرب لمحمد، فإننا أيضاً عرضنا لغضب ويأس «شهداء قرطبة» فى القرن التاسع. وفى العالم الإسلامى اليوم يتجه الكثيرون إلى شكل إسلامى راديكالى جديد يغذيه أحياناً رعب مماثل لذلك الذى ساد قرطبة. فمثل «شهداء قرطبة» يحاول مسلمون كثيرون اكتشاف هوية جديدة لهم بالعودة إلى جذورهم الخاصة. وأصبح ذلك الأمر تيمة فى الحركات المسماة بالأصولية الإسلامية فى السنوات الأخيرة. فإن المسلمين لم يشعروا فقط بالامتهان والازدراء من قبل القوى الغربية الخارجية، لكنهم شعروا أيضاً بالاغتراب والضياع فى الداخل لطغيان الحضارة الغربية على موروثاتهم، فلقد بزغت العلمانية التى تميهاها بعناية فى الغرب من تقاليدنا الخاصة، لكنها فى البلاد الإسلامية تبدو غريبة وأجنبية، وذات أثر سلبي أكثر من كونه إيجابياً. وهناك جيل من الناس شبّ فى العالم الإسلامى لا يشعر بالانتماء سواء كان فى الشرق أو فى الغرب. ووجد هؤلاء الإجابة فى الرجوع إلى جذورهم الإسلامية. وكما سعى محمد إلى غرس دينه فى التقاليد الدينية العربية المقدسة حينما عرف الحج تعريفاً جديداً، فإن المسلمين الراديكاليين يسعون إلى إيجاد جذور لهم أكثر أمناً فى ماضيهم الإسلامى.

أما التيمة الأخرى للأصولية الإسلامية فهي محاولة تصحيح مسار التاريخ الإسلامي. فلم تكن الثورة الإيرانية مجرد فعل ارتدادى إلى الماضي، لكنها كانت محاولة لفرض قيم رفيعة على إيران مرة أخرى. وقد عمل مثال الدولة الإسلامية في باكستان وإيران على إيقاظ آمال عميقة بدت غريبة للغربيين، الذين نما بينهم المثال العلماني للحكومة. غير أنه في حالة إيران وباكستان، يمثل هذا مطلباً دينياً وحضارياً عميقاً، وفرصة لإحياء فاعلية الإسلام مرة أخرى. ويبرهن تاريخ المحاولتين على أن محاولة تجسيد كلمة الله على الأرض في القرن العشرين مليئة بالمشاكل ومفعمة بمحوقات من الصعب تخطيها. فبينما استطاع المسلمون في الماضي النهوض مرة أخرى بعد الكوارث والمآزق المختلفة مثل وفاة النبي والدمار الذي أحدثه المغول، فإن النهوض هذه المرة قد برهن على أنه أشد صعوبة بكثير، ومن هنا دخل عنصر اليأس القاصب إلى الدين.

إن ظاهرة الأصولية الإسلامية مركبة ومعقدة، فقد انبثقت من الألم الكبير. كما أنها تُغلف حاجة يائسة لدى كثير من المسلمين لاخذ زمام مقاديرهم في أيديهم مرة أخرى بالطريقة الإسلامية التي كرس لها التاريخ. وبرغم أن بعض أشكال الأصولية الإسلامية تبدو غير صحيحة وتشع عدم اطمئنان، واستياءً كذلك الذي غذى فريق «الشهداء في قرطبة»، الذين أشعل حماسهم مثل تلك الاحتجاجات والمخاوف، فلقد رأينا أنه أثناء أزمة السويس كتب الباحث المتخصص في الفكر الإسلامي ويلفرد كاتنويل سميث أن الإسلام الصحي الفعال هو أمر مطلوب في المآزق الحالي لأنه يساعد الشعوب الإسلامية على تنمية قيم رفيعة ومثل يشاركهم فيها الغرب لأنها قد انبثقت من إرث مشترك. غير أنه، ومنذ أزمة السويس فقد عمل الغرب على اغتراب شعوب الشرق الأوسط بقدر أكبر، الأمر الذي أساء إلى الليبرالية العلمانية التي يعمل على نشرها. فنحن في الغرب لم نستطع أبداً التعامل مع الإسلام. فأفكارنا عنه كانت، ومازالت، فجوة ورافضة. كما أننا الآن نبدو

كأنتا تناقض التزامنا المعلن بالتسامح والتراحم بازدرائنا الالم والأسى اللذين
 ظهرها حديثاً فى العالم الإسلامى. إن الإسلام لن يختفى ولن يخبو. وكان
 من الأفضل أن يظل معافى قوياً. ونحن نأمل فقط ألا يكون الوقت قد فات.
 وفى نهاية القرن العشرين، فإن لدى الشعوب فى العالم الإسلامى العديد
 من المشاكل. وكما ذكر ويلفرد كانتويل سميث فى عام ١٩٥٦، فلدى الغرب
 أيضاً مشكلة إذ إن «الضعف الأساسى» للحضارة الغربية، وللـمسيحية فى
 العالم الحديث هو عدم القدرة على الاعتراف بأنهم يقتسمون الكوكب، ليس
 مع من هم أدنى منهم، بل مع أنداد لهم. وأنه ما لم تستطع الحضارة الغربية
 أن تتعلم فكراً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً، وأن تتمرس الكنية فقهاً فى
 التعامل مع البشر على أساس من الاحترام الجوهري، فإن (تلك المؤسسات)
 ستفشلان فى التوافق مع وقائع القرن العشرين^(١٨). وإن المشكلات التى تثار
 فى هذا الصدد هى بالطبع عويصة بنفس درجة الأمور التى تم معالجتها من
 قبلنا بالنسبة للإسلام.

والواقع أن الإسلام والغرب يشتركان فى نفس المآثرات. وقد عرف
 المسلمون ذلك منذ زمن محمد، غير أن الغرب غير قادر على تقبل تلك
 الحقيقة. واليوم، بدأ بعض المسلمين فى إدارة ظهورهم لحضارة أهل الكتاب
 التى امتهنت كرامتهم واحترمتهم. وأخذوا أيضاً فى أسلمة تلك الكراهية
 الجديدة. وأصبح شخص النبى مركزياً فى أحدث التصادمات بين الإسلام
 والغرب إبان مشكلة سلمان رشدى. وإن كان المسلمون اليوم فى حاجة لفهم
 الموروثات والمؤسسات الغربية بدقة أكثر، فإننا فى الغرب بحاجة أن نخلص
 أنفسنا من بعض أحمقانا القديمة. ولعل شخص محمد يكون مناسباً للبدء،
 فقد كان رجلاً متدقق المشاعر ذا شخصية مركبة، وقد أتى ببعض الأفعال التى
 نجد صعوبة فى تقبلها، لكنه كان ذا عبقرية تستعصى على الإدراك. وقد
 أسس ديناً وموروثاً حضارياً لم يكن السيف دعامة - برغم الأسطورة الغربية -
 وديناً اسمه الإسلام، ذلك اللفظ ذو الدلالة على السلام والوفاق.

obeikandi.com

هوامش الكتاب

All quotations from the Qu'ran are taken from the translation of Arthur J. Arberry, *The Koran Interpreted* (Oxford, 1964), unless otherwise stated.

Quotations from the Jewish and Christian Scriptures are taken from the Jerusalem Bible.

الفصل الأول

محمد العدو

1. John of Joinville, *The Life of St Louis*, trans. René Hague and ed. Natalis de Wailly (London, 1955), p. 36.
2. Paul Alvaro, *Indiculus Luminosus*, quoted in R.W. Southern, *Western Views of Islam in the Middle Ages* (London, 1962), p. 21.
3. Perfectus was probably a Latin version of the Arab name al-Kamil (the Complete One); other martyrs were called Servus Dei, which must be a translation of Abdallah (the Slave of God).
4. Paul Alvaro, *Vita Eulogii*, quoted in Norman Daniel, *The Arabs and Medieval Europe* (London and Beirut, 1975), p. 29.
5. II Thessalonians 1: 4-8. The author was not St Paul; the letter was written years after Paul's death.
6. Revelation 19:19.
7. *Gesta Francorum or The Deeds of the Franks and Other Pilgrims to Jerusalem*, trans. Rosalind Hill (London, 1962), p. 22.
8. Southern, *Western Views of Islam*, p. 29.
9. Quoted in Daniel, *The Arabs and Medieval Europe*, p. 156.
10. *The Comedy of Dante Alighieri*, Cantica I: Hell, trans. Dorothy L. Sayers (London, 1949), Canto XXVIII: 22-7, p. 246.
11. *Gesta Regum*, quoted in Southern, *Western Views of Islam*, p. 35.
12. *Chronicon*, in *ibid.*, p. 36.
13. Quoted in Benjamin Kedar, *Crusade and Mission: European Approaches to the Muslims* (Princeton, 1984), p. 99.
14. *Ibid.*, p. 101.

15. Quoted in Régine Pernoud, *The Crusaders*, trans. Enid Grant (Edinburgh and London, 1963), p. 221.
16. Ibid.
17. Kedar, *Crusade and Mission*, pp. 125-6.
18. Quoted in Pernoud, *The Crusaders*, pp. 222-3.
19. Umberto Eco, 'Dreaming of the Middle Ages', in *travels in Hyper-Reality*, trans. William Weaver (London, 1987), p. 64.
20. Quoted in Southern, *Western Views of Islam*, pp. 79-80.
21. Daniel, *The Arabs and Medieval Europe*, p. 302.
22. Norman Daniel, *Islam and the West: The Making of an Image* (Edinburgh, 1960), pp. 284-5.
23. Quoted in Edward W. Said, *Orientalism: Western Conceptions of the Orient* (New York and London, 1985 edn), p. 66.
24. Humphry Prideaux, *The True Nature of Imposture, Fully Displayed in the Life of Mahomet* (7th edn, London, 1708), p. 80.
25. Daniel, *Islam and the West*, p. 297.
26. Ibid., p. 300.
27. Ibid., p. 290.
28. *The Decline and Fall of the Roman Empire*, ed. Dero E. Saunders, abridged in one volume (London, 1980), pp. 657-8.
29. *On Heroes and Hero-Worship* (London, 1841), p. 63.
30. Quoted in Said, *Orientalism*, p. 172.
31. Ibid.
32. Ibid., p. 171.
33. *Histoire générale*, quoted in *ibid.*, p. 149.
34. M. Baudricourt, *La Guerre et le gouvernement de l'Algérie* (Paris, 1853), p. 160.
35. Quoted in Said, *Orientalism*, p. 38.
36. *Holy War: The Crusades and Their Impact on Today's World* (London, 1988).
37. Rana Kabbani, *Letter to Christendom* (London, 1989), p. 54.
38. Fay Weldon, *Sacred Cows* (London, 1989), pp. 6, 12.
39. Conor Cruise O'Brien, *The Times*, 11 May 1989.
40. *Islam in Modern History* (Princeton and London, 1957), pp. 304-5.

الفصل الثاني

محمد رجل الله

1. After the revelations, Muhammad is said to have thickened the 'l sound of 'al-Llah' so that it became *al-Llah* to distinguish the Islamic from the pagan concept of God. This usage is more correct than the familiar 'Allah'.

الفصل الثالث

الجاهلية

1. Zoroastrianism was preached by the prophet Zarathustra in Iran in the seventh and sixth centuries BCE at about the same time as Jeremiah and Isaiah were preaching in Jerusalem. It is a dualistic faith which sees an eternal struggle between two supreme powers, a Good and an Evil principle.
2. A. J. Toynbee, *A Study of History* (London, 1951), vol. III, pp. 7-22.
3. W. Montgomery Watt, *Muhammad's Mecca: History in the Qu'ran* (Edinburgh, 1988).
4. It seems, however, that some of the pagans of Yathrib had effigies of Manat in their homes.
5. See the genealogical table of the Quraysh on p. 18.
6. Muhammad is traditionally believed to have been born in the Year of the Elephant, but Western scholars put the Abyssinian invasion about ten years earlier, in 560.
7. Quoted by Muhammad ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah* 38, in A. Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad* (London, 1955), p. 21.
8. Sura 29:61-3.
9. Sura 10:22-4; see also 29:65, 31:31, 17:69.
10. *Sira* 143, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 99.
11. *Ibid.*, 145, p. 100

الفصل الرابع

الوحي

1. Sura 93: 6-8.
2. Today many Muslims believe that Muhammad was the archetypal Perfect Man and that he was therefore incapable of 'error'. I discuss this in more detail in Chapter 9.
3. Muhammad ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah* 150, in A. Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad* (London, 1955), p. 104.
4. Sura 61:6. See also Tor Andrae, *Muhammad: The Man and His Faith*, trans. Théophil Menzel (London, 1936), pp. 44-5.
5. Ibn Ishaq, *Sira* 136, in Guillaume (trans. and ed.) *The life of Muhammad*, p. 94.
6. *Ibid.*, 134, p. 93. Ad and Iram were ancient Arab peoples, whose destruction was mentioned in the Qu'ran.
7. *Kitab at-Tabaqat al-Kabir*, quoted in Andrae, *Mohammad*, pp. 43-4.
8. The translation of Hilf al-Fudul as the League of the Virtuous or Chivalrous has been disputed.
9. Ibn Ishaq, *Sira* 104-5, in Guillaume (trans. and ed.), *The life of Muhammad*, p. 71.
10. Abu Bakr Ahmad al-Baihaqi (d. 1066), *Dala'il an nubuwwa*, 1.12, quoted in Annemarie Schimmel, *And Muhammad Is His Messenger: The Veneration of the Prophet in Islamic Piety* (Chapel Hill and London, 1985), p. 68.
11. Ibn Ishaq, *Sira* 116-17, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 81.
12. Thus Andrae, *Mohammed*, pp. 50-1.
13. Ibn Ishaq, *Sira* 121, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 83.
14. *Ibid.*, 120, p. 82.
15. *Ibid.*, 155, p. 111.
16. Some of the Arabs in this story are almost always referred to by their *kunyas* in the sources, eg. Abu Talib, Abu Sufyan and Umm Salamah.
17. Ibn Ishaq, *Sira* 124-5, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, pp.85-6.
18. Sura 28:86.
19. Muhammad ibn Isma'il al-Bukhari, quoted in Martin Lings, *Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources* (London, 1983), pp. 43-4.
20. Sura 96:1.
21. Ibn Ishaq, *Sira* 153, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of*

- Muhammad*, p. 106.
22. Isaiah 6:1-9.
 23. Jeremiah 20:7-9.
 24. Andrae, *Mohammad*, p. 59.
 25. Ibn Ishaq, *Sira* 153, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 106.
 26. *Ibid.*, 154, p. 107. *Namus* was the Greek *nomos*. Law, that is the Law of Moses or the Torah revealed to the people of Israel. This word used by Waraqa was new to the Arabs. Muslims identified it with Gabriel. Waraqa meant that this was one of the great revelations that God periodically made to men.
 27. Sura 35:22.
 28. See, for example, Sura 6:160ff.
 29. Sura 3:76.
 30. Sura 61:6.
 31. Sura 81:19-24.
 32. Ibn Ishaq, *Sira* 151, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 105.
 33. Jalal al-Din Suyuti, *al-itqan fi'ulum al-aq'ran*, quoted in Maxime Rodinson, *Mohammed*, trans. Anne Carter (London, 1971), p. 74.
 34. Bukhari, Hadith 1.3, quoted in Lings, *Muhammad*, pp. 44-5.
 35. Sura 75: 17-19.
 36. Arberry translates the last two words of the sura 'declare it' but the Arabic really means something like: 'give glory to God'.

الفصل الخامس

النذير

1. Sura 42:7.
2. Sura 88:21-2.
3. Sura 74:1-5, 8-10. Some authorities think that this, not Sura 96, was the first part of the Qu'ran to be revealed.
4. Sura 80:24-32.
5. Sura 51:19, 70:24. In the early days *zakat* was established as a principle, but did not become a regular tax until after Muhammad's death.
6. W. Montgomery Watt, *Muhammad at Mecca* (Oxford, 1953). Excursus D 'Tazakka', pp. 165-9.
7. Sura 92: 18, 9:103, 63:9, 102:1.
8. Sura 4:2,5,10, 6:152, 17:34, 51:19, 70:24.
9. Sura 96:6-8.
10. Sura 104:1-3.

11. Sura 70:11-14.
12. Sura 105.
13. Sura 80:11.
14. Sura 106.
15. Sura 55:1-12.
16. Sura 36:33-40.
17. Sura 36:41-4.
18. Isaiah 55:8-9.
19. Sura 2:158-9.
20. Sura 6:96-9.
21. Sura 10:69, 21:26-30.
22. Sura 8:2-4.
23. Sura 2:89, 27:14.
24. Muhammad ibn Sa'd, *Kitab at-Tabaqat al-Kabir*, 8:102, quoted in Martin Lings, *Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources* (London, 1983), p. 51.
25. Muhammad ibn Ishaq, *Sira Rasul Allah* 162, in A Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, (London, 1955), p. 116.
26. *Ibid.*, 161, p. 115.
27. Ibn Sa'd, *Tabaqat*, 3:1, 37, quoted in Lings, *Muhammad*, p. 47.
28. Quoted in Watt, *Muhammad at Mecca*, p. 87.
29. Ibn Ishaq, *Sira* 166, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 117.
30. Sura 26:214.
31. Sura 17:28-31.
32. Abu Ja'fah at-Tabari, *Tariq ar-Rusul wa'l-muluk* 1171, in Guillaume (trans. and ed.) *The Life of Muhammad*, pp. 117-18.
33. Sura 83: 13.
34. Sura 37:15.
35. Sura 37:12-19.
36. Sura 45:23.
37. Sura 83:9-14.
38. Sura 36:77-83.

الفصل السادس

افتراق الطرق

1. Muhammad ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah* 166-7, in A. Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad* (London, 1955), p. 118.
2. See Sura 38:4-8.
3. See for example, Sura 46:8.
4. Sura 17:75-7.
5. Quoted in W. Montgomery Watt, *Muhammad at Mecca* (Oxford,

- 1953), p. 100.
6. *Tafsir*, xvii, 119-21; quoted in Watt, *Muhammad at Mecca*, p. 102.
 7. *Tariq ar-Rusul wa'al Muluk* 1192, quoted in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 165.
 8. Sura 53:19-20.
 9. Sura 53:26, though even here the angels' intercession is minimised.
 10. Tabari, *Tariq*, 1192, quoted in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 166.
 11. See Sura 7:9-15.
 12. William O. Beeman, 'Images of the Great Satan: Rrepresentations of the United States in the Iranian Revolution', in Nikki R. Keddie (ed.), *Religion and Politics in Iran: Shi'ism from Quietism to Revolution* (New Haven, 1983), pp. 191-217.
 13. *Tariq* 1192, quoted in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 166.
 14. Sura 53:19-26.
 15. Sura 22:51.
 16. Sura 2:100; cf. 13:37, 16:101, 17:41, 17:86.
 17. See Sura 69:44-7.
 18. Sura 29:17, 10:18, 39:43.
 19. Sura 25:17ff., 16:86, 10:28.
 20. Sura 36:74.
 21. Ibn Ishaq, *Sira* 167-8, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 119.
 22. *Ibid.*
 23. *Ibid.*, 206-7, p. 145.
 24. Sura 19:16-22.
 25. Quoted in Ibn Ishaq, *Sira* 183-4, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, pp. 130-1.
 26. *Ibid.*, 185, p. 131.
 27. *Ibid.*, p. 132.
 28. Sura 41:1-6.
 29. Ibn Ishaq, *Sira* 186-7, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, pp. 132-3.
 30. Sura 52:34, 2:23, 10:38.
 31. George Steiner, *Real Presences: Is There Anything in What We Say?* (London, 1989), pp. 142-3.
 32. Seyyed Hossein Nasr, *Ideals and Realities of Islam* (London, 1966), pp. 47-8.
 33. Ibn Ishaq, *Sira* 227, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 157.
 34. *Ibid.*, 228, p. 158.
 35. *Ibid.*, 230, p. 159.
 36. Sura 23:22-4.
 37. Sura 11:103.
 38. Sura 11:102-3.

الفصل السابع

الهجرة: قبلة جديدة

1. Quoted in Muhammad ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah* 278, in A. Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad* (London, 1955), p. 191.
2. *Ibid.*, 244, pp. 169-70.
3. Muhammad ibn Isma'il al-Bukhari, *Ahadith*, 63:26, quoted in Martin Lings, *Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources* (London, 1983), p. 94.
4. Ibn Ishaq, *Sira* 280, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 193.
5. Sura 46:28-32.
6. Sura 13:12.
7. Neither refused Muhammad protection specifically because of his religion. Akhnas refused because even though he was regarded as the chief of the clan he was actually one of its confederates and was not empowered, therefore, to grant protection to outsiders. Suhayl replied that he could not give Muhammad protection because he came from the wrong branch of Quraysh.
8. Sura 17:1.
9. Ibn Ishaq, *Sira* 271, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 186.
10. Sura 53:13-18.
11. See Annemarie Schimmel, *And Muhammad Is His Messenger: The Veneration of the Prophet in Islamic Piety* (Chapel Hill and London, 1985), pp. 161-75.
12. *Ilahinama* quoted in *ibid.*, pp. 167-8.
13. In *The Making of Late Antiquity* (Cambridge, Mass., and London, 1978), Peter Brown shows that trance and ecstasy were normative in early Christianity. The dream had particular importance in the religious life of the age-pagan as well as Christian. "It was a paradigm of the open frontier between human and divine: when a man was asleep and his bodily senses were stilled, the frontier lay wide open between himself and the gods" (p. 65).
14. *Acts of Perpetua and Felicitas*, IV, quoted in Peter Dronke, *Women Writers of the Middle Ages: A Critical Study of Texts from Perpetua (d. 203) to Marguerite Porete (d. 1310)* (Cambridge, 1984), p. 2.
15. *The Power of Myth* (with Bill Moyers) (New York, 1988), p. 85.
16. *Ibid.*, p. 87.
17. Ibn Ishaq, *Sira* 134, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 93.
18. *Ibid.*, 287, p. 198.

19. Ibid., 246, p. 171.
20. Ibid.
21. Quoted in Ibn Ishaq, *Sira* 289, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 199. The command that forbade Muslims to 'slay their children' prohibited the custom of female infanticide, which had been common in pre-Islamic Arabia.
22. Ibid., 291-2, pp. 200-1.
23. Quoted in *ibid.*, 293, p. 201.
24. Sura 5:5-7. Muslims are forbidden to eat pork, carrion, the flesh of strangled animals and those who have died of natural causes, the blood of an animal and meat that has been sacrificed to idols. Cf. Acts of the Apostles 15:19-21,29.
25. Ibn Ishaq, *Sira* 295, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 202.
26. Ibid., 304-5, p. 208.
27. Some of the Muslims had relatives in Medina: Muhammad himself had Median connections through his mother Amina. But the *hijra* demanded that Muslims abandon the whole tribe and blood-group for another to whom they were not related.
28. W. Montgomery Watt, *Muhammad's Mecca: History in the Qu'ran* (Edinburgh, 1988), p. 25.
29. Sura 60:1,9,47-13.
30. Sura 8:30, 28:19, 27:48-51.
31. Western scholars question the historical role of Abbas at Second' Aqaba. They point out that Abbas was the founder of the Abbasid dynasty and that this and other flattering references were an attempt to whitewash his reputation. As we shall see, Abbas seems to have fought against Muhammad and did not convert to Islam until almost the last moment.
32. Ibn Ishaq, *Sira* 296, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 203.
33. Ibid., 297, p. 204.
34. Ibid., 316, p. 215.
35. Sura 9:40.
36. Ibn Ishaq, *Sira* 334, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 227.
37. Ibid., 337, p. 229.
38. Ibid., 342, p. 232.
39. Ibid.
40. Ibid., 341, pp. 231-2.
41. Sura 8:72 This translation is by W. Montgomery Watt in *Muhammad's Mecca*, p. 20.
42. Ibn Ishaq, *Sira* 341, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 232.
43. Sura 3:109.
44. Ibn Ishaq, *Sira* 247, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of*

- Muhammad*, p. 236.
45. Muhammad ibn Sa'd, *Kitab at-Tabaqat al-Kabir*, VIII, 42, quoted in Lings, *Muhammad*, pp. 133-4.
 46. Ibn Ishaq, *Sira* 414, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 280. Fakhkh is a place outside Mecca; Majanna was the market place in the lower part of the city; Shama and Tafil are two Meccan mountains.
 47. *Ibid.*
 48. Sura 2:6-14.
 49. Ibn Ishaq, *Sira* 413, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 279.
 50. *Ibid.*, 362, p. 246.
 51. *Ibid.*, 361, p. 246.
 52. Sura 2:25, 4:153, 5:15.
 53. Sura 3:72, 3:87. The Jews are also accused of distorting the meaning of texts to suit themselves (4:48, 5:16). Later Muslims have used these verses to argue that the Jewish scriptures are corrupt. The text, however, says that the Jews have 'altered words from their proper meanings'.
 54. Sura 2:79, 5:82.
 55. See, for example, 4:156-7. This is not an attack on Jesus or against Christianity but is part of the polemic against the Jews. The idea that Jesus had not really suffered and died on the Cross was a feature of various Oriental Christian docetist sects and of Manichaeism, which seems to have penetrated Arabia.
 56. see Sura 2:110.
 57. Sura 29:46.
 58. Sura 3:58-62.
 59. Sura 2:129-32.
 60. See D. Sidersky, *Les Origines des légendes musulmans dans le Coran et dans les vies des prophètes* (Paris, 1933), pp. 51-3.
 61. Genesis 21:8-21.
 62. Sura 2:122-4.
 63. Sura 2:39. See also 2:140-6.
 64. Sura 6:160, 162-3.

الفصل الثامن

الحرب المقدسة

1. These remarks apply only to Western Christianity. The Eastern Orthodox Church did not cultivate the image of the vulnerable Christ but Christ Pantocrater, Emperor of the Universe. The Emperor of Byzantium was his representative on earth and his splendid court was modelled on Christ's court in heaven.
2. This attitude is already present in the New Testament: I John

2:12-17.

3. Even the Puritans saw worldly prosperity as a *reward* rather than a spiritual achievement in itself.
4. *The Roman Martyrology*: entry for Christmas day.
5. Sura 33:72.
6. See, for example, Sura 11:28-125.
7. Sura 22:40-3.
8. Tor Andrae, *Muhammad: The Man and His Faith*, trans. Theophil Menzel (London, 1936), p. 197.
9. Sura 2:213-15.
10. Sura 5:17, but in 5:85 the Qu'ran suggests that the Christians are far more charitable than the Jews.
11. Sura 22:252.
12. I have discussed the modern *jihād* more fully in *Holy War: The Crusades and Their Impact on Today's World* (London, 1988), pp. 223-84.
13. Quoted in Muhammad ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah* 430, in A. Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad* (London, 1955), p. 291.
14. *Ibid.*, 435, p. 294.
15. *Ibid.*, 438, p. 296.
16. *ibid.*, 441, p. 298.
17. *Ibid.*
18. *Ibid.*, 442, p. 298.
19. Sura 8:70.
20. Armstrong, *Holy War*, throughout.
21. Sura 8:45.
22. Sura 8:17.
23. Sura 8:66-7.
24. Sura 21:49.
25. Exodus 14:25-31.
26. *Tariq ar-Rasul wa'l-Muluk* 1281, quoted in W. Montgomery Watt, *Muhammad at Medina* (Oxford, 1956), p. 205.
27. See Sura 47:5, 24:34, 2:178.
28. Quoted in Muhammad Zafrulla Khan, *Islam: Its Meaning for Modern Man* (London, 1962), p. 182.
29. Ibn Ishaq, *Sira* 459, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 309.
30. Sura 47:22.
31. Ibn Ishaq, *Sira* 543, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 361.
32. *Ibid.*, 545, p. 363.
33. Muhammad ibn Umar Al-Waqidi, *Kitab Al-Maghazi* 214, quoted in Martin Lings, *Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources* (London, 1983), p. 176.
34. Ibn Ishaq, *Sira* 559, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 372.

35. Ibid., 562, p. 374.
36. Ibid.
37. Ibid., 583, p. 386.
38. *Muhammad at Medina*, p. 184.
39. Sura 4:3.
40. Sura 4:23.
41. Sura 2:225-40; 65:1-70.
42. Sura 4:3.
43. Sura 6:152.
44. Matthew 6:26.
45. Sura 24:33.
46. Quoted in Maxime Rodinson, *Mohammed*, trans. Anne Carter (London, 1961), p. 192. Source not given.
47. Muhammad ibn Sa'ad, *Kitab at-Tabaqat al-Kabir*, VIII, 71-2, quoted in Lings's, *Muhammad*, p. 213.
48. Sura 33:36-40.
49. Sura 33:53.
50. Ibn Ishaq, *Sira* 729, p. 493.
51. Ibid., 726, p. 491.
52. Ibid., 735, p. 496.
53. Ibid., 735, p. 496, and *Ahadith* of Ahmad ibn Hanilal VI:60, 197 and Muhammad ibn al-Bukhari, III:108, 296; quoted in Nabia Abbot, *Aishah, the Beloved of Muhammad* (Chicago, 1942), p. 36. The patriarch whose name Aisha could not remember was, of cours, Jacob. See Qu'ran, Sura 12:18.
54. Sura 24:11.
55. Waqidi, *Kitab al-Maghazi*, 448-9; Ibn Sa'd, *Tabaqat*, 2:51, quoted in Lings, *Muhammad*, p. 218.
56. Ibn Ishaq, *Sira* 677, p. 454.
57. See Sura 4:54.
58. Ibn Ishaq, *Sira* 675, p. 453.
59. Sura 33:10-11.
60. Ibn Ishaq, *Sira* 683, p. 460.
61. Waqidi, *Kitab*, 488-90, quoted in Lings, *Muhammad*, p. 227.
62. Ibn Ishaq, *Sira* 689, p. 464.
63. Ibid., 689, pp. 464-5.
64. See Bernard Lewis in *Semites and Anti-Semites. An Inquiry into Conflict and Prejudice* (London, 1986), pp. 117-39, 164-259.
65. Sura 2:191, 251.
66. Sura 8:62-3.
67. Sura 3:147-8.
68. Watt, *Muhammad at Medina*, pp. 215-17; Rodinson, *Mohammed*, p. 214.

الفصل التاسع

السلم المقدس

1. Sura 48:27.
2. Muhammad ibn Umar al-Waqidi, *Kitab al-Maghazi* 587, quoted in Martin Lings, *Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources* (London, 1983), p. 247.
3. Muhammad ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah* 741, in A. Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad* (London, 1955), p. 500.
4. Ibid.
5. Ibid.
6. Ibid., 743, p. 501.
7. Ibid., p. 502.
8. Ibid., p. 745, p. 503.
9. W. Montgomery Watt, *Muhammad at Medina* (Oxford, 1956), p. 50.
10. Ibn Ishaq, *Sira* 748, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 505.
11. Ibid., 747, p. 504.
12. By his marriage to Juwayriyah, daughter of the chief of al-Mustaliq of Khuza'ah, after the attack on al-Mustaliq in January 627.
13. Ibn Ishaq, *Sira* 747, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 504.
14. Ibid., 748, p. 505.
15. Quoted in Lings, *Muhammad*, p. 254. Source not given.
16. Ibid., p. 255.
17. Sura 48:1.
18. Sura 48:2.
19. Sura 48:10-17.
20. Sura 48:20.
21. Sura 48:26-7.
22. sura 48:29.
23. Matthew 10:34-6.
24. Ibn Ishaq, *Sira* 751, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 507.
25. Ibid., 752, p. 507.
26. Sura 2:174-5.
27. Marshall G.S. Hodgson, *The Venture of Islam: conscience and History in a World Civilization* (Chicago, 1974), vol. I. p. 339.
28. Sura 17:35.
29. Sura 5:49. Cf. 16:127, 42:37.
30. Sura 2:172.
31. Sura 2:172. Muhammad has been blamed for not abolishing slavery, but this is an anachronistic judgement. The institution is

- also taken for granted by New Testament writers. But Muhammad did in fact reduce slavery in Arabia by imposing the *pax Islamica*, which cut down on raids and violence in the peninsula.
32. It is also true that the egalitarian spirit was deeply embedded in the culture of the Middle East and that Islam was in part a response to this.
 33. Watt, *Muhammad at Medina*, p. 268.
 34. William and Fidelity Lancaster, 'The Gulf Crisis and Arab Disenchantment', *Middle East International*, 385, 12 October 1990. For Arab views about division between Muslims.
 35. Muhammad ibn Sa'd, *Kitab at-Tabaqat al-Kabir* VII, 147, quoted in Lings, *Muhammad*, p. 271.
 36. Quoted in Lings, *Muhammad* p. 282. Source not given.
 37. Ibn Ishaq, *Sira* 717, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 485.
 38. Muhammad ibn Isma'il al-Bukhari, *Ahadith* LXIII, 6 quoted in Lings, *Muhammad*, p. 275.
 39. Sura 33:28-9.
 40. Sura 33:35.
 41. I have discussed this in more detail in *The Gospel According to Woman: Christianity's Creation of the Sex War in the West* (London, 1986).
 42. Tradition of Abu Na'im al-Isfahani, *dala'il an nubuwwa*, II, 45, quoted in Nabia Abbott, *Aishah, the Beloved of Muhammad* (Chicago, 1942), p. 67.
 43. Ibn Ishaq, *Sira* 812, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 546.
 44. *Ibid.*, 815, p. 548.
 45. Sura 17:82.
 46. Ibn Ishaq, *Sira* 821, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 553. The verse from the Qu'ran is Sura 49:13.
 47. Quoted in Lings, *Muhammad*, p. 304. Source not given.
 48. Abu Ja'far at-Tabari, *Tariq ar-Rosul wa'l-Muluk* 1642, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 553.
 49. Muhammad Zafrulla Khan, *Islam: Its Meaning for Modern Man* (London, 1962), p. 60.
 50. Quoted in Lings, *Muhammad*, p. 311. Source not given.
 51. Ibn Ishaq, *Sira* 886, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, pp. 596-7.
 52. Sura 9: 66.
 53. Sura 9:108. It has been suggested that the rebellious Muslims were in touch with Abu Amir, the monotheist known as 'the Monk' who had defected to Mecca after Muhammad had arrived in Medina.

1. Quoted in Martin Lings, *Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources* (London 1983), p. 317. No source given.
2. Ali Shariati, *Hajj*, trans. Laleh Bakhtiar (Tehran, 1988), pp. 54-6.
3. Muhammad ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah* 969, in A. Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad* (London, 1955), p. 651.
4. *Ibid.*, 1,000, p. 678.
5. *Ibid.*, 1,006, p. 679.
6. *Ibid.*, 1,011, p. 682.
7. *Ibid.*, 1,012, p. 683.
8. Sura 3: 138.
9. Ibn Ishaq, *Sira* 1013, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 683.
10. Wilferd Cantwell Smith, *Islam and Modern History* (Princeton and London, 1957), p. 32, suggests this, but warns that not many Muslims would endorse it.
11. Ibn Ishaq, *Sira* 1,017, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 687.
12. Instructions given by Ali to Malik al-Ashtar, when he was appointed governor of Egypt, in William C. Chittick (trans. and ed.), *A Shi'ite Anthology* (London, 1980), p. 75.
13. I have discussed this in *Holy War: The Crusades and Their Impact on Today's World* (London, 1988), pp. 223-84.
14. *Encyclopaedia of Islam* (1st edn, Leiden, 1913), entry under 'Tasawwuf', quoted also in Malise Ruthven, *Islam and the World* (London, 1984), p. 230.
15. Shariati, *Hajj*, p. 54.
16. Seyyid Hossein Nasr, *Ideals and Realities of Islam* (London, 1966), p. 88.
17. Seyyid Hossein Nasr, 'The Significance of the Sunnah and Hadith in Islamic Spirituality', in *Islamic Spirituality: Foundation*, which he also edited (London, 1987), pp. 107-8.
18. Smith, *Islam and Modern History*, p. 305.

قائمة المراجع

- Abbott, Nabia, *Aishah, the Beloved of Muhammad* (Chicago, 1942).
- Alighieri, Dante, *The Divine Comedy, Cantica I: Hell*, trans. Dorothy L. Sayers (London, 1949).
- Andrae, Tor, *Muhammad: The Man and His Faith*, trans. Theophil Menzel (London, 1936).
- Arberry, Arthur J., *The Koran Interpreted* (Oxford, 1964)
- , *Sufism: An Account of the Mystics of Islam* (London, 1950).
- Armstrong, Karen, *The Gospel According to Woman: Christianity's creation of the Sex War in the West* (London and New York, 1986).
- , *Holy War: The Crusades and Their Impact on Today's World* (London 1988; New York, 1991).
- Baudricourt, M., *La Guerre et le gouvernement de l'Algérie* (Paris, 1853).
- Bell, Richard, *The Origin of Islam in Its Christian Environment* (London, 1926).
- , *Qur'an, Translated with a Critical Re-arrangement of Its Suras*, 2 vols (Edinburgh, 1937-9).
- Boulares, Habib, *Islam: The Fear and the Hope*, trans. Lewis Ware (London, 1990).
- Brown, Peter, *The Making of Late Antiquity* (Cambridge, Mass., and London, 1978).
- Campbell, Joseph (with Bill Moyers), *The Power of Myth* (New York and London, 1988).
- Carlyle, Thomas, *On Heroes and Hero-Worship* (London, 1841).
- Chittick, William C. (ed. and trans.), *A Shi'ite Anthology* (London, 1980).
- Corbin, Henri, *Creative Imagination in the Sufism of Ibn Arabi*, trans. Ralph Manheim (London, 1970).
- , *Spiritual Body and Celestial Earth: From Mazdean Iran to Shi'ite Iran*, trans. Nancy Pearson (London, 1990).
- Crone, Patricia, and Cook, Michael, *Hagarism: The Making of the Islamic World* (Cambridge, 1977).
- Cupitt, Don, *Taking leave of God* (London, 1980).
- Dan, Joseph, 'The Religious Experience of the *Merkavah*', in Arthur Green (ed.), *Jewish Spirituality*, 2 vols (London, 1986), vol. 1.
- Daniel, Norman, *Islam and the West: The Making of an Image* (Edinburgh, 1960).
- , *The Arabs and Medieval Europe* (London and Beirut, 1975).
- Deshti, Ali, *Twenty-three Years*, trans. F. R. C. Bagley (London, 1985).

- Dronke, Peter, *Women Writers of the Middle Ages: A Critical Study of Texts from Perpetua (d. 203) to Marguerite Porete (d. 1310)* (Cambridge, 1984).
- Eco, Umberto, *Travels in Hyper-Reality* (London, 1987).
- Eliade, Mircea, *The Sacred and the Profane: The Nature of Religion*, trans. Willard R. Trask (New York, 1959).
- Freund, W. H. C., *Martyrdom and Persecution in the Early Church: A Study of a Conflict from the Maccabees to Donatus* (Oxford, 1965).
- Fuller, Peter, *Images of God: The Consolations of Lost Illusions* (London, 1982).
- Gabrieli, Francesco, *Muhammad and the Conquests of Islam*, trans. Virginia Luling and Rosamund Linell (London, 1968).
- Gibbon, Edward, *The Decline and Fall of the Roman Empire*, ed. Dero E. Saunders, abridged in one volume (London, 1980).
- Gilsenan, Michael, *Recognizing Islam, Religion and Society in the Modern Middle East*, (London, & New York, 1982).
- Green, Arthur (ed.), *Jewish Spirituality*, 2 vols (London, 1986-8).
- Guillaume, A. (trans. and ed.), *The Life of Muhammad: A Translation of Ishaq's Sirat Rasul Allah* (London, 1955).
- Heschel, Abraham J., *The Prophets*, 2 vols (New York, 1962).
- Hill, Rosalind (trans. and ed.), *Gesta Francorum or The Deeds of the Franks and the Other Pilgrims to Jerusalem* (London, 1962).
- Hodgson, Marshall G. S., *The Venture of Islam: Conscience and History in a World Civilization*, 3 vols (Chicago, 1974).
- Iqbal, Sir Mohammad, *Six Lectures on the Reconstruction of Religious Thought in Islam* (Lahore, 1930).
- John of Joinville, *The Life of St Louis*, trans. René Hague and Natalis de Wailly (London, 1955).
- Kabbani, Rana, *Europe's Myths of the Orient* (London, 1986).
- _____, *Letter to Christendom* (London, 1989).
- Kedar, Benjamin, *Crusade and Mission: European Approaches towards the Muslims* (Princeton, 1984).
- Keddie, Nikki R. (ed.), *Religion and Politics in Iran: Shiism from Quietism to Revolution* (New Haven and London, 1983).
- Kepel, Gilles, *The Prophet and Pharaoh: Muslim Extremism in Egypt*, trans. Jon Rothschild (London, 1985).
- Khan, Muhammad Zafrulla, *Islam: Its Meaning for Modern Man* (London, 1962).
- Leaman, Oliver, *An Introduction to Medieval Islamic Philosophy* (Cambridge, 1985).
- Lewis, Bernard, *The Arabs in History* (London, 1950).
- _____, *Islam from the Prophet Mohammad to the Capture of Constantinople*, 2 vols, vol I: *Politics and War*, vol. II: *Religion and Society* (New York and London, 1976).

- , *The Muslim Discovery of Europe* (New York and London, 1982).
- , *The Jews of Islam* (New York and London, 1982).
- , *Semites and Anti-Semites: An Inquiry into conflict and Prejudice* (London, 1986).
- Liebeschuetz, J. H. W. G., *Continuity and Change in Roman Religion* (Cambridge, 1979).
- Lings, Martin, *Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources* (London, 1983).
- Mansfield, Peter, *The Arabs* (3rd edn, London, 1985).
- Massignon, Louis, *La Passion d'Hallaj*, 2 vols (Paris, 1922).
- Nasr, Sayyid Hossein, *Muhammad: Man of Allah* (London, 1982).
- , (ed.), *Islamic Spirituality: Foundation* (London, 1987).
- , *Ideals and Realities of Islam* (London, 1966).
- Nicholson, R. A., *The Mystics of Islam* (London, 1914).
- , *Eastern Poetry and Prose* (Cambridge, 1922).
- Parrinder, Geoffrey, *Sex in the World's Religions* (London, 1980).
- Pernoud, Régine, *The Crusaders*, trans. Enid Grant (Edinburgh and London, 1963).
- Prideaux, Humphry, *The True Nature of Imposture, Fittly Displayed in the Life of Mahomet* (7th edn, London, 1708).
- Rodinson, Maxime, *Mohammed*, trans. Anne Carter (London, 1971).
- , *Europe and the Mystique of Islam*, trans. Roger Veinous (London, 1988).
- Ruthven, Malise, *Islam in the World* (London, 1984).
- , *A Satanic Affair: Salman Rushdie and the Rage of Islam* (London, 1990).
- Said, Edward W., *Orientalism: Western Conceptions of the Orient* (New York and London, 1978).
- , *Covering Islam: How the Media and the Experts Determine How We See the Rest of the World* (New York and London, 1981).
- Sardar, Ziauddin, and Davies, Meryll Wyn, *Distorted Imagination: Lessons from the Rushdie Affair* (London, 1990).
- Saunders, J. J., *A History of Medieval Islam* (London, and Boston, 1965).
- Schimmel, Annemarie, *And Muhammad Is His Messenger: The Veneration of the Prophet in Islamic Piety* (Chapel Hill and London, 1985).
- Scholem, Gershom G., *Major Trends in Jewish Mysticism* (2nd edn, London, 1955).
- Schunon, Frithjof, *Understanding Islam* (London, 1963).
- Shariati, Ali, *Hajj*, trans. Laleh Bakhtiar (Tehran, 1988).
- , *What is To Be Done?: The Enlightened Thinkers and an Islamic Renaissance*, ed. Farhang Rajaee (Houston, 1986).

- Sidersky, D., *Les Origines des légendes musulmans dans le Coran et dans les vies des prophètes* (Paris, 1933).
- Smith, Wilfred Cantwell, *Islam in Modern History* (Princeton and London, 1957).
- , *Towards a World Theology* (London, 1981).
- Southern, R. W., *Western Views of Islam in the Middle Ages* (Cambridge, Mass., 1962).
- Steiner, George, *Real Presences: Is There Anything in What We Say?* (London, 1989).
- Torrey, C. C., *The Commercial-Theological Terms in the Koran* (Leiden, 1892).
- Toynbee, A. J., *A Study of History* (London, 1951).
- Trimingham, J. Spencer, *Christianity Among the Arabs in Pre-Islamic Times* (London, 1979).
- Von Grunebaum, G. E., *Classical Islam: A History 600-1258*, trans. Katherine Watson (London, 1970).
- Watt, W. Montgomery, *Muhammad at Mecca* (Oxford, 1953).
- , *Muhammad at Medina* (Oxford, 1956).
- , *Islam and the Integration of Society* (London, 1961).
- , *Muhammad's Mecca: History in the Qur'an* (Edinburgh, 1988).
- Weldon, Fay, *Sacred Cows* (London, 1989).
- Wensinck, A. J., *The Muslim Creed: Its Genesis and Historical Development* (Cambridge, 1932).

تصويبات الأزهر الشريف

ص ٢١: موضوع الختان (أجمعت المذاهب على أنه مكرمة فقط ورغم ذلك

فهذه مسألة فرعية.

ص ١٢٩: اليأس الذي أصيب به الرسول والمثولة عن الطبري قد تكون من

الإسرائيليات.

ص ٣٣٩: الآية القرآنية سقطت (الأنف بالأنف).

ص ٣٤٧: العباس (زيارة البلدة) الصواب تزويجه من أخت زوجته أم

الفضل وليست أخت العباس لأنها تكون عمته لـ محمد ومحرم

زواجها.

ص ٣٤٩: أرسل محمد زيدا وعبد الله بن رواحة وجمفراً.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٩٧/١٤١٦٣

الترقيم الدولي

I.S.B.N

977-5868-00-9

الناشر
شركة سطور

العنوان:

٨ تقسيم الشيشيني - كورنيش النيل - بجوار بداية
الكوبرى الدائرى - المعادى - القاهرة
تليفون وفاكس / ٥٢٤٠٠٢٠ - ٥٢٤٠٦٦٧